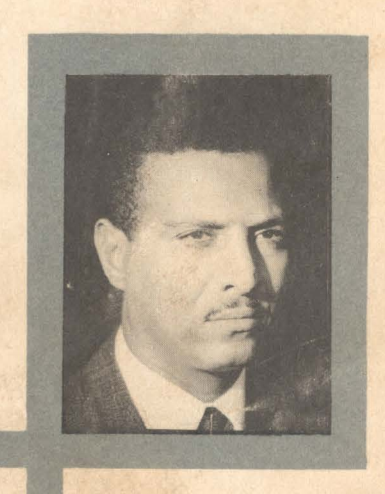

تاريخ
دارفور
السياسي
موسى المبارك الحسن



## المؤلف

- ولد « بأبوسعد » ـــ أمدرمان .
- تلقى تعليمه الأولي والأوسط بأمدرمان.
- تلقى تعليمه الثانوى بمدرسة وادى سيدنا.
- تخرج فى جامعة الخرطوم وحصل علي بكالوريوس الاداب [جامعة لندن] حصل علي ماجستير الاداب [تاريخ] من جامعة الخرطوم .
- عمل مدرساً بالمدارس الثانوية ثم بجامعة الخرطوم [ كلية الاداب ].
- أشتغل بالسياسة بعد ثورة أكتوبر ١٩٦٤ وانتخب عضواً بالجمعية التأسيسية فيما بين ١٩٦٥ ـــ ١٩٦٩ .
- عمل وزيراً للصناعة والثروة المعدنية فى الفترة بين مايو ١٩٦٩ حتى يوليو ١٩٧٠ .






# تاريخ دارفور السياسى

١٨٨٢ — ١٨٩٨

موسى المبارك الحسن

# تاريخ دارفور السياسى

١٨٨٢ ـــ ١٨٩٨

قسم التأليف والنشـــر
جامعة الخرطوم

قسم التأليف والنشر
جامعة الخرطوم
ص . ب : ٣٢١
الخرطوم



الطابعون
دار الطباعة
جامعة الخرطوم

# فهرست

# إهـــداء

إلى أبي الذي علمني المحبة والصبر

**موسى**

# تصدير

**عزيزى القارىء**

هـــذا بحث عن تاريخ دارفور السياسى فى فـــترة المهدية ( ١٨٨٢ – ١٨٩٨ ). وكنت قد تقدمت به عام ١٩٦٤ لنيل درجة الماجستير فى تاريخ السودان الحديث من جامعة الخرطـــوم ، وقد حظى برضاء الممتحنين فحمدت الله حمداً كثيراً .

وكان ممكناً ألايرى ذلك البحث النور لولا أن اهتم بأمره الصديق الدكتور يوسف فضل مدير وحدة الدراسات السودانية، وطلب إلى نشره فى كتاب لتعميم الفائدة. ففعلت دون أن أدخـــل على أصل الرسالة تغييراً كبيراً . فله تقديرى . . وإني أشكر أستاذى البرفسور مكى شبيكة الذى أشرف على إعداد البحث ، فأفدت من واسع خبرته ونهلت من فيض علمه ، وأمين المحفوظات المركزية ومساعديه ، وأمين مكتبة جامعة الخرطوم ومعاونيه ،إذ وضعوا بين يدى كل ما احتجت اليه من وثائق وكتب ودوريات ،وصديقى الدكتور عون الشريف المحاضر بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الخرطوم على مابذله من جهد فى قراءة مسودة البحث .

ويتكون هذا الكتاب من مقدمة وسبعة فصول وخاتمة . وتستهدف المقدمة التمهيد للبحث ببيان مضمون المهدية كفكرة وكثورة ، ثم تعرض لجغرافية دارفور الطبيعية والبشرية ، وتحكى بعد ذلك ماضى هذا الاقليم الذى سبق حقبة موضوع الدراسة .

ويعرض الفصل الأول لدوافع ثورة أهل دارفور وكيفية انتصارهم تحت راية المهدية على الإدارة التركيه . ويبحث الفصل الثاني فى وضع أسس حكومة المهدية فى دارفور، ثم يشرح بوادر العصيان التى ظهرت عند بعض القبائل . وتسود بقية فصول الكتاب فكرة واحدة ؛ هى أن أهل دارفور قاوموا سلطان المهدية تماماً ، كما ناهضوا الادارة التركيه ، فضرب الخليفة عبد الله على أيديهم وأخضعهم لأمرته، لكنهم أفلتوا فى نهاية الأمر عندما انهار حكمه . أما الخاتمة فهى خلاصة للأحكام والنتائج التى توصلت اليها من دراستى لأحوال دارفور وأوضاعها أيام المهدية . ويلى الخاتمة ملاحق ثلاثة تحتوى على قائمة بمصادر البحث ( ملحق أ ) ، ومثالين لوثائق المهدية ( ملحق ب ) ثم على مجموعة من الخرائط ( ملحق ج ) .

وتقوم هذه الدراسة فى المرتبة الاولى على وثائق المهدية التى تكون جزءاً عظيماً من « محفوظات السودان المركزية » بالخرطوم . وتغطى هذه الوثائق فترة المهدية كلها ، ويبلغ عددها قرابة الثمانين الفا ، وتنقسم إلى مجموعات منها « الدفاتر » ، وهى ستون دفتراً ، من بينها دفاتر الصادر السبعة عشر ، التى تضم بين دفتيها صور الرسائل التى صدرت عن المهدى والخليفة بين عامى ١٨٨١ و ١٨٨٩ . وقد خصص التاسع والعاشر من دفاتر الصادر لعمالة الغرب التى تشمل كردفان ودارفور . أما أغلبية الوثائق وأهمها محتوى من وجهة الدراسة التاريخية ، فهى الخطابات المنفصلة التى تبادلها المهدى والخليفة مع عمالهما وغيرهم ممن اتصلوا بالمهدية من بعيد أو قريب ، أو تبادلها أمراء المهدية فيما بينهم . ونظراً لطول عهد الخليفة إذا ما قيس بعهد المهدى فإن وثائق حقبته كانت أكثر عددا (١) .

وقد صنفت الخطابات المنفصلة فى « صناديق » وقسمت هذه الى « ملفات » يحتوى كل منها على عدد من الوثائق ، وقد أعطى الصندوق رقماً ، يليه رقم الملف ، ثم رقم الوثيقة ، وهو النظام الذى إتبعته فى بحثى عند الإشارة لمصدر خبر أو حدث معين . ويسبق رقم الصندوق عادة رقم القسم الذى ينتمى إليه ، فلوثائق المهدية قسمان رئيسيان يضم أولهما الرسائل الموجهة إلى كبار الأمراء أو الصادرة عنهم ، ويحتوى الثاني على خطابات صغار الأمراء وكتب من أشخاص مختلفين . ويسعى أمين المحفوظات اليوم إلى تصنيف مافى هذا القسم وإلحاق مايتصل بالقسم الأول من وثائقه .

وكتبت معظم الرسائل بخط واضح مقروء ، أما أسلوبها فسليم على وجه العموم ، بل يدل على مران وخبرة فى الكتابة . وعادة ماتبدأ الرسالة بالبسملة والحمدلة والصلاة على النبى وآله والصحب ، ثم تشير إلى المرسل والمرسل إليه ، ويأتي بعد ذلك موضوع الخطاب ، وفى الذيل يكتب التاريخ الهجرى ويوقع بخاتم المرسل (٢) .

وأخترت من بين الوثائق الخاصة بدارفور ستمائة وخمسين وثيقة ، كانت الآجر الذى بنيت به تاريخ هذا الإقليم فى فترة المهدية .

---

(١) Mohd. Ibrahim Ahmed Abu Saleem: The Central Archives and Possibilities of Research. A paper presented to the 12th Annual Conference of the Philosophical Society of the Sudan (1964)

(٢) محمد رفعت رمضان : حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس ، المجلد ٨ (١٩٦٣) ، «محفوظات الخرطوم» ص ٢٩٨ – ٣٠٠.

وللكيفية التى جمعت بها وثائق المهدية ، ثم حفظت حتى تم فحصها وتبويبها حكاية . ففى ١٨٨٩ وقعت أول مجموعة منها فى يد رجال مخابرات الجيش المصرى إثر هزيمة الأنصار فى توشكى . وكشفت تلك المجموعة عن معلومات كانت غائبةعن المسئولين فى القاهرة ، فانكبوا على قراءتها ، وازداد إهتمامهم بمثلها . وآلت لقلم المخابرات بعد ذلك كنوز أخرى من أوراق دولة المهدية ومستنداتها حتى حصلوا على أكبرها حجماً عند دخول كتشنر ام درمان . ونقلت الوثائق من الخرطوم إلى القاهرة واستفيد منها فى كتابة تقارير مستوفية لخدمة الإدارة الجديدة فى السودان كما إستقى منها نعوم شقير عندما كتب « تاريخ السودان القديم والحديث . . » ونقل عنها ريجنولد ونجت أجزاء مترجمة فى مؤلفه عن المهدية فى السودان .

وبقيت الوثائق فى القاهرة حتى ١٩١٥ ، حينما اعيدت إلى الخرطوم . واودعت فى مكاتب السكرتارية ، لايغشاها باحث ، أو يهتم بأمرها محقق ، إلى أن جاء عام ١٩٥١ فنفض التراب المتراكم عن هذا الكنز ، وبدأ تصنيفه وإعداده للدارسين والمهتمين بتاريخ السودان عامة وتاريخ المهدية خاصة (١) .

ولم تغننى وثائق المهدية رغم مابها من ذخيرة ثمينة عن الاستفادة من المعلومات التى وردت فى مضابط قلم مخابرات الجيش المصرى ، الذى خلف مخابرات جيش الاحتلال البريطاني ، وبدأ نشاطه فى ١٨٨٩ . وكان واجب هذا القلم جمع أخبار السودان وتحقيقها ، ثم وضعها بين أيدى المسئولين ليتبصروا بها عند تحديد سياستهم تجاه الخليفة . ونشأ لهذا الغرض مركزان للمخابرات ، أحدهما فى سواكن والآخر فى حلفا . وكان القلم يصدر تقارير يومية ، وثانية شهرية وثالثة سنوية . وكذلك تزودت — خصوصاً فى كتابة الفصل السابع — بما اشتملت عليه ملفات قلم المخابرات السودانية الذى ورث شعبة السودان فى مخابرات الجيش المصرى ، وزاول عمله فى مطلع الحكم الثنائي (٢) .

ومن الضرورى التنبيه إلى أن إعتماد مخابرات الجيش المصرى على مانقله الهاربون من حكم الخليفة ، وانعدام الوسيلة الشرعية للإتصال بمسرح الأحداث جعل من الصعب الحصول على أخبار دقيقة فى كل الاحوال (٣) مما يوجب التحفظ والحيطة عندالإستقاء من محتوياتها .

---

(١) P.M. Holt: The Archives of The Mahdia, S.N.R. Vol 36 (1955), PP. 71-72

(٢) حوليات عين شمس ص ٣٠٢.

(٣) Abu Saleem: The Central Archives

وتزودت غير هذا بعديد من المراجع الثانوية ، فكانت لى خير عون فى كتابة المقدمة والفصل الأول . كما أفدت منها فى معرفة ما كان عليه حال دارفور أيام المهدية قبل الشروع فى تخطيط بحثى ، ثم استعنت بها بعد ذلك فى تدوين هوامش كثيرة وفى الوقوف على مجرى أحداث السودان الداخلية ، ثم صلاته الخارجية على عهد الخليفة ، وربط ما إتصل منها بتاريخ دارفور . بيد أني لاحظت فى بعض الحالات خلافاً بين ماذكرته بعض المراجع الثانوية وبين ما أثبتته الوثائق ، وبما أن الخلاف قد يصل فى بعض الأحيان إلى درجة الخطأ ، عمدت إلى تصحيحه مرجحاً كفة الوثائق بحسبانها مصدراً أولياً يوثق بروايته .

وزيادة على ماتقدم عثرت على مادة مفيدة فى سجلات مديرية دارفور وبعض مراكزها ، وفيما يتناقله سكان هذا الاقليم اليوم من حكايات عن حكم المهدية فى بلادهم ، وتيسر لى ذلك خلال رحلة طفت فيها بأرجاء دارفور كلها ، فتعرفت على جغرافيتها واستمعت إلى شيوخها ومن لهم إلمام بتاريخ قبائلها من الشباب . وقد أثبت أسماء من تحدثت إليهم فى ثبت بمؤخرة البحث .

وتطابقت زوايات شيوخ دارفور فى كثير من الحالات مع ماورد فى الوثائق ، مما يجعلها مصدراً تاريخياً مؤتمناً ، لكنى لم ألجأ اليها إلا فى سد الثغرات التى لاتسعفنى فيه الوثائق أو المراجع الثانوية .

**موسى المبارك الحسن**

# مقدمة

## أ - طبيعة الثورة المهدية ومختصر لأهم أحداثها :

فى مساء الثاني عشر من اغسطس لعام ١٨٨١ وقعت عند أبا على النيل الأبيض أول معركة بين المهدى (١) وقوات الإدارة التركيه فى السودان . وانبلج الصبح عن نصر أكيد للمهدى (٢) . وبدأت بذاك النصر ثورة اجتاحت قرى السودان وبواديه سريعاً ، فقوضت دعائم الإدارة التركيه ، وشيدت مكانها حكماً جديداً .

ولاسباب عدة رحل المهدى بجنوده فى صباح الواقعة إلى جبال النوبة فنزل بجبل قدير (٣) حيث أقام عاماً واصل أثناءه نشر دعوته ، ونظم أتباعه الذين عرفوا منذ هذا الوقت بالأنصار ، كما أوقع خلاله بجيشين للحكومة قاد أحدهما راشد بك أيمن مدير

---

(١) «هو محمد احمد بن عبد الله، ولد بجزيرة لبب من اعمال دنقلا حوالى عام ١٢٦٠ هجرية (١٨٤٤ للميلاد) فى اسرة كان راعيها يحترف صناعة المراكب. وانتقلت الاسرة - بعد مولد محمد احمد بقليل - إلى كررى شمال امدرمان حيث التحق محمد احمد بكتابها (خلوتها) ثم بكتاب الخرطوم، وقصد بعد ذلك عددا من مراكز تدريس القرآن وعلوم النحو والفقه والتوحيد. وظهرت على محمد احمد نزعة التصوف فى سن مبكرة ، فانخرط فى سلك الطريقة السمانية ، ثم اختلف مع شيخه محمد شريف نور الدائم وتبع الشيخ القرشي ود الزين منافس الشيخ محمد شريف فى زعامة السمانية.

وهكذا نشأ قائد الثورة المهدية نشأة دينية خالصة ، وارتقى درج التصوف وتبوأ مكانة سامية ، وكان ينقطع للعبادة فى جزيرة أبا ، ويخرج أحيانا طائفا بين الناس ينظر فى حالهم ويتأمل حياتهم ، وهاله خلال رحلة لكردفان ان يرى الرعية وحكامها فى شغل عن ذكر الله ، فراح يدعوهم إلى طريق الحق والصواب وينتقد الوضع القائم حينذاك سرا ثم جهارا لما اطمأن إلى تأييد من حوله ومؤازرة من اتصل بهم من عيون كردفان ، فكتب رسالته الاولى إلى علماء السودان وزعماء قبائله معلنا أنه المهدى المنتظر ، فبلغ أمره حكمدار السودان رؤوف باشا ، فأخذه باللين ابتداء كى يصده عن دعوته ، لكن المهدى رفض التراجع عن موقفه ، فعمد الحكمدار إلى القوة ، وكانت موقعة أبا.

انظر: نعوم شقير : تاريخ السودان القديم وجغرافيته (ثلاثة أجزاء، القاهرة ١٩٠٣ ، جزء ٣ ص ١١٤ - ١٤٩.

مكى شبيكة : السودان فى قرن (طبعة ثانية) ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٣٨ - ١٤٣ .

المهدية فى دارفور -

P.M. Holt: The Mahdist State in the Sudan, 1881 — 1898
Oxford (1958) pp. 37-43-47.

(٢) شقير ٣ : ص ١٢٩ ، السودان في قرن : ص ١٤٤ - ١٤٥ هولت : ص ٤٨.

(٣) شقير ٣ : ص ١٣٠ السودان في قرن ص ١٤٦ - ١٤٨ ، هولت ص ٤٨ .

فاشوده وولى امرة الثاني يوسف بك حسن الشلالى (١) . وكسب المهدى من الجيشين عتاداً ومؤناً كثيرة فذاع صيته، ووفد عليه المؤيدون من بقاع السودان المختلفة، فأحس بقوة دفعته الى نبذ سياسته الدفاعية. وخرج من معتصمه فى قدير طالباً الحكومة فى عقر دارها .

ويمم المهدى شطر الأبيض . فأسقطها فى مطلع ١٨٨٣ وأسقط أنصاره قبلها حامية بارا (٢). وتمت للمهدى بهذا الفوز السيطرة على كردفان ، وحدث تحول خطير فى مجرى ثورته . فقد أصابت الحكومة نكسة عظيمة بتوالى الهزائم عليها ، واشتد ساعد الثوار بدرجة جعلت المهدى يتخلى عن بعض قواته ويبعث بها إلى دارفور وبحر الغزال لفتحها (٣) ، ثم انتدب من يرفع راية المهدية فى تلال البحر الاحمر (٤) ، وكان قبل هذا قد أرسل من يستنفر أهل الجزيرة ويحضهم على قتال الحكومة (٥) .

ثم حلت بالحكومة الكارثة الكبرى، ففى ٥ نوفمبر ١٨٨٣ دحر المهدى حملة هكس فى شيكان (٦) . وختم بذلك على حياة الإدارة التركيه بخاتم الزوال ، إذ فقدت الخرطوم القدرة على مجابهته، وراحت تتراجع عن مواقعها فى تهالك واضح. وماانتصف عام ١٨٨٤ حتى كانت دارفور، ثم بحر الغزال، قد دانتا للمهدى (٧) . بينما نشط نوابه فى الجزيرة ووسط السودان والبحر الأحمر فى تهيئة الناس ليوم النصر الأخير (٨).

وكما أصاب الذعر الخرطوم لهول المصائب التى تتابعت، فإن القاهرة قد فزعت من هذه الأحداث فى السودان على النحو الذى جرت فيه ، فأقرت دوائرها بعد جدل عنيف سحب جنود مصر وموظفيها من السودان، وإخلاء البلاد حتى حدود وادى حلفا (٩).

---

(١) السودان فى قرن ص ١٤٨ ، ١٥١ – ١٥٤ هولت. ص ٤٨ – ٥٠.

(٢) شقير ٣ ص ١٥٥ – ١٦٤ ، السودان فى قرن ص ١٦١ – ١٦٥ هولت، ص ٥٠ – ٥٧.

(٣) شقير ٣ ص ١٨٩ – ١٩٥، السودان فى قرن ص ٢٦٣ ، هولت ص ٦٨ ، ٧١.

(٤) شقير ٣ ص ١٧٠ السودان فى قرن ص ٢٠٠ ، هولت ص ٧٤.

(٥) شقير ٣ ص ١٤٨ ، السودان فى قرن ص ١٥٧ – ١٥٨ هولت ص ٥٨.

(٦) أنظر: **Richard Hill: A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, Oxford, (1951) pp. 164–165.** ثم السودان فى قرن ص ١٦٩ – ١٧٦ ، هولت ص ٦٢ – ٦٥.

(٧) شقير ٣ ص ١٩١ ، ١٩٧ ، السودان فى قرن ص ٢٦٣، هولت ص ٦٨ ، ٧٢.

(٨) هولت ص ٥٩ – ٦٠ ، ٧٦ – ٧٨ – ٩٠ – ٩١ .

(٩) M. Shibeika: British Policy in the Sudan, 1882–1902. Oxford, (1952) pp.111–145.

واختير غردون لتنفيذ تلك المهمة ، فوصل الخرطوم فى ١٨ فبراير ١٨٨٤ (١) . وحال إنتشار ثورة المهدى ضمن اعتبارات اخرى دون نجاح غردون فى القيام بواجبه ، فتعذر عليه إخلاء الحاميات وخاب سعيه فى درء الخطر عن الخرطوم ، حتى تأتيها نجدة من مصر ، ففتحها الأنصار صبيحة ٢٦ يناير ١٨٨٥ وقتلوا غردون وقبروا بذلك حكماً دام أثنين وستين عاما (٢) .

واختط المهدى عقب سقوط الخرطوم امدرمان عاصمة لملكه (٣). وطفق ينظم أمور دولته ويعد العدة لإنطلاقة جديدة يبث فيها رسالته خارج حدود السودان (٤) . لكن المنية أدركته قبل أن يضع مخططه ذاك موضع التنفيذ ، فتوفى فى ٢٢ يونيو ١٨٨٥ (٥) . وتربع الخليفة عبد الله (٦) على عرش السودان إثر وفاة المهدى ، وظل يمسك بالزمام مدة زادت على الثلاثة عشر عاماً . وقد جابه الخليفة طوال عهده صعاباً توالت عليه فى غير إنقطاع ، فلم يذق للراحة أو الهدوء طعماً .

فزيادة على الجهد والعنت الذى لقيه الخليفة فى سبيل تأسيس إدارة منظمة نشطة فى بلد واسع فقير كالسودان ، تعين عليه أن يخضع خصوماً كثيرين هبوا فى وجهه لعلة اختلفت باختلاف اطماعهم . عاداه الأشراف وهم عترة المهدى وأهل بيته لأنهم رأوا فى دولة المهدية هرقلية ورثوها عن صاحبهم ، فرشحوا الخليفة محمد شريف

---

(١) أنظر : هل ص ١٣٨ – ١٤٠. هولت ص ٢٧ – ٢٨ – ٣٠ – ٣١ ، ٧٩ – ٩٥.

(٢) شقير ٣ ص ٢٩٦، السودان فى قرن ص ٢٢٢، هولت ص ٩٥.

(٣) السودان فى قرن ص ٢٣٠ هولت ص ٩٦.

(٤) شقير ٣ ص ٣٤٤، السودان فى قرن ص ٢٣١، هولت ص ١١٨.

(٥) شقير ٣ ص ٣٥٨ ، السودان فى قرن ص ٢٣٣ ، هولت ص ١١١.

(٦) ينتمى عبدالله بن محمد المولود حوالى ١٨٤٦ إلى اسرة وفد جدها الاكبر المسمى على الكرار إلى دارفور من البلاد الواقعة بين برنو ووداى ، وطاب لعلى الكرار المقام بدار التعايشه ، فاستقر بها وتزوج من اهلها واشتهرت اسرته بالصلاح واستطلاع الغيب. فدان التعايشه لكبارها بالولاء واتخذوا من دعواتهم وارشادهم مصدر هداية فى حياتهم الخاصة والعامة. وجاء حين آلت فيه تلك الزعامة الروحية إلى عبدالله ، بيد أنه لم ينصرف عن شئون الدنيا، فعب من تجربتها بما أثرى روحه وهيأه لمستقبل تبوأ فيه قيادة السودان كله.
وكانت تسيطر على عبدالله فكرة مؤداها أنه سيكون وزيراً للمهدى المنتظر ، فلما فتح الزبير ود رحمة دارفور قال عبد الله بمهديته ، فزجره الزبير فانزوى عبد الله فى خضم الحياة حتى لمع أسمه ثانية كأول نصير لقائد الثورة المهدية. وسريعا احتل عبدالله المكانة الاولى فى قلب المهدى ، فأجلسه مقعد أبى بكر الصديق بين خلفاء الرسول ، وقد مكن ذلك الاختيار زيادة على عوامل اخرى لعبدالله من تولى شئون الدولة المهدية عند وفاة منشئها. أنظر : السودان فى قرن ص ٢٤٣ – ٢٤٤ ، هولت ص ٤٣ –٤٥، هل ص ٥–٦.

لإمامتها (١) . وخرج عليه نفر من زعماء القبائل بعد أن أطلت النعرة القبلية برأسها من جديد ، وكان التحزب القبلى قد ذاب بقدر كبير فى بوتقة الثورة . ومن أولئك الزعماء مادبو على كبير الرزيقات (٢) وصالح فضل الله شيخ الكبابيش (٣) والمرضى ود أبوروف عميد قبائل رفاعة الهوى (٤) وآخرون ، وكذلك بارز الخليفة عدداً من الدعاة الدينيين كان أوفرهم نشاطاً وأشدهم خطرا أبو جميزة فى دارفور (٥) . وعمد الخليفة فى مكافحة خصومه الى العنف غالب الاحيان ، فتبددت للسودان طاقات عظيمة ، وترسبت فى النفوس أحقاد وإحن انفطرت بسببها الوحدة التى أنجبتها الثورة ودعمها المهدى بروحانيته وشخصيته الفذة . وذلك مشكل عانت منه دولة الأنصار طيلة عهد الخليفة وكان من دواعى انهيارها .

هذا عن حال الخليفة فى الداخل . أما صلاته الخارجية فاتسمت بطابع العدوان بدأ به هو أم بادر إليه غيره . ومن ثم كانت الحرب شغل الخليفة الشاغل ، بيد أن ما أصابه من نجاح فى قمع خصومه الداخليين لم يعادله ظفر مماثل بأعدائه الخارجيين . صحيح أن الخليفة رد كيد الاحباش وقتل مليكهم يوحنا فى مارس ١٨٨٩(٦) بل كانت تلك قمة مجده السياسى (٧) ، لكنه أخفق فى فتح مصر (٨) ، ثم فشلت محاولاته فى صد الهجوم الذى شنته عليه بريطانيا ومصر متحالفتين ، وكذلك فرنسا وايطاليا ، و«ليوبولد» الثاني ملك بلجيكا ، كل على حدة. فمنذ عام ١٨٩١ إنهالت ضربات اولئك الغزاة على دولة الأنصار فتناوبت الخليفة الخطوب ، فكافح فى عناد حفاظاً على استقلاله غير أنه انهزم فى مطلع سبتمبر ١٨٩٨ ، فزال ملكه وقام مكانه حكم بريطانيا ومصر الثنائي على السودان (٩) .

---

(١) شقير ٣ ص ٢٩٢ ، السودان فى قرن ص ٢٥٠ – ٢٥١ ، هولت ص ١٢٠.

(٢) شقير ٣ ص ٤٥٤ ، السودان فى قرن ص ٢٦٤ ، هولت ص ١٣٤ ، ١٥٥ – ١٦٤.

(٣) شقير ٣ ص ٤٥٥ ، السودان فى قرن ٢٦٤ ، هولت ص ١٣٥ ، ١٧١ – ١٧٢.

(٤) هولت ص ١٣٣ – ١٥٢.

(٥) شقير ٣ ص ١٦٥ ، هولت ص ١٣٨ – ١٤٠ ، ٢٣٩ – ٢٥٩.

(٦) شقير ٣ ص ٤٨٢ ، السودان فى قرن ص ٢٦٨ ، هولت ص ١٥٥.

(٧) السودان فى قرن ص ٢٦٩.

(٨) شقير ص ٥٢١ – ٥٢٤ ، هولت ص ١٦٢ – ١٦٣.

(٩) للتعرف على اسباب مطامع بعض الدول الاوربية فى السودان فى العشرين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر وما نتج عن ذلك من حروب راحت ضحيتها دولة المهدية أنظر : شقير ٣ ص ٥٣٨ – ٦٠٥ ، ٦٣٣ – ٦٤٦ ، هولت ص ١٧٣ ، ١٩٥ – ١٩٦ ، ٢٠٤ – ٢٢٢ ، ثم =

تلك وقفة خاطفة عند أهم وقائع الثورة المهدية وتاريخ دولتها، فما هي البواعث لهذه الثورة وما دواعيها ؟ إن تقصي الجذور الفكرية لهبة المهدى واستجلاء طبيعتها كثورة يستوجب النظر في محتواها الإسلامى من زاوية ، ثم في مضمونها السوداني من زاوية أخرى، ولقد اطلق لقب المهدى على الخلفاء الراشدين وعلى نفر من خلفاء بنى امية وبنى العباس ، كما إدعى رسالته ولبس لبوسه رجال هزوا بنشاطهم الإصلاحى امة الإسلام على مر العصور، فتحول معنى كلمة المهدى من لفظة شرفية اضيفت الى القاب بعض الخلفاء الى وظيفة واسم لشخص يرد الناس الى الجادة إن تنكبوا الطريق (١) .

ورغم أن القرآن اغفل ذكر المهدى وتحدث عن الهادى والمهتدى إلا أن أحاديث كثيرة نسبت إلى الرسول تبشر بظهور مهدى آخر الزمان ليقود الخلق الى السراط المستقيم ويملأ الأرض عدلاً بعد أن إمتلأت ظلماً وجوراً (٢) . والمهدية بهذا فكرة دينية مفادها العودة بالمسلمين الى طريق الحق وإنتشالهم من وهدة الفساد التى يتردون فيها عند إقتراب الساعة . وهى كظاهرة إجتماعية سياسية تعبير عن خيبة الأمل فى الحكام واستعداد المحكومين لإتباع من يقنعهم بأن العناية الالهية بعثته لإنقاذهم واصلاح حالهم (٣) . وليس من سبيل الى تحقيق هذه الأهداف غير تطبيق احكام القرآن وسنة الرسول على نطاق العالم الإسلامى كله، وهذا مارمى اليه المهدى فى السودان، فهو لم يقصر دعوته على السودان بل جهز الجيوش لغزو مصر بعد أن خاطب واليها ، وبعث الكتب بالدعاية والهداية الى ديار الإسلام فى المغرب وأرض الشام وسلطنات المسلمين فى وسط افريقيا وغربها (٤).

والحقيقة أن الثورة المهدية فى السودان كانت جزءاً من نهضة انتظمت العالم الإسلامى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكان من أعلامها محمد بن عبدالوهاب فى جزيرة العرب ، ومحمد بن على السنوسى فى شمال افريقيا . وأياً كانت الفوارق بين هذه الحركات فإن ثلاثتها استهدفت الرجعة بالناس إلى عهد الاسلام الاول ، ايام بساطته وطهره ونقائه (٥) .

---

Shibeika: British policy, pp. 309–390 and Robert. 0 collins: The Southern = Sudan, 1883–1898, Yale University Press, 1962 pp–92–93.

(١) Encyclopaedia of Islam, London (1936) Vol 111p. 112.

(٢) نفس المصدر ص ١١١ – ١١٢.

(٣) حسين مؤنس – وثائق عن مهدى السودان.

(٤) شقير ٣ ص ٣٥١.

(٥) هولت ١٨ – ١٩ ثم. Shibeika: British Policy, pp. 16–18.

ولعلة تتصل بهذا البحث لزام علينا أن نلم إلمامة سريعة بتاريخ السنوسية ومنهاجها وأن نرصد موقف زعيمها من دعـوة المهدى فى السودان . أسس الحـركة السنوسية سيدى محمد بن على السنوسى وهو عالم جزائرى ولد حوالى عام ١٧٨٧ وتتلمذ على السيد احمد بن ادريس الفاسى فى مكة ، ثم عاد إلى شمال افريقيا سنة ١٨٤١ (١) ليعمل فى همة على نشر تعاليمه . وخلف السنوسى عند مماته فى ١٨٥٩ إبنه محمد المهدى الذى اشتهر باسم السنوسى المهدى ، فواصل جهود أبيه فى بث الدعوة حتى وافته المنية فى ١٩٠٢ (٢) .

وقد تبعت السنوسية المذهب المالكى (٣) وقامت على نظام دقيق لم تسبقها إليه سائر الجمعيات الدينية او السياسية ، وعن طريقه انتشرت افكارها وبُنى الملك السياسى (٤) . واعتمد هذا النظام على « الزاوية »، وهى تجمع من أتباع الطريقة تربطهم اخوتها فيعيشون عيشة جماعية ، يفلحون الأرض ويرعون الماشية ، ويعبدون الله . وكان لكل « زاوية » شيخ يدير شئونها وفقاً لتوجيهات زعيم الطريقة (٥) . وقد شيد السنوسى الأكبر وخليفته السنوسى المهدى قرابة المائة وعشرين « زاوية » كان من أهمها جقبوب وكفره اللتان تناوبتا عاصمة الطريقة فيما بين ١٨٥٦ و١٨٩٩ (٦) .

ووجدت السنوسية فى واحات الصحراء الكبرى وفى سلطنات أفريقيا الوسطى والغربية المسلمة ميداناً فسيحاً للذيوع . وكانت تلك البلاد على صلة تجارية بشمال أفريقيا إذ كانت قوافل التجارة تربطها بموانيء طرابلس عبر الصحراء (٧) . واجتهد السنوسى الأكبر فى تقوية هذه الصلات كوسيلة لنشر مبادئه . فبدأ يؤمن حياة التجار وممتلكاتهم بمحررات يكتبها الى شيوخ الطوارق، والتبو الذين دخلوا فى طاعته كى يأذنوا لأصحاب القوافل باجتياز أرضهم فى سلام (٨) . ثم عمد السنوسى إلى وسيلة مباشرة فى بسط

---

(١) Evans-Pritchard: The Sanusi of Cyernaica, Oxford (1949)pp. 11–13.

(٢) نفس المصدر ص ١٩ ثم محمد فؤاد شكرى: السنوسية دين ودولة ، دار الفكر العربى ١٩٤٨ ص ٥٧.

(٣) Evans-Pritchard P 1.

(٤) شكرى ، السنوسية ص ٤٥.

(٥) Evans-Pritchard pp. 5–7.

(٦) شكرى ، السنوسية ص ٥٨ — ٦٥.

(٧) Evans-Pritchard p. 16.

(٨) شكرى، السنوسية ص ٥١.

نفوذه فيما وراء الصحراء وبخاصة فى ودّاى (١). فقد اشترى قافلة من عبيد البرقو، كان البدو استولوا عليها عند حدود مصر ، وجاء بأفرادها الى جقبوب حيث تشربوا تعاليم السنوسية ، ثم اعتقوا فعادوا الى بلادهم دعاة مبشرين . وراح أهل ودّاى منذ ذلك الحين يفدون الى جقبوب ثم كفره لأخذ العلم كما اقبلوا على الخدمة فى « الزوايا» (٢). وكان السنوسى الأكبر قد التقى أثناء إقامته بمكة بالأمير محمد شريف الذى أصبح سلطاناً على ودّاى فى ١٨٣٥ ، فصادقه زمناً ثم بايعه مريداً من مريديه ، فلم يأل السلطان محمد شريف جهداً فى تأييد السنوسية بين رعيته (٣) .

وإزداد نشاط السنوسيين فى سلطنات افريقيا المسلمة على عهد السنوسى المهدى الذى انتدب اثنين من كبار أعوانه الى كانم وباجرمى ، فاتخذا منهما مركزين لنشر الدعوة فى كل اتجاه حتى بلغت دارفور شرقاً (٤) . وكذلك قوى نفوذ السنوسية فى ودّاى حتى ان السنوسى المهدى تدخل تدخلاً فعالاً فى نزاع نشب حول عرشها سنة ١٨٧٦ ، وفرض مرشحه السلطان محمد يوسف بن محمد شريف الذى أصبح تابعاً وفياً للسنوسى(٥) كما كان له شأن كبير مع الأنصار فى دارفور فيما سنرى .

وقد نهج السنوسيون نهجاً سلمياً فى توصيل رسالتهم إلى الناس ، بل أنهم تسامحوا مع معارضيهم فى الرأى من أهل الطرق الأخرى وأنفوا عن التعريض بالأولياء كما فعل الوهابيون (٦) . ومن جهة ثانية رأى زعماء السنوسية فى الخلافة العثمانية—رغم اختلافهم معها فى كثير من المسائل – سياجاً يحوط المسلمين ويصد عنهم كيد الكائدين وليس

---

(١) تقع وداى أو دار برقو إلى الغرب من دارفور وكان يفصل بينهما قديما ديار تامه والمساليت وسلا ، اما سكان وداى فخليط من البشر يغلب الدم الزنجى على كثرتهم. وتوجد بينهم قبائل تحمل نفس الا سم الذى تعرف به فى دارفور مثل البديات والزغاوة والتنجر والداجو ، وفيهم كذلك عرب خلص كالمحاميد والسلامات ويبدا تاريخ سلطنة وداى بعام ١٦٣٥ وينتهى فى سنة ١٩١١ باحتلال الفرنسيين لا راضيها وضمها إلى مستعمراتهم فى افريقيا الا ستوائية ، وامتدت السلطنة فى قمة مجدها إلى جبال الا ندى شمالا ودار كتى جنوبا وبحيرة فترى غربا ، وكان نظام الحكم فيها لامركزيا اذ قسمت البلاد إلى مقاطعات يشرف على كل منها نائب للسلطان يعرف بالعقيد الذى يتمتع بقدر واسع من النفوذ. أنظر :
(The Encyclopaedia of Islam, London (1934) vol IV pp 1075)

(٢) شكرى السنوسية ص ٣٩ Evans-Pritchard P 17

(٣) شكرى السنوسيةص ٣٩ J.S. Trimingham: Islam in West Africa, Oxford (1959), pp. 100.

(٤) Evans – Pritchard pp 22.
كانت كانم (برنو) وباجرمي ضمن عدد من السلطنات المسلمة التي انتظمت افريقا جنوب الصحر الكبرى في سلسلة تبدأ بالسنغال علي ساحل المحيط الاطلنطي تليها مالى الى الشرق ثم دويلات الهوسة وكانم باجرمي ووداى ثم دارفو . أنظر : A.J. Arkell: The History of Darfur, 1200 A.D. S.N.R Vol. 32 (1951) part 1, PP 39.

(٥) شكرى: السنوسية ص ٦٤ . Trimingham pp 100

(٦) Shibeika: British Policy p. 18, Evans-Pritchard pp 7–8.

من مصلحة الإسلام فى شيء إضعافها (1). ولعل فى هذين الأمرين مايفسر صدود السنوسى المهدى عن مؤازرة الثورة المهدية فى السودان، التى استخدمت السيف لتحقيق أهدافها، ولم ير قائدها فى خلافة الأتراك غير مسخ لمبادىء الإسلام وتحوير لأسسه. فحين دعاه المهدى لنصرته للمرة الثانية وأنهى اليه تعيينه خليفة من خلفائه فى مقام عثمان بن عفان، ثم خيره بين الجهاد فى جهته تجاه مصر أو الهجرة اليه (2)، أهمل السنوسى المهدى الرد على خطاب المهدى (3) ، وكذلك فشل الخليفة فى استمالة السنوسى المهدى واجتذابه (4) .

اما الظن بأن السنوسى المهدى نفر عن مساندة مهدى السودان طمعاً فى تولى دعوة المهدية بنفسه ، فأمر يكتنفه الغموض ، فليس ثمة دليل قاطع على إيمان السنوسى نفسه بأنه المهدى المنتظر؛ وإن كان أتباعه قد قالوا بذلك (5)، بل وشاع مثل هذا الإعتقاد فى السودان كما يتضح من خطاب المهدى الى السنوسى الذى ورد فى صدره (6)«. . . قد كنا ياحبيبى ومن معنا من الأعوان ننتظرك لإقامة الدين قبل حصول المهدية للعبد الذليـــل . . .»

ولننظر الآن فى المحتوى المحلى للثورة المهدية بعد أن عرضنا لمضمونها الإسلامى العام ، ولصلة قائدها بزعيم السنوسية فى شمال أفريقيا . فقد تضافرت عوامل عدة فى تفجير ثورة فى السودان فى مطلع الثمانينات من القرن الماضى ، وتداخلت فى تسبيبها عناصر تتلخص فى الحمية الدينية التى أيقظها المهدى بروحانيته وكلماته الثائرة، ثم الزجر السياسى والغبن الإجتماعى الناشئين عن قسوة الإدارة التركيه . رأى المهدى بعد تطواف قام به لكثير من بقاع السودان، موجة الإستهتار تطغى على حياة الناس وحكامهم، فانصرفوا عن دينهم وانحدروا إلى هاوية سحيقة . فسعى إلى هدايتهم وحثهم على الخضوع لنواهى الإسلام والقيام بفروضه (7) . ولقى المهدى عند الناس استجابة عظيمة لإقتران دعوته

---

(1) شكرى: السنوسية ص ٧١.
(2) منشورات المهدى الجزء الثانى ص ٧٠ – ٧٣ (طبعة المحفوظات) شقير٣: ص ١٧٠.
(3) شقير ٣: ص ١٧١ ، شكرى: السنوسية ص ٧٢.
(4) شقير ٣ : ص ٤٢٧ ، شكرى السنوسية ص ٧٣.
(5) شكرى السنوسية ص ٧١.
(6) منشورات: المهدى ، الجزء الثانى : ص ٧٠.
(7) السودان فى قرن: ص ٢٣٦.

بإسم الدين الذى تغلغل فى نفوسهم بفعل نشاط الصوفيين بينهم وامتلأت به حياتهم وإن بدا فى سلوكهم مايجافى أحكامه وينافيها (١). وثمة مظهر آخر لأثر الدين فى ثورة المهدى هو تلك الروح المعنوية العالية التى تشبع بها الأنصار ، فراحوا ينشدون فى معاركهم الموت قبل الحياة ؛ لأن قائدهم دعاهم إلى الزهد فى متاع هذه الحياة الدنيا وزيّن لهم طلب الآخرة فهى خير وأبقى (٢).

على أن عنصر الدين على أهميته الكبرى فى تكييف اتجاه الثورة المهدية وإنجاحها لايفسر بمعزل عن السخط السياسى والإجتماعى الذى انتظم السودان قبيل قيامها ذلك الإنفجار الذى أطاح بالإدارة التركيه . وتتلخص تلك الدوافع السياسية والاجتماعية فى :

(١) سعى الحكومة لإحلال الوحدة الجغرافية فى إدارة البلاد محل الوحدة القبلية مما أضعف نفوذ كثير من شيوخ القبائل ، وجعلهم أداة فى يد مآمير المراكز ومديرى المديريـــات .

(٢) كان الإرهاب والقسوة طابعين للحكم منذ أن قام الدفتردار بحملته التأديبية إنتقاماً لمقتل اسماعيل بن محمد على فى شندى . وكان الباشبزوق ( الجند غير النظامى ) علماً لسياسة البطش تلك ، فأينما حلوا نشروا الفزع والخوف .

(٣) فرضت الإدارة التركيه نظاماً ضرائبياً لم يألفه الأهلون من قبل ، فضلاً عن أن المسئولين عن تقدير الفئات الضريبية لم يراعوا فى كثير من الأحيان طاقة المجتمع الإقتصادية وقدرته على الدفع .

(٤) أثارت الحرب الضارية التى شنتها الحكومة على العاملين فى تجارة الرقيق سخطاً كبيراً فى مجتمع يعتمد فى حياته على خدمات الأرقاء ، كما أن التجار الذين خسروا منافعهم من تلك التجارة لم يجدوا بديلاً مجزياً لها يكسبون منه قوتهم وقوت أتباعهم (٣) .

ومجمل القول أن دعوة المهدى وجدت من المتدينين الباذلين الروح فى سبيل الله دون طمع فى مغنم دنيوى ، ومن الساخطين من التجار والزراع الذين اثقلت كاهلهم الضرائب الفادحة ، وسدت الحكومة فى وجه بعضهم سبيل الإرتزاق بمنعها لتجارة الرقيق ، ومن القبائل التى افتقدت كينونتها نتيجة لمركزية الحكم فتطلعت للإنعتـــاق كما تاق

---

(١) هولت : ص ١٦.

(٢) F. R. Wingate: Mahdism and the Egyptian Sudan , London (1891) pp 7.

(٣) شقير ٣ : ص ١٠٩ — ١١٢.

بعضها وبخاصة البقارة إلى الحرب حباً فى الغنيمة ، وجدت الثورة من هذه القوى سنداً وموئلاً (١). فقادهم زعيمها من نصر إلى نصر حتى فتحت له الخرطوم أبوابها ضحى ٢٦ يناير ١٨٨٥ .

**جغرافية دارفور الطبيعية والبشرية :**

تقع دارفور بين خطى العرض ١٠° و ١٦° شمالاً وخطى الطول ٢٢°و٣٠ر٢٧° شرقاً، وتكون مستطيلاً تبلغ مساحته ٠٠٠ر١٤٠ ميلاً مربعاً، تحده من الشمال الصحراء الكبرى، ومن الجنوب بحر العرب وشمال غربي بحر الغزال. وتمتد إلى الشرق من دارفور سلسلة من الكثبان تفصلها عن كردفان ، أما من جهة الغرب فإن أرض دارفور تتصل فى إمتداد طبيعى بجيرانها نتيجة لوحدة المناخ والنبات والتضاريس ، ولذا كانت الروابط التجارية والثقافية بينها وبين ودّاى ومايليها من بلاد غرباً قوية متينة منذ عهد قديم (٢) .

وتنقسم دارفور جغرافياً الى ثلاث مناطق لكل خصائصها ومميزاتها التى كيفت حياة سكانها .

**(١) شمال دارفور :**

وهى منطقة شبه صحراوية يحدها من الشمال تخوم الصحراء الكبرى ، وإلى الجنوب خط العرض ٣٠ر١٤° ، أما نسبة أمطارها فهى فى المتوسط ١٠ بوصات فى السنة ، وتكثر لهذا الحشائش والشجيرات الصغيرة دون الأشجار الضخمة التى تنمو فى الوديان فحسب . ولنفس العلة كانت الزراعة المتوسعة أمراً عسيراً، ويقع بهذه المنطقة جبل الميدوب الذى ترتفع أعلى قممه ٢٠٠٠ قدماً فوق سطح البحر ، ويوجد فى جنوبه الغربي منخفض المالحة ، وهو مستودع عظيم للملح يبلغ طوله ميلاً وعمقه ٣٠٠ قدماً (٣) .

وغالبية أهل شمال دارفور رحل يقضون فصل الجفاف حول الآبار والوديان ، ويرحلون فى بداية الخريف إلى الجنوب لترعى ماشيتهم زرعه المبكر . وتتجه بعض القبائل عند حلول الشتاء شمالاً الى أرض الجزو حيث ينمو نبات أخضر كثيف يحتفظ بخضرته ورطوبته حتى فبراير من كل عام (٤) . والسكان بعد هذا خليط من القبائل

---

(١) هولت : ص ١١٨.

(٢) G. D. Lampen: History of Darfur, S.N.R. Vol. 31 (1950) Part 2 p 172

(٣) المصدر السابق ص ١٧٨.

(٤) K. M. Barbour: Republic of the Sudan, London (1961) pp 169.

العربية وغير العربية ، شأن كل مناطق دارفور مع فارق فى الناحية العددية . فالجماعات التى تنتمى إلى أصل عربي كثرة فى الجنـــوب وقلة فى الشمال وقليلة جداً فى الوسـط .
وأهـم قبائل شمال دارفـور :

**( أ ) الزيادية :**

يرجع الزيادية — كالشنابلة ودار حامد فى كردفان — إلى مجموعة فـزارة العربية وهم ، رعاة إبل يسكنون بين الميدوب والبَرْتي ، وينزلون حول الآبار فى الصيف ويرحلون عنها مع تباشير الخريف ، فإذا ماجاء الشتاء نزحوا إلى أرض الجزو (١) .

**(ب) المحاميد والنوايبة والماهرية والعريقات :**

تطابق أسماء المجموعات الثلاث الأولى أسماء أقسام قبيلة الرزيقات كما سنرى ، لكنها فى ذات الوقت تسميات لقبائل تسكن شمال دارفور وترعى الإبـل ، وإن اتصلت فى النسب بالبقارة فى الجنوب . وينسحب هذا الحكم على العريقات ايضاً . وقد يطلق اسم المحاميد على رعاة الإبل إجمالاً فى شمال دارفـــور (٢) .

**(ج) الزغاوة :**

من أكبر قبائل دارفور ، وهم خليط من التُبو الحاميين والزنوج . اما لغتهـم فمن لهجات التبو ، غير أنهم يتحدثون العربية كذلك . وللزغاوة فروع كثيرة أهمها — فيما يتصل بهذا البحث — كايْتِنْقا الذين يعيشون على الأرض الواقعة شمال شرقى كتم ، ثم قَلاوتُور وكُوبي إلى الغرب والشمال الغربي منها . وهناك جماعات ليست من الزغاوة ، لكنها تشاركهم السكن وعلى صلة قوية بهم ، مثل البديّات وكنجه ، ويرعى الزغاوة الأغنام والضأن مع قليل من الابل (٣) .

**(د) البرتى :**

وهم قبيل عظيم ، كانوا إلى ماقبل مائة عام يقطنون شمال دارفور ، إلا أن سنين عجافاً تضافرت مع ضغط الزغاوة أثناء توسعهم شرقاً على ارغام البَرْتي على الرحيل

(١) H. A. Mac Michael: Notes on the Tribes of Darfur (Type-Written) Khartoum (1915) p 38.
A.B. Theobald: Ali Dinar, The last Sultan of Darfur. Ph. D. Thesis, London (1962) p. 24.

(٢) ماكمايكل: مذكرات عن قبائل دارفور ص ٣٥.

(٣) H. A. Mac Michael: A History of the Arabs in the Sudan (2Volumes) Cambridge (1922), Vol 1 pp 55,–57.
ماكايكل : مذكرات ص ٤٧ — ٤٨ وثيوبولد ص ١٧.

إلى شرق دارفور ، وماتزال بقية منهم تعيش حول ملّيط . ولايعرف أحد منبت البَرْتي لكن سحنتهم وأشكالهم تبدو وكأنهم خليط من الفور والعرب المتأثرين بالزغاوة . فلغة البَرْتي تشبه لغة الزغاوة، رغم غلبة الكلمات العربية فى حديثهم. والبَرْتي قوم مستقرون مسالمون (١) .

**(هـ) الميدوب :**

أرجع ماكمايكل أصل الميدوب إلى دنقلا ، لإشتمال لغتهم على كثير من كلام المحس (٢) وقد كان لبعد جبال الميدوب وانتشار الصحراء القفرة من حولها أثر بعيد فى عزلة سكانها عن جيرانهم. والميدوب شبه رحل، يرعون الأغنام والضأن مع قليل من البقر والإبل ، ويرحلون إلى أرض الجزو فى الخريف ، ولهم رغم إسلامهم عادات وتقاليد وثنية عميقة الجذور، فمن ذلك المهرجان الذى يستقبلون به فصل المطر ، إذ يجتمع أهالى القرى حول إمرأة عجوز تحمل لبناً ودهناً وقمحاً ولحماً لتضعها على صخرة مقدسة عندهم بينما يغنى المجتمعون ويرقصون(٣)

**(و) البديات :**

رحل يعيشون فى الأرض التى تلى دار الزغاوة شمالاً — وتصل مجموعات صغيرة منهم الى كتم وكبكابية أثناء تجوالهم ، وقد لاحظ التونسى(٤) مايقرب منوالهم فى الحياة من حياة العرب وأخلاقهم ، غير أن البديات لايتكلمون العربية . وخلص التونسى إلى أنهم زنوج على صلة قوية بالزغاوة . أما وسيلتهم للإرتزاق فهى النهب والإغارة أساساً(٥) .

---

(١) ماكايكل : تاريخ العرب ، جزء اول ص ٦٤ – ٦٥ ، مذكرات ص ٦٣ – ٦٤.

(٢) ماكايكل: تاريخ ، جزء اول ص :٥٩ ، مذكرات ص :٥٥.

(٣) H. A. MacMichael: Nubian elements in Darfur, S.N.R. Vol. 1 (1918) part 1 pp 44-45. ماكايكل – تاريخ ، جزء اول ص ٦٣

(٤) محمد بن عمر التونسى (١٧٨٩ – ١٨٥٧) رحالة من اسرة اشتهرت بالعلم، وكان جده سليمان المتوفى عام ١٧٩٧ قد جاء إلى سنار وتزوج بامراة من اهلها. اما ابوه فدرس فى الازهر، ثم لحق بوالده فى سنار ثم رحل إلى دارفور، واشتغل بالتجارة. وولد التونسى فى تونس ، فلما كبر انضم إلى أبيه بدارفور عام ١٨٠٣ ، وأقام بها ثمانى سنوات، عاد فى نهايتها إلى موطنه مارا بوداى وطرابلس. وبعد إقامة قصيرة فى تونس قصد التونسى القاهرة والتحق بخدمة محمد على باشا وألف كتابين عن رحلاته سمى أحدهما «تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان» ، وهو الكتاب الخاص بمشاهداته فى دارفور والذى ترجم إلى الفرنسية . أنظر: هل : ص ٢٧٧.

(٥) ماكايكل : تاريخ ، جزء اول ص :٥٢.

**(٢) وسط دارفور :**

ويحتويه خطا العرض ٢٠ر١٤° و ١٢° شمالاً ويشمخ فى قلبه – بل وفى قلب دارفور كلها – جبل مرة الذى يبلغ طوله ٧٠ ميلاً وعرضه ٣٠ ، وتعانقه من الجهة الشمالية الغربية سلسلة من الجبال المتفرقة؛ أهمها جبل سى . وترتفع أعلى قمم جبل مرّة الى ٠٠٠ر١٠ قدم عن سطح البحر . وتهطل عليه أمطار غزيرة يصل متوسطها إلى ٣٠ بوصة فى العام ، مما وفر أسباب الحياة لمختلف أنواع النبات . وقد فرض العلو من جهة وغزارة الامطار من جهة ثانية على أهل الجبل حماية مزارعهم «بالترّوس» ،حتى لاتنجرف الترّبة وتفقد الارض خصوبتها وتتعرى (١) .

وتصعب الحركة فى الجبل خصوصاً لغير أهله ، وذلك لوعورة مسالكه مما جعله منذ عهد قديم ملجأ ومعتصماً عند الشدائد . ولايختلف أهل الجبل فى تكوينهم الجسماني أو لغتهم عن سكان السهل من الفور وإن كانوا أفقر حالاً منهم (٢) .

ويقسم جبل مرة وسط دارفور الى جزئين يختلفان من حيث المناخ والنبات إختلافاً كبيراً ، فمنطقة القوز التى تمتد شرقى الجبل أرض تغطى وجهها الرمال والشجيرات الصغيرة وتقل فيها التلال الصخرية ، وهى تحد شمالاً بشبه الصحراء وجنوباً بديار البقارة ، حيث يكثر المطر وتزداد الخضرة . ويؤم القوز سكان الشمال الرحل فى فصل الجفاف ، ويقصده البقارة زمن الخريف ، ويعج وسطه بقرى يعيش أهلها على الزراعة (٣) .

أما إلى الغرب من الجبل فتوجد منطقة السهل التى تشمل جزءاً عظيماً من غرب دارفور وتغطى وجهها تلال يضارع بعضها الجبال ، كما تخترقها وديان عدة تنحدر من جبل مرّة ، أهمها وادى أزُوم ووادى بارى ، ويغشى جنوب السهل غيث عميم كل عام، على أن المطر يقل تدريجياً كلما اتجهنا شمالاً حتى يهبط متوسطه إلى١٢ بوصة عند مشارف شبه الصحراء . وينعكس هذا على كثافة السكان والنبات . فيقل عدد الناس عندما نمضى شمالاً ، بينما يحدث العكس، كما يغزر النبات ويكبر حجمه كلما سرنا جنوباً نحومنطقة السافنا الغنية . وكذلك يتأثر بذاك الوضع الجغرافى الوضع الإقتصادى

---

(١) Capt. R. N. Lynes: Notes on the Natural History of J. Marra, S.N.R. 5ol.4 (1921) part 2, p 23. *See also Barbour:* The Republic p148.

(٢) Barbour: The Republic, pp 154–155.

(٣) نفس المصدر ص : ١٥٧.

فبينما يربي الزغاوة الأنعام الصغيرة كالغنم والضأن ويرحلون جنوباً أيام الجفاف ويقيمون فى الوديان الكبيرة كوادى كُجا طلباً للماء والعشب ، نرى السكان فى جنوب السهل يزرعون حاصلات كالبامية والذرة والقطن ويرعون البقر للبنها (١) .

ويعتبر وادى أزُوم أكبر الوديان فى دارفور . ويتغذى هذا الوادى بعد إنطلاقه من جبل مرة بنهيرات صغيرة تجتمع كلها عند زالنْجى على بعد ٥٠ ميلاً غربي الجبل. ويجرى أزْوم من زالنْجى غرباً حتى يلتقى بوادى بارى عند مُورْنى . ثم يستمر فى جريانه إلى أن يصبّ فى بحيرة تشاد على بعد ٦٠٠ ميل ، ويعرف عندئذ بنهر شارى (٢) .

ويقطن جبل مرة والسهل الغربي منه الفور والمساليت والقِمِرْ وبنو حسين :

**(أ) الفـــور :**

يكون الفور أكبر مجموعة مستقرة فى غرب دارفور ، وقـد كانوا لعهود طويلة السكان الوحيدين للجبل . فهو موطنهم الأول وإن امتدت أرضهم إلى السهل الذى ينحدر منه غرباً (٣) . ويطلق اسم الفور على سكان دارفور الأصليين تمييزاً لهم عن الوافدين عليهم . وبإستثناء أسرة كِيره التى امتزجت بدم العرب وتزعمت ملك دارفور فإن الفور زنوج ، وقد قسمهم التونسى إلى جماعتين هما الكنْجارة ومن هؤلاء كيره — والتمُورْكا (٤) .

وقد أورد «آركل» روايتين فى تعريف كلمة « فور » تقول إحداهما بأنهم أبناء « فر » ( Fir ) بينما ينتمى الفرتيت الى « فيرات » ( Firat )، وفر وفيرات إخوان ، ولفظة فرتيت ليست إسماً لقبيلة، وإنما يقصد بها الوثنى، وتطلق على عدد من القبائل التى تسكن غربي بحر الغزال . وتذهب الرواية الثانية إلى أن الفرتيت كانوا فى القديم يعيشون غربي جبل مرة ثم نزحوا إلى بحر الغزال بعد أن حمل عليهم أول السلاطين المسلمين فى دارفور ، أما من بقى منهم وقبل الإسلام ديناً فسموا بالفور وهى كلمة تطابق معنى اتباع (٥) ويُرجح بيتون ( Beaton ) أن يكون الفور مزيجاً من الزنوج والحاميين(٦).

---

(١) نفسه ص ١٤٩ — ١٥٢

(٢) K. M. Barbour: The Wadi Azum, S.N.R. Vol 31(1950), p, 105

(٣) ماكايكل: تاريخ ، جزء اول ص : ٩١.

(٤) ماكايكل: مذكرات ص : ٦٧.

(٥) أركل: تاريخ دارفور، السودان فى رسائل ، مجلد ٣٢ جزء اول ، ص ٥٢ — ٥٤.

(٦) A. C. Beaton: The Fur, S.N.R. Vol 29 (1948) Part 1, p 3.

ويعتمد سكان السهل من الفور على زراعة الذرة والدخن والبصل ، ويربون البقر للبنها والضأن والأغنام لبيعها فى الأسواق . أما أهل الجبل منهم فيزرعون القمح مرتين فى السنة فضلاً عن الباميا والطماطم والقطن (١) .

(ب) المساليت :

تقع أرضهم فى منتصف الحدود الغربية لدارفور وتحتويها أربعة وديان هى أسيجا وكجا من الغرب وبارى وأزوم من الشرق ، وتضم حالياً كما كانت فى السابق دارىْ جبَل والارِنْجا اللتين تحدانها من الشمال . وثمة غموض حول أصل المساليت رغم دعواهم الإنتساب إلى العرب ، وعلى الخصوص الأسرة المالكة فيهم . ولايبعد أن يكون قد حدث إختلاط بينهم وبين بعض القبائل العربية . أما لغتهم فشبيهة بلسان أهل ودّاى (٢). وقد إشتهر المساليت بالشجاعة والفروسية ، وزاد الناس خشية منهم اعتقاداً بمقدرتهم على التحول فى صورة حيوانات مفترسة ، ويرعى المساليت البقر والأغنام دون الإبل (٣) .

(ج) القِمر :

ويقطنون إلى الشمال من المساليت ، وإلى الجنوب من الزغاوة ، فى سهل رملى تكثر فيه الصخور ويرجعون بنسبهم إلى الجعليين ، ولايتحدثون غير العربية ويرعون الضأن والبقر ويزرعون الدخن (٤) .

(د) بنو حسين :

رعاة بقر يعيشون إلى الشرق من القِمرْ ، ولهم لسان عربي فصيح فهم فى عداد القبائل العربية فى دارفور (٥) .

وأما قبائل القوز فهى :

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩ ، أركل: تاريخ دارفور ، السودان فى رسائل ،مجلد ٣١ جزء اول ص ١٥٥ .

(٢) R. Davies: The Masalit Sullanate, S.N.R. Vol. 7. (1924) Part 2 pp 49–50.

(٣) ثيوبولد: ص ١٤.

(٤) ماكايكل : تاريخ ، جزء اول ص ٨٤.

(٥) ماكايكل : مذكرات ص : ٣.

**(هـ) برقي شرق :**

سبقت الإشارة إلى منبت البَرْقي ، وهجرة قسم كبير منهم إلى شرقى دارفور ، ويسكن الذين نزحوا شرقاً اليوم حول أم كدّادة والطويشه وجبل الحلّة والأبيَض[1].

**(و) المناصرة وبنو فضل :**

وهاتان من القبائل العربية التى جاءت من أرض النيل إلى دارفور قبل سته أجيال تقريباً . وكان بنو فضل على عهد الإدارة التركيه فى منعة من العدد . وكانت القبيلتان تعيشان فى المثلث الواقع بين الفاشر والطويشه وجبل الحلّة ، ولكنهم اليوم ينتشرون فى غربي كردفان أيضاً [2] .

**(ى) المـــيما :**

وهم خليط من التبو والزنوج والعرب ، ويشاركون بنى فضل والمناصرة السكن فى منطقة ودَعَه . وقد وفد الميما إلى ودّاى ثم دارفور من تُمْبكُتو حيث كانوا يجاورون الطوارق . أما لغتهم فشبيهة بلهجة الزغاوة والقُرعان [3] .

**(٣) جنوب دارفور :**

يقع هذا الأقليم بين خطى العرض ١٢° و ١٠° شمالاً ، ويحده من الشمال القوز وجبل مّرة ، ومن الجنوب بحر العرب ومنطقة ذبابة التسى تسى . أما أمطاره فغزيرة إذ يتراوح متوسطها بين ٢٥ و ٣٠ بوصة فى العام . وجنوب دارفور سهل طينى تغطيه شجيرات كثيفة إلى جانب الأشجار الكبيرة التى تقوم على حافة الوديان التى أهمها وادى بُلبُل الذى ينحدر من جبل مرة ، ويجرى فى دار بنى هَلبة وينتهى فى أرض الهَبّانيه [4] .

وينقسم سكان جنوب دارفور إلى مجموعتين رئيسيتين هما : البقارة، وأهل «السودان»

**( أ ) البقـــارة :**

تطلق لفظة البقارة على رعاة البقر فى السودان ، وهم غالبية فى جنوب دارفور

(١) المصدر السابق ص : ٦٤ — ٦٥.

(٢) نفسه ص : ٤١.

(٣) نفسه ص : ١٠.

(٤) ثيوبولد : ص ٥—٦.

الذى يشاركهم السكن فيه أهل السودان ، كما يتصلون على حدودهم الجنوبية الغربية بالزنوج من جانْقى وفرْتيت (١) أما الجانْقى ففرع عظيم من الدينكا ، ومن أكبر قبائل بحر الغزال وأشدها بأساً (٢) وأما الفرْتيت فيشملون الكارَه والبانْدا والبنْجا والكريش وغيرهم (٣) . ويخالط الفرْتيت قبيلتان كان لهما شأن كبير مع الأنصار وهما النجَانْقُلقول والفِرُوقى ، وسنعرض لأصلهما فى الفصل السادس .

ويرجع تاريخ دخول العرب فى دارفور إلى القرن الرابع عشر ، أما قبل ذلك فقد وفدوا اليها كأفراد بقصد التجارة أو الحماية . وتكونت بتدفق العرب على دارفور قبائل البقارة فى الجنوب ورعاة الإبل فى الشمال . وبينا تزوج عرب الجنوب كثيراً من السكان الأصليين فغلب السواد على لونهم ، ودخلت حياتهم عادات الزنوج رغم إحتفاظهم باللسان والتقاطيع العربية ، عاش عرب الشمال فى منطقة يقل فيها العنصر المحلى ، فحافظوا أكثر من إخوتهم فى الجنوب على نقاء الدم العربي وتقاليد العرب (٤) . وتنتمى المجموعتان إلى جهينة نسبة إلى الصحابي عبد الله الجهينى، وهو وإن لم يكن من جهينة مباشرة لكنه من قُضاعة التى تنتسب اليها جهينة (٥) . على أن الزيادية فى الشمال والمعاليا فى الجنوب يشذون عن هذه القاعدة؛ فكلتا القبيلتين تعود بأصلها الى فَزاره، وهى قسم من جهينة غير الذى ينتمى اليه البقارة (٦) .

وهنالك إضطراب فى حقيقة الطريق الذى جاءت منه جهينة إلى دارفور وكردفان. أجاءوا من الشرق عن طريق النيل أم من شمال أفريقيا عن طريق الصحراء الكبرى ؟ وقد تردد «ماكمايكل» فى القطع برأى فى هذا المعضل . فهو مرة يأخذ بما قاله ابن خلدون من أن جهينة تدفقت على النوبة بعد سقوط دنقلا المسيحية فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، ثم رحلوا عنها جرياً وراء الماء والكلأ — ويسند هذا حجة القائلين بأن البقارة سلكوا طريق النيل — وطوراً يميل إلى دعوى البقارة أنفسهم بأن أجدادهم دخلوا دارفور

---

(١) ماكمايكل : مذكرات ص : ١.

(٢) شقير : ص ٤٦.

(٣) اركل : تاريخ دارفور ، السودان فى رسائل ، مجلد ٣٢ جزء أول ص ٥٣ — ٥٤.

(٤) ماكمايكل : مذكرات ص : ١.

(٥) محمد عوض محمد : السودان الشمالى: سكانه وقبائله (طبعة ثانية) القاهرة (١٩٥٦)، ص : ٢١٠.

(٦) المصدر السابق ص ٢١٤ ، ماكمايكل: مذكرات : ص ٢.

من تونس وفيزان وليس ذلك ببعيد بعد هجوم بنى هلال على شمال أفريقيا (١) .

أما محمد عوض فيرجّح نزوح البقارة من شمال أفريقيا إعتماداً على أن جهينة الشرق ، ومن قبائلها رفاعة والشكرية ، تكون هجرة مستقلة عن تلك التى جاءت بجهينة الغرب إلى كردفان ودارفور . ويستبعد عوض كذلك أن تكون جهينة قد إنتشرت من شواطىء النيل إلى بحيرة تشاد خلال قرن واحد كما يقول ماكايكل (٢) .

ويضم البقارة :

**(١) الرزيقــات :**

وهم أغنى قبائل البقارة . وأكثرها عدداً ، وأقواها مركزاً (٣) . ويحد دار الرزيقات بحر العرب جنوباً ،ودار الحُمُر شرقاً، والبيقُو والدّاجو والبِرْقد شمالاً ، والهبّانيّه غرباً . وللرزيقات فروع رئيسية ثلاثة هى : الماهرية الذين يسكنون شرق الدار وجنوبها ،ومن بطونهم أولاد أم سَلمَه ،وأولاد حسن ،وأولاد زويد ،والقُدْيانيّة ، ثم النَوايْبه الذين يقطنون فى موالاة الهبانية ، ومن بطونهم أولاد زيد وأخيراً المحاميد الذين يعيشون شمال الدار (٤) .

**(٢) الهبانية :**

ولهم قسمان كبيران هما الطارة والسُوط . ويتفرع الطارة إلى شبّه وشيبُون ، وتخرج من الفرعين بطون عدة أبرزها أولاد حميد والناله والهليلات والمريرات، أما السُوط ففرعان أيضاً، هما الرَيافه والشبُول، ومن بطونهما أولاد أبي عيّاد، وأولا دبرْكاى وأولاد أبي على . ويحد دار الهبانية من الشرق الرزيقات، ومن الشمال المَسَلات ومن الغرب التعايشة ومن الجنوب بحر العرب ، وتكثر فيها المستنقعات والذبابة . أما مركزهم فهو الكَلَكَه أو بُرام حالياً (٥) .

**(٣) التعايشة :**

وهم قسمان . قلاده وعريج (٦) ، وتقع أرضهم إلى الغرب من ديار الهبانية

---

(١) ماكايكل : تاريخ ، جزء أول ص : ٢٧٤ – ٢٧٥ ، مذكرات ص : ١.

(٢) محمد عوض : السودان الشمالى ص ٢١٢ – ٢١٤.

(٣) ماكايكل: تاريخ ، جزء اول ص : ٢٩٠ – ٢٩٢.

(٤) ماكايكل : مذكرات ص : ٦ – ٨.

(٥) ماكايكل: تاريخ ، جزء اول ص : ٢٢ – ٢٣.

(٦) ماكايكل تاريخ ، جزء أول ص : ٢٩٣.

وتعج مثلها بالذبابة([1]). ومن فروع التعايشة سنه، والجبارات، وأولاد سرحان، وأولاد حميدان ، والفاطميّة ، وأولاد ابو رحيمه ، والجوارحه ، والضباينْه ، وأولاد عباس ، والهضاليل، وام لعَسه، ثم أم ريده ([2]) .

**(٤) بنو هلبة :**

وهم قسمان كبيران هما : أولاد جابر الذين يشملون العلاوْنه ، والزناتيت، والحرازره ، والهضاليل ، والمساوية، ثم أولاد جبارة الذين يكونهم أولاد جمْعان ومن هؤلاء العشاريه، ثم أولاد على، وأولاد غيات، وبنو لبيد، وأولاد غانم . وتقع أرض بنى هلبه شرقى دار سلا وشمالى دار التعايشة وجنوب غربي جبل مرة ([3]) .

**(٥) المعاليا :**

منتشرون بين دارفور وكردفان ، والذين يعيشون منهم فى دارفور يرعون الأبقار وقليلاً من الإبل . وقد هاجرت أغلبية المعاليا إلى كردفان من دارفور إبان المهدية . والمعاليا جيرة الرزيقات من جهة الشمال الغربي ([4]) .

ويعتمد البقارة فى رزقهم على رعى البقر وإن كانوا يربون الضأن كذلك . كما يمارسون بعض النشاط الزراعى . ولئن تفاوت البقارة فى درجة إرتحالهم إلا أنهم جميعاً يشتركون فى حياة التجوال . فلكل قبيلة دارها التى ترحل عنها فترة من الزمن كل عام لترجع إليها من جديد . فعند بداية الخريف ينهض البقارة من بحر العرب عائدين الى ديارهم خوفا من ذبابة التسى تسى وأمراضها ، غير أن تزايد الأمطار وتكاثر الذباب يجبرانهم ثانية على الظعن إلى منطقة القوز لخلوها منه ، فيقضون بقية الخريف ، ثم يعودون إلى ديارهم التى سرعان مايشح ماؤها ويقل مرعاها ، فيتجهون صوب بحر العرب حيث ترعى أبقارهم ويصطاد الرجال الفيلة والرقيق على السواء ([5]) .

وينطبق هذا الوصف على الهبّانية والرزيقات الذين يتخطون بحر العرب أحياناً ويتوغلون فى بحر الغزال. وعلى شطآن بحر العرب يتم الاتصال بين الرزيقات والجانْقى.

---

(١) ماكمايكل : مذكرات ص : ٢٦.

(٢) مهدية/١/١٢/٧٣ رجب ١٣٠٥ الموافق ١٦ مارس ٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) ماكمايكل: مذكرات ص : ٢٦ — ٢٩.

(٤) ماكمايكل : تاريخ ، جزء اول ص : ٢٦٧.

(٥) ليس بالسودان اليوم رق أو استرقاق ولذا انتهت عمليات اقتناص الرقيق.

أما التعايشة فيقضون الشتاء فى دار سُـــلا ، بينما ينزح بنو هلبة إلى الوديان الواقعة غربي جبل مرّة، وخاصة أزُوم مما قوى صلتهم بالفور (١) .

وتربط هذه الرحلة السنوية بين الرزيقات وقبيلة الحُمُر التى تنهج منوالهم فى العيش وتنزل مثلهم بحر العرب شتاءاً وصيفاً . ولـقد كان الحُمُر فى السابق شطراً من قبيلة ينتمى اليها المسيرية ، وكانت تميز بينها تسميتان هما المسيرية زُرق إشارة لسواد لونهم ، والمسيرية حُمُر ، ثم انفصلت المجموعتان واستقلتا عن بعضهما البعض .

وتقع دار الحُمُر فى أقصى الجنوب الغربي لكردفان بين الأضيّه وبحر العرب وهى إلى شمال المُجْلد سهل رملى، أما فى الجنوب فيكثر الطين والشجيرات الكثيفة (٢).

وللمسيريّة فرع فى جنوب دارفور يقطن بين مَنَواشى و وَدعَه ، ويعتمدون على فلاحة الأرض مما يخرجهم من دائرة البقارة رغم امتلاكهم لبعض البقر (٣) .

**(ب) أهل « السودان »**

أطلقت وثائق المهدية هذا التعبير على القبائل غير العربية التى تعيش فى جنوب دارفور . ولقد إستوطن أهل « السودان » دارفور قبل خمسمائة أو ربما ألف عام ، واختلطت دماؤهم بدماء الفور وبعض الدماء العربية ولكنها احتفظت بطابعها الزنجى . وأهل « السودان » مسلمون ، بيد أن شيئاً من العادات الوثنية مايزال سائداً بينهم . ويختلف أهل « السودان » عن البقارة فى أنهم زراع مستقرون (٤) . أما قبائلهم فهى :

**(١) الداجو :**

ليس من اتفاق حول أصل الدَاجُو . فهناك نظرية تقول بأنهم سكان دارفور الأصليين ، وتزعم ثانية أنهم هاجروا إليها من شمال افريقيا وتنادى ثالثة بهجرتهم من النيل واستيطانهم بجنوب دارفور حيث أقاموا ملكاً (٥) .

---

(١) ماكايكل: مذكرات ص : ٢ ثم :

Barbour: The Republic, pp 165–166.

(٢) ماكمايكل : تاريخ ، جزء أول ص : ٢٨٤–٢٨٦ – ٢٨٧.

(٣) ماكايكل : مذكرات ص : ٤٢ – ٤٣.

(٤) ماكايكل : مذكرات ص : ٥٩.

(٥) Balfour–Paul: History and Antiquities of Darfur, Sudan Antiquities Service, Museum Pamphlet No. 3, Khartoum (1955), p 9.

وماكايكل : مذكرات ص: ٦١.

**(٢) البِرْقِــد :**

زنـوج يشبهون فى تكوينهم الجسماني وعاداتهم أهـل أفريقيـا الوسـطى، ويعتقد « ماكمايكل » أنهم من أصل نوبي للتشابه بين لهجتهم ولغة النوبة . ويسكن البِرْقِد شمال وشرق نيـالا الحالية ومن مراكزهـم برنجْيل ويشتغلون بصناعة الحديد (١) .

**(٣) البيقـو :**

قبيــلة صغيرة تجاور الدَاجُـو والبرْقـد وقد قيـــل عن منبتهم إنهـم نزحـوا من بحر الغزال إلى دارفور فى زمن غابر . وعوملوا فى وطنهم الجديد معاملة العبيد إلى أن حررهم السلطان محمـد الفضل لإنتساب أمه اليهم ، ومنع الاتجار فيهـم . وللبيقُـو سلطان خاص بهـم (٢) .

**(٤) المَسَلَات :**

يسكنون إلى الغرب من البيقو والبرْقـد ، وهـم من عنصر المسـاليت الذيـن على حدود دارفور الغربيةوإن كان هؤلاء أكثر تأثراً بالعرب . وقـد إشتهر المَسَـلات بالشجاعة(٣).

ومن أهـل « السـودان » المُنْضَلَة وهم من زنوج بحر الغزال الذين استرقهم البقارة وجاءوا بهم الى ديارهم ثم تحرر معظمهم وانعتقوا (٤) .

**ج ـ تاريخ دارفور قبل المهدية :**

يحيط بتاريخ دارفـور السـابق لنشـأة سلطنتها المسلمة فى القرن السابع عشر الميلادى ضباب كثيف ، فقـد حجب طول العهـد وانعدام المصادر المكتوبة كثيراً من الحقائق المتصلة بحياة هـذا الاقليم فى ذاك الزمان الغابر وحلت الأسـاطير محل الرواية المثبتة . إلا أن المؤرخين اتفقوا ـ بعـد مقارنة تلك الأساطير وتمحيصها فى ضوء نتائج الحفريات الأثرية التى قام بها بعضهم ـ على نقاط اعتمدت صحتها واخذت مأخذ الحقيقة مالم يجد فى عالم البحث جديد يهدم ما اتفـق عليه أو يحور فيه .

---

(١) H.A. MacMichael-: Nubian Elements in Darfur, p 48.
وماكمايكل : مذكرات ص : ٦٠.

(٢) ماكمايكل : مذكرات ص : ٦٠ ـ ٦١.

(٣) نفس المصدر ص : ٦٢.

(٤) هل: ص : ١٤٧.

فمن المعتمد أن الداجو أول من أسسوا دولة منظمة فى تاريخ دارفور ثم أعقبهم التُنْجُر . وخلف هؤلاء أسرة كِيرَة التى وليت الحكم دون انقطاع بين منتصف القرن السابع عشر وسقوط الفاشر فى يد الزبير ود رحمة عام ١٨٧٤ (١) . ومن المعتمد أيضاً أن مملكتى الدَاجُو والتُنْجُر عاشتا على خدمات العبيد ، وتمتع حكامها بسلطان مطلق ، فانقسم مجتمعها إلى طبقة محظوظة يجلس عند قمتها الملوك ، وأخرى مسودة تضم سواد الناس (٢) .

ولقد عمرت دولة الدَاجُو قرابة الثلاثمائة سنة إمتدت بين القرن الرابع والسابع الميلادى ، ثم غشيها الخراب حين إستولى التُنْجُر على شمال دارفور وظلوا يهيمنون على البلاد من القرن الثامن حتى مطلع القرن الثالث عشر حين داهمتهم جيوش كانم وأسقطت عاصمتهم عين فَرَح . وبقيت لسلاطين كانم اليد العليا فى دارفور حتى انحسر نفوذهم فى بداية القرن السابع عشر (٣). وقد عدد «آركل» كثيراً من مظاهر تأثير بَرنُو على حياة دارفور فمنها تقسيم المملكة إلى أربع وحدات إدارية ، وإتباع المذهب المالكى وتسمية أميرات القصر بالمَيَارم التى مفردها ميرَم (٤) .

وقد عرضنا آنفاً للخلاف حول أصل الدَاجُو وكذلك اضطرب القول فيما يتعلق بمنبت التُنْجُر. فبينما اعتقد «ماكمايكل» بأنهم عرب وثنيون وفدوا إلى دارفور من جهة الشرق(٥)، أرجع «آركل» عرقهم إلى الأسرة المالكة فى بلاد التبستى التى امتزجت بدماء العرب (٦) . أما أسرة كِيرة فهى نتاج الاختلاط بين الكنُجَاره والأصل العربي ممثلاً فى أحمد المعقور وهو من أمراء بنى هلال النازحين من شمال افريقيا فيما تقول الرواية التقليدية عند الفور (٧) .

---

(١) انظر صفحة ٤٩

(٢) Balfour - Paul: History and Antiquities of Darfur, pp 8-9

(٣) A. J. Arkell: Medieval History of Darfur in its relation to other cultures and the Nilotic Sudan. A paper presented to the Annual Conference of the Sudan Philosophical Society (1959).

(٤) آركل : تاريخ ، السودان فى رسائل ، مجلد ٣٣ ، جزء اول ص: ١٢٩ – ١٣٠.

(٥) ماكمايكل : مذكرات ص : ٤٥.

(٦) آركل : تاريخ . السودان فى رسائل ، مجلد ٣٢ جزء ٢.

(٧) ماكمايكل: تاريخ جزء أول ص : ٩١ – ٩٣.

وكان سليمان سُولُونج ( ١٦٤٠ – ١٦٧٠ ) (١) أول المشهورين من سلاطين كيرة ، وقد إتخذ من طُرّه فى الطرف الشمالى من جبل مرة قصبة لحكمه . ومن هناك إمتد نفوذ كيرة إلى جميع جهات دارفور . ومما حققه سُولُونج فى هذا الشأن إخضاع البَرْتي والبِرْقد والمساليت والزغاوة . بيد أن التاريخ سجل له عملاً أجل من حروبه الناجحة تلك ، ذلك أن سولونج أدخل الإسلام فى بلاطه ، وجعله ديناً رسمياً لدولته ، وعمل على نشر تعاليمه بين الناس (٢) .

وتعاقب على حكم دارفور منذ وفاة سُولُونج وحتى ضياع إستقلالها فى ١٨٧٤ عشرة من السلاطين هم :–

| | |
|---|---|
| (١) موسى بن سليمان سُولُونج | ( ١٦٧٠ – ١٦٨٢ ) |
| (٢) أحمد بكر بن موسى | ( ١٦٨٢ – ١٧٢٢ ) |
| (٣) محمد دَوْره بن أحمد بكر | ( ١٧٢٢ – ١٧٣٢ ) |
| (٤) عمر ليلْ بن محمد دَوْره | ( ١٧٣٢ – ١٧٣٩ ) |
| (٥) أبو القاسم بن أحمد بكر | ( ١٧٣٩ – ١٧٥٢ ) |
| (٦) محمد تيراب بن احمد بكر | ( ١٧٥٢ – ١٧٨٧ ) |
| (٧) عبد الرحمن الرشيد بن أحمد بكر | ( ١٧٨٧ – ١٨٠٢ ) |
| (٨) محمد الفضل بن عبد الرحمن الرشيد | ( ١٨٠٢ – ١٨٣٩ ) |
| (٩) محمد حسين بن محمد الفضل | ( ١٨٣٩ – ١٨٧٣ ) |
| (١٠) إبراهيم بن محمد حسين | ( ١٨٧٣ – ١٨٧٤ ) (٣) |

وواصل أولئك السلاطين جهود سُولُونج فى بسط ملك الفور خارج نطاق جبل مرة ؛ فانطلقت جيوشهم فى كل صوب ، تظفر بهذه القبيلة وترهب تلك حتى بلغت السلطنة قمة توسعها بضم كردفان فى عهد محمد تيراب (٤) . وعند ذاك شملت حدود دارفور

---

(١) لامبن ( Lampen ) تاريخ دارفور ، السودان فى رسائل ، مجلد ٣١ ، ص ١٨٤ تعنى لفظة سولونج إبن العربى فى لغة الفور ، إشارة إلى اصل سليمان العربى . وسليمان كما تزعم الرواية التقليدية ابن لأحمد المعقور لكنه غالباً ما يكون حفيداً له وليس إبناً مباشراً . أنظر :
R. C., Slatin: Fire and Sword in the Sudan, 1870–1895, London (1896) p42

(٢) لا مبن : تاريخ دارفور ص : ١٨٤ – ١٨٥ .

(٣) نفس المصدر ص : ١٨٤ .

(٤) نفسه ص : ١٨٦ .

كل القبائل التى تقطن الرقعة الممتدة بين الصحراء الكبرى شمالاً ، وبحر العرب جنوباً ، ومملكة الفونج شرقاً . أما الى جهة الغرب فسبق أن دخل المساليت فى الطاعة أيام سُولوُنج وظلت أرضهم جزءاً لاينفصم من سلطنة الفور إلى أن حلت الإدارة التركيه بالبلاد ، فجعلت للمساليت إدارة مستقلة ، وحكمت فيهم رجلاً من بينهم يدعى هَجّام حسب الله ، وكانت تلك نواة لقيام سلطنة خاصة بالمساليت فيما بعد (١) .

ثم تمت لخلفاء سُولُونج السيطرة على داريْ قِمر وتَامَه اللتين أثبتهما التونسى فى خارطته عن دارفور داخل حدودها (٢) . وكذلك تبعت دار كُوبي دولة الفور ، آية ذلك تعيين سلطان دارفور لحكامها وحصوله على جزية سنوية منهم (٣) . وهكذا وضع الفور أيديهم على الأمارات الواقعة على حدود ودّاى الشرقية فنجم عن هذا نزاع أثر بوضوح على صلات السلطنتين . وأصبح زعماء تلك الأمارات التى شملت دار سُلا أيضاً يتأرجحون بسبب ذلك الصراع بين التبعية لدارفور حيناً والخضوع لودّاى حيناً آخر (٤) .

وسارت إدارة دارفور على نظام الحكم المطلق . فالسلطان هو صاحب الأرض يمنحها من يشاء ، وهو منبع التشريع تجرى كلمته مجرى القانون (٥) . وقد أفاد السلاطين الأوائل فى دعم هذا الحق من إعتقاد العامة فى قدسيتهم ، كما يبدو جلياً من ركوع الناس ومشيهم حفاة الرأس فى حضرة السلطان ، واعتباره مصدر الخير والخصب فهو الذى يفتتح موسم الزراعة ببذر البذور فى موكب عظيم (٦) . بيد أن ثمة عاملين قيّدا من الوجهة الواقعية تلك الإرادة المطلقة وهما : التزام السلاطين بشريعة الإسلام الذى ارتضوه ديناً، ثم استناد المجتمع إلى قاعدة قبلية شبه إقطاعية .

وليس أدل على إحترام ملوك دارفور للإسلام من تطبيقهم لتعاليمه فى محاكم الدولة،وبنائهم لعشرات المساجد ومعاهد تدريس القرآن كما يشهد بذلك عهد أحمد بكر(٧).

---

(١) R. Davies: The Masalit Sultanate, p. 50

(٢) مخابرات السودان: ٣٩/٣/٥ ( مذكرات عن دارفور ووداى ودار سلاودارتامه) بقلم ماكايكل، ١٩١٦.

(٣) مركز شمال دارفور /سرى/ ١ مذكرة تاريخية عن حدود دارفور الشمالية.

(٤) دائرة المعارف الاسلامية : مجلد ٤ ص : ١٠٧٥.

(٥) شقير ٢ ص : ١٣٦.

(٦) آركل: تاريخ دارفور، السودان فى رسائل ، مجلد ٣٢ جزء ٢ ص : ٢٢٨.

(٧) لا مبن: تاريخ ، ص : ١٨٥.

أما أثر التكوين القبلي الإقطاعي كقيد على حرية السلطان، فتنبىء عنه الطريقة التي أسس بها هيكل الإدارة، وتفسره طبيعة العلاقة بين السلطان وكبار معاونيه، ثم صلته بشيوخ القبائل، فقد قسمت دارفور إلى مقاطعات كبيرة جعل على كل منها نائب للسلطان ويسمى الملك حيناً والمقدوم في غالب الأحيان. وكان لكل مقدوم عدد من المساعدين يعرفون بالشرَاتي عند الفور، وبالشيوخ عند غيرهم، وبخاصة بين قبائل البقارة والرحل. وسميت التقسيمات الداخلية للمقدومية بالحاكوره في مناطق الإستقرار، وبالدار في أرض الرحل. ونادراً مايتدخل السلطان في الشئون المحلية للمقدوميات، فكان يقنع بما يجبيه له النواب من مال يجمع في هيئة زكاة من البادية، وفطرة وعشور من الحضر (١) وفوق هذا كان للسلطان العشر من قيمة البضائع المستوردة وحصيلة المحاكم من غرامات، فضلاً عن الأموال المصادرة ونتاج الأرض الخاصة به (٢).

غير بعيد والحال هذا أن يتمتع وكلاء السلطان على اختلاف درجاتهم بقدر عظيم من الإستقلال، فتعين عليه أن يرعى مصالحهم ويحسب حسابهم خوف خروجهم عليه وهم على تلك القوة. ومما ثبت من مركز أولئك الوكلاء أن منحهم السلاطين حواكير يعيشون على خراجها، بجانب مايدخل خزائنهم من هدايا وغرامات تدرها عليهم المحاكم(٣)

والواقع أن إدارة دارفور كانت أشبه بإتحاد فدرالي يجلس في قمته سلطان له من الوجهة النظرية مطلق التصرف، لكنه كان في حقيقة الأمر رمزاً لوحدة ضعيفة بسبب التكوين العنصري المتنافر للبلاد، ونزعة التفرد وحب الوطن الصغير عند القبائل، ومركز المقاديم الإقطاعيين المنيع. ولعلنا واجدون في تمرد القبائل المستمر على أوامر السلطان خير مصداق لهذا الحكم. وقد كان للبقارة القدح المعلى في معارضة حكم الفور ونبذه (٤).

ونتج عن ذلك عداء تقليدي بين الفور والبقارة عموماً، مما أثر على علاقات الطرفين وعلى تاريخ دارفور سواء بسواء.

هذا من ناحية دارفور الداخلية. أما روابطها الخارجية فحفلت بكثير من وجوه

---

(١) شقير ٢ ص: ١٣٦ – ١٣٧.

(٢) ثيوبولد ص: ٦٤.

(٣) شقير ٢ ص: ١٣٨.

(٤) ماكمايكل مذكرات ص: ٨ – ٩.

النشاط السلمى والحربي ، فعلى الرغم من وجود حواجز طبيعية فى شمال هذا الإقليم وشرقه وجنوبه عاقت إتصاله بالعالم الخارجى، وصدت عنه كيد الطامعين، مما عمق فى نفوس أهله الاحساس بالإستقلال، وأكسبهم صفات ميزتهم عن غيرهم، إلا أن دارفور لم تعش فى عزلة تامة فكانت لها تجارتها وحروبها مع جيرانها ، كما تأثرت بأولئك الجيران حضارياً وثقافياً، وخصوصاً أهل ودّاى ومن جاورها غرباً (١) .

واتصلت دارفور بالعالم عن طريقين ، أحدهما طريق الأربعين الذى يبدأ من اسيوط فى صعيد مصر وينتهى عند كُوبي مسافة خمسة وثلاثين ميلاً شمال غربي الفاشر . وكانت كُوبي فيما ذكر الرحالة أكبر مدن السودان الغربي مطلقاً ، وتلى سنار فى الأهمية ثانياً ، ويبلغ عدد سكانها ستة ألوف جلهم من التجار الوافدين من كردفان وسنار يخالطهم بعض من أهالى مصر وتونس (٢) . ويبدأ الطريق الثاني من ليبيا ويمر بواحة كفْره ، ثم يتجه جنوباً حتى يتفرع إلى فرعين يسير أحدهما غرباً إلى ودّاى ، وينطلق الفرع الثاني شرقاً صوب دارفور . ومن هذا الدرب وفدت إلى دارفور ثقافة المغرب وقبائله(٣) .

وثمة طريق ثالث ربط دارفور بودّاى مباشرة، وهو الطريق الذى كان يسلكه قصاد مكة من مسلمى الفلاتة والبرْنو وودّاى ذاتها ، وكان كذلك سبيلاً للتجارة كما كان معبراً للثقافة والفكر ، فمنه دخل الإسلام والمذهب المالكى دارفور (٤) . ويمتد نفس الطريق ليصل دارفور بأرض النيل عبر فيافى كردفان التى يصعب إجتيازها زمن الصيف لقلة الماء والعشب .

ولعلاقات دارفور بجيرانها إلى الشرق والغرب وجه أخر رسمت تقاطيعه يد المنافسة والعداء . ولنبدأ بما كان عليه الحال بينها وبين ودّاى . لقد أطاع ملوك ودّاى فى فجر تاريخها سلاطين دارفور بدليل الجزية السنوية التى كانوا يوافونهم بها ، غير أن

---

(١) لا مبن تاريخ ص : ١٧٨ .

(٢) W. B. K. Shaw: Darb Al Arbain, S.N.R. Vol 12 (1929) pp 63–71

(٣) لا مبن تاريخ ص : ١٧٨ .

(٤) آركل: تاريخ ، السودان فى رسائل ، مجلد ٣٢ جزء ٢ ص : ٢١٦ ثم :

Isam Ahmed Hassoun: 'Western' Migration and Settlement in the Sudan, S.N.R. Vol. 32, Part 1, p 62.

أنظر كذلك : عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية فى السودان ( طبعة اولى) القاهره ١٩٥٣، ص : ٧١.

هــذه التبعية لم تـدم طويلاً ، فمـا إن إشتد ساعد أولئك الملــوك حتى تطلعوا إلى الفكاك من قبضة الفـور ، وقامت بسبب ذلك حروب شغلت الطرفين ردحاً من الزمـن . وبدأ الصراع فى عهد أحمد بـــكر الذى صد هجوماً عنيفاً للبرقـو ، وأوقـع بهم فـــى كبْكابّية (١) . وعـمل عمر لِيلْ وأبو القاسم بن أحمد بكر لرد عدوان البرقـو وإخضاعهم ثانيـة ، لكن جهودهما ذهبت أدراج الرياح ، إذ ردا خاسرين وأسر عمر لِيلْ ، ولم يطلق سراحه إلا بمال افتدى به نفسه. ونالت ودّاى بذلك الإستقلال الذى سعى اليه ملوكها ، غير أن سحابة كثيفة من التوتر راحت تظلل صلاتها بدارفـور(٢) .

ثم أضيف وقـود جديد لنار الخلاف بين السـلطنتين فتجـدد وتأجج . ذلك أن البرقـو طمعوا فى انتزاع دار تامَة من الفـور ، وقد دفعهم إلى هذا العمل نزعة التوسع فضلاً عن قحط إنتشر فى بلادهم عام ١٨٣٤ ، فأغاروا على حدود دارفـور الغربية لفك ضائقتهم ، فاستشاط السـلطان محمد الفضل غضباً ، وقاد رجاله الى ودّاى وفتحعاصمتها وتوج مكان سلطانها الهارب السلطان محمد شريف الذى إرتضى الانقياد لمحمد الفضل، ووعد بدفع جزية له ، بيد أنه حنث بوعده وما أن انسحبت جيوش الفور من بلاده(٣) حتى استمرأ محمد شريف العصيان وتمادى فى معاداة سلطان دارفـور وطلب نزاله ثم جرّد جيشاً على دار تَامة سنة ١٨٤٥ ، وظفر بحاكمها الموالى للفـور وأجلس على عرشها السلطان ابراهيم سليمان الذى أضحى العوبة فى يد ملوك ودّاى يسخرونه حيث شاءوا(٤).

وبينما احتربت دارفـور مع ودّاى خاصمها فى الشرق سـلاطين المسَبّعـاتوملوك الفونج . والمُسَبّعات فرع من الكنْجاره ، هجروا دارفور فى القرن السابع عشر إثر نزاع على عرشها ، واستوطنوا كردفان وهنالك ابتنوا ملكاً منفصلاً (٥) . أما الفونج فضموا كردفان الى ممتلكاتهم فى منتصف القرن الثامن عشر (٦) .

غير أن المسبعات ناهضوا ذلك التدخل حتى استردوا حريتهم على يد السـلطان

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية: مجلد ٤ ص : ١٠٧٦ ، ثيوبولد ص : ٥٧.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية: مجلد ٤ ص : ١٠٧٦.

(٣) المصدر السابق: نفس الصفحة ، ثيوبولد ص : ٧٠ - ٧١.

(٤) ثيوبولد ص : ٧٢.

(٥) ماكمايكل : مذكرات ص : ٦٧.

(٦) السودان فى قرن : ص : ١ - ٢.

هاشم، الذى دفعه طموحه أيضاً لبسط نفوذه فى دارفور كأنما يطلب ثأراً قديماً . واجتهد محمد تيراب فى إثناء هاشم عن مقصده، فلما أبي إلا الحرب أجابه اليها، وطرده من كردفان ، فآل أمرها ثانية للفور(١)، فظلوا يحكمونها حتى هجمت عليها جيوش محمد على الكبير بقيادة صهره محمد بك الدفتردار، الذى استولى على كردفان فى ابريل ١٨٢١، ثم تقدم نحو الفاشر ودوخ قوة أرسلها السلطان محمد الفضل لصده فى بلدة سُودرى . غير أن الدفتردار تراجع لإعتبارات عسكرية عن دارفور واكتفى بالسيطرة على كردفان (٢) .

ولم يكن ذاك التراجع الا أمراً مؤقتاً فقد ظلت الخرطوم فى عهدها الجديد تتوق لضم دارفور واستغلال مواردها ، والحقيقة أن الإدارة التركيه بطموحها فضلاً عن استعدادها وتنظيمها الحديث شكلت خطراً عظيماً على إستقلال دارفور، ومع ذلك لم تستطع أن تطيح بعرش الفور . ولكن الذى أطاح به هو الزبير ود رحمة الذى ولد بقرية الجيلى شمالى الخرطوم سنة ١٨٤٤ ، ونزح فى شبابه إلى بحر الغزال أجيراً ثم تاجراً . وكانت بحر الغزال وقتئذ تفيض بالتجار من كل عنصر ، تقاطروا عليها جميعاً بغرض الربح من تجارة شملت بضائع شتى كان من بينها وعلى رأسها الرقيق .

وسريعاً ما ازدهرت تجارة الزبير فأثرى ، واتخذ لنفسه حرساً كونه من رقيقه بعد عتقهم – وهم الذين عرفوا بالبازنقر – وراح يتعهده بالتدريب والتسليح حتى أضحى جيشاً كبيراً مهاباً ، وبفعل ذلك ذاع صيت الزبير واقتعد مكان الرأس بين تجار بحر الغزال، وآية ذلك أنه ناب عنهم فى إبرام اتفاقية مع شيوخ الرزيقات (١٨٦٦ ) وبموجبها التزم هؤلاء الشيوخ من الرزيقات بالسماح لقوافل التجارة التى تقصد كردفان ودارفور من بحر الغزال واليها بالمرور عبر دارهم مقابل جعل سنوى ارتضاه الطرفان . وقد ازدادت أهمية هذا الطريق نسبة للحرب التى شنها الخديوى اسماعيل على تجارة الرقيق، وكان من وسائلها فرض رقابة على المراكب التى تمخر النيل الأبيض جيئة وذهاباً ، فضاق الحال بالتجار ، واتجهوا بتجارتهم المحظورة الى الدرب الذى يعبر جنوب دارفور هرباً من قبضة الحكومة (٣) .

---

(١) لا مين: تاريخ ، ص : ١٨٦ – ١٨٧ – ، ثيوبولد ص : ٦١ – ٦٢.

(٢) شقير ٣ ص : ١٢ – ١٣.

(٣) M. F. Shukry: The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan, Cairo (1938) p 222.

ثم جاء وقت إصطدم فيه الزبير بالحكومة، وهزم حملة أرسلتها لإخضاع بحر الغزال. لكنه وفق فى إقناع الخديوى بطاعته وولائه فعينه إسماعيل مديراً لبحر الغزال اعترافاً بالصعاب التى تكتنف السيطرة المباشرة عليها . وكانت تلك خطوة هامة فى تحول الزبير من التجارة الى الملك ، ثم جاءه المجد يسعى وتهيأت له الأسباب كى يرقى درج الشهرة ويقترن اسمه بفتح دارفور .

فبينا كان الزبير يحارب فريقاً من زعماء الفرتيت ، نقض الرزيقات عهدهم معه وقطعوا طريق القوافل التجارية ونهبوها ، ولما لم ينتهوا عن فعلهم ذاك التمس الزبير بإسم الخديوى تدخل السلطان ابراهيم بن محمد حسين – المشهور بابراهيم قرض – فى الأمر لتأمين طرق التجارة وحمايتها . وظن ابراهيم قرض فى مطلب الزبير دساً لأنف الادارة التركيه فى شئون مملكته فأغفل الرد على خطابه . فما كان من الزبير إلا أن غزا دار الرزيقات ، وظفر بهم مرتين، ودخل شكا «وهى أهم مراكز الرزيقات» فى نهاية أغسطس عام ١٨٧٣ .

وكانت هزيمة الرزيقات بداية النهاية لاستقلال دارفور . فبعد أن استقر الزبير كتب إلى ابراهيم قرض بتسليم شيخين من زعمائهم كانا فى طليعة الخارجين على اتفاقية عام ١٨٦٦، ثم فرا إلى الفاشر بعد اندحار عشيرتهما، واستنكر ابراهيم هذا المطلب لمافيه من مساس بسلطانه ، وعول على الحرب حفاظاً على ملكه . فنقل الزبير الخبر الى حكمدار السودان اسماعيل أيوب ، ورجاه موافاته بما يعينه على ملاقاة جيوش الفور .

وطير الحكمدار الخبر إلى القاهرة، فوجه إلى قيادة حملة من الأبيض تسبق الزبير إلى إحتلال الفاشر ، كيلا ينال شرف دخولها منفرداً ، فيقوى مركزه بدرجة تدفعه إلى تحدى الحكومة ، فيتعذر عليها مجابهته حينذاك . على أن الحوادث تدافعت سراعاً ، ووقع ماتخوفت منه القاهرة والخرطوم . فقد بادر ابراهيم قرض الزبير بالحرب ، فلم يكن مناص لهذا من منازلته ، ودارت بين الفريقين معارك حامية انقضت بخذلان ابراهيم ومصرعه فى مَنَواشي فى ٢٥ أكتوبر ١٨٧٤ ، ثم تابع الزبير زحفه نحو الفاشر ففتحت له أبوابها فى ٣ نوفمبر، وأقام فيها أسبوعاً كاملاً قبل أن يصلها اسماعيل ايوب(١) .

---

(١) اعتمد فى تحقيق حياة الزبير ونشاطه فى بحر الغزال ودارفور على ما رواه هو نفسه لنعوم شقير (شقير ٣ ص : ٦١ – ٨١) وكذلك على ما ورد فى «السودان فى قرن» ص ٧٨ – ٩١. أما قصة النزاع الذى شجر بين الزبير واسماعيل ايوب والذى انتهى برحيل الاول شاكيا إلى مصر وما تلى ذلك من اسر ثم عودة الزبير إلى السودان فليس مكان تفصيله هذا البحث.

وهكذا قوض الزبير دعائم سلطنة الفور ، وطوى علمها الذى ظلل سماء دارفور أربعا وثلاثين بعد المائتين من السنين .

وتسلم الحكمدار زمام الأمر فى دارفور من الزبير فور وصوله ثم انصرف إلى تنظيم إدارتها فعين حسن باشا حلمى مديراً عاماً لها (١) . وقسم البلاد إلى أربع مديريات كما كانت قبل الفتح هى : الفاشر، ودَارَه ، وكُلْكُل، وأم شَنْقَه ، وعين لحراسة كل منها أورطتين من الجند النظامى وستة سناجق من الباشبوزق، ثم فرض ضرائب على الناس بلغ حدها الأدني خمسين قرشاً على الفرد الواحد (٢) .

على أن الوضع لم يستقر للإدارة التركيه طيلة عهدها بدارفور، إذ ظل هذا الإقليم مضطرباً لايقر لأهله أو حكامه قرار ، ثم ازداد اهتزازاً عند هبوب الثورة المهدية ، مما عجل بخراب تلك الإدارة وزوالها . وليس هذا بأمر عجب . فقد أبي قادة الفور الهزيمة وهبوا يدفعون عن أرضهم غزاتها، ويستردون استقلالهم الذى ضاع ، ومن جهة أخرى تزعم سليمان بن الزبير ود رحمه حركة مناوئة للحكومة فى بحر الغزال،وامتدت الى جنوب دارفور ، إلا أن توافق الهبتين « فى وقت واحد » جعل من العسير للمسئولين فى دارفور حفظ النظام .

وكان الامير حسب الله بن محمد الفضل أول من رفع راية النضال ضد الإدارة التركيه بعد أن بايعه الفور سلطاناً عقب مقتل ابراهيم قرض ، فاحتمى بجبل مرّة ، لكن الزبير تربص به وداهمه، فاستسلم حسب الله واقتيد إلى الفاشر أسيراً، ومن هناك أرسل إلى القاهرة فى نفر من أقربائه بعد أن رفض إسماعيل أيوب تنصيبه حاكماً على بلاده كرغبته مقابل جزية سنوية يدفعها للحكومة (٣) . واختار الحكمدار بذلك فرض حكم مباشر على دارفور لم يألفه أهلها، بل استقبحوه واسترخصوا الدماء لأجل تحطيمه .

فما أن غادر ركب حسب الله الفاشر متجهاً إلى القاهرة حتى نهض أخواه بُوش وسيف الدين لنضال الحكومة ، غير أن ثورتهما قبرت فى مهدها . ففى أغسطس ١٨٧٥ عاجلهما الزبير بضربة قاضية فى مكان بقرب كبكابيّة وقتلهما فى جمع كبير من الأتباع (٤).

---

(١) السيف والنار ص : ٨.

(٢) شقير ٣ ص : ٨٣.

(٣) شقير ٣ ص : ٨١.

(٤) نفس المصدر ص : ٨٢.

والذى مكّن للزبير من مباغتة بُوش وسيف الدين خيانة جبر الله طاهر لهما . وكان جبر الله هـذا من المرموقين بين زعماء الفور ،سوى أن طموحه جعله يتوق إلى الحكم عن أى طريق جاء ، فحين أرسله بوش للتجسس على قوة الزبير تبع هوى نفسه فاستجاب لإغراءات الزبير الذى مناه بمنصب كبير ، فدلّه على معسكر بُوش وسيف الدين (١) .

وكان لهزائم الفور المتصلة أثر فى إضعاف مقاومتهم فانزووا سكوتاً،ولكن إلى حين . فمع شروق عام ١٨٧٧ تقدم هارون بن سيف الدين صفوف الفور فى ثورة عارمة رددت أصداءها قمم جبل مّرة ، وتجاوب مع نفيرها السهل الذى يحيط بذاك الجبل من كل جنب. ولأعوام ثلاثة صاول هارون جند الحكومة فى عناد وصبر ،حتى تقطعت به الأسباب ولم يعد للنجاة سبيل ، فلقى الموت كمن سبقه من قادة الفور فى ثبات وعزم . ولعل من أبرز الدواعى لعنف ثورة هارون وطول إستمرارها رغم تفوق جيش الحكومة عليه فى العدة والنظام إحساس من ايدوه بفداحة الضرائب التى فرضت عليهم ومالقوه من عنت وجهد فى سدادها (٢) .

وأتخذ هارون من نُورينا بجبل مرة قاعدة لنشاطه ، فلما اجتمع له من الأتباع خلق كثير ، زحف نحو الفاشر وحاصرها حتى ضاق بمن فيها الخناق ولم ينقذها من الخراب غير نجدة جاءتها من الخرطوم (٣) . وتلى وصول النجدة حضور غردون إلى الفاشر،وكان غردون قد حـل بالخرطوم حكمداراً للسودان (٤) فبارحها للتو قاصداً دارفور التى أزعجته أخبار ثورتها منذ دخوله مصوع (٥) .

ولم يكتف غردون بطرد هارون من أسوار الفاشر، بل نظر فى علة اضطراب دارفور، فرأى فى الحكم المباشر والضرائب الباهظة سبباً للداء ، فعمل على استئصاله بأن أمر بالرفق فى تحصيل المكوس، كما عزل أعداداً كبيرة من الباشبوزق ، وأرجع عدداً من الجند النظامى إلى الأبيض كى تنخفض منصرفات الإدارة، فيقل الضغط الإقتصادى على الناس . ثم اقترح على الخديوى انتداب واحد من أبناء السلطان ابراهيم

---

(١) السيف والنار ص :٥٥.

(٢) شقير ٣ ص :٩٣.

(٣) المصدر السابق: نفس الصفحة ، مخابرات السودان؛ ١٠٣/١٢/٢.

(٤) أنظر ص : ٥.

(٥) السودان فى قرن ص ١١٦.

قرض المقيمين بالقاهرة ليقوم بمهام دارفور نيابة عن الحكومة (1) . وليس فى هذا الرأى من جديد إذ نادى به من قبل الزبير حين أيد مطلب الأمير حسب الله بجعله سلطاناً على دارفور نظير جزية سنوية (2) .

على أن إجراءات غردون لم تغير فى واقع دارفور شيئاً ، خاصة وأن الخديوى عارض فى إئتمان واحد من أبناء السلطان ابراهيم على إدارتها (3) . فظلت لهذا بواعث الثورة قائمة ، وأمتد أجلها . فبعد قليل من عودة غردون إلى الخرطوم إنحاز سكان جبل سى إلى هارون ، فعظم بمساندتهم خطره ، وخشى حسن باشا حلمى من إتساع دائرة الثورة ، فانطلقت جيوشه من الفاشر فى مطلع ١٨٧٨ لتأديب هارون ، بيد أنها اندحرت مرتين ، فازدادت الثورة إشتعالاً ، وأزيح حسن حلمى من منصبه بدعوى تقصيره وعدم كفاءته . ثم اختار غردون المقدوم رحمه قُومو – وكان من علية الفور – لتولى شئون دارفور لحين وصول ابن السلطان ابراهيم الذى أرسل فى طلبه من القاهرة . وأمل غردون أن يسر الفور لهذا الإختيار فتهدأ خواطرهم ويتوقفون عن القتال ، لكن الثوار لم ينخدعوا فشددوا النكير على الحكومة ، وخاب لذلك ظن غردون فعمد إلى حرب هارون وأوكل إلى إيطالى يسمى «مساد اليه» النهوض بتلك المهمة بعد أن جعله مديراً عاماً لدارفور (4) .

وأجتهد « مساد اليه» فى مكافحة هارون يعاونه ايطالى آخر يدعى « امليانى » غير أن «مساداليه» أخفق فى القضاء على خصمه العنيد رغم كثير من الهزائم التى أنزلها به ، ذلك أنه تعيّن على «مساد اليه» مؤازرة «جسى» (5) فى قمع هبة سليمان الزبير (6) . وكان سليمان

---

(١) شقير ٣ : ص ٩٤ ، السيف والنار ص ٥٨.

(٢) شقير ٣ : ص ٨١.

(٣) مخابرات السودان : ١٠٣/١٢/٢. جاء شقير بغير هذا فقال إن واحداً من هؤلاء الأبناء أرسل فعلا من القاهرة استجابة لرغبة غردون ، ولكنه توفى فى دنقلا قبل أن يبلغ الخرطوم. أنظر شقير ٣ ص : ٩٤.

(٤) مخابرات السوان ٢-١٢-١٠٣.

(٥) رمولو جسى (١٨٣١ – ١٨٨١) من أبرز الرجال الذين إستخدمهم غردون لمعاونته فى ايقاف تجارة الرقيق بالسودان. وقد ولد بايطاليا من أب إيطالى وأم أمريكية ، وهو ممن حاربوا تحت قيادة بطل الوحدة الايطالية «غاريبلدى » . وجاء جسى إلى السودان أول مرة فى صحبة غردون وقت إمارته على المديرية الإستوائية ، فكان له خير عون. ومن أعمال جسى الكبيرة الإبحار حول بحيرة البرت ومسح جغرافيتها. وبنهاية المهمة فارق جسى السودان ليعود اليه مرة أخرى سنة ١٨٧٧ فى بعثة لإكتشاف منابع النيل الأزرق ، فلما فشلت البعثة فى إدراك غرضها أغراه غردون بالعمل معه ثانية ، فراق العرض لجسى ، فعينه غردون مديراً لبحر الغزال ورمى به سليمان الزبير ، أنظر هل : ص ١٣٣ – ١٣٤ .

(٦) مخابرات السودان : ١٠٣/١٢/٢.

قد عسكر بجيشه فى دَارَه بعد سفر الزبير إلى القاهرة،ورفض الانصياع لأمر اسماعيل أيوب بالعودة إلى بحر الغزال، تعبيراً عن سخطه على الذى حل بأبيه وعن رغبة رجاله فى البقاء بدارفور والانتفاع بخيراتها ، فلما وفد غردون على دَارَه فى زيارته الأولى لدارفور استرضى سليمان بتعيينه مديراً على بحر الغزال فنهض إليها ليشتبك هناك بإدريس ابتّر الذى أنابه الزبير على بحر الغزال وقت غزوه لدارفور . وإذ خشى إدريس على نفسه من بطش سليمان هرب إلى الخرطوم ودّس لغريمه عند غردون الذى استمع إلى الوشاية، وأمر بإبعاد سليمان من منصبه، وتعيين إدريس فى مكانه، ثم أمد هذا بعدد من الجنود وقدر من السلاح والذخيرة . ومبعث ذلك التحول فى سياسة غردون أنه قرر محاربة سليمان بحسبانه رمزاً وتجسيداً لتجارة الرقيق . وكان غردون كما شهدنا قد سعى إلى استمالة سليمان ومصالحته ، ثم يئس من صلاحه إستناداً على مانقله اليه إدريس من خبر سليمان .

ورجع إدريس أبتر إلى بحر الغزال لينهزم أمام قوات سليمان، فتثبت غردون فى إعتقاده باستحالة إنصياع سليمان فأعلنها حرباً شعواء عليه، وجعل «جسى» على رأس حملة أقلعت من الخرطوم فى يوليو ١٨٧٨ . وانحاز الى صعيد «جسى» عدد من تجار بحر الغزال المناوئين لسليمان ، بينما انضم إلى صفوف هذا نفر كبير من الرزيقات والهبانية الذين أضرت حرب الحكومة لتجارة الرقيق بمنافعهم .

واصطرع «جسى» بسليمان فى عدة وقائع وتكبد كلاهما كثيراً من الخسائر ، لكن لواء النصر إنعقد فى النهاية لجيش الحكومة ، فأخلى سليمان ديم الزبير فى مايو ١٨٧٩ ،وانسحب إلى جنوب دارفور استعدادا لملاقاة «جسى» فى جولة جديدة . وانتقلت بهذا أسباب الاضطراب إلى أرض البقارة بعد أن طبعت آثارها على حياة بحر الغزال . ومن علامات ذلك أن أنشق الرزيقات والهبانية على أنفسهم فأيد فريق من الرزيقات بقيادة الشيخ مادبو على (١) وآخر من الهبانية بزعامة الشيخ العريفى أحمد «جسى» فى ملاحقة سليمان بينما بقى من تعاطف مع هذا الثائر من رجال هاتين القبيلتين على ولائهم له .

---

(١) ولد مادبو على حوالى ١٨٤٤ : إذ قدر جسى عمره حين التقيا عام ١٨٧٩ بخمس وثلاثين سنة. وكان مادبو شيخا على أهله أولاد محمد وهم فرع من الماهرية. ولما ثار هارون ساعد مادبو المسئولين فى قتاله فكافأه غردون بتسميته شيخا على الرزيقات كلهم ، وهى الوظيفة التى كان يشغلها عند قدوم جسى إلى جنوب دارفور. أنظر :

Romolo Gessi: Seven Years in the Sudan, London (1892) pp 297, 300.

ثم السيف والنار ص : ٢٢ وماكمايكل: مذكرات ص : ٩.

واستدعى تطور الأحداث على تلك الصورة سفر غردون للمرة الثانية إلى دارفور ، فمر بشَكا فى أبريل ١٨٧٩ ،وأمر شيوخ القبائل بطرد التجار المنبثين فى ديارهم وحصرهم فى المراكز الكبيرة عقاباً لهم على تأييدهم لسليمان ومده بالسلاح والمال . ثم التقى غردون «بجسى» فى الطويشَه ورسما معا خطة القضاء على سليمان ، ومن ناحية أخرى وجهغردون «مساد اليه» إلى التكاتف مع «جسى» ، فهب لمساعدته ، وفى ذلك دلالة على أن غردون رأى فى حركة سليمان خطرا أكبر من ثورة الفور ، فاختار الخلاص من سليمان قبل أن يستفحل خطره أو تتحد جهوده مع هارون .

وكان لغردون الذى أراد . فقد تحول «جسى» بقواته من شَكا الى دَارَه ثم قصد الكَلَكَه حيث كان سليمان يعسكر فى ضواحيها .

وجنح «جسى» إلى التفاوض لما أحس فى سليمان ضعفاً عساه يجبره على الإذعان، فبعث بمن يعرض عليه الصلح دون قتال . وأحدثت خطة «جسى» صدعاً بين رفاق سليمان ، إذ مال بعضهم وكانوا كثراً إلى مصالحة الحكومة . ولم تأمن بقيتهم غدر «جسى» ، فقرروا الاستمرار فى المقاومة . لكن صوت الأغلبية إرتفع فوق حجة المعارضين ، فسلم سليمان « لجسى » فى ١٤ يوليو ١٨٧٩ ، ليقتل رمياً بالرصاص في نفر من كبار أتباعه فى اليوم التالى لتسليمهم بحجة اتفاقهم سراً على نقض الصلح والغدر «بجسى» (١) .

وأذن مقتل سليمان بنهاية هارون ، فلئن صعب على «مساد اليه» الايقاع بقائد الفور وسليمان مازال ثائراً ، فليس من سبب يدعوه إلى التقاعس عن طلبه بعد مصرع سليمان وذهاب ريحه . بل أن « مساد اليه» ومعاونيه جدوا فى مطاردة هارون حتى قضوا عليه .

ويلمع فى هذا الصدد ذكر رجل إرتبط بعهد الأدارة التركيه الأخير فى دارفور ، ثم اقترن بتاريخ السودان كله فى السنوات الأولى للحكم الثنائي ، ذلكم هو «رودلف سلاطين» النمساوى الأصل والذى ولد قريباً من فينا سنة ١٨٥٧ . وقد زار سلاطين السودان أول مرة فى ١٨٧٤ ، فاشتغل فترة مساعداً للقنصل الألماني فى الخرطوم ثم طاف بكردفان وقصد الذهاب إلى دارفور ، لكن تعليمات الحكمدار اسماعيل ايوب بعدم دخول الأجانب فيها صدته عنها ، فرجع إلى الخرطوم ومن هناك سافر إلى بلاده . غير أن القدر جاء بسلاطين مرة ثانية إلى السودان ، ففى ١٨٧٨ دعاه غردون للانخراط فى خدمة الإدارة التركيه فلبى سلاطين النداء وعاد إلى الخرطوم فى ١٥ يناير ١٨٧٩

---

(١) استقيت احداث ثورة الزبير من : شقير ٣ ص : ٩٦ – ٩٩ ، ١٠١ ، السيف والنار ص ١٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٨ ، مخابرات السودان ١٠٣/١٢/٢.

ليعمل مبدأ الأمر مفتشاً عاماً للضرائب ، ولما لم يعجبه الإستمرار فى تلك الوظيفة طلب الاعفاء فعينه غردون مديراً لدَارَه (١) .

وامتشق سلاطين الحسام لقتال هارون، ولما ينقضى شهر على وصوله إلى َدارَه،إذ أشار عليه«مساداليه»بالإغارة على نُورينا من جهة الجنوب ، بينما زحفت صوبها قوات الفاشر من الشمال . وكان«مساد اليه»قد نقل جيش كلْكل إلى كبكابيّه لحصر هارون فى جبل مّرة والإطباق عليه . بيد أن هارون أفلت من المصيدة فتسلل من الجبل قبل أن تداهمه قوات الحكومة (٢) ثم تعاقب مع سلاطين على دَارَه بأمل اقتحامها وهى خالية من الجند . وباءت محاولة هارون بالفشل إذ كان بَدارَه من يحميها ويدفع عنها العدوان فاتجه إلى منَواشى وخربها (٣) .

وسمع سلاطين بهجمات هارون على دَارَه ومَنواشى ، فقرر مطاردته رغم ما أصاب عساكره من إعياء اثناء تسلقهم لقمم جبل مّرة والسير فى شعابه . وبعد جهد جهيد لحق سلاطين بهارون بغرب الجبل ، والتحم به ، على أن هارون إنسل من قبضة خصمه وفر إلى دار قمر علها تأويه بعد أن طوقت جيوش الحكومة جبل مّرة فلم يعد ذلك المعتصم المنيع (٤) . وكأنما سار هارون بفعله ذاك برجليه الى قبره . فسريعاً مابلغ خبره النور عَنْقره مدير كلْكل ، فتعقبه حتى أوقع به وقتله فى مارس ١٨٨٠ (٥) .

وهوى بمصرع هارون مكافح عنيد ، على أن الراية التى رفعها لاسترداد عرش الفور لم تسقط بموته ، فقد إلتف الفور حول عبد الله دُودْ بَنْجَه بن بكر ابن السلطان محمد الفضل (٦) لإكمال العمل الذى بدأه هارون ، وتحقيق الهدف الذى مات من أجله (٧) . وتسلم دُودْ بَنْجه الرسن راضياً ، لكن سفينه لم يكن فى قوة سفين هارون، وقيادته لم تكن فى مضاء وصلابة سلفه . فبينما خرج هارون لقتال الحكومة فى جهات

---

(١) السيف والنار ص : ١ — ٥ ، هل ص : ٣٣٩.

(٢) السيف والنار ص : ٧٤ ، مخابرات السودان : ١٠٣/١٢/٢.

(٣) السيف والنار ص : ٧٩ — ٨٠.

(٤) المصدر السابق ص : ٨٣ — ٨٤.

(٥) نفسه ص : ٨٥ ، مخابرات السودان : ١٠٣/١٢/٢.

(٦) مخابرات السودان: ٣٩/٣/٥.

(٧) نفس المصدر ، شقير ٢ : ص : ١٦٥. مازال الفور يذكرون الصيحة التىأطلقها جدودهم بعد مقتل هارون وهم يستنهضون دود بنجه. وكانت الصيحة: هارون مافى هارون مافى ، دود بنجه ، دود، اى قتل هارون فانهض مكانه يا دود بنجه وتول قيادتنا.

متعددة وأصلى جنودها ناراً حامية إعتصم دُودْ بَنْجَه بجبل مّرة (١) فانحصر نشاطه فيه حتى دخل الأنصار دارفور فأذعن لهم دون كبير مقاومة (٢) .

وبرغم الهدوء الذى شمل دارفور بنهاية ثورة هارون ونتيجة لتراخى دُودْ بَنْجَه فى مناهضة الحكم التركى إلا أن الأهلين ظلوا ساخطين متذمرين ، فبقيت إدارة دارفور على حالها من عدم الإستقرار ، بل زادت اهتزازاً بفعل التغييرات السريعة التى جرت فى جهازها الرئيسى. فحين فصل محمد رؤوف «مساد اليه» من منصبه كمدير عام سنة ١٨٨٠ (٣) عين مكانه على بك شريف ، لكن هذا فارق دارفور ولما يدور الحول دورته ، فخلفه سلاطين بك فى أبريل ١٨٨١ (٤). كان ذلك قبل إندلاع نار الثورة المهدية بأربعة شهور ، فلما امتد اللهيب إلى دارفور تضاعف اضطرابها ، فألفى سلاطين نفسه فى موقف عصيب وسعى جاهداً لمكافحة الثورة ، غير أنها انتشرت ثم عصفت به .

---

(١) افادنى الشيخ سيف الدين سمين ، وهو فوراوى من سكان جلدو ، بأن دود بنجه كان يقيم فى فاريا على بعد عشرة أميال جنوبى جلدو.

(٢) مخابرات السودان: ٣٩/٣/٥ ، السيف والنار ص : ٨٥ أنظر كذلك ص ١١٥.

(٣) أنظر ص ٥٤.

(٤) السيف والنار ص : ١٠٣.

# الفصل الأول

# إنتصار المهدية فى دارفور

## أ – بداية الثورة :

تواترت الأنباء على أهل جنوب دارفور بظهور المهدى ثم بانتصاره على الحكومة فى واقعتى أبا وراشد (١) فتهامسوا ، وإعتملت فى نفوسهم إنفعالات الثورة ، فعلا الهمس . ثم تحول الهمس إلى صيحة سرعان ماارتفعت ، فدوى النفير إيذاناً ببداية الثورة فى دارفور . وعلم «سلاطين» بالخبر فى دار الزغاوة ، وكان فى رحلة تفتيشية بها ، فقفل راجعا إلى الفاشر فى مطلع عام ١٨٨٢ (٢) . وهناك وجد رسالة من «املياني» نقل اليه فيهاخبر الثورة ، وكان «املياني» عين لإدارة دَارَه بعد هزيمة هارون ، فشد إليها «سلاطين» الرحال على رأس ثلاثمائة وخمسين من الباشبوزق تحت إمرة عمر بك محمد خير ترّحوا (٣) لقمع الثورة قبل أن يستفحل خطرها .

ومات «املياني» قبل رجوع «سلاطين» من دار الزغاوة ، فولى محمد بك خالد زُقَل (٤) امرة دَارَه خلفاً له ، فلما جاءها «سلاطين» أطلعه زُقَل على حقيقة الموقف فتبين له أن الثورة لم تخرج عن طور إجتماعات يعقدها بعض من زعماء قبائل الرزيقات والهبانية فى منطقة شَكا ، وإن كانت بوادر اللجوء إلى العنف قد ظهرت بين صفوفهم . فقد

---

(١) أنظر ص : ٣.

(٢) السيف والنار ص ١٠٦ – ١٠٧.

(٣) كان عمر ترحوا قائدا للباشبوزق الشاقية فى حامية الفاشر حين قدم اليها سلاطين أول مرة ، وكان ذا نفوذ قوى بين اتباعه. أنظر : المصدر السابق ص : ٥٨.

(٤) ولد محمد خالد زقل بدارفور ، وبدأ حياته تاجراً بسيطاً ، ثم أثرى فعلا شأنه. ولما فتحت دارفور إنخرط زقل فى خدمة الإدارة التركيه ، فتقلب فى مناصب عدة حتى أصبح مديراً لداره بالنيابة ( السيف والنار ص ٢٢ ، ابراهيم فوزى : السودان بين يدى غردون وكتشنر (جزءان) القاهرة (١٣١٩هـ) جزء أول ص١٤٣ ، (هل ص ٢٦١)). وقد ورث زقل مهنة التجارة عن أبيه الذى قضى شطراً من حياته فى دار برقو وعاش بين أهلها محمود السيرة ، ثم رحل عنهم واستوطن دارفور ( مهدية : ٨/٢/٢/٣٥/٢ القعدة ١٣٠٩ الموافق ١٩ أغسطس ١٨٨٥ – أجاويد برقو إلى محمد خالد) وكانت لزقل صلة قربى بالمهدى وهى أنه إبن عمه (مهدية ٢٨/١٠/٨/١٠/١ ربيع أول ١٣٠١ الموافق ٢٧ يناير ١٨٨٤ الخليفة إلى محمد خالد) وليس عماً له كما ذكر الأ ب اهروالدر :

F. R. Wingate: Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp (From the Original Documents of father J. Ohrwalder) London (1802) p 93.

اعترض الرزيقات جماعة مادبو على طريق ثلة من الجنود أرسلها «امليانى» قبل موته إلى شكا لمساعدة «مُنزل» بك فى تحصيل الضرائب (١) .

وراح سلاطين بعد أن وقف على طبيعة الأحداث فى شكا يرسم الخطط ويصدر التعليمات بغية القضاء على ثورة قبائلها ، وليمنع إمتداد نيران الثورة إلى القبائل الأخرى ، فكتب خطابابين إلى مادبو وعجيل يطلب منهما الحضور لمقابلته وإيقاف الاجتماعات التى كانا يعقدانها مع شيوخ آخرين وينصحهما بالانقياد للحكومة (٢). لكن سلاطين كان يعرف أن النصح لن يجدى وأن خير سبيل لحفظ الأمن فى شكا هو وضع حامية بها لتخضع قبائلها التى عاشت أمداً طويلاً على المغامرة والعصيان . ونجده لهذا يدفع بحملة مكونة من مائتين وخمسين من الجنود النظاميين بقيادة منصور حلمى ، ويطلب من أبّكر عمر ناقه سلطان البيقو الإنضمام الى الحملة ومساعدتها فى تنفيذ مهمتها (٣) .

على أن المخاوف ساورت نفس «سلاطين» حتى فى هذه المرحلة المبكرة من مراحل الثورة ، فهو غير مطمئن إلى قدرة الاداة الحكومية على السيطرة على قبائل دارفور ، فكيف يكون حاله إذا اشتد ساعد الثورة ؟ فقد شكا «سلاطين» من قلة الرجال والسلاح والذخيرة ، وتوجس خيفة من إنقطاع الصلة بينه وبين الخرطوم ، واتهم الضباط الأتراك والمصريين بالتقصير وسوء النية ، فهم يهملون تدريب جنودهم ويميلون إلى الدعة والراحة ولايحترمون أوامره بل أنهم شكوه إلى الخديوى (٤) . وشك سلاطين كذلك فى إخلاص بعض من كبار الموظفين الوطنيين كزُقل وعمر ترّحوا . فقد ترامى إلى مسامعه أنهما تحدثا فى أمر المهدى وقررا الإنحياز إلى جانبه لو صحت دعواه وتوالت انتصاراته (٥).

وعاد سلاطين بعد هذا إلى الفاشر لينظم جهاز الحكم فيها بما يتفق والظروف الجديدة وليعد نفسه لكل طارئ . وهناك جاءه خبر ثورة الحَمَر فى مركز أم شَنْقَه

---

(١) ألمعنا سابقاً إلى تسمية مادبو على شيخاً على عموم الرزيقات ( أنظر ص ٥٧ ) ويبدو أن مادبو قسا على مرؤوسيه من زعماء هذه القبيلة فخرجت زمرة منهم عليه ، وتصدى لقيادة المعارضين الشيخ عجيل ولد الجانقاوى الذى نافس مادبو فى رئاسة الرزيقات ، وحينما استحكم الخلاف تدخل «امليانى» لإصلاح ذات البين دون جدوى ، فاضطر لعزل مادبو وجعل منزلاً فى مكانه ، فغضب مادبو وتوجه مع أهله ساخطاً إلى بحر العرب . أنظر السيف والنار : ص ٩٣ ، ٩٥ ، ١٤٩ .

(٢) السيف والنار ص : ١٤٩.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) نفسه ص : ١٥٢.

(٥) نفسه ص : ١٥٠.

وتحطيمهم لمحطة تلغراف فُوجَه (١) . فانزعج لتطور الأحداث ، إذ أن ثورة الحَمَر تعنى أمرين : أولهما أن الثورة قد إمتدت إلى شرقى دارفور ، فاتسعت رقعتها بعد أن كانت قاصرة على جنوب دارفور ، مما أستدعى ارسال نجدة إلى حامية أم شَنْقَه ، فتوزعت لهذا جهود الحكومة وتشتتت قوتها الضاربة . وثانيهما أن الاتصال بكردفان والخرطوم أصبح أمراً صعباً . وما تلك إلا بداية لعزلة أكتملت حلقاتها حين دانت كردفان للمهدى بالولاء ، فانقطعت الصلة تماما بين «سلاطين» والخرطوم ، وانقطع معها الأمل فى وصول أخبار رسمية أو إمدادات تعينه فى المحافظة على مركز الحكومة .

وعمد «سلاطين» فى بداية الأمر إلى إنتداب من يثق فيهم من الناس فى توصيل أخباره إلى الخرطوم . وهذه بلاشك وسيلة إتصال بطيئة ، زيادة على أن أنصار المهدى كثيرا ماتعرفوا على رسل سلاطين وقطعوا عليهم الطريق (٢). وواجهت الحكمدارية نفس الصعوبة فى الاتصال بسلاطين ، حتى أنه لم يتلق من الخرطوم لمدة عام بأكمله غير رسالة واحدة جاءته من علاء الدين باشا (٣) تحمل اليه خبر استعدادات حملة «هكس» فى الخرطوم (٤) . ولئن احاطت بـ«سلاطين» منذ بداية الثورة صعوبات جمة فإن إنقطاع الاتصال بينه وبين الخرطوم كان من أبرز مشاكله ومن أكبر دواعى إنهيار الحكم التركى فى دارفور .

ولم يستسلم «سلاطين» لليأس ، فما زال خطر الثورة محصوراً فى جبهتين يمكنه السيطرة عليهما بما يملكه من عدة ورجال ، فندب الصاغ حسين ماهر ومعه مائتان وعشرة من الجنود النظاميين ، وثلاثمائة من الباشبوزق بقيادة عمر ترّحوا لتحصين مركز

---

(١) نشط الخديوى اسماعيل فى ربط السودان تلغرافياً بمصر كى تسهل السيطرة عليه ادارياً ولتشجيع الحركة التجارية فيه. وبدأ العمل فى مد خطوط التلغرف عام ١٨٦٤ فوصلت حلفا بعد سنتين ثم اتصلت الخرطوم بالقاهرة فى ١٨٧٤. وامتد الخط من الخرطوم إلى الأبيض ومنها إلى فوجه على حدود دارفور الشرقية فبلغها سنة ١٨٧٥. أنظر :

Richard Hill: Egypt in the Sudan, 1820–1881, Oxford (1959) pp. 130–131.

(٢) السيف والنار ص : ١٥٢.

(٣) كان محمد علاء الدين فى هذا الوقت حكمداراً على السودان ، وقد صحب حملة هكس كمسئول عن شئونها السياسية والادارية ، فقتل مع قائدها فى شيكان . أنظر : هل: ص ٤٣ – ٤٤ ، السودان فى قرن: ص ١٦٨ – ١٧١.

(٤) السيف والنار : ص ٢٤٥.

أم شَنْقه وتأديب عرب الحَمَر (1) وعاد هو الى دَارَه بعد أن أوكل إدارة الفاشر وقيادة الجند فيها الى سيد بك جمعة ، واتخذها قاعدة لنشاطه لأنها تهيمن على المنطقة التى يسكنها البقارة ، مهد الثورة ودعامتها الأولى فى دارفور كلها (2) .

ولم يخب ظن «سلاطين» فى مقدرة الحكومة على إخضاع قبائل شكا وتأديب الحَمَر . فقد علم بعد وصوله إلى دَارَه أن منصور حلمى شق طريقه فى يسر الى شَكا ، وأنه بمعاونة السلطان أبكر البيقاوى إتصل بشيوخ القبائل الثائرة بهدف إقناعهم بالعدول عما هم فيه ، ويبدو أن حلمى رأى فى أولئك الشيوخ ميلاً إلى الإذعان بعد أن تعزّز مركز الحكومة بوصول قواتها إلى شكا ، لكنهم كانوا يخشون بطش المسئولين فاقترح على «سلاطين» الحضور لمقابلتهم وبذل الأمان لهم (3) . وزاد من سرور «سلاطين» وفرحته مابلغه من استقرار الحال وهدوئه فى أم شَنْقَه بعد أن أوقع عمر تَرّحوا بالحَمَر فى الأصيفر التى تقع داخل حدود كردفان (4) .

وهكذا إنتهت المرحلة الأولى للثورة المهدية فى دارفور بانتصار الحكومة ، فهى مازالت قوية ، ومازال بالنفوس خوف من سطوتها خاصة فى المناطق التى بها حاميات كمثل الفاشر وكبكابيّة ودَارَه وأم شَنْقَه . ومن ناحية أخرى فإن أتباع الثورة كانوا يعملون كجماعات لاتخضع لقيادة موحدة ، زيادة على أن الانتصارات التى حققها المهدى بعد خروجه من قدير (5) والتى كان لها أكبر الأثر بعد ذلك فى تشجيع الثورة فى دارفور لم تصل تفاصيل خبرها لدارافور حينذاك .

**ب ــ ثورة مادبو :**

لم يعر مادبو دعوة «سلاطين» له بالحضور إلى دَارَه إهتماماً . وفعل مثل ذلك عجيل ولد الجانقاوى ، لكن مادبو ذهب مذهباً أبعد من عجيل فى معاداة الحكومة ، فبينما كان يقيم مع أهله فى بحر العرب وفد عليه رسول من قدير يعرض عليه دعوة المهدى ، فقبلها وخرج فى عدد من أتباعه ينشد قدير لأخذ البيعة . وانخرط مادبو بعد لقائه مع

---

(1) رمى سلاطين بعد أن شك فى اخلاص عمر ترحوا إلى إقحامه فى معارك ضد أتباع المهدى حتى يفرق بينه وبينهم ، ففى اتحاده معهم خطر كبير ( السيف والنار ص : 151).
(2) نفس المصدر ص 153.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) نفسه ص 155.
(5) نهض المهدى من قدير صوب الابيض فى 28 يوليو 1882 أنظر. شقير3 ص : 155 ، هولت ص : 53.

المهدى فى عداد الأنصار ، وأقام بينهم زمناً يتفهم الرسالة الجديدة ويتشرب مبادئها . وجاء جيش الشلالى لحرب المهدى فأبلى مادبو فى المعركة التى دارت بين الأنصار وتلك الحملة بلاءاً حسناً ، فعينه المهدى أميراً على قومه، وعقد له لواء الثورة بين قبائل البقارة. وأسرع مادبو الخطى عائداً إلى دار الرزيقات بعد أن زوده المهدى بكتب تحث الناس على الثورة ، وأمده بأسلحة وذخيرة وجياد تكون له عوناً فى نضاله المقبل . وبدأت بعودة مادبو مرحلة جديدة للثورة فى جنوب دارفور ناصبت أثناءها قبائل البقارة الحكومة العداء جهاراً ، وامتشق رجالها الحسام ، فتحولت ثورتهم من مجرد إجتماعات تعقد وصيحات ترتفع حيناً وتنخفض حيناً آخر إلى صراع دموى مسلح .

وثمة سببان أساسيان دفعاً بالبقارة عموماً،والرزيقات خاصة إلى مناهضة الحكومة وتلبية نداء الثورة المهدية ، أولهما أن مركزية الحكم التى كانت من أبرز خواص الإدارة التركيه حملت فى ثناياها عداء للنظام القبلى فى السودان ، ذلك أن الإدارة الجديدة عملت على إخضاع شيوخ القبائل لمديرى المديريات ونوابهم بعد أن كانوا سادة بين قومهم، يأمرون فيأتمر الناس بأمرهم ، وليس ذلك مما يتمشى مع طبيعة مجتمع القبيلة الذى يعشق الاستقلال وينفر من كل سيطرة تفرض عليه من خارج كيانه ، ولم يكن للبقارة أن يشذوا عن هذه القاعدة الإجتماعية وهم ممّن تغلغل روح القبيلة فى نفوسهم وكيّف حياتهم فخرجوا عن الطاعة . وماذاك بغريب ، فتاريخ البقارة السابق لعهد الإدارة التركيه غنى حافل بمواقف الدفاع عن حريتهم (١) ، فكيف يرضون بحكم سعى إلى هدم استقلالهم أكثر مما صنع سلاطين الفور ؟ .

ويتصل ثاني الأسباب بحرب الحكومة لتجارة الرقيق التى أفقدت البقارة مصدراً هاماً من مصادر الربح والغنيمة، فسخطوا وتبرموا (٢) . وهذه حقيقة يسهل بيانها إذا أدركنا أن أرض البقارة تتصل مباشرة بمصادر الرقيق فى بحر الغزال، ومن هنا نشأ إرتباطهم بالإتجار فيه ، فكانوا يتخذون من زنوج تلك المنطقة عبيداً لرعى بقرهم وخدمة منازلهم (٣) . ثم ازداد البقارة إرتباطاً بتجارة الرقيق يوم تحولت قوافلهم إلى جنوب دارفور هرباً من عين الحكومة وبطشها ، بعد أن شدد الخديوى إسماعيل الرقابة على

---

(١) انظر هولت ص ٤٢ – ٤٣.

(٢) هولت : ص ٢٨.

(٣) جسى : سبع سنوات فى السودان ص ٢٩٨ .

النيـل الابيض (١) ، فألفى البقارة أنفسهم يعملـون كوكلاء ومرشدين للتجار ، ودر عليهم ذلك ربحاً عظيماً ؛ لكنـه انقطع عنهم بعد فتح دارفور ، فتهيأت لهذا النفوس للثورة ، دليل ذلك أن«سلاطين» توقف عن ملاحقة المتجرين فى الرقـيق عند بداية الثورة أملاً فى تهدئة الخواطر (٢) ، بيد أن الذين قصد إلى استرضائهم استمروا فى مقاومته .

وهنالك غير هذين العاملين الرئيسيين بواعث أخرى حثت البقارة على مبارزة الحكومة وأغرتهم بالثورة عليها ، من ذلك إحساسهم بفداحة الضرائب التى ألزموا بدفعها كغيرهم من قبائل دارفـور (٣) ومنه قصر عمـر الإدارة التركيه بينهم وضعفها ، فعندما ظهر المهدى لم يكن إنقضى على العهد التركى فى دارفـور غير سبع سنوات ، وليس ذلك بوقت كاف لتأسيس حكم قوى ثابت الدعائم،خاصة وأن المسئولين انصرفوا لثلاثة أعوام متصلة ( ١٨٧٧ — ١٨٨٠ ) لقمع ثورتي السلطان هارون وسليمان الزبير(٤).

ومنه أيضاً إنطباع البقارة بحكم ظروفهم المعيشية على حب الحرب وأعمال الفروسية. وقد كان للرزيقات والهبانية فى هذا الميدان قدح معلى ، فهم يغيرون حباً فى القتال وطمعا فى الغنيمة ، ووجدوا فى جيرتهم أهل « السـودان » فريسـة سهلة يفترسونها كلما ضاق بهم العيش (٥) وفى خروج الرزيقات على إتفاقهم مع الزبير ونهبهم لقوافل التجارة آية أخرى على تأصل نزعة الحرب فيهم ، وقـد نمت هذه النزعة بسبب إزدياد قوة القبيلة العسكرية إثر مقتل سليمان الزبير ، إذ كافأ «جسى» مادبو على مساهمته فى مطاردة سليمان بأن خصه بحصة كبيرة من بازنقر سليمان وسلاحه (٦) .

رجع مادبو إذن إلى دار الرزيقات ليرفع راية الثورة بين البقـارة ويسوّى حساباً طال عليه الزمن بينه وبين الحكومة ، فهو لم ينس مناصرة رجالها لمنافسيه فى زعامة الرزيقات وعزله من منصبه (٧) . والحقيقـة أن الإمارة التى خلعها المهدى على مادبو رفعت من شأنه ومنحته فرصة عظيمة لبسـط نفوذه على الرزيقات، وعلى أنصار الثورة

---

(١) انظر ص : ٤٨.
(٢) السيف والنار : ص : ١٨٢.
(٣) أنظر ص : ٥٢.
(٤) أنظر ص : ٥٢ — ٥٩.
(٥) ونجت: المهدية والسودان المصرى ص ٩، جسى: سبع سنوات ص: ٢٩٨،هولت ص : ٣٥.
(٦) السيف والنار ص : ٢٩.
(٧) انظر ص : ٦٨.

من أفراد القبائل الأخرى . فما أن وصل إلى الضعين ونشر بين الناس رسالة المهدى ، حتى توافدت عليـه جموعهم والتفوا حـوله ، وعاهدوه على الخروج علـى الحكومة ومحاربتها (١).

وفى أيام قليلة إجتمع لمادبو مئات من الأتباع هجم بهم على جماعة من جنود الحكومة كانوا قد خرجوا من شكا بأمر من منصور حلمى لجمع الغـلال (٢) ، ثم زحف بجيشه على شكا وأوقع بحاميتها التى خرجت لصد هجومه ، وقضى على رجالها عدا قلة — كان من بينهم السلطان أبكر البيقاوى — تمكنت من الهروب والتحصن بالإستحكامات التى بناها منصور حلمى. وبذا بدأ الصراع المسلح، فكان نصراً مبيناً للثوار إذ ظفر مادبو فى الموقعة بثلاثمائة بندقية وقدر كبير من الذخيرة (٣) ، فإزداد قوة وجرأة بينما تكشف للناس ضعف الحكومة ، فانضم إلى صفوفه أناس خافوا قبل هذا من سطوتها وجبروتها .

وصعب على مادبو اقتحام تحصينات شكا ، فعاد إلى الضعين ليجد «سلاطين» إحتلها فى غيبته . وكان «سلاطين» قد خرج من دارة استجابة لإقتراح منصور حلمى بضرورة إجتماعه بشيوخ القبائل الثائرة دون أن يعلم برجوع مادبو من قدير (٤) فكتب مادبو إلى «سلاطين» يطلب منه التسليم بعد أن روى له قصة إندحار الشلالى، وإنتصاره على حامية شكا، ولم يعبأ «سلاطين» بما جاء فى خطاب مادبو من تهديد ووعيد، لكنه أحس بالأرض تهتز تحت رجليه ، فقرر التراجع إلى دارة خوفاً من إغارة مادبو عليه وليس معه من الرجال والسلاح مايمكنه من ملاقاته فى ساحة الوغى . فقد أرسل مائة وخمسين من جنوده ومدفعاً وقدراً من الذخيرة كإمداد لحامية شكا ، ولم يبق له غير مائة وعشر جندياً (٥) زيادة على عدد من رجال الهبانية والمعاليا الموالين للحكومة برئاسة العريفى

---

(١) السيف والنار : ص ١٥٦.

(٢) السيف والنارص ١٥٧.

(٣) F. .R. Wingate: Mahdism, p 24.

(٤) السيف والنار : ص ١٥٤.

(٥) نفس المصدر : ص ١٥٧.

أحمد ومحمد على أبو سلامة (١) .

وصدق حدس «سلاطين». فقد أغارت طلائع الأنصار على معسكره فى الضعين بعد إستلامه لخطاب مادبو بساعات قليلة ، لكنه صدهم (٢) ثم أرسل من يأتيه بخبر مادبو ، فعلم أنه مقيم برجاله على مقربة من معسكره دون أن يحتاط لشر هجوم مفاجىء ، فاستصوب «سلاطين» مباغتة العدو وهزيمته حتى يسهل لجنوده التراجع إلى دَارَه ، فداهمه على حين غرة ، فساد الإضطراب صفوف الأنصار وانهزموا هاربين ، وقتل من صبر منهم على القتال. ثم أشعل «سلاطين» النار فى معسكر مادبو واسرع راجعاً إلى الضعين وقد غنم عدداً من البنادق (٣) .

وفى صباح اليوم التالى لهذه الموقعة تراجع سلاطين إلى دَارَه يقينا منه بأنه لن يقوى على مصادمة مادبو فى معركة مكشوفة وراح الأنصار يشيعونه بهجمات مستمرة ليومين متواليين دون ان ينالوا منه مقتلاً (٤) . واخيراً بلغ سلاطين بر الأمان ودخل دَارَه بين مظاهر البشر والترحاب ، وطفق يعمل فى همة لإعداد حملة ينازل بها مادبو ويعيد بها للحكومة هيبتها ونفوذها ، فطلب نجدة سريعة من الفاشر ، وأرسل مائة وثمانين من الجنود النظاميين إلى الهَشَابَة التى تقع على مسيرة يومين جنوبي دَارَه ليكونوا طليعة لزحفه على شكا ، فيستيقن الناس أن الحكومة مازالت قادرة على تأديب كل خارج على أمرها ، وطلب إلى الغريفى أحمد العودة إلى الكَلَكَه حتى يُبقى أنصار الحكومة من الهبانية على ولأهم (٥) .

---

(١) انضم شيخ المعاليا محمد على ابو سلامة إلى ركب سلاطين فى الكلكه (المصدر السابق ص ١٥٥) ، اما العريفى احمد فلحق به فى الضعين، ويبدو أن معاداة العريفى لمادبو مرجعها الخصام بين الهبانية والرزيقات وهو خلاف قديم اثر كثيرا على علاقات القبيلتين قبل المهدية وأثناءها . فقد ذكر جسى فى مؤلفه (سبع سنوات فى السودان: ص ٢٩٧) انه وجد الهبانية والرزيقات على خلاف شديد حين قدم إلى جنوب دارفور. وروى لى شيوخ التقيت بهم فى الكلكة قصة حروبات نشبت بين الفريقين ، فمرة اغار مادبو على الهبانية مستعينا بالبرقد والمسلات ، فاوقع به خصومه ، وقتلوا عقيد خيله المدعو ابو دقيدى فأنشد شاعر الهبانية يعير الرزيقات:
لمو (أى جمعوا) الرزيقات برقد مع مسلات
عردوا (أى هربوا) شمات
خلوا ابو دقيدى مات.

(٢) السيف والنار ص : ١٦١.

(٣) نفس المصدر ص : ١٦٢.

(٤) نفسه: ص ١٦٣.

(٥) نفسه :ص ١٦٨.

بيد أن البنيان الذى سعى «سلاطين» إلى شد أطرافه أخذ فى التداعى ، فقد تنكر له محمد أبو سلامة وانحاز إلى صف مادبو بعد أن قويت شوكته (1) . و ما كان أبو سلامة ليؤيد «سلاطين» مبدأ الأمر إلا حرصاً على منصبه، وخوفاً من بطش الحكومة، أما وقد بهرته إنتصارات مادبو ورأى فى مناصرة الدعوة المهدية فرصة أكبر للزعامة والمجد ، فماله يسند عرشاً قد تهاوى ؟ وتلقى «سلاطين» الضربة الثانية بانسحاب منصور حلمى من شَكا بحجة أن نجدة سريعة لم تصله ، وأن مادبو أحكم الحصار عليه فلم يكن بد من الفرار (2). وتمت لمادبو نتيجة لإنسحاب منصور السيطرة على اقليم شَكا كله ، وهو أمر زاد من صعوبات «سلاطين» فى منع بنيانه المتداعى من الإنهيار .

على أن «سلاطين» واصل برغم توالى الضربات عليه مسعاه لتكوين جيش يحمل به على مادبو ، واستعان فى ذلك بتجار دَارَه والقبائل المجاورة لها ، فاجتمعت له أخيراً قوة مكونة من ٥٥٠ من الجنود النظاميين و ٢٠٠ من الجلابة و ١٣٠٠ من البازنقر و ٧٠٠٠ من فرسان البرْقد والدَاجُو والبيقو والمسيرية والمعاليا وغيرهم (3) . وقد كشف تكوين هذه الحملة عن حقيقتين هامتين هما : أن «سلاطين» لم يكن يملك قدراً كافياً من الذخيرة أو البنادق الصالحة للإستعمال، فتراه يلح فى طلب الذخيرة من الفاشر، غير أن مديرها إعتذر عن إجابة طلبه لعدم وجود جمال تحمل الذخيرة إلى دَارَه ، ونراه أيضاً يشكو من قدم البنادق التى بحوزته .

والحقيقة الثانية هى أن الخلافات القبلية لعبت دوراً كبيراً فى تكييف أحداث الثورة فى صعيد دارفور ، إذ كانت أغلبية رجال الحملة من أهل « السودان » الذين خبروا إغارات البقارة عموماً، والرزيقات خاصة، وخافوا أن تمكنهم الثورة إن قدرلها النجاح من السيطرة على أرضهم. وكان بين أفراد الحملة أيضاً قسم من المعاليا المعارضين لمحمد أبو سلامة . ولايجب أن يغيب عن البال أن الخوف من سطوة الحكومة فرض على تلك القبائل تأييدها لأنهم يسكنون المنطقة المجاورة لدَارَه ومازالت قبضة سلاطين قوية عليها (4) .

---

(1) السيف والنار : ص ١٦٤.

(2) نفسه ص : ١٦٥.

(3) نفسه : ص ١٨١ – ١٨٢.

(4) نفسه : ص ١٦٩.

وفى نهاية أكتوبر ١٨٨٢ غادرت الحملة الهَشَابة فى طريقها إلى الضعين ثم شكَا ، وقلب سلاطين مفعم بالأمل ملىء بالثقة فى انتصار حاسم على مادبو (١) ، لكن الظروف قضت بغير الذى أراد فإنقلب النصر الذى تمناه هزيمة والأمل خيبة وضياعاً . دخلت الحملة الضعين دون مقاومة وأستولى سلاطين على مابها من غلال ، وأقام بها أياماً تنسم أثناءها أخبار مادبو ، فلم يوافه جواسيسه بخبر يقين ، لكنه سمع بأن مادبو يقيم برجاله جنوبي شكَا (٢) فزحف بحملته نحـــوها بعد أن اطمأن إلى وفرة المياه فى الطريق . وبعد مسيرة يومين تعرضت خلالها الحملة لهجمات خاطفة من فرسان الرزيقات حط «سلاطين» رحاله فى أم ورَقَات ، ثم عاود المسير فوق أرض موحلة والشعور بالثقة فى النصر يملأ عليه أقطار نفسه ، إلا أن كارثة عظيمة الأثر بعيدة الخطر حلت به ؛ ولما تمضى ساعتان على مغادرته لأم ورَقات ، فقد فاجأه مادبو بهجوم عنيـف على مؤخرة جيشه ، فاضطربت صفوف الحملة وسادها الهرج ، فانهمر الأنصار على قلبها وأوسعوا رجالها ضرباً وقتلاً (٣).

وانجلت المعركة عن هزيمة منكرة لسلاطين . قتل مايزيد على السبعة آلاف من جيشه بينهم عشرة من الضباط وعدد من شيوخ القبائل ، وفقدت أسلحة كثيرة (٤) . فكانت قاصمة الظهر ، إذ تعذر على «سلاطين» بعد واقعة أم ورقات أن يشن هجوماً مماثلاً على مادبو ، وترددت القبائل التى آزرت «سلاطين» كل هذا الوقت فى مواصلة تأييدها له حتى لاتستعدى الأنصار عليها فتصبح أرضها وممتلكاتها هدفا لغاراتهم ، وهى عاجزة عجز الحكومة نفسها عن حربهم ، هذا بينما ازداد الأنصار حماساً واندفاعاً ، فقويت الثورة واشتد ساعدها ، وبات من الميسور لمادبو إنتهاج خطة هجومية ، فتطلع إلى دارَه وراح يعد العدة لإخضاعها .

وبقى «سلاطين» سبعة أيام فى أم ورَقات يدفن موتاه ويعالج الجرحى من رجاله وكانت أياماً عصيبة ، فزيادة على إنحطاط معنويات جنوده وإنعدام الغلال تعرض لغارات متصلة من الأنصار لم يدرأ خطرها عنه إلا تلك الزريبة المنيعة التى بناها بعد المعركة مباشرة (٥) . وتنسم سلاطين فى ذات الوقت أخبار مادبو ، فعلم أن محمد أبو سلامة

---

(١) السيف والنار : ص ١٨٣.

(٢) نفسه ص : ١٨٤.

(٣) نفسه ص: ١٨٦ – ١٨٧.

(٤) نفسه ص : ١٨٩.

(٥) نفسه ص: ١١٥.

وعدداً من شيوخ الهبانية مازالوا على ولائهم له، بل أنهم صاروا أكثر استمساكاً بحلفهم معه بعد أن ذاقوا حلاوة النصر . وعلم كذلك أن الشيخ يانكُو الذى اشترك برجاله فى أم وَرَقات عاد إلى بلاده ومعه فريق من فرسان الرزيقات لبث دعوة المهدية فى بحـــر الغـزال (١) .

ثم جاء إلى سلاطين رسول من مادبو يطلب منه التسليم وينقل إليه خبر حصار المهدى لمدينة الأبيض ، ولنا أن نتصور وقع النبأ على نفس سلاطين ، فبينما يهزم هو فى جنوب دارفور تتعرض عاصمة كردفان وحلقة الوصل بينه وبين الخرطوم لمحنة الحصار . إلا أن سلاطين قاوم الاحساس بالهزيمة فرفض التسليم لمادبو ، وكتب الى «لوبتن» بك مدير بحر الغزال يستعين بـه فى محاربة الهبانية والرزيقات الذين يعيشون على حدود مديريته حتى لايدخلوا دارفور وتتحد جهودهـم مع مادبو (٢) .

**ج – إنتشار الثورة :**

تراجع سلاطين بعد جهاد عنيف الى دَارَه وكانت أنباء هزيمته قد سبقته اليها ولم يكن صعبا عليه أن يتبين أثر تلك الأنباء على أهلها . فقد علت وجوههم علامات الخوف من مصير مجهول ، وانتشرت سحائب الشك فى قدرة الحكومة على مجابهة الموقف وقد تأزم ، وليس من حرج على أولئك القوم . فهم يعرفون ماصنعه مادبو بجنود سلاطين . ويسمعون بانتصارات المهدى فى كردفان وحصاره للأبيض ، ثم تأتيهم الأخبار بانتشار الثورة فى جهات أخرى من دارفور . يحدث كل هذا والحكومة عاجزة عن حمايتهم . كيف بهم إذن لايخافون ولايشفقون ؟ والحقيقة أن طوراً جديداً من أطوار الثورة بـدأ بعد موقعة أم ورَقَات . فقـد كان للأحداث فى كردفان وجنوبي دارفـور صدى قوى فى شرقى دارفور ووسطها، وألفى سلاطين نفسه يحارب ثورة اتسعت رقعتها وقوى عودها فراح يتطلع إلى الخرطوم عساها تخرجه من مأزقه ، وعمل فى ذات الوقت للحفاظ على مواقع الحكومة وتأخير سقوط دارفور فى يد الثوار مستخدماً فى ذلك وسيلتين، أحداهما كبح جماح القبائل القريبة من الحاميات وتأديبها ، والثانية كسب الوقت حتى تأتيه النجدة

---

(١) السيف والنار : ص ٢٠٢–كان يانكو زعيماً لقسم تلقونه بشمال غربى بحر الغزال وقد بايع المهدى فى قدير ، ثم عاد إلى بلاده ، فرفع راية الثورة وقتل نفرا من جنـــود الحكومة فى اغسطس ١٨٨٢ ، ثم فر إلى دار الرزيقات واتحد مع مادبو وبقى معه اربعة شهور حضر أثناءها معركة أم ورقات . أنظر : شقير ٣ : ص ١٩٢ – ١٩٣ ، السيف والنار : ص ٢٠٠.

(٢) نفس المصدر : ص ١٩٤.

المرجوة . وتلك وسيلة إجتهد سلاطين في استخدامها لما علم بقدوم حملة «هكس»، ولكن هيهات .

وتنفيذا لتلك الخطة أرسل سلاطين محمد ود عاصي وهو من تجار دَارَه المخلصين للحكومة إلى الأبيض كي يمده بمعلومات دقيقة عن الحالة في كردفان بعد أن انقطع الإتصال الرسمي بينها وبين دارفور ، واتخذ إجراءات عسكرية سريعة لتأمين مركزه ، وبعث بخمسين بعيراً إلى الفاشر لنقل الذخيرة الموجودة بها إلى دَارَه والتي طال انتظاره لها ، ثم أصدر أمراً إلى عمر تَرحوّا بالرحيل برجاله إلى الفاشر على أن يترك خيالة أم شَنْقَة تحت إمرة السنجق العطا إصول (١) .

غير أن الثوار لم يمهلوا سلاطين حتى يكمل إستعداداته ، فسرعان ماشق الميما عصا الطاعة ، وعزلوا ملكهم داود المناصر للحكومة ، ثم تعاونوا مع جيرانهم الخوابِرْ في سد الطريق بين الفاشر ودَارَه . وبلغ سلاطين أيضا أن أبّوه بك زعيم البرْتي (٢) الذى رفض مقابلته في دَارَه لم يمنعه عن المجاهرَة بالثورة إلاوجود حامية في ام شَنْقَة .وفزع سلاطين لتطور الأحداث . وخشى من إنقطاع الإتصال بينه وبين الفاشر فانتدب عمر تَرحوا لمحاربة الميما بينما أغار هو على الخوابرْ وأوقع بهم في «بير أم لوّاى» ، ثم انتصر ترحوّا على الميما في وَدَعَه (٣) .

وقبل أن يعود سلاطين من بير أم لوّاى الى دَارَه سمع بخبر سقوط الأبيض فكان لذلك وقع سيئ على نفسه وتأثير كبير على خططه ، إذ كان متوقعاً أن تشتد ثورة قبائل دارفور بعد أن إكتملت للمهدى السيطرة على كردفان ، وأصبح واضحاً أن الموقف يستدعى إنتهاج سياسة دفاعية يُبقى بها سلاطين على ماتبقى للحكومة من نفوذ أملا في انتصار الخرطوم على المهدى . ولذا عمل على جمع قواته في المراكز الرئيسية حتى يسهل الدفاع عنها . فأمر بسحب حامية أم شَنْقَة لإستحالة نجدتها إن ثار الحَمَر مرة أخرى ، وطلب من سيد جمعة تعيين حاميات لحراسة الطريق بين الفاشر ودَارَه ، ودفع بعمر

(١) السيف والنار. ص ٢٠٣ .

(٢) هو ابوه عبدالله ولد جودت فات ، زعيم البرتي شرق ، وقد ثار بعد رحيل سلاطين من الفاشر إلى داره، لكن جنود الحكومة استطاعوا مبدأ الامر اسكاته والتغلب عليه ( شقير ٣ : ص ١٩٠)

(٣) السيف والنار : ص ٢٠٥ .

تَرحوّا إلى الفاشر للانضمام إلى حاميتها ، وعاد هو الى دَارَه واشتغل بجمع الغلال الموجودة بالمدينة ووضعها تحت تصرف الحكومة (١) .

واستقبلت دَارَه سلاطين بأنباء مزعجة تفيد بظهور بوادر الثورة بين بنى هلبة وإنحياز الهبانيه أتباع العريفى أحمد إلى مادبو . فقد إعتذر البشارى بك زعيم بنى هلبه عن تلبية دعوة سلاطين اليه بالحضور إلى دَارَه بدعوى المرض (٢) ، واعترض جماعة من قبيلته سبيل العريفى أحمد — الذى خرج من الكلكـَه قاصداً اللجوء الى دَارَه — وقتلوه بعد أن سلبوا ماله وأبقاره (٣) . ومن جهة أخرى تجدد نشاط الثوار بين الميما والخوابرْ حين شاع خبر سقوط الأبيض ، فقويت قبضتهم على طريق الفاشر — دَارَه . فانبرى سلاطين لحربهم وهزمهم فى بير أم لوّاى ثانية (٤) .

وبينما تجمعت سحب الثورة وتكاثفت فى سماء دارفور تنذر بالخطر أشرق على سلاطين خبر طالما انتظر قدومه ، إذ حمل اليه محمد ود عاصى بعد رجوعه من الأبيض نبأ تجهيز الحكومة لحملة كبيرة لتحطيم ثورة المهدى فى كردفان . ومنذ ذلك الحين تعلقت آمال سلاطين بنجاح تلك الحملة . ففى انتصارها إنقاذ للإدارة التركيه فى دارفور وكردفان معاً ، ونراه لهذا يسعى جاهداً لمنع الأنصار فى دارفور من التغلب عليه ، فهو على ثقة أن المهدى لن يغامر بإرسال جيش إلى دارفور بينما تعد الخرطوم العدة للزحف عليه (٥) .

واتخذت سياسة سلاطين فى الحفاظ على مركزه وكسب الوقت صوراً مختلفة كيفتها تطورات الأحداث فى دارفور من ناحية وأخبار حملة الحكومة على المهدى من ناحية أخرى . وكانت الصورة الأولى هى إعلان سلاطين لإسلامه وتخلصه من مساعده وغريمه محمد خالد زُقَل . وقد هدف سلاطين من كلا الأمرين إلى تأكيد قيادته ودعمها

---

(١) السيف والنار : ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٢) نفسه: ص ٢٠٥ — ذكر لى الشيخ عيسى دبكه ناظر بنى هلبة حاليا وأيـده فى حديثه الشيخ محمد عمر الضهيب أحد زعماء القبيلة بأن نفراً من بنى هلبة منهم عمر الضهيب بايعوا المهدى فى قدير ، ثم عادوا إلى أهلهم وابلغوا دعوة المهدى إلى زعيمهم البشارى بكر الذى خلف اخاه الوالى فى رئاسة القبيلة قبيل حلول الحكم المصرى بقليل ، وأضاف محدثاى بأن البشارى حين امتنع عن الذهاب إلى داره كان قد اتفق مع قومه على تأييد المهدى.

(٣) نفسه: ص ٢٠٨.

(٤) نفسه: ص ٢٠٩.

(٥) نفسه : ص ٢٠٨.

وفرض احترامه على مرؤوسيه . فكثيراً ما أحس بنفور الضباط المصريين من التعاون معه . وهاهو الآن بعد توالى الهزائم على الحكومة يسمع من خاصته بانتشار روح التمرد بين الجنود من وطنيين ومصريين .

فقد اعتزم الفور — الذين يكونّون أغلبية الجيش المرابط فى دَارَه — الهرب والانضمام إلى دُودْ بَنْجَه ، فلجأ سلاطين فى معالجة امرهم إلى العنف إذ قبض على ستة من قادتّهم وقتلهم رميا بالرصاص بعد محاكمتهم (١) . أما الجنود المصريون فيعزى تمردهم إلى استنكارهم لأن يكون سلاطين وهو مسيحى قائداً عليهم ، بل أنهم أرجعوا سبب الهزائم التى حلت بهم إلى هذه الحقيقة . ازاء هذا قرر سلاطين إشهار اسلامه ليكسب ثقتهم ويطمئن إلى انصياعهم لأوامره . ولسنا نعدو الحق إذا قلنا إن سلاطين لم يتخذ قراره ذاك عن ايمان أو اقتناع بمبادئ الإسلام وتعاليمه ، فهو يكشف عن خبيئة نفسه حين يصرح أنه كان يعلم سلفا أن الكثيرين سيستهجنون سلوكه لكنه فعل مافعل كى يسيطر على جنوده (٢) ويبدو . أن سلاطين أصاب الهدف الذى رمى اليه ، إذ ابتهج الجنود بإعلانه لإسلامه واختفت روح التذمر بينهم (٣) .

وأما محمد خالد زقَل فكان له مع سلاطين شأن أخر . لقد بدأ شك سلاطين فى اخلاص زُقَل للحكومة وميله إلى المهدى مع بداية الثورة (٤) . غير أن نفوذ زُقَل القوى بين أهل داره وامتلاكه لعدد من البازنقر المسلحين وإطاعته للأوامر ، وعدم توفر دليل مادى يثبت إتصاله بالمهدى، أجبر «سلاطين» على مهادنته حتى لايثير سخط الناس عليه فتزداد متاعبه ، فامتنع بسبب ذلك من إتخاذ إجراء تأديبى ضد زُقَل (٥) . ثم أن زُقَل

---

(١) السيف والنار : ص ٢١٥.

(٢) نفسه : ص ٢١٥ —كان غردون ، بتعصبه الدينى المعروف أكثر الناقمين على إسلام سلاطين تطرفا. فقد سخر سخرية لاذعة بالاسباب التى أوردها سلاطين حجة لتغيير ديانته واتهمه بالجبن ، ثم اقترح حبسه فى مصحة إن افلت من قبضة الانصار وأراد العودة إلى عقيدته الاولى ، كى يتخلص من آثار الاثم الذى ارتكبه. أنظر :

The Journals of Gordon at Khartoum, printed from the original MSS, with Introduction and Notes by A. Egment Hake, London (1885) p. 200.

(٣) السيف والنار. ص ٢١٧.

(٤) نفسه : ص ٦٩.

(٥) نفسه: ص ٢١٩.

عاون «سلاطين» معاونة صريحة فى إعداد الحملة التى إنتهت بإنتصار مادبو فى أم وَرَقَات، فقد دفع بمائتين من البازنقر خاصته إلى ميدان المعركة (١) .

على أن موقف زُقَل تغيّر كثيراً بعد سقوط الأبيض، إذ بدا من سلوكه أنه يتمنى زوال الحكم التركى ونجاح المهدى فى ثورته (٢) . فاستشعر «سلاطين» خطر بقائه فى دَارَه . ولما لم يكن بمقدوره معاداته عداءاً سافراً ، آثر إبعاده والتخلص منه . وبعد حديث طويل إتهم أثناءه «سلاطين» زُقَل بالتعاون سراً مع المهدى، ولامه على نكرانه لجميل الحكومة التى أسبغت عليه النعم ، ودافع خلاله زُقَل عن إخلاصه رغم أنه لم ينف علاقاته بالمهدى، قبل زُقَل إقتراح «سلاطين» له بعزله من الخدمة وإرساله إلى الأبيض شريطة أن يحمل معه رسالة إلى الحكومة، وأن يقنع المهدى بعدم إثارة قبائل دارفور أو غزوها، فإن انتصرت حملة الحكومة على المهدى فإن «سلاطين» سيشفع لزُقَل لدى المسئولين فيها ، وإن انتصر المهدى فخير له أن يستولى على دارفور عامرة لأن انهيار الحكم التركى فيها سيصبح أمراً حتمياً (٣) .

وسافر زُقَل بعد أيام من إتفاقه مع «سلاطين»، فاستراح بال هذا وانصرف لمجاهدة بنى هلبة بعد أن استعاد ثقة جنوده فيه . وكان بنو هلبة قد سفروا فى عدائهم بعد سقوط الأبيض، وأخذوا يستنفرون المسيرية والداَجُو للاشتراك فى الثورة ، ويغيرون على أرضهم طمعاً فى أموال من أبي الإنضمام إلى صفوفهم (٤)، فحمل عليهم «سلاطين» بمائتين وخمسين من عساكره، وهزمهم مرتين، ودخل عاصمتهم الهَشَابه، ثم اشترط «سلاطين» على بنى هلبة حين طلبوا الصلح منه أن يمتنعوا عن الإغارة على المسيرّية والداَجُو، وأن يأتوه بمائة حصان وألف ثور (٥) .

وأبي بنو هلبة النزول على شرط «سلاطين»، فحاربهم ثانية فانهزموا وسقط البشارى

(١) المصدر السابق: ص ١٨١.

(٢) نفسه : ص ٢١٩.

(٣) نفسه: ص ٢١٩ – ٢٢٢– ادعى سلاطين أنه رغب عن الكتابة إلى المهدى مباشرة ، علماً منه بأن زقل سينقل اليه مادار بينهما ، ويستشم من هذا أن سلاطين لم يلتزم بالتسليم للمهدى بعد أن كبر أمله فى نجدة ثانية من الخرطوم ، غير أن «اهروالدر» ذكر أن زقل حمل إلى المهدى رغبة سلاطين فى الإنقياد له ، فأمر المهدى باطلاق المدافع مائة طلقة اعلاناً للنبأ العظيم (عشر سنوات فى معسكر المهدى : ص ٧٥).

(٤) السيف والنار : ص ٢١٨.

(٥) نفس المصدر : ص ٢٢٣.

من جواده ودق عنقه، وأراد رجال الحكومة قطع رأسه والتمثيل به، لولا أن أفتداه ابن أخيه إبراهيم رحمة الله الوالى الذى إختلف مع أهله وحاول إثناءهم عن الحرب ولم يفلح(١)، وغنم «سلاطين» من بنى هلبة فى نهاية الموقعة ثلاثة ألاف رأس من البقر، ثم عاد إلى دَارَه بعد أن ترك بعضاً من جنوده لاقتفاء أثر الهاربين من بنى هلبة، دون أن يأذن لهم بدخول أرض التعايشة الذين وقفوا حتى هذا الوقت موقفاً حيادياً من أحداث الثورة. ولم يرد «سلاطين» استعداءهم بل سعى الى إستمالتهم، ورجاهم أن يطردوا بنى هلبة إن جاءوهم لاجئين (٢).

وفرح «سلاطين» بالنصر، وبدا كأن سحب الخطر قد إنقشعت من سماء دارفور، وضاعف من فرحته أن تلقى رسالة علاء الدين بقدوم حملة «هكس»، فنشر الخبر بين الناس، وزاد عليه من عنده أنباء عن إنتصارات وهمية حققتها الحكومة، كى يرفع روح جنوده المعنوية وحتى يدخل الرعب فى نفوس الأنصار، ويهدّ من عزيمتهم على مواصلة القتال (٣) لكنه كان وأهما، فالسحب لم تنقشع، بل تكاثرت، وغطت وجه السماء إيذانا بانهيار الحكم التركى فى دارفور.

فقد تواترت الانباء على «سلاطين» بامتداد الثورة إلى شمال دارفور ومنطقة الفاشر التى ظلت حتى هذا الوقت هادئة، لكنها تحركت بعد سبات عميق. فثار الزغاوة وتلاهم الماهّريه بقيادة شيخهم حسب الله عثمان، والزياديّة تحت إمرة على كُوع النمر، والميما بزعامة سلطانهم جِدّو، واجتمعت جيوشهم فى ودْ بيره على مقربة من الفاشر، وظلوا يناوشون حاميتها لكنها امتنعت عليهم زمنا (٤). وقد أفضت ثوزة هذه القبائل إلى استحالة مد «سلاطين» بذخيرة من الفاشر رغم حاجته الملحة إليها. وخرج على طاعة الحكومة كذلك حسن بك أم كَدُوك، وسدّ الطريق على حامية أم شَنْقَة التى عصى

---

(١) السيف والنار : ص ٢٢٦.

(٢) نفسه: ص ٢٢٧.

(٣) نفسه : ص ٢٤٥.

(٤) نفسه: ص ٢٢٧ ، شقير ٣ : ص ١٩٠. لم يشر سلاطين إلى نشاط قام به دود بنجه ضد الحكومة أيام الثورة المهدية، اللهم الا ما ذكره من محاولة الجنود الفور فى حامية داره للانحياز إلى سلطانهم. بيد أن «ونجت» جاء بما يفيد بان دود بنجه شارك السلطان جدو فى استنفار القبائل ومحاصرة الفاشر (المهدية والسودان المصرى: ص ٩٧).

قائدها العطا أصول أمر «سلاطين» بالانسحاب الى الفاشر (١) .

ويعكس لنا موقف أم كَدُوك والعطا أصول حقيقة هامة ، هي أنه لما قوى إحتمال إنتصار المهدى أخذ شيوخ القبائل الموالون للحكومة وبعض موظفيها يعصون أمرها ، وينجون بأنفسهم من سفين أوشك على الغرق ، ويتجهون بولائهم إلى المهدى . ولحظ سلاطين أيضاً أن المسيرية والداجُو رغم مظاهرتهم له بالإنقياد ولوا وجوههم شطر كردفان يرقبون مايجرى فيها من أحداث ويتمنون فى سرهم النصر للمهدى، بعد أن بث دعاته أفكاره بينهم . ومامنع هاتين القبيلتين من الثورة إلا قرب دارهما من دَارَه (٢) .

ثم بدأ الخناق يضيق حول «سلاطين» فزحف مادبو من شَكا وأغار على كرّشوا التى تقع مسيرة يوم جنوبي دَارَه ، وراح يُعيّر بنى هلبة بتقاعسهم، ويستحثهم على مجاهدة الحكومة. وخرج «سلاطين» لحربه فى مائتين من جنوده النظاميين والباشبوزق فانهزم مادبو واستولى «سلاطين» على نحاسه(٣). ولتجدد نشاط مادبو صلة بعودة خالد ود الإمام الذى أرسله «سلاطين» إلى الأبيض ليطلعه على أخبارها وأخبار حملة«هكس» ، فلما رجع إلى دَارَه أحس «سلاطين» بميل فى حديثه لدعوة المهدى،فشك فى أمره وبث عيونه وراءه، حتى وقع فى يده خطاب حمله خالد من زُقَل إلى مادبو يطلب منه مساعدة خالد فى تهريب أسرته من دَارَه، وبذا تبيّن «سلاطين» أن زُقَل انحاز نهائياً إلى صف المهدى ، فصادر ممتلكاته ووضع نساءه وأولاده تحت رقابة شديدة ، كما زج بخالد ود الإمام فى السجن ، وكان هذا قد نجح فى الاتصال بمادبو قبل القبض عليه(٤) .

ولم تكن هزيمة مادبو فى كرشوا أو إجراءات «سلاطين» التأديبية ضد زُقَل لتخرجه من أزمة ضاقت حلقاتها واستحكمت . فمرة ثانية ثار الميما والخوابر وسدوا الطريق بين الفاشر ودَارَه، وخاب ترّحوا فى مسعاه، إذ لقيته جموع الميما والخَوابر والبرّقي

---

(١) كان حسن أم كدوك شيخاً للبرتى شمال ، وقد التقى بسلاطين فى جبل الحله عند قدوم هذا أول مرة لدارفور ، فخلع عليه لقب البكوية تقديراً لخدماته ( السيف والنار : ص ٣٤)

(٢) السيف والنار : ص ٢٢٧.

(٣) المصدر السابق : ص ٢٤٧ .

(٤) نفسه : ص ٢٤٥ – ٢٤٦ .

بقيادة « ابّوه جودت فات » فى وَدَعَه ، وأعملت السيف فى رقاب رجاله ، فلم ينج إلا القليل، وتراجع تّرحوا إلى الفاشر التى عزلت تماماً عن دَارَه (١) .

ثم علا الهدير فأبرقت السماء وأرعدت . وإتجهت أنظار الثوار نحو دَارَه ، فزحف عليها مادبو مرة أخرى، وجاء فى ركبه الحبانية بقيادة حامد ود النور، والمعاليا برئاسة محمد أبوسلامة ، وتدفقت عليها جموع بنى هلبه يقودهم حلو ودْ جنّه . واتاها «ابوه جودت فات» على رأس البَرْتي والميما والحوابرْ ، وانضم إلى هؤلاء أهل « السودان » من بيقو وبرْقد ودَاجُو ، كما ساندهم شيخ المسيرية عبد الله ام دَرَامو خوفاً من بطش مادبو وقد أصبح سيد الموقف . وضربت جموع الأنصار حصاراً حول المدينة بقصد إخضاعها (٢) واسودت الدنيا فى عينى سلاطين وبدأ المصير حالكاً مظلماً . فسلاطين لايملك جيشاً او عدة يدخل بها فى معركة مكشوفة ضد الثوار ، ولا أمل له فى نجدة تسعفه بها الفاشر لانقطاع الصلة بينه وبينها .

غير أن سلاطين لم يفقد الأمل فى حملة «هكس» رغم جهله بما تم فى أمرها ، وهذا ماجعله يعمد إلى سياسة كسب الوقت ثانية ، فأوعز إلى صديقه عبد الله أم دَرَامو أن يقترح على شيوخ القبائل عقد هدنه معه ، فأبوا إلا التسليم لكنهم قبلوا مبدأ الاجتماع به للتداول فى شروط التسليم باستثناء مادبو الذى أصر على تسليم سلاطين دون قيد . وتوصل المجتمعون إلى عهد قبل «سلاطين» بمقتضاه التسليم شريطة أن يتم ذلك على يد مندوب من المهدى وشريطة أن يرفع الحصار عن دَارَه، على أن يفتح هو أبواب سوقها للتجارة، واختير محمد الجرتْلى، وهو من أعوان «سلاطين» لحمل رسالة التسليم إلى المهدى ومرة أخرى خرج مادبو على إجماع الشيوخ، واتهم سلاطين بالخداع والغش، غير أنه فك الحصار عن دَارَه حين انسحبت القبائل الأخرى من أسوارها (٣) . وتنفس سلاطين الصعداء وشد عينيه شرقاً وتطلع إلى خبر يأتيه بانتصار «هكس» أملا فى الخلاص على يديه .

**د ــ سقوط دارفور :**

ولم يطل بسلاطين الانتظار ، فقد انتشرت شائعات فى أخريات نوفمبر ١٨٨٢

---

(١) السيف والنار : ص ٢٤٨.

(٢) نفسه ص : ٢٥١ – ٢٥٢.

(٣) نفسه : ص ٢٥٥.

باندحار حملة «هكس» ، ثم سمع سلاطين بوصول زُقَل الى أم شَنْقَه على رأس جيش من قبل المهدى ، فتأكدت صحة الشائعات وضاع الأمل فى النجاة نهائيا .

وفى ٢٠ ديسمبر عاد محمد الجرتْلى الى دَارَه فى لبوس الانصار وهو يحمل رسالة من زقل الى سلاطين أبلغه فيها بتعيينه أميراً على عموم دارفور ، ونصحه بالتسليم دون مقاومة ، وطلب منه مقابلته فى حلة شعيريّه . وروى محمد الجرتْلى لسلاطين قصة موقعة شيكان التى شهدها ، كما أخبره بتسليم أم شَنْقَه لزُقَل ووصوله الى برنْجيل فى طريقه الى دَارَه ، وفى صحبته عدد من أمراء المهدية منهم عبد الصمد ود احمد شرفى ، وعمر الياس ام برير ، وجبر ولد الطيب ، وحسن ود النجومى (١) .

وكان زقل خرج بجيشه من الابيض فى ١٢ محرم ١٣٠١ الموافق ١٣ نوفمبر ١٨٨٣ قاصداً دارفور (٢) ، وشيعه المهدى إلى خارج المدينة وأوصاه بتقوى الله وبالمسلمين خيراً ، ثم أمر الأنصار بالترفع عن الغنائم (٣) . وجد زُقَل السير حتى دخل أم شَنْقَه فجاءته حاميتها طائعة منيبة . وكان رجال الحامية قد كتبوا إلى المهدى مبينين خضوعهم وامتثالهم بعد أن ضاق بهم الحال بسبب الحصار الذى فرضه عليهم الحَمَر بقيادة ابراهيم المليح ، لكنهم امتنعوا عن التسليم لإبراهيم هذا خوفاً من بطشه وإنتقامه لأهله الذين قتلهم جند الحكومة ، فلما جاءهم زُقَل أذعنوا له فبايعهم وأرسلهم إلى المهدى فى الأبيض بعد أن ضم المحاربين منهم الى جيشه (٤) .

وقصد زقل دَارَه بعد أم شَنْقَه ، فلما بلغ برنْجيل بعث محمد الجرتْلى إلى «سلاطين» كما تقدم ، وأشار على الأمير عبد الصمد شرفى بسبقه الى دَارَه ، ثم واصل السير إلى شعيريّه حيث انتظر قدوم سلاطين (٥) . وفى هذه الأثناء راح سلاطين يتشاور مع

---

(١) السيف والنار : ص ٢٥٦.

(٢) اتفق اهروالدر (عشر سنوات : ص ٩٣) وهولت (المهدية : ص ٦٨) على قيام زقل من الابيض فى ١٦ ديسمبر ١٨٨٣ ولعله من الجلى ان ١٣ نوفمبر – وهو التاريخ الذى اورده الشيخ اسماعيل عبد القادر الكردفانى فى مؤلفه المستهدى بسيرة الامام المهدى ص ٢٨١ – اقرب إلى الواقع ان لم يكن الحقيقة عينها. فقد اثبتت جميع المصادر ٢٣ ديسمبر موعدا لتسليم داره ، ولا يعقل أن يطوى جيش زقل المسافة بين الابيض وداره فى سبعة أيام ، خاصة وأن زقل توقف عند أم شنقه وبرنجيل ثم شعيرية حيث التقى بسلاطين قبل أن تفتح له داره أبوابها.

(٣) المستهدى بسيرة الامام المهدى : ص ٢٨٥.

(٤) المصدر السابق : ص ٢٨٢ – ٢٨٣.

(٥) السيف والنار : ص ٢٦٣.

ضباطه في الكيفية التي يواجهون بها الموقف ، فقرّ رأيهم على التسليم حين تبينوا إستحالة الدفاع عن دَارَه لقلة الجند وانحطاط معنوياتهم ولإنعدام الذخيرة بين أيديهم [١] . كان هذا في صباح ٢١ ديسمبر ١٨٨٣ . وقد سبق اتخاذ القرار حادث أكد صوابه ، إذ هرب تجار دَارَه ومعهم كثير من البازنقر ليلة الحادى والعشرين نفسه ولحقوا بزُقَل . فيم الدفاع إذن وعمن ؟

وفى ٢٢ ديسمبر رحل سلاطين الى شعيريّة لمقابلة زُقَل، وكان فى رفقته رجال أخلصوا الولاء للحكومة حتى اللحظة الأخيرة، كمثل القاضى العاص ود البشير والسلطان أبكر البيقاوى [٢]. وانتهى اللقاء الذى تم بين زُقَل وسلاطين فى شِعيريّه صباح ٢٣ ديسمبر ١٨٨٣ ، بتسلم زُقَل فى نهايته مقاليد الأمر فى دارفور ، ولم يبق له لتأكيد سيطرته وسيادته عليها غير إخضاع حاميتى الفاشر وكبكابيه . وفى مساء نفس اليوم حط زُقَل الرحال فى أطراف دَارَه ، وكان الامير عبد الصمد يحاصرها، فوفد إليه أهلها مبايعين مسلمين. ودخل زُقَل دَارَه صبيحة ٢٤ ديسمبر ومضى بمعاونة رجاله يجرد حاميتها من سلاحها وعتادها وممتلكاتها كما غنم تجارها وموظفيها، واستدعى ذلك فتح بيت للمال [٣].

وانقضى أسبوع كامل قبل أن يحل بدَارَه وفد مكون من عمر تَرّحوا والقاضى حنفى وعلى بك الخبير ليبلغوا زُقَل رضاء حامية الفاشر بالتسليم له . وكان زُقَل قد كتب إلى سيد جمعة من شعيريّة ، وأرسل قوة صغيرة لإحتلال مدينة الفاشر ، فظن زُقَل — لما جاءه ذلك الوفد — أن دارفور خضعت له دون أن يستل سيفا، لولا أن شاع خبر فى اليوم التالى لوصول الوفد بأن حامية الفاشر تأبى الرضوخ ، وأن رجالها سيحاربون الأنصار حتى أخر قطرة من دمائهم [٤] . فخاب الظن وقام زُقَل بجيشه فى ٣ يناير ١٨٨٤ من

---

(١) السيف والنار : ص ٢٦٠.

(٢) نفسه : ص ٢٦١.

(٣) نفسه : ص ٢٦٢ ، المستهدى: ص ٢٨٥ .

(٤) اختلفت الروايات فى سبب التغيير الذى طرأ على موقف حامية الفاشر . فسلاطين يقول ( السيف والنار ص: ٢٦٧) يؤيده فى هذا ابراهيم فوزى (السودان بين يدى غردون وكتشنر ، جزء اول ص ١٥٩ ) ان مرد التغيير سماع جنود الحامية بخبر المعاملة السيئة التى لقيها عسكر داره على يد الانصار ، فخافوا أن يحيق بهم ذات المصير ، وفضلوا الموت دفاعا عن شرفهم. اما سيد جمعة قائد الحامية نفسها فروى (شقير ٣ ص: ١٩١) انه لم يذعن من حيث المبدأ لأمر زقل بالتسليم، بل كتب إلى قائد كبكابية يشير عليه بالانسحاب إلى الفاشر لتجتمع القوتان لحرب الانصار، لكنه خشى أن يقطع هؤلاء الطريق على جند كبكابية فاضطر لإبلاغ زقل برغبته فى التسليم حماية لرفاقه. وأما الكردفانى فيعزو عصيان حامية الفاشر إلى اغترار سيد جمعة بسبب خبر شاع بين الناس بأن نجدة ستصل دارفور من مصر عن طريق أسيوط (المستهدى: ص ٢٨٥).

دَارَه التى استخلف عليها الأمير عبد الصمد بقصد فتح الفاشر عنوة ، إن صح ماقيل عن عزم حاميتها على مبارزته (١) .

وسار فى ركب زُقَل «سلاطين» وعمر تَرّحوا ورافقه كذلك جنود حامية دَارَه بقيادة محمد سليمان . وفى ٧ يناير نزل جيش زُقَل فوق تل كبير شرقى الفاشر وحاصرها ثم انحاز اليه رجال عمر تَرّحوا الذين كانوا يقيمون خارج المدينة (٢) . وكتب زُقَل إلى أهل الفاشر وحاميتها ينصحهم بالامتثال ويعدهم بمعاملة حسنة لو أنهم اسلموا له القياد دون حرب . واشترك سلاطين فى التوقيع على هذا الخطاب لكنه امتنع عن قتال أتباعه ، فسمح له زُقَل بالعودة إلى دَارَه ريثما ينتهى أمر الفاشر (٣) .

غير أن حامية الفاشر رفضت الرضوخ للتهديد والوعيد ، فهى فى حصن مكين . وقد جمع سيد جمعة كميات وفيرة من الغلال والمؤن تكفيه ورجاله زمناً طويلاً (٤) ، ولم يكن سهلاً على الأنصار إقتحام الحامية بلاخسارة كبيرة فى الارواح ، فقد كانت استحكامات الفاشر قوية ، فإلى جانب علو أسوار قلاعها وهيمنتها على كل ماحولها ، حفر سيد جمعة خندقا عميقا وبنى زريبة منيعة يصعب على المهاجمين اجتيازها دون أن يتعرضوا لوابل الرصاص ينصب عليهم من بنادق ومدافع الحامية . واستوجب ذلك أن يبحث زُقَل عن وسيلة غير الهجوم المباشر يقضى بها على مقاومة رجالها ، وهداه التفكير إلى قتلهم عطشاً أو يستسلموا له ، فالآبار التى يشربون منها تقع خارج الاستحكامات وإن كانت قريبة منها جداً (٥) .

---

(١) السيف والنار : ص ٢٦٧ .

(٢) نفس المصدر : ص ٢٦٨ .

(٣) نفسه : ص ٢٦٩ عاد سلاطين إلى الفاشر فى أوائل فبراير وغادرها فى منتصف يونيو بصحبة سيد جمعة ولحقا بالمهدى فى الزهد أسيرين (السيف والنار ص ٢٧١ – ٢٧٦) وبقى سلاطين فى الاسر احد عشر عاما ثم هرب عام ١٨٩٥ إلى مصر ،وهناك استعاد وظيفته فى الجيش المصرى وعمل مساعدا لمدير مخابراته ، حتى اذا ما استعادت بريطانيا ومصر السودان كوفىء سلاطين على خدماته بأن رقى إلى رتبة اللواء، ومنح لقب الباشوية،وعين مفتشا عاما للسودان فى الفترة ١٩٠٠ – ١٩١٤ ،ولما قامت الحرب العالمية الاولى ووقفت النمسا فى المعسكر المضاد لمعسكر بريطانيا ، اختار سلاطين الاستقالة من خدمة حكومة السودان، وشغل منصب رئيس جمعية الصليب الاحمر النمساوية خلال الحرب ، ثم اشترك فى وفد النمسا لمؤتمر الصلح فى فرساى. وفى ١٩٣١ زار سلاطين السودان فجدد ذكرياته به، والتقى بكثير من معارفه ثم مات فى العام التالى لتلك الزيارة. أنظر : هل: ص ٣٣٩ – ٣٤٠ ثم :
H. A. MacMichael : The Sudan. London (1954) p 79.

(٤) أفاد سيد جمعة نعوم شقير بأن مخزونه من الذرة بلغ ستة الف اردب ( شقير ٣: ص ١٩٠).

(٥) المستهدى: ص ٢٨٦.

وراح الانصار يصوبون بنادقهم إلى مكان الآبار لصد الظامئين من ورودها ، ثم قرروا احتلاله ، فتم لهم ما أرادوا ، إلا أن النيران التى فتحها عليهم جنود الحامية اجبرتهم على التراجع ، لكنهم ظلوا يعاودون الهجوم ، مما اضطر الكثيرين من أهل الفاشر للهرب إلى معسكر الانصار خوفاً من الموت عطشاً ، وكان لذلك اثره على روح جنود الحامية المعنوية . ثم استعاد الانصار سيطرتهم على الآبار فدفنوها بعد ان جاءتهم نجده من كبكابيه التى سلم قائدها ادم عامر إلى الامير بابكر الحاج (١).

وإذ أصبح الحصول على الماء مستحيلاً ، ومات عطشاً بعض الأطفال والنساء والمرضى ، كتب سيد جمعة إلى زقل مذعناً ، وكان ذلك فى ١٥ يناير ١٨٨٤ (٢) .

وفى اليوم التالى دخل زُقَل الفاشر وجرّد حاميتها من سلاحها وممتلكاتها ، وكان بالحامية ٥٠٠ من الجهادية و١٠٠ من الطوبجية و١٢ مدفعا آلت ملكيتها إلى الأنصار (٣) . وهكذا فقدت الحكومة مديرية من أكبر مديريات السودان ، وأضاف المهدى نصراً جديداً إلى إنتصاراته المتلاحقة ، وأكتملت له السيطرة على غربي السودان كله .

---

(١) نفس المصدر : ص ٢٨٧ ، السيف والنار : ص ٢٧٠

(٢) حدد سلاطين ( السيف والنار ص ٢٧٠ ) واتفق معه فى ذلك هولت ( هولت ص ٦٨) ١٥ يناير ١٨٨٤ تاريخا لسقوط الفاشر ، بينما جاء فى شقير (شقير٣ :ص ١٩١) أن سيد جمعه كتب إلى زقل بالتسليم فى ١٣ يناير ، وأن زقل دخل المدينة فى اليوم التالى أى ١٤ يناير .

(٣) شقير ٣ : ص ١٩١.

## الفصل الثاني

# أمارة محمد خالد زقل

## يناير ١٨٨٤ أبريل ١٨٨٦

### أ ـ نشر الدعوة :

بدأ زُقَل بعد سقوط الفاشر مباشرة فى ترتيب إدارة دارفور وتنظيمها، وأخذ ينشر رسالة المهدى بين أهلها مستعيناً فى ذلك بخبرته الإدارية ، مستفيداً من سابق معرفته تاجراً وموظفاً بنواحى دارفور ووقوفه على طبائع سكانها . وقد انطبعت وسائل زُقَل فى بسط نفوذ المهدية فى أغلب الحالات بميسم الإقناع ، واتصفت بالمرونة والحنكة فى معالجة المشاكل . وتظهر مقدرة زُقَل الإدارية والسياسية فى انتهاجه أساليب اختلفت باختلاف الأشخاص الذين خاطبهم أو القبائل التى أراد إدخالها فى طاعته ، غير أنه استهل عهده باتباع طريقة واحدة، هى إرسال الكتب إلى القبائل والسلاطين ، داعيا إياهم لقبول المهدية والهجرة اليه ، مبشراً بالعدل والرحمة ، فأجابوه بالامتثال ، وجاءته الوفود مبايعة راضية (١) .

وأدرك زُقَل بثاقب بصره ،وهو الذى اشتهر بالذكاء والدهاء والفطنة (٢) ، أن سلاطين دار بَرْقو ودار سُلا وتامه وقمر لن يتخلوا عن ملكهم فينقادوا للمهدية ويتبعونها تبعية مطلقة ، وأنهم يخشون إمتداد نفوذها إليهم ، وقد تتحد أيديهم لمحاربتها إن اشهرت سيفها فى وجههم كما أثبتت الوقائع فيما بعد ، فلم يشأ إزاء هذا وليس بيده اذن من المهدى بغزو تلك السلطنات أن يشن حرباً عليها ، بل استصوب بناء علاقات حسنة مع ملوكها لتأليفهم والاكتفاء بنفوذ أسمى عليهم، فكتب إلى تامه وقمر وبنى حسين فردوا عليه بالهدايا،وفعل مثل هذا اسماعيل عبد النبى أمير المساليت (٣) .

---

(١) المستهدى : ص ٢٨٨.

(٢) ابراهيم فوزى : السودان بين يدى غردون وكتشنر (جزء أول) ص ١٤٣.

(٣) السيف والنار : ص ٣٧٦، ينتمى اسماعيل عبد النبى إلى أسرة وفد جدها الأكبر محمد ساجا من وداى ، ونزل فى أرض المساليت وبنى معهدا لتدريس القرآن،تعاقب أبناؤه وأحفاده على إدارته حتى آلت إلى عبد النبى – والد اسماعيل – وهو ممن درسوا القرآن والفقه على الشيخ اسماعيل الولى بالابيض ، وانخرطوا فى سلك الطريقة الاسماعيلية . ثم تولى اسماعيل بعد وفاة أبيه شئون المعهد ، فقام بعبئه حتى ظهر المهدى فهاجر إليه وبايعه فى الأبيض بعد موقعة شيكان. وعاد اسماعيل من الأبيض أميرا على المساليت ، واحترب مع هجام حسب الله (أنظر ص ٣٩) وطرده،فهاجر إلى المهدى يشكو إليه الحال ويستعطفه كى يرد اليه ملكه، أنظر حضارة السودان : العدد ١٤٨٠ بتاريخ ٢٣ ابريل ١٩٣٦ ثم :
R. Davies: The Masalit Sultenate, p50.

أما سلطان دار بَرْقو محمد يوسف بن محمد شريف فتميزت صلاته بالمهدية في عهد زُقَل بالود، ولم تبدر منه بادرة عداء رغم أنه لم يخرج مهاجراً كما وعد. فقد قبل دعوة المهدى، وبعث اليه بخمسمائة ريال هدية، فقبلها المهدى وكتب إليه ثانية يأذنه في الدعوة في بلاده نيابة عنه ويخيره بين الإنضمام إلى السنوسى المهدى الذى خاطبه المهدى في نفس الوقت (١) وبين سبقه في اللحاق بجيوش المهدية ومشاركتها الجهاد في سبيل الله (٢)، وجاء زُقَل ليكمل مابدأه المهدى سعياً وراء استمالة سلطان بَرْقو وحثه على الهجرة، فانتدب الحاج كرار رسولا من عنده وحمله الهدايا التى كان من بينها مدفع وعدد من الطبجيّه (٣). وأحسن البرقاوى (٤) استقبال الحاج كرار وأكرم وفادته فعاد إلى الفاشر وفى ركبه رقيق وجياد هدية من البرقاوى إلى زُقَل (٥).

وثمة واقعة تشير إلى استعداد البرقاوى لمصادقة المهدية طالما أنه احتفظ بعرشه وأمن توسعها، وهى أنه احتكم إلى الخليفة عبد الله فى خلاف نشب بينه وبين رابح فضل الله (٦)، فطلب الخليفة من زُقَل التدخل لفض النزاع وخاطب رابحاً بإيقاف الفتنة (٧).

---

(١) انظر ص ١٤.

(٢) منشورات المهدى: جزء ثانى ص ١٤٧.

(٣) مهدية: ١٤٨/٣/٢٥/١ — ١٣ شوال ١٣٠٣ الموافق ١٥ يوليو ١٨٨٦ (الخليفة إلى أبو عنجه).

(٤) البرقاوى صفة اطلقتها وثائق المهدية على السلطان محمد يوسف وعلى ذات النمط سمت الوثائق سلاطين دار سلا والمساليت وتامه وقمر بالسلاوى والمسلاتى والتاماوى والتمراوى على التوالى. وسيتبع هذا البحث نفس الطريقة.

(٥) السيف والنار: ص ٣٧٦، المستهدى: ص ٢٨٨.

(٦) أشتهر هذا الرجل باسم رابح الزبير نسبة الى الزبير ود رحمة، اذ كان من اكبر قواده، وقد ولد رابح فى الخرطوم وذهب فى صباه إلى بحر الغزال، وعمل معاونا لأحد تجارها، ثم انضم إلى الزبير وتفانى فى خدمته، ثم تبع ابنه سليمان حتى اختلف معه فى أمر التسليم لجسى، وقاد ألفا من البازنقر المسلحين وقصد بهم دار الفرتيت، حيث اقام سلطنة. ولما ظهر المهدى كتب إلى رابح الذى قبل رسالته واتخذ راية المهدية علما لمملكته، غير أنه أغفل دعوة المهدى والخليفة إلى الهجرة، واستمر فى تدويخ بلاد افريقيا الاستوائية حتى دخل كانم، وأسس فيها ملكا عظيما، ضم اليه حياتو بن سعيد عامل المهدية فى دار السكوتو. ثم غزا الفرنسيون كانم ودارت بينهم وبين رابح معارك عنيفة انتهت بمقتله فى ابريل ١٩٠٠ قريباً من بحيرة تشاد. أنظر هل: ٣١٢ — ٣١٣، شقير ٣: ١٠١ — ١٠٢ ثم مهدية: ١/١١ب و٢٥/١ و١٦/٢ ودفتر صادر ١٠.

(٧) مهدية: ٦٨/٩/١٠/١ — ١٨ القعدة ١٣٠٢ الموافق ٢٩ اغسطس ١٨٨٥ (الخليفة إلى محمد خالد)

ولكن واقعة أخرى أثارت مخاوف البرقاوى وأعيان بلاده ، فعكرت إلى حين صفو علاقاتهم بدولة المهدية ، وأبانت بجلاء خشيتهم من غزوها وحتمية خروجهم عليها إن حدث ذلك . فحين غزا عمر تَرّحوا دار الزغاوة ، شاع بين البرقو أن تلك مقدمة لدخول الأنصار بلادهم ، فانتشر السخط بينهم واحتجزوا الحاج كرار — وكان مايزال مقيماً معهم — ومنعوه من العودة إلى الفاشر . فكتب الحاج كرار الى زُقَل يسأله الخبر ، فأجابه بأن ما شاع عن عزمه غزو دار بْرقو مجرد إفتراء اختلقه المغرضون ، فحلت الطمانينة مكان الفزع فى نفوس البَرقو ، وأرسلوا من يبلغ زُقَل أنهم على ولائهم وأنهم فى انتظار السنوسى المهدى ليهاجروا معه (١) . وعادت عندئذ المياه إلى مجاريها ، وظل البرقاوى يبادل زُقَل الهدايا إلى أن رحل من دارفور ، كما قام بتوصيل خطابات الخليفة إلى السنوسى المهدى وسلطان بَرْنُو مؤكداً بذلك تمسكه بالعهد (٢) .

وبينما عمل زُقَل على تأليف البرقاوى وسلاطين الجبهة الغربية ، نراه يستخدم العنف فى إخضاع الفور كما سيجىء، ثم فى نشر كلمة المهدية بين قبائل الشمال الغربي حدثنى شيوخ من الزغاوة — قلاَ وتُور — عن حملة قام بها عمر تَرّحوا — وهى الحملة التى أخافت البَرْقو — على أرضهم ، فسلب الناس ممتلكاتهم وأشاع الذعر بينهم واصطحب بوش صالح ملك قَلاَ وحجر ولد بحر ملك تُورْ ، ثم تحول بجيشه على كُوبي فطرد سلطانهم عبد الرحمن فرْتي الموالى لسلطان بَرْقو ، وجعل مكانه السلطان راكباً (٣) ،

(١) مهدية: ٢/٣٥/٢/٢ — ٨ القعدة ١٣٠٢ الموافق ٩ اغسطس ١٨٨٥ (اجاويد برقو إلى محمد خالد).

(٢) مهدية: ١/١٠/١٤/٢ غرة ربيع ثانى ١٣٠٣ الموافق ٧ يناير ١٨٨٦ ( محمد خالد إلى الخليفة).

(٣) كان على دار كوبى حين سقطت دارفور فى يد الإدارة التركيه السلطان عبد الفقرا، لكن فشله فى مسايرة أوامر الحكومة دعا سلاطين إلى عزله وتعيين السلطان راكب فى مكانه ، غير أن هذا أثار الناس عليه بسبب قسوته ، فتزعمهم ابن عمه عبد الرحمن فرتى وقصد دار برقو طلباً للعون ، فنصبه البرقاوى ملكاً على اهله ، فعاد فرتى إلى كوبى ، وطرد راكباً الذى انحاز إلى الانصار ، ورجع فى ركب عمر ترحوا لينتقم من منافسه. فتم له الذى ابتغى . على أن فرتى استعاد الملك ما أن هاجر راكب إلى الفاشر وحافظ على ولائه للبرقاوى وناصب المهدية عداءاً لا تراجع منه.

ثم إقتاده مع الملك بوش والملك حجر إلى الفاشر، ومنها رحل ثلاثتهم مع زُقَل إلى أمدرمان (١) . واستل الانصار عقب تلك الحملة سيوفهم بقيادة عمر الياس ام برير، وأوقعوا بالمحاميد والنوايبة الذين شقوا عصا الطاعة حين بلغهم خبر وفاة المهدى، وراحوا يعيثون فى دار الزغاوة فساداً ،لكنهم ثابوا إلى رشدهم بعد الهزيمة وأعلنوا توبتهم(٢).

أما سياسة زُقَل تجاه قبائل البقارة فقد افتقدت الحزم الذى عالج به أمر الزغاوة والمحاميد والنوايبة، بل بدت فى حالات معينة هزيلة ضعيفة، فهو يغمض عينه عن سلوك مادبو رغم انتشار الشائعات بعصيانه ، ويكتفى بطلب حضوره إلى الفاشر فيعصى مادبو الأمر (٣) . وهو حين يعجز عن دفع الرزيقات والتعايشة إلى الهجرة لايفعل شيئاً أكثر من إتهامهم بالخداع فيكتب إلى الخليفة قائلاً إن طلب هاتين القبيلتين بتأجيل هجرتهم حتى حلول الخريف ماهو إلا حيلة قصدوا بها البقاء فى ديارهم (٤) .

وقد يعزى موقف زُقَل هذا إلى خوفه من الدخول فى معركة مكشوفة ضد البقارة الذين حملوا عبء الثورة المهدية يوم كان هو نصيراً للإدارة التركيه أو لإنتماء الخليفة لقسم منهم وعطفه على بقيتهم ، مما قيد حرية زُقَل فى تصريف الأمور بالطريقة التى تروق له ، فقد منع الخليفة زُقَل مرة من تعيين أمراء جدد على التعايشة والهبانية والرزيقات بقصد تهجيرهم واستبقى مناديبهم السابقين (٥) ،

---

(١) تتضح صحة هذه الرواية من ورود اسماء الملوك بوش وحجر وراكب فى قائمة رؤساء الرايات الذين صحبو زقل إلى امدرمان – أنظر : مهدية: ١/١٠/١٤/٥/١٩ جماد اول ١٣٠٣ الموافق ١٣ فبراير ١٨٨٦ (محمد خالد إلى الخليفة).

(٢) مهدية: ١/١٠/$\frac{٩}{١}$/٧٨ – ١٣٠٢ الموافق أغسطس/سبتمبر ١٨٨٥ (الخليفة إلى محمد خالد).

(٣) مهدية: ١/١٠/١٤/٣ غرة ربيع ثانى ١٣٠٣ الموافق ٧ يناير ١٨٨٦ (محمد خالد إلى الخليفة).

(٤) مهدية: ١/١٠/١٣/٤ غرة ربيع ثانى ١٣٠٣ الموافق ٧ يناير ١٨٨٦ (محمد خالد إلى الخليفة).

(٥) مهدية: ١/١٠/٨/٩/٢٨ ربيع اول ١٣٠١ الموافق ٢٧ يناير ١٨٨٤ ( الخليفة إلى محمد خالد ).

وأشار عليه فى مرة ثانية بعدم الضغط على التعايشة وإكراههم على الهجرة ، وطفق يقنعه بضرورة تأليفهم (١) .

### ب ـ دُوْد بَنْجَه :

مضى على دُودْ بَنْجَه ثلاث سنوات ونيف وهو معرض عن الخضوع للإدارة المصرية متخذاً من جبل مرّة مأوى ودرعاً يقيه شرور الأعداء (٢) . فهل انتوى معارضة المهدية أيضاً ؟ وهل كان مستحيلاً على الأنصار أن يمدوا أيديهم إلى شعاب الجبل وسراديبه ليخرجوه منه ذليلاً ؟ سؤالان ألحّا على بال زُقَل فبحث عن إجابة شافية عنهما ، فما كان الوضع ليستقيم له كعامل للمهدية فى دارفور ، وهناك من يدعى لنفسه سلطاناً غير سلطانها ، ويبغى حكماً غير حكمها ، فكتب إلى دُود بَنْجَه يأمره بالتسليم . فامتنع هذا وأبي ، وكال لزُقَل الشتائم وذكّره بأنه كان عبداً فى مملكة آبائه ، فكيف للعبد أن يطلب سيادة على من تجب طاعته (٣) ؟

ولم ييأس زُقَل من عدول دُودْ بَنْجَه عن عناده ، فخاطبه ثانية منذراً إياه بالويل والثبور إن لم يطع أمره ، واستمر دُودْ بَنْجَه فى إعراضه ، ووجد فى جدّو ولد فارس أمير الميما نصيراً وسنداً (٤) . فلم يكن مفر حينذاك من تجريد الجيوش عليه ، فطلب زُقَل إمداداً عسكرياً من المهدى ، فوجه الخليفة بصفته أميراً لجيوش المهدية ابراهيم المليح بأم شَنْقَه لمساعدة زُقَل فى حرب دُودْ بَنْجَه (٥) . ومن جهة أخرى بعث دُودْ بَنْجَه بخطاب مع أحد اخوانه الى الخليفة لعله شكا فيه زُقَل واستعان بالخليفة عليه ، لكن جماعة الاشراف علموا خبر الخطاب وبغْيْ دود بنجه وعداثه لزُقَل ، فتحدثوا إلى الخليفة ونصحوه بسجن الرسول ، فوافقهم على رأيهم وجعل رقابة شديدة عليه (٦) .

ويبدو أن زُقَل لم يستطع صبراً حتى تأتيه النجدة التى أرسل فى طلبها ، فاندفعت جيوشه بقيادة عمر تَرّحوا نحو جبل مرّة ، وأحاطت بالمكان الذى اتخذه دُودْ بَنْجَه مقرا لملكه الضائع ، وندب تَرّحوا من يقنع دُودْ بَنْجَه بالإمتثال ، ويزين له ضرورة

---

(١) مهدية : ١/١٠/٩/٦/٥/١٧ ربيع أول الموافق ٤ يناير ١٨٨٥ ( الخليفة إلى محمد خالد).

(٢) أنظر ص ٦٠.

(٣) شقير ٣: ص ١١١ ، السيف والنار : ص ٣٧٦.

(٤) مهدية: ١/١٠/٨/١٧ جماد اول ١٣٠١ الموافق ١٥ مارس ١٨٨٤ (الخليفة إلى محمد خالد).

(٥) مهدية: ١/١٠/٩/٥٠/ ـ ٢٧ محرم ١٣٠٢ الموافق ١٦ نوفمبر ١٨٨٤ (الخليفة إلى محمد خالد).

(٦) مهدية: ٢/٣٥/١/١٢ رجب ١٣٠١ الموافق ٨ مايو ١٨٨٤ (محمد الكريم إلى محمد خالد) .

التسليم حقناً للدماء ، ثم وعده إن رضخ بمعاملة تليق بمقامه ، وكان حرياً بمن فى مكان دُودْ بَنْجَه أن يحارب ، لكنه آثر السلامة لما لم يأنس فى أتباعه قدرة على مكافحة الأنصار ، فألقى براية المقاومة أرضاً (١) . ونقل زُقَل خبر وقوع دُودْ بَنْجَه فى قبضة الأنصار إلى الخليفة الذى خيّره بين إرساله فوراً وبين حبسه فى الفاشر حتى يحضره برفقته حين يقوم مهاجراً من دارفور (٢) .

وانقضى وقت قبل أن يخرج دُودْ بَنْجَه من جبل مرّة نهائياً ، وأخذ قبل وصوله إلى الفاشر يبعث بالهدايا إلى زُقَل علها تشفع له عنده وتزيل من نفسه الغضب فلا ينزل به مكروهاً أو يصيبه منه ضرر . فمرة دفع اليه بخمسين رأساً من الغنم أدخلها زُقَل فى بيت المال ولم يطمع فى حيازتها (٣) . وأخيراً حل ركب السلطان المنهزم بالفاشر مهيض الجناح مغلوباً على أمره، غير أنه لم يأمن جانب زُقَل وخشى من عقابه، فهرب ليلاً من الفاشر ، وطاردته ثلة من جنود زُقَل إلى حدود كردفان دون أن تلحق به (٤) فقد أفلت دُودْ بَنْجَه منهم وانطلق يعبر الفيافى حتى بلغ الأبيض فى ٩ محرم ١٣٠٢ الموافق ٢٩ أكتوبر ١٨٨٤ ، وليس معه غير واحد من إخوته (٥) .

ثم واصل دُودْ بَنْجَه المسير من الأبيض فى حراسة جماعة من رجال عاملها محمود عبد القادر إلى أن وصل ابو سعد حيث التقى بالمهدى الذى عفا عنه وكتب إلى زُقَل يأمره بحفظ أموال دُودْ بَنْجَه ورقيقه وسلاحه، ورعاية نسائه واولاده والعمل على إحضارهم معه (٦) .

وحق لنا أن نسأل هنا ما إذا كان دُودْ بَنْجَه قد استهدف فى معارضته لزُقَل مواصلة الكفاح الذى بدأه هارون لإسترداد ملك الفور ؟ وثمة سؤال آخر : هل أنكر دُودْ بَنْجَه رسالة المهدى؟ إن الطريقة التى سلك بها دُودْ بَنَجْه توحى برغبته فى

---

(١) مهدية : ١/١٠/٨/٣٠ – ١١ شعبان ١٣٠١ الموافق ٦ يونيو ١٨٨٤ (الخليفة إلى محمد خالد) ثم مهدية : ١/١٠/٨/٣٣/ ١٩رمضان ١٣٠١ الموافق ١٣ يوليو ١٨٨٤ (الخليفة إلى محمد خالد).

(٢) مهدية : ١/١٠/٨/٤٠ – ٤ شوال ١٣٠١ الموافق ٢٨ يوليو ١٨٨٤ ( الخليفة إلى محمد خالد).

(٣) مهدية : ٨/١/٤/ب/١١ – ٨ الحجة ١٣٠١ الموافق ٢٩ سبتمبر ١٨٨٤ ( المهدى إلى محمد خالد).

(٤) السيف والنار : ص ٣٧٦.

(٥) مهدية : ٢/٣٥/٢/١/١٠ محرم ١٣٠٢ الموافق ٢٩ اكتوبر ١٨٨٤ ( محمود عبد القادر إلى محمد خالد). جاء فى شقير (شقير ٣ : ص ١٩١) خطأ أن زقل أرسل دود بنجه إلى المهدى ، والحقيقة انه هرب.

(٦) مهدية : ١/١٠/٩/٥١ – ٨ صفر ١٣٠٢ الموافق ٢٧ نوفمبر ١٨٨٤ ( الخليفة إلى محمد خالد).

إتباع المهدية (١) . فهو لم يحارب كما صنع هارون قبله ويوسف ابن السلطان ابراهيم من بعده ، وهو عندما هرب لم يرجع إلى جبل مرة أو يفر إلى جهات بعيدة كدار بَرْقو أو دار سُلا بأمل الحصول على عون ينازل به الأنصار ، كما فعل أبو الخيرات بعد يوسف ، بل أنه لحق بالمهدى ثم انخرط فى سلك الأنصار محارباً فى صفوفهم مخلصاً لدولتهم الولاء(٢).

ج - هجرة البقارة :

إتفق كثير ممن أرخوا للمهدية (٣) على أن الخليفة اجتهد فى ترحيل البقارة من ديارهم البعيدة فى جنوب دارفور إلى أم درمان، لتأمين مركزه وحماية سلطانه من مؤامرات الاشراف، وغدر سكان النيل . وهذا أمر مقبول، فمن الطبيعى أن يستعين الخليفة فى صراعه ضد خصومه السياسيين بقوم يضمن ولاءهم ويعتمد على سندهم ، وليس أقرب إليه من البقارة عموماً، والتعايشة بصفة خاصة، فهم أهله وعشيرته. ثم أن نفعاً كبيراً يعود على البقارة من إنتصار الخليفة على منافسيه ، ويتمثل هذا النفع فى احتكارهم لقيادة الجيوش وإمارة العمالات وغيرها من وظائف الدولة الهامة؛ فضلاً على الرواتب السخية وخيرات النيل . كل هذا قمين بأن يغرى البقارة بهجر أوطانهم ليكونوا للخليفة عوناً على خصومه ويقاسموه الملك والسلطان .

على أن دوافع أخرى أكبر أهمية وأشد خطراً تفسر لنا حرص الخليفة الدائم وإلحاحه المستمر على عماله فى دارفور بالإجتهاد فى تهجير البقارة إلى أم درمان . هناك أولاً الرغبة فى اشتراكهم فى الجهاد، فالمهدية قامت على فكرة الجهاد وكان للبقارة ضلع كبير فى نصرتها فى أيامها الاولى ، وجدير بهم - فى اعتقاد الخليفة - أن يداوموا على تأييدها ، فالجهاد لن ينتهى بسقوط الخرطوم أو إنهيار الإدارة التركيه فى السودان .

كتب الخليفة إلى زُقَل فى ٨ ذى الحجة ١٣٠١ الموافق ٢٩ سبتمبر ١٨٨٤ يقول

(١) هناك رواية شائعة بين الفور اليوم تصف دود بنجه بأنه «آخر السلاطين وأول المهدية» ويعنى ذلك ان دود بنجه آخر ملوك الفور المستقلين وأول من يحكم من سلاطينهم فى ظل المهدية وبالتبعية لها. ولعلنا نجد فى هذه الرواية ما يلقى ضوءاً على مسلك دود بنجه ويفسر موقفه.

(٢) اقام دود بنجه فى امدرمان زمناً بعد موت المهدى، ثم سار مع الأنصار لمحاربة الأحباش فى القلابات. ويضيف هل (هل : ص ٤) إن دود بنجه قتل فى تلك الحرب إلا أن ماكايكل (مخابرات السودان: ٣/٥/٣٩) قال إن دود بنجه لم يصاب بأذى بل عاش فى القضارف بعد هزيمة الخليفة فى كررى حتى توفى عام ١٩٠٧.

(٣) أنظر شقير٣: ص ٥٣٣ - ٥٣٤، السودان فى قرن : ص ٢٥٠، أهروالدر: عشر سنوات ص ٣٠٨ ثم A.B. Theobald: The Mahdiya, Longmans (Fifth impression 1959) p. 146.

« قد أراد الله لنا بالقيام من الرهد قاصدين الخرطوم لأجل الجهاد فى سبيل الله ويوم تاريخه نزلنا بالترعة الخضراء وبكرة تاريخه متوجهين إن شاء الله منها وليس لنا قرار إلا بأم درمان . . . بوصول هذا إليكم قوموا واحضروا بكامل الجيوش التى معكم لتوافونا على عجل وتحضروا معنا فتوح الخرطوم، فإننا نخشى إذا حصل لكم تأخير عن الحضور بوجه العجلة تنقطعوا عن المهدى عليه السلام فإن الخرطوم إذا فتح سريعاً نخشى أن يحصل إذن بالتوجه إلى جهة أخرى (١). »

والأمر بالهجرة فى سبيل الله ينسحب على البقارة مثلهم مثل قبائل دارفور الاخرى. فلا إستثناء ولاتمييز ، بل أن الخليفة كان أكثر حرصاً على هجرة البقارة لما عرفوا به من شدة البأس فى القتال والصبر عليه (٢) .

وهناك ثانياً عزم الخليفة على السيطرة على الزعامات القبلية وعلى قبائل بعينها أبت الانقياد له ، فإن تركهم يقيمون فى ديارهم مالت نفوسهم إلى العصيان والتمرد، وهو فى تلك الحالة سيشغل بأمرهم عن مسائل تستوجب كل اهتمامه . ماله إذن لايأتي بهم إلى امدرمان ويفرض عليهم رقابته المباشرة، فيريح نفسه وينصرف إلى مشاغل الدولة الكبرى ؟ وقد قوى هذا الاتجاه عند الخليفة بعد تمرد مادبو وإن كان ملحوظاً قبل هذا ، فالخليفة خبر البقارة منذ كان طفلاً ، و عرف كراهيتهم للحياة المنظمة المستقرة وولعهم بالخروج على السلطان أياً كان مصدره ، وحتى بعد أن جاء بهم إلى أم درمان منحهم كثيراً من الامتيازات علهم يهدأون ويكونون أداة طيعة فى يده (٣).

كما أن الخليفة أدرك أن كثيرين من زعماء دارفور بينهم بعض من شيوخ البقارة أجبروا على اتباع المهدية لما اعيتهم الحيلة ولم يجدوا مهرباً من الانصياع لأمرها ، وفى بقائهم فى ديارهم خطر كبير ، فما زالوا يذكرون الجاه الذى فقدوه، وربما ارتدوا على أعقابهم إن تركوا على حالهم تلك . لذا أصبح ضرورياً ترحيل رجال كجدّو ولد فارس ومحمد على أبي سلامة إلى أمدرمان حيث الهداية والرقابة بملازمة باب الخليفة وحضور الصلوات الخمس مع الجماعة (٤) .

---

(١) مهدية : ١/١٠/٨/٤٤ .

(٢) مهدية : ١/١٠/١٠/٨٠ – ١٠ محرم ١٣٠٣ الموافق ١٩ اكتوبر ١٨٨٥ ( الخليفة إلى محمد خالد) .

(٣) هولت : ص ١٤٢ .

(٤) مهدية : ١١ ٠/٩/٦٧/٧ ذوالقعدة ١٣٠٢ الموافق ١٨ اغسطس ١٨٨٥ ( الخليفة إلى محمد خالد) .
مهدية : ١/١٠/١٠/٨٠ – ١٠ محرم ١٣٠٣ الموافق ١٩ اكتوبر ١٨٨٥ (الخليفة إلى محمد خالد) .

وخاب ظن الخليفة فى البقارة حين امتنعت جماعات كبيرة من مختلف قبائلهم عن الهجرة، واضطر كما سيتضح لنا خلال هذه الدراسة إلى إستخدام العنف فى إكراههم عليها بعد أن فشلت وسائل الترغيب فى استدراجهم ، وفى هذا مصداق لصحة مخاوف الخليفة من جنوحهم إلى الفوضى ونزعتهم إلى التمرد، الأمر الذى دفعه مبدأ الأمر إلى طلب هجرتهم ، وفيه مايضعف الحجة القائلة بأن الخليفة إنما جاء بالبقارة ليؤازروه فى خلافه مع الاشراف وشيعتهم فحسب . أما أسباب امتناع البقارة عن الهجرة فكثيرة، منها ماينطبق عليهم جميعاً ومنها مايفسر موقف قبيلة او زعيم بعينه .

كتب زقل إلى الخليفة فى غرة ربيع ثاني ١٣٠٣ الموافق ٧ يناير ١٨٨٦ يقول « . . . . وبلغنا أكيداً ساعة تاريخه أن كلا من مادبو على ومحمد أبو سلامة أعرضوا لسيادتكم راغبين الاذن بالتأخير عن الهجرة لحين حلول زمن الخريف وأوردوا أن ذلك أدعى لهجرة أهلهم معهم وهذا فقط محض محاولات واستحسانات متكونة من محبة الوطن،مع أن زمن الهجرة هو هذه الايام لانها مابين البرودة والحر والمياه موجودة وكذا القشوش ولاهناك مانع غير عدم الرغبة » (١) . فى ترك الأرض التى عاش عليها البقارة طلقاء لاتحد حريتهم قيود ، والتراب الذى احتوى رفات أجدادهم عزّ عليهم فراقه وصعب عليهم البعد عنه . لقد ألفوا تلك الأرض بكل مافيها من شجر ووديان وزرع وحيوان فألفتهم ، وهى بعد هذا توفر لهم ولأبقارهم مايبغون ويشتهون . وهاهو الخليفة يدعوهم إلى أرض بعيدة يختلف أهلها وطبيعتها عن أهليهم وطبيعة أرضهم ، فهل يستجيبون ؟ إن حب وطنهم وارتباطهم العاطفى بأرضهم يمنعانهم من ذلك، فقد فضلوا حرية البادية وشظف العيش فيها على خصب النيل ونعيمه (٢) .

وكان لموت المهدى أثر واضح على أهل السودان خاصتهم وعامتهم، وعلى علاقات القبائل ورؤسائها بدولة المهدية ، ومن أبرز علامات ذلك أن خمدت روح الجهاد بينهم فما عادوا يقدمون عليه بنفس الحماس والإندفاع الذى تميزت به حروبهم الأولى ، وتبدل تبعاً لذلك الوضع ؛ فأصبحت دولة الخليفة تحمل طابع السياسة لا الدين (٣) . إذ كان للمهدى سلطان روحى على الناس تكفى الإشارة منه ليندفع القوم إلى حيث

---

(١) مهدية : ٤/١٤/١٠/١.

(٢) شقير ٣: ص ٥٣٣ – ٥٣٤ .

(٣) شقير ٣: ص ٣٩٤ – ٣٩٥. السودان فى قرن: ص ٢٤٧ .

أشار . ومادام ذلك السلطان قد ضعف بوفاة المهدى ولم يستطع الخليفه ملأ الفراغ الذى تركه سلفه من هذه الوجهة، إذ حسبه الناس رجل إدارة وسياسة فى المكان الأول ، فقد صار التفاف القبائل حوله وارتباطها به رهناً بقبولها لزعامته السياسية .

وما كان للخليفة أن يجد مثل هذه التبعية لدى كثير من البقارة ، فهو ابن قبيلة صغيرة العدد والشأن بينهم (١) . وهنا تلعب النعرة القبلية دورها فى تحديد العلاقة بين الخليفة كرأس للسودان كله، وبين شيوخ كمادبو ومحمد ابو سلامة اللذين قاسا قدره بمعيار محلى ضيق، فما أن مات المهدى حتى ظهرت بوادر العصيان بين الرزيقات والمعاليا، واتحدت كلمتهم على الامتناع عن الهجرة ، بل أخذوا يعدون العدة للهجوم على مركز شَكا ، وكان عليه فى ذلك الوقت محمد شيخ كُرقُساوى (٢) الذى خشى من انتشار روح التمرد إلى القبائل الأخرى ، فطلب مساعدة عسكرية من عامل دَارَه ومن زُقَل فى الفاشر (٣) .

وكان للخصومات القبلية كعقبة فى سبيل هجرة البقارة وجه آخر رسمه تجدد النزاع القديم بين بعض القبائل، أو بين أقسام القبيلة الواحدة بسبب ميل هذه الجماعة أو تلك للمهدية . من ذلك ماوقع بين الرزيقات والهبانية . فقد شجر خلاف بين القبيلتين أثناء إقامة المهدى فى قدير ، فتدخل لتسويته (٤) واعترض جماعة من الرزيقات بإذن من النور الحاج موسى – الذى كان معاوناً لعبد الصمد أحمد شرفى ثم خلفه كعامل لدَارَه – طريق الهبانية الذين قاموا مهاجرين بحجة جمع الزكاة منهم، فسلبوهم أموالهم وأبقارهم(٥). ومنه أيضاً معارضة الغزالى أحمد خوّف للخليفة ، فقد كره الغزالى وهو زعيم القبيلة أن يرى ابن فقيهها وسليل بيت مناوىء لبيته فى مركز الأمر على السودان كله (٦) ورفض الانقياد له ، ثم قتل الرسل الذين جاؤوه بأمان منه (٧). وما قيل عن أن أثر

---

(١) محمد عوض: السودان الشمالى ، ص ٢٣٩.

(٢) أنظر ص ١٢٦.

(٣) مهدية: ٢/٣٥/٤/٢٢ – ٦ القعدة الموافق ١٧ اغسطس ١٨٨٥ (محمد كرقساوى إلى محمد خالد).

(٤) مهدية: ١/١٠/٨/٩/٢٨ ربيع أول الموافق ٢٧ يناير ١٨٨٤ (الخليفة إلى محمد خالد).

(٥) مهدية: ١/١٠/٨/٤٠/٤ شوال ١٣٠١ الموافق ٢٨ يوليو ١٨٨٤ (الخليفة إلى محمد خالد).

(٦) مما قاله لى الشيخ على السنوسى – ناظر التعايشة الذى توفى عام ١٩٦٧ – إن الخليفة ينتمى إلى الجبارات وأن الغزالى من سنه ، وكان بين الفرعين عداء قديم ، وحينما دخل الزبير دارفور وقف احمد خوف زعيم سنه إلى جانبه، بينما عارضه بكر أبو القاسم شيخ الجبارات، وكانت بين الرجلين منافسة على رئاسة التعايشة، فانتهز أحمد خوف الفرصة فى غريمه وقتله ، فخلى له الجو وانفرد بقيادة القبيلة ثم خلفه ابنه الغزالى فى هذا المنصب إلا أن النزاع بين الجبارات وسنه ظل قائماً حتى حلول المهدية.

(٧) هولت: ص ١٤٢.

الخلافات بين الرزيقات والهبانية والتعايشة على هجرة البقارة يقال عن بقية قبائلهم . وسنأتي على أمثلة توضح هذه الحقيقة فيما بعد .

وتقدم أن الخليفة فطن إلى أهمية سوق زعماء القبائل إلى أم درمان حتى يخضعهم ويأمن جانبهم ، ولكى تتم له السيطرة على أهلهم . ولنفس السبب رفض أولئك الزعماء الهجرة الإختيارية حباً فى الملك ، فالقاعدة التى قام عليها سلطانهم هى وحدة قبائلهم وتمسكها بزعامتهم، وبقاؤها فى الأرض التى عاشت فيها منذ قديم الزمن . وبدهى أن تتحطم هذه القاعدة إن أقتلعت القبائل من موطنها وتشتتت جموعها واتجهت بولائها لزعيم غير شيوخها التقليديين . وما ذاك إلا صراع بين القبيلة كنظام إجتماعى وبين مسعى الخليفة لإحلال الولاء الدينى والسياسى مكان الولاء القبلى .

حمل الرزيقات والمعاليا بقيادة مادبو لواء المعارضة لسياسة الخليفة فى تهجير البقارة طيلة عهد زُقَل، رغم أنهم لم يمتشقوا الحسام كما فعلوا بعد خروجه من دارفور ، وحاول الخليفة إستمالة القبيلتين بشتى الطرق دون جدوى . رفع عنهم الزكاة لما رأى ميلاً من بعضهم إلى الهجرة تشجيعاً لهم ، فإن جباية الزكاة منهم ستكون سببا فى نفورهم فهم قوم يحبون الدنيا ويعشقون متاعها (١) ، وظل يخاطب مادبو منذ كان المهدى بالأبيض يحبّب اليه الجهاد فى سبيل الله تارة، ويحذره وينذره تارة أخرى، ثم اقترح عليه إرسال ابنه موسى على أن ينتظر هو قدوم زُقَل فيقدم معه . ومن الواضح أن الخليفة أراد بهذا أن يحتجز موسى رهينة عنده حتى يأتيه أبوه طائعاً . كل هذا ومادبو ينتحل الاعذار حيناً ويبذل للخليفة الوعود بالهجرة دون أن يفى بوعده حيناً آخر (٢) .

ورغم أنه كان بمقدور الخليفة تجريد جيوش على مادبو وأبى سلامة لكنه صبر على وعودهما الكاذبة أملاً فى هدايتهما، واكتفى حين أبلغه زُقَل رجوعهما عن الهجرة بعد أن جمعا رجالهما بنية مرافقته إلى أمدرمان بقوله « . . . . وصلتنا جواباتكم الذاكرين

(١) مهدية: ١/١٠/٨/٩ – ٢٨ ربيع اول ١٣٠١ الموافق ٢٧ يناير ١٨٨٤ (الخليفة إلى محمد خالد).
(٢) مهدية: دفتر صادر ٢ ص ١٣٥ – ٤ الحجة ١٣٠٢ الموافق ١٤ سبتمبر ١٨٨٥ (الخليفة إلى مادبو على).

فيها . . . . وكيفية مادبو وأبو سلامة ونكوصهم على الأعقاب . . . سبق التحرير لكم فى خصوصهم بما فيه الكفاية وتحرر لهم بالحضور معكم أو قبلكم فإن حضروا كان وبها وإن خالفوا فالله حسبهم ولن يستطيعوا أن ينفذو من أقطار السموات والأرض . . . . »
ومن الجلى أن الخليفة اختار تأجيل معركته مع الرزيقات والمعاليا حتى تواتيه فرصة سانحة فيستحيل على شيوخهم الإفلات من قبضته حينذاك (١) .

وبدأ عصيان مادبو بعد موت المهدى، وكان قبل هذا يساعد زُقَل فى اخضاع بعض القبائل ودعم نفوذ المهدية فى دارفور (٢) . ولما بلغ زُقَل نبأ ميله إلى التمرد أمره بالحضور إلى الفاشر فأبي ، لكن مادبو وأبا سلامة لبيا طلب زُقَل حين استنجد بهما فى قمع ثورة عمر تَرّحوا عليه (٣) ، ثم عادا الى ديارهما لجمع عشيرتهما استعداداً للهجرة وحلفا يمين الله على ذلك . ولما كان مادبو على خلاف مع بُرّار أجْبر وساقة العبيد (٤) وهما من شيوخ الرزيقات الموالين للمهدية ، بعث زقل القاضى محمد احمد عثمان مع مادبو للتوفيق بينه وبين خصومه، وجمع كلمة الرزيقات تحت راية المهدية(٥).

ونكث مادبو وأبوسلامة بالعهد الذى قطعاه على نفسيهما بعد رجوعهما إلى أهلهما ، وتحالفا على مخالفة أمر الخليفة بالهجرة ، وثبطا عزم من عزم عليها وأخذا يعدان العدة للهجوم على شكا . فنهض محمد كُرقُساوى إلى دَارَه — وكان النور الحاج موسى عاملاً عليها فى هذا الوقت — بحثاً عن مزيد من السلاح والرجال ليصد بهم تحرش الرزيقات والمعاليا، ومن هناك اتصل كُرْقُسَاوى بزُقَل فى الفاشر ووافاه بتفاصيل

---

(١) مهدية: صادر ص ٢٧١ — ١٠ جماد اول ١٣٠٣ الموافق ١٤ فبراير ١٨٨٦ ( الخليفة إلى محمد خالد ).

(٢) مهدية: ١/١٠/٨/١٢ — ٥ جماد أول ١٣٠١ الموافق ٣ مارس ١٨٨٤ (الخليفة إلى محمد خالد).

(٣) لا يكشف ما حصلت عليه من وثائق عن حقيقة هذا التمرد كاملة، وان القت بعض الضوء على وقائعه. فبعد إنقضاء عام على فتح دارفور شك زقل فى اخلاص ترحوا ، وشكاه إلى الخليفة الذى رفض الطعن فى ترحوا اولا لثقته فى ولائه. ثم ساءت العلاقة بين زقل وترحوا ، وخرج هذا عن الطاعة فقبض عليه وقتل فى نفر من كبار أصحابه (أنظر مهدية: ١٠/١٠/٩/٥٧ و١/١٠/ $\frac{١٠}{١٠}$ /٦٢٢ ثم ١/١٠/١٤/٤).
ويعزو سلاطين عصيان ترحوا إلى طمعه فى الملك ، أية ذلك انفصاله عن زقل ورحيله برجاله إلى كوبى ثم تآمره مع بعض الامراء على حياة زقل الذى عمد إلى المكر فى إخضاع خصمه ، فانتدب من يبلغ ترحوا كامل عفوه عنه ويقنعه بالرجوع إلى الفاشر ، وجازت الحيلة على ترحوا فعاد إلى الفاشر ليلقى حتفه على يد زقل ( السيف والنار : ص ٣٧٧ — ٣٧٩).

(٤) أفادنى الشيخ عبد الحميد موسى مادبو أن خلافاً قديما كان قائماً بين الماهرية — ولفرع منهم ينتمى مادبو — والنوايبة ومنهم برار وساقه بسبب التنافس على زعامة الرزيقات .

(٥) مهدية: ١/١٠/١٤/٣ غرة ربيع ثانى ١٣٠٣ الموافق ٧ يناير ١٨٨٦ ( محمد خالد إلى الخليفة).

الأحداث ، واستزاده عوناً ثم قفل عائداً إلى شَكا (١). ثم كتب كُرقُساوى إلى الخليفة يخبره بحال مادبو وأبى سلامة، ويطلب إمداده بالجبخانة لإرهاب الاعراب وصدهم عن غيهم، فأجابه الخليفة إلى طلبه، غير أنه نصحه بمهادنتهم وحثهم على الهجرة (٢) . وعمد الخليفة فى ذات الوقت إلى إضعاف مركز مادبو كزعيم للرزيقات، وذلك بمساعدة الراغبين منهم فى الهجرة، فأرسل قوة من الجهادية بقيادة أحمد ياسين لفتح الطريق لمن تجمعوا منهم وخافوا من إغارة العصاة عليهم أن قاموا مهاجرين (٣) .

وتوالت خطابات الخليفة إلى مادبو ، لكن هذا راح يراوغ كسباً للوقت وانتهازاً للفرص ، وهو فى كل ذلك ممتنع عن الهجرة عازم على إشهار السيف فى وجه الخليفة لتحقيق أطماعه فى ملك مستقل، ذلك ما أحس به زقل، بل كان موقناً بأن مادبو ينتظر خروجه بجيشه من دارفور ليخلو له الجو ليقضى مآربه ، ولهذا رأى أن يقوم محمد كُرقُساوى مهاجراً ويسوق معه مادبو وأبا سلامة ، فلن يجدا مندوحة للبقاء فى دارهما إن غادرها كرقساوى طالما انهما مابرحا يدعيان الاخلاص للمهدية (٤) . ورفض الخليفة إقتراح زقل بحجة أن كرم الله شيخ محمد كُرقُساوى (٥) رغب فى إقامة أخيه فى شَكا ليستقبل أفواج المهاجرين من بحر الغزال ، ويدير شئونهم لأن هجرته منها دفعة

(١) مهدية: ٢/٣٥/٣/٢٢/ ذوالقعدة ١٣٠٢ الموافق ٣١ ديسمبر ١٨٨٥ (محمد كرقساوى إلى محمد خالد).

(٢) مهدية: صادر ٩ ص ١٥٥ – ٢٤ ربيع أول ١٣٠٢ الموافق ١ ديسمبر ١٨٨٥ (الخليفة إلى محمد كرقساوى).

(٣) مهدية : صادر ٢ ص ١٦٥ – ٢٩ الحجة ١٣٠٢ الموافق ٩ أكتوبر ١٨٨٥ (الخليفة إلى الرزيقات بجهة ام حجرو).

(٤) مهدية: ١/١٠/١٤/٣ غرة ربيع ثانى ١٣٠٣ الموافق ٧ يناير ١٨٨٦ (محمد خالد إلى الخليفة).

(٥) ولد كرم الله بجزيرة كرقوس بالقرب من شندى وهو من أصل دنقلاوى ، وككثير من أهل زمنه سافر كرم الله إلى بحر الغزال واشتغل بالتجارة فيها (هل: ص ١٩٦)، وكان أخوه محمد كرقساوى قائداً لبازنقرلوبتن مدير بحر الغزال (السيف والنار : ص ٢٧٥) ، ولما ظهر المهدى ناصر الدناقلة المقيمون فى بحر الغزال دعوته، واتفق جماعة منهم بينهم كرم الله على الهجرة إليه، فأدركوه فى الأبيض وحضروا معه موقعة شيكان ، ثم عقد المهدى لكرم الله لواء جيش غزا به بحر الغزال ففتحها فى أبريل ١٨٨٤ (شقير ٣ ص ١٩٣) . وسعى كرم الله للتوسع فى الاستوائية ، لكنه اخفق فى ذلك وظل يحكم بحر الغزال وحدها حتى توفى المهدى ، فدعاه الخليفة إلى الهجرة فدفع كرم الله بأخيه محمد كرقساوى إلى شكا ليكون طليعة له (شقير ٣: ص ٤٩٣/٤٩٥) ، وأبطأ كرم الله كثيراً فى الرحيل حتى قيض له الخروج من بحر الغزال فى ١٧ اغسطس ١٨٨٦ ، ووصل شكا فى ١٨ أكتوبر من ذات العام (مهدية: ١/٣٢/٤٢٠ – ٨ الحجة ١٣٠٤ الموافق ٢٨ اغسطس ١٨٨٧ كرم الله إلى الخليفة).

واحدة أمر صعب لطول الرحلة وقلة الدواب التى تحمل المسافرين ومتاعهم (١) . وقد صدق حدس زُقَل وتقديره لنوايا مادبو وأبي سلامة إذ جاهرا بالعداء بعد خروج جيوشه من دارفور بشهور قليلة كما سنرى .

أما الهبانية فكانوا أكثر قبائل البقارة إمتثالاً لأوامر المهدى والخليفة، لولا أن عاق هجرتهم بادىء ذى بدء الفتنة التى قام بها الطاهر التلب التيجاني، وهو من شيوخ الطريقة التجانية (٢) الذين أنكروا دعوة المهدى، وحرضوا الناس على عدم اتباعها، فاجتمع له كثير من الحواريين من الهبانية ، وسمع المهدى بخبر الشيخ الطاهر فخاطبه ناصحاً ثم منذراً لكنه ظل على إنكاره، وتمادى فى معاداة المهدية، فجمع أتباعه واشتبك مع رحمة الله جمعة أمير الهبانية فى معركة انجلت عن مقتل الأمير رحمة الله وثلاثة وخمسين من رجاله (٣) .

وخوفاً من أن تتسع الفتنة ويزداد خطرها صدر الأمر الى زُقَل بتجريد جيش للقبض على الشيخ الطاهر فى الكَلَكَه شريطة ألايبدأه الأنصار بالحرب حقناً لدماء المسلمين ، وأن يطلبوا منه التسليم ومن اتباعه الانفضاض من حوله ، فإن أبوا الإذعان

---

(١) مهدية: صادر ٩ ص ٢٤١ – ٢٦ ربيع ثانى ١٣٠٣ الموافق ١ فبراير ١٨٨٦ (الخليفة إلى محمد خالد)

(٢) كما تأثر السودان بموجات حضارية وثقافية جاءته من مصر والحجاز عبر البحر الاحمر تأثر كذلك بشمال افريقيا، فالمذهب المالكى الذى ازدهر هناك انتشر جنوباً ليشمل سائر بلاد السودان بما فى ذلك سودان وادى النيل (أنظر ص ٤٤)، ومن أمثلة هذا الاثر أيضاً دخول الطريقة التجانية التى اسسها الشيخ احمد بن محمد ابن المختار بن الشيخ احمد التجانى فى الجزائر حول نهاية القرن الثانى عشر الميلادى. وقد نهج الشيخ احمد التجانى منهج القادرية السلمى فى بث دعوته التى امتدت إلى وداى وبرنو ودخلت سودان وادى النيل فى أواخر الحكم المصرى. ومن تعاليم التجانية الخضوع للحكام إذ كانوا على وئام مع الفرنسيين فى الجزائر، ومنها عدم السماح للأتباع بالإنتماء إلى طريقة أخرى. أنظر: شقير ١: ص ١٣٩ – ١٤٠، عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية ص ٩٨ ، خير الدين الزركلى : الاعلام (عشرة اجزاء ، طبعة ثانية ، جزء أول : ص ٢٣٢) ثم دائرة المعارف الاسلامية المختصرة ص ٥٩٣ – ٥٩٤.

(٣) مهدية: ٨/١/٤/ب/٥ – ١٢ جماد اول ١٣٠١ الموافق ١٠ مارس ١٨٨٤ (المهدى إلى محمد خالد).

فليعملوا السيف فى رقابهم (١) . وأردف الخليفة أمره ذاك بتعليمات أخرى قضت بقيادة زُقَل نفسه للحملة على الشيخ الطاهر بعد أن يخضع دُودْ بَنْجَه (٢) . وما ذلك إلا دليل على اهتمام الخليفة البالغ بفتنة الشيخ الطاهر وخوفه من انتشار نفوذه بين البقارة.

وبادر زُقَل إلى تنفيذ الأمر دون أن ينتظر انصياع دُودْ بَنْجَه له ، فأشار على عبد الصمد أحمد شرفى بالقيام بمهمة اعتقال الشيخ الطاهر فكان له ما أراد ، إذ سلم الشيخ الطاهر دون مقاومة ، واقتيد الى دَارَه ومنها إلى الفاشر تحت حراسة مشددة (٣) . وفرح الخليفة للنبأ وزاد من ابتهاجه أن علم فى ذات الوقت بتسليم دُودْ بَنْجَه، فازدادت فرحته وأشاد بعلو همة زُقَل وحسن تدبيره (٤) . ثم سيق الشيخ الطاهر ليلحق بركب المهدى، فأدركه فى الطريق قبل أن يصل أبوسعد فتاب وأناب وصفح المهدى عن زلته وعفا عنه عفواً شاملاً (٥).

وخرجت جماعات كبيرة من الهبانية فى أعقاب الفتنة مهاجرة ليعترض سبيلها ويعوق سيرها هذه المرة الرزيقات (٦) . واصاب المهاجرين ضرر كبير فانتدبوا من بينهم رسلاً يحملون شكواهم الى الخليفة، وعادوا الى دارهم كارهين . وغضب المهدى والخليفة اشد الغضب لما وقع ،وكتبا إلى زُقَل يأمرانه بانصاف الهبانية ورد ممتلكاتهم اليهم ، وحثاه على الرفق بأولئك الاعراب فهم كالوحوش النافرة يحتاجون إلى ترويض وتأليف ، ولكى يمحو الخليفة الإحساس بالظلم من نفوس الهبانية ندب الفقيه داود محمد ليشرف على إعادة أموالهم المسلوبة إليهم ، وليستدرجهم إلى الهجرة بل أن المهدى أجل رحيله من الرهد حتى يطمئن على راحتهم (٧) .

ونجح مسعى المهدى والخليفة فى إستمالة كثير من الهبانية مرة أخرى حين ردت إليهم ظلامتهم . وشعروا بأن هناك عيناً ترعاهم وتسهر على راحتهم ، والتف جماعة

---

(١) مهدية: ١/١٠/٨/١٢ – ٥ جماد اول ١٣٠١ الموافق ٣ مارس ١٨٨٤ (الخليفة إلى محمد خالد).

(٢) مهدية: ١/١٠/٨/٣١ – ١٣ شعبان ١٣٠١ الموافق ٨ يونيو ١٨٨٤ ( الخليفة إلى محمد خالد ).

(٣) مهدية: ٢/٣٥/١/٥/٢٦ رمضان ١٣٠١ الموافق ٢٠ يوليو ١٨٨٤ ( عبد الصمد احمد شرفى إلى محمد خالد ).

(٤) مهدية: ١/١٠/٨/٣٣/١٩رمضان ١٣٠١ الموافق ١٣ يوليو١٨٨٤ ( الخليفة إلى محمد خالد ).

(٥) مهدية: ٨/١/٤/ب – ١٠ القعدة ١٣٠١ الموافق سبتمبر/اكتوبر ١٨٨٤ ( المهدى إلى محمد خالد ).

(٦) أنظر ص ١٢١.

(٧) مهدية: ١/١٠/٨/٣٧ – ٢٦ رمضان ١٣٠١ الموافق ٢٠ يوليو ١٨٨٤ ( الخليفة إلى محمد خالد).
مهدية: ٨/١/٤/ب/٩ – ٥ شوال ١٣٠١ الموافق ٢٩ يوليو ١٨٨٤ ( المهدى إلى محمد خالد ).

منهم حول الفقيه داود وساروا وراءه مهاجرين ، وتعيّن على زُقَل أن يجتهد فى كسب ود عصاتهم بالمعاملة الحسنة حتى تطيب نفوسهم ويلحقوا بإخوانهم (١) . ثم جاءت وفود أخرى من الهبانية يقودهم تُكنه محمد القوزوا وهو من كبار شيوخهم ، ونزلوا بشَكا بقصد الهجرة فنفحهم كُرقُساوى من بيت المال عطايا كثيرة تأليفاً وتشجيعاً (٢).

ورغم أن الخليفة تلطف بأهله التعايشة وبذل جهداً عظيماً فى إستدراجهم إلى الهجرة، لكن أغلبيتهم أبت إلا العناد . فبعد خروج زُقَل بجيشه من الأبيض قاصداً دارفور أرسل الخليفة يعقوب الزاملة وآخرين مندوبين عنه لتهجير التعايشة ورجا زُقَل أن يستعين بسابق معرفته ووده مع زعماء التعايشة فى حثهم على الخروج من ديارهم مع تخييرهم فى الطريق الذى يسلكونه (٣) . ولم يستجب هؤلاء الزعماء لأوامر الخليفة، فسخط عليهم وتبرم بسلوكهم وأذن لزُقَل بالقبض عليهم ، لكنه تراجع عن قراره ذاك لما رأى ألافائـدة من هجرة التعايشة وهم كارهون .

وقد شجع الخليفة على إبطال قراره الأول مابلغه من أن الغزالى أحمد خوّف راغب فى الإنضمام الى زُقَل . وتلك خطوة أولى لكسبه إن أوفى بوعده (٤) . ويبدو أن سياسة اللين أثرت بعد طول عناء ، فقد جاء بعض زعماء التعايشة كالدليل ابو أمخشُم وعمر ابو بَشّار بأهلهما إلى شَكا بنية الهجرة إلى أمدرمان ، غير أنهم رفضوا دفع الزكاة لبيت المال ، فخاطبهم الخليفة حين شكا كرقساوى حالهم اليه مذكراً إياهم بعذاب النار لمن امتنع عن سداد حقوق الله (٥) .

**د - زُقَل والخليفه :**

تلقى زُقَل ولما يمض على دخوله الفاشر ثلاثة شهور أمراً من الخليفة بالرحيل بجيشه من دارفور ، ومنذ ذلك الوقت ظل الخليفة يلاحق زُقَل بنفس التعليمات حتى صدع للأمر فى مطلع ١٨٨٦ ، أى بعد إنقضاء عامين على سقوط الفاشر . وقد إختلفت دوافع

(١) مهدية : ١/١٠/٩/٤٧ - ١٢ محرم ١٣٠٢ الموافق ١ نوفمبر ١٨٨٤ ( الخليفة إلى محمد خالد).

(٢) مهدية: صادر ٢ ص ٨٦ - ١١ القعدة ١٣٠٢ الموافق ٢٢ اغسطس ١٨٨٥ (الخليفة إلى محمد كرقساوى).

(٣) مهدية: ١/١٠/٨/٣ - ٢٨ صفر ١٣٠١ الموافق ٢٩ ديسمبر ١٨٨٣ ( الخليفة إلى محمد خالد ).

(٤) مهدية: ١/١٠/٩/٥٦ - ١٧ ربيع اول ١٣٠٢ الموافق ٤ يناير ١٨٨٥ (الخليفة إلى محمد خالد).

(٥) مهدية صادر ٩ ص ٢٧ - ١٤ محرم ١٣٠٣ الموافق ٢٣ اكتوبر ١٨٨٥ ( الخليفة إلى التعايشة بشكا ).

الخليفة خلال هذه الفترة فى دعوة زُقَل للهجرة ، ومرت علاقة الرجلين بمرحلتين يفصل بينهما وفاة المهدى .

واستوجب خروج زُقَل فى المرحلة الاولى أمران ، أولهما اشتراك رجاله فى الجهاد والاستفادة من موارد دارفور الغنية فى فتح الخرطوم ، فأشار الخليفة على زُقَل حين قام المهدى من الأبيض إلى الرهد بتعبئة جيوشه وجمع الخيول التى تعج بها دارفور ليكون رهن الإشارة (١) ، وتبع ذلك صدور الأمر إليه بالنهوض فوراً ، وطلب منه أن يبعث مقدماً بأكبر قدر من الجبخانة . وتوالت خطابات التذكير على زُقَل لما أهمل نداءات الخليفة اليه، حتى بارح المهدى الرهد قاصداً الخرطوم، فلم ير الخليفة بدأً من تأنيبه على تقاعسه ، واستنفاره لإدراك فضل الجهاد قبل أن تبعد الشقة بينه وبين المهدى ويستعصى عليه حينذاك اللحاق به (٢) .

وبقى زُقَل على صمته لايجيب ، ويبدو أن الخليفة يئس من حضوره فاكتفى باستعجال إرسال الجبخانة من دارفور ليستعين بها الأنصار فى اقتحام الخرطوم دون أن يشير إلى أمر هجرة زُقَل (٣) ، وسقطت الخرطوم وانتفت بذلك أهمية اشتراك جيش دارفور فى فتحها كسبب لرحيل زُقَل ، لكن الخليفة لم يتخل عن إصراره على إبعاد زُقَل من دارفور . ولما كان الوقت ضيقاً أمهله حتى تنزل الأمطار فتخف الحرارة، ويجد المهاجرون ودوابهم كفايتهم من الماء والغلال والعشب (٤) .

وثاني الأمرين أن الخليفة رأى فى بقاء زُقَل فى دارفور وسيطرته عليها عائقاً لهجرة قبائلها ، فهو يطلق يد أعوانه ويغمض عينه عن تصرفاتهم التى تسببت فى نشر الذعر بين القبائل فأعرضت عن المهدية، من ذلك ماصنعه النور الحاج موسى بالهبانية (٥) ، ومنه هروب الماهرية إلى حدود دار القُرعان بقيادة حسب الله عثمان بعد أن وصلت جموعهم فُوجَه فى طريقهم إلى أمدرمان، حين علموا بأن زقَل عين مائتين من الجهادية لحراستهم، وأذن لهم بضرب المخالفين منهم، فخاف الماهرية من بطش الجهادية وفروا

---

(١) مهدية : ١/١٠/٨/٢٢ – ٣ جماد ثانى ١٣٠١ الموافق ٣١ مارس ١٨٨٤ (الخليفة إلى محمد خالد ).

(٢) مهدية : ١/١٠/٨/٤٤ – ٨ الحجة ١٣٠١ الموافق ٢٩ سبتمبر ١٨٨٤ ( الخليفة إلى محمد خالد ).

(٣) مهدية : ١/١٠/٩/٥٤ – ٢٠ صفر ١٣٠٢ الموافق ٩ ديسمبر ١٨٨٤ ( الخليفة إلى محمد خالد ).

(٤) مهدية : ١/١٠/٩/٥٨ – ٣ جماد ثانى ١٣٠٢ الموافق ٢٠ مارس ١٨٨٥ ( الخليفة إلى محمد خالد ).

(٥) أنظر ص ١٢١ .

بجلدهم (١) . وتراءى للخليفة أن الماهرية ماكانوا ليهربو لولا أن سلط سيف الإرهاب على رقابهم. مثال آخر على إيمان الخليفة بأن وجود واحد من الأشراف أو من يتبعهم فى مركز الحكم فى غربي السودان لن يساعد على هجرة قبائله، هو أنه أشار على حمدان أبو عنجه (٢) بإنتداب من يثق فيه لإدارة كردفان خلفا لمحمود عبدالقادر (٣) الذى تقرر ذهابه إلى دنقلا ، لأنه « إذا كان فيه أحد من الأشراف أو الناسات تبعهم لاتحصل للمهاجرين من الغرب راحة فلأجل ذلك إخترنا أن يكون المركز بيدكم لتسهيل الطريق على العربان وللضعفاء من المسلمين من العوايق فأسرعوا بتوجيه من يتسلم المركز (٤) ».

وتكيفت علاقات الخليفة بزُقَل فى المرحلة الثانية بموقفه من الأشراف وبتطورات النزاع بين الفريقين على دست الحكم، إذ لم يكن الخلاف بينهما إلا صراعا على السلطة(٥)، بيد أن الأشراف خسروا الجولة الاولى فى صراعهم الطويل ضد الخليفة، حيث تمت له البيعة رأساً لدولة المهدية يوم وفاة المهدى ، لكنهم لم يستسلموا لليأس ، وراحوا يتحينون الفرص كى ينقضوا على خصمهم. فكان لابد للصراع من أن يتجدد لتوفر عناصره وأسبابه .

وكان للأشراف وشيعتهم أولاد البلد الغلبة الإدارية والعسكرية فى كثير من

---

(١) مهدية: ٢٠/٣٠/٥/* - بدون تاريخ ( حسب‌الله إلى الخليفة ).

(٢) ينتمى ابو عنجه إلى المنضلة وقد تربى فى أسرة الخليفة عبدالله وعاش حياته كلها محاربا ، فساند سليمان الزبير فى نضاله ضد «جسى»، وأيد المهدية منذ بدايتها، ولعب دورا كبيرا فى تدريب وتنظيم جهاديتها بعد واقعة الشلالى ، ثم آلت اليه قيادتهم بعد سقوط الا بيض. وعين ابو عنجه عاملا على جبال النوبة عقب فتح الخرطوم، واوكلت اليه مهمة تأديب سكان جبل تقلى الذين تخلفوا عن الجهاد واعلنوا العصيان ، فنهض بجيش عرمرم من امدرمان فى فبراير ١٨٨٥ ، وقضى عاما ونيف يدوخ جبلا بعد جبل حتى دان له النوبة بالطاعة: أنظر. هل: ١٤٧، شقير٣: ص ٣٤٤ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، السودان فى قرن: ص ٣٦٢.

(٣) هو عم المهدى الذى أصبح عاملا على كردفان بعد خضوعها ، ولما توفى المهدى وفد محمود إلى امدرمان في اغسطس ١٨٨٥ لتجديد البيعة، فأشار عليه الخليفة بالعودة إلى الابيض لإخلاء طرفه من ادارتها كى يلحق بعبد الرحمن النجومى فى دنقلا ويساعده فى حرب الا نجليز وصدع محمود للا مركارها ، لكنه اضمر العصيان ، فقد اتضح للأشراف فى هذا الوقت أن الخليفة عازم على حرمانهم من مناصب الدولة الهامة ، وكان جهادية الأبيض قد خرجوا على إمرة المهدية فى غيبة محمود وهربوا إلى جبال النوبة ، وحينما رجع محمود إلى الأبيض اهمل امر الخليفة برحيله عنها وتعقب الجهادية المتمردين، فقتل فى ٢٠ ديسمبر ١٨٨٥ أنظر : شقير٣: ص ٤٥١ - هولت ص ١٢٦.

(٤) مهدية صادر ١٩ - ١٩ محرم ١٣٠٣ الموافق ٢٨ اكتوبر ١٨٨٥ ( الخليفة إلى ابو عنجه).

(٥) للوقوف على أسباب الخلاف بين الخليفة من جهة والأشراف ومناصريهم من سكان النيل من جهة أخرى أنظر :

شقير ٣ : ص ١٧١ - ١٧٣ و ٣٩٢ ، السودان فى قرن : ٢٤٨ - ٢٤٩ و ٢٥٠ - ٢٥١، هولت: ١١٧ - ١١٨. ثم A. B. Theobald: The Mahdiya, pp. 142-143.

جهات السودان بعد وفاة المهدى ، فكان محمد الخير عبد الله عاملاً على دنقله وبربر، ومحمود عبد القادر على كردفان، ومحمد خالد زُقَل على دارفور ،وكرم الله كُرقُساوى على بحر الغزال، ولكل منهم جيشه، هذا غير جيوش محمد عبد الكريم وعبد الرحمن النجومى المحاصرة لسنار، وجهادية الخليفة محمد شريف فى امدرمان، زيادة على سيطرة أحمد سليمان على بيت المال . وبدَهى ألايستقيم ذلك مع وضع الخليفة كزعيم للدولة ، فعمد إلى إبعاد منافسيه من المناصب الكبيرة كإمارة العمالات وقيادة الجند وجعلها فى يد أهله التعايشة ، كما عمل على تجريدهم من قوتهم العسكرية بتوحيد الجيوش فى ظل الراية الزرقاء (١).

وعلى ضوء هذه الحقائق يمكننـــا تتبع أحداث المرحلة الثانية فى علاقات الخليفة بزُقَل . ففى ١٠ رمضان ١٣٠٢ الموافق ٢٤ نوفمبر ١٨٨٥ ، نقل الخليفة الى زُقَل نبأ وفاة المهدى ، وطلب منه أن يثبّت من معه على عقيدتهم حتى لايهتز إيمانهم بالمهدية . ثم حثه على الهجرة عند بداية الخريف (٢) . وأوعز الخليفة إلى الخليفتين على ود حلو ومحمد شريف أن يكتبا الى زُقَل فى نفس المعنى، حتى تطمئن نفسه ويرى فى إجماع الخلفاء مايستدعى هجرته ، ففعلا (٣) . وأخيراً بدأ زُقَل يستجيب لإلحاح الخليفة فأخبره بأن الجيوش معدة للهجرة، وأنه ذهب الى دارَه لتنفير قبائلها، ثم عاد الى الفاشر. وينوى الاقامة به لتنظيم شئون دارفور إلى حين خروجه منها ، فهو يرى التأخير لفترة يستطيع خلالها مكافحة ماترتب على موت المهدى من أثر فى معنويات الأنصار وتبعية الخلق للمهدية . ورجا زُقَل الخليفة أن يكتب إلى زعماء القبائل بالترغيب والإنذار كل حسب حالته ، داعياً إياهم الى الهجرة لتجديد البيعة (٤) . وفى تاريخ هذا الخطاب انتدب زُقَل من يقوم بجمع الغلال فى مركزى أم شَنْقَة وأم بَلْ ، وإعداد مؤونة للمهاجرين (٥) .

---

(١) هولت : ص ١٢٠ و ١٢٥ A. B. Theobald: The Mahdiya, p. 144.

(٢) مهدية : ٥٩/٩/١٠/١ .

(٣) مهدية : ٦٤/٩/١٠/١ – ٢٨ شوال ١٣٠٢ الموافق ١٠ اغسطس ١٨٨٥ (على ود حلو ومحمد شريف إلى محمد خالد).

(٤) مهدية : ١٧/١/١٣/١٠/١ شوال ١٣٠٢ الموافق ١٣ يوليو ١٨٨٥ ( محمد خالد إلى الخليفة).

(٥) مهدية : ٦٦/٩/١٠/١ – ٦ القعدة ١٣٠٢ الموافق ١٧ اغسطس ١٨٨٥ ( محمد خالد إلى الخليفة ).
٢/١

واستبشر الخليفة خيراً بالتحول الذى طرأ على موقف زُقَل ، فأثنى عليه وعلى أهله الأشراف ، وأذنه فى أخذ البيعة نيابة عنه، وذكره بضرورة الهجرة الفورية، ووجهه إلى ترك من تخلف من أهل دارفور ورغب عن الرحيل معه ليوم يرى فيه حساباً عسيراً (١) ثم أنشغل زُقَل شهوراً ثلاثة بقمع تمرد عمر تَرّحوا . على أن الخليفة ضاق ذرعاً بزُقَل فلامه على طول غيبته واستنهضه على القيام من دارفور بعد أن يجعل عليها شخصا يحمل عبء إدارتها (٢) . ولعل من أسباب إبطاء زُقَل فى هذا الوقت ايضا أنه شك فى نوايا الخليفة ، وفطن إلى أنه أراد عزله من منصبه وتجريد جيشه وربما ممتلكاته (٣) .

ورأى زُقَل ألا يتمادى فى اغضاب الخليفة ، فأبلغه عزمه على القيام من الفاشر فى ١٥ محرم ١٣٠٣ ( ٢٤ أكتوبر ١٨٨٥ ) (٤) ، وظن الخليفة أن زُقَل سيقوم فى الموعد المضروب ، فعين الأمير عثمان آدم (٥) عاملا على كردفان لتسلم إدارتها من محمود عبد القادر . والخليفة بهذا الاجراء قصد دون شك الى أمرين ، اولهما إقصاء واحد من الاشراف هو محمود عبد القادر من إحدى عمالات الغرب ، وثانيهما أنه إن أراد بزُقَل شراً فيلزم أن يكون زمام كردفان فى قبضة شخص يثق فى ولائه ومقدرته على تنفيذ الاوامر التى تصدر اليه .

وعصى محمود أمر الخليفة بمغادرة كردفان كما رأينا (٦) ، وانصرف إلى محاربة الجهادية حتى صرع ، فانعقد مجلس من الاشراف لإختيار من يخلفه، ضاربين بعرض الحائط أمر الخليفة السابق بتعيين عثمان آدم الذى لم يكن غادر أم درمان حينذاك ، فبدا للعيان أن الأشراف مابرحوا يناصبون الخليفة العداء ، وأن قوتين تتنازعان السلطة ولابد لهما من الاحتكاك والإصطدام (٧) .

---

(١) مهدية: ١/١٠/٩/٦٦ – ٥ القعدة الموافق ١٧ اغسطس ١٨٨٥ ( الخليفة إلى محمد خالد ).

(٢) مهدية : ١/١٠/٩/٧٢ – ٢٣ الحجة ١٣٠٢ الموافق ٣ اكتوبر ١٨٨٥ ( الخليفة إلى محمود خالد).

(٣) شقير ٣ : ص ٤٥٢.

(٤) مهدية: ١/١٠/١٠/٨١ – ٢ صفر ١٣٠٣ الموافق ١٠ نوفمبر ١٨٨٥ (الخليفةإلى محمد خالد ).

(٥) اشتهر هذا الامير باسم عثمان جانو ، وهو من اقرباء الخليفة المخلصين، وقدظهرت عليه صفات القيادة العسكرية والحنكة السياسية فى مرحلة مبكرة من عمره ، فحين عين عاملا على كردفان لم يكن قد تجاوز العشرين. أنظر : هل: ص ٣٦٧ ، هولت ص :١٣٧.

(٦) أنظر ص ١٣٣ – ١٣٤.

(٧) السودان فى قرن :ص ٢٥١.

وبينما تجدد الخصام في أم درمان خرجت طلائع جيش زُقَل من الفاشر ، فقام الجهادية يقودهم محمد سليمان في ٢٩ صفر ١٣٠٣ ( ٧ ديسمبر ١٨٨٥ ) قاصدين بارا بنية الإقامة فيها حتى يأتيهم زُقَل ببقية الجيش ، ووجه زُقَل أمين بيت مال الأبيض إلى جمع الغلال وإعداد الجمال وجميع مافيه راحة المهاجرين (١) ، وتبع الجهادية فوج من المهاجرين في ٢٢ ربيع اول ١٣٠٣ ( ٢٩ ديسمبر ١٨٨٥ ) (٢) . ما بال زُقَل يرسل فرق جيشه تَتْرى نحو أم درمان في الوقت الذى ساءت صلات الخليفة بالاشراف وكان قبل هذا يتباطأ في الرحيل وينتحل لنفسه الاعذار ؟ هـل من صلة بين مايحدث في أمدرمان وبين خروج زُقَل بجيشه من دارفور ؟ .

ليس من دليل قاطع للإجابة على هذه الاسئلة وإن كانت هناك رواية تقول بأنه تأكد للخليفة انحياز زقل للأشراف ، وتفسر الرواية إكتشاف الخليفة لهذه الحقيقة بأن زُقَل كتب اليه خطابا أعلن فيه قدومه إلى أمدرمان ، بينما خاطب الخليفة محمد شريف يحثه على معارضة الخليفة ، ويعده بمساندته عسكريا ، سوى أن الخطاب الموجه إلى محمد شريف قد وضع خطأ في المظروف المعنون إلى الخليفة (٣) . ومهما يكن من أمر هذه الرواية فإن قرائن الاحوال تشير الى خوف الخليفة من حضور زُقَل إلى أم درمان والأزمة بينه وبين الأشراف على أشدها . فزُقَل من هذه الجماعة وله جيش عظيم (٤) . آية اخرى تثبت مخاوف الخليفة هي إجراءاته التأديبية التى أوقعها بزُقَل على نحو ماسيجيء . وخلاصة القول أن الخليفة اعتبر زُقَل عدوا من أعدائه السياسيين ، وعزم على دحره .

وأخيرا غادر زُقَل الفاشر في غرة ربيع ثاني ١٣٠٢ الموافق ٧ يناير ١٨٨٧ (٥) . وقسم زُقَل قبل رحيله دارفور إلى خمس وحدات إدارية ، جعل على كل منها رجلا من أبنائها ، فقد رأى أن أهل دارفور لن يرضوا بحكم رجل غريب عليهم إلا إذا امتلك

---

(١) مهدية : صادر ٩ ص ٢٣٩ – ٢٥ ربيع ثانى ١٣٠٣ الموافق ٣١ يناير ١٨٨٧ (الخليفة إلى محمد خالد).

(٢) مهدية : ٢/١٣/٣/٥ – ٣ ربيع ثانى ١٣٠٣ الموافق ٩ يناير ١٨٨٦ ( احمد نور امام إلى الخليفة).

(٣) السودان في قرن : ص ٣٦٣ وصف شبيكة هذه الرواية بالضعف ، وفي حديثي مع الشيخ على السنوسي وجدته يؤيد ما جاء فيها ويضيف بأن زقل قال للخليفة محمد شريف في خطابه الذى وقع في يد الخليفة « البقارة يشوفوا ليهن بكان» وهي كلمات تحمل معنى التهديد والوعيد.

(٤) ورد في رسالة من زقل إلى الخليفة ( مهدية ١/١٠/١٤/٥ – ٩ جماد أول ١٣٠٣ الموافق ١٣ فبراير ١٨٨٦ ) أن جيشه مكون من سبع وعشرين راية ، ويزيد عدد أصغرها حجما عن الخمسمائة مجاهد. فلو قدرنا لكل راية خمسمائة شخص يصبح مجموع الجيش ١٣٥٠٠ وقد أثبتت المصادر الاخرى ارقاما مختلفة لقوة جيش زقل – فهو عند شقير (شقير ٤٥٢/٣) ٢٤٠٠٠ ،وعند أهرو الدر (عشر سنوات ص ٢٠١) ٨٠٠٠ ، وعند هولت (هولت ١٢٧) ٣٤٠٠٠ .

(٥) مهدية : صادر ٩ ص ٢٣٩ – ٢٥ ربيع ثاني ١٣٠٣ الموافق ٣١ يناير ١٨٧٦ (الخليفة إلى محمد خالد).

من القوة والجبروت مايخضعهم به ، وهذا غير ممكن بعد أن خرج جيش الأنصار كله . ورأى أيضا أن دارفور بتكوينها من عناصر متنافرة لايسهل قيادها لرجل واحد ، فعين لكل منطقة أميرا بعد أن أخذ عليه العهود باتباع أوامر المهدية ونواهيها، فكان يوسف إبن السلطان ابراهيم قرض على منطقة الفاشر وكبكابيه (١) ، واسماعيل عبد النبى على المساليت والجهات الغربية حتى حدود دارفور ، وآدم كنْجار على دَارَه ، واخ لابوه جودت فات على الطويشَه وأخ لحسن أم كدوك على أم شَنْقَه (٢) .

وتم تنظيمات زُقَل الادارية عن خبرة وفهم عميقين لطبيعة الوضع فى دارفور . فهى تعترف بنفور الناس من تدخل الأجانب فى شئونهم واستعدادهم الطبيعى لمقاومته . وماتعيين يوسف على الفور إلا خير شاهد ، فهو يحقق جزئيا أمل هؤلاء القوم فى استعادة سلطانهم المفقودة . ويستشف من هذه الإجراءات أيضا أن حكماً يرى فيه أهل دارفور تسلطاً أجنبياً لن يكتب له الإستمرار إلا على أسنة الرماح . وسنجد مصداقا لهذا خلال دراستنا لما تلى عهد زُقَل من عهود .

وصحب زُقَل عند قيامه من الفاشر من الأمراء عمر الياس أم برير ، وجابر الطيب ، وابراهيم المليح ، وعبد القادر دليل ، ومحمد إمام جارود ، وداود محمد ، ومن زعماء دارفور وشيوخها أبوه جودت فات وحسن ام كدوك من البرتي ، وأمين عبد الحميد وجلال الدين على من الفلاته ، وآدم دود شلبى من الميما ، وحجر ولد بحر وآدم بوش صالح دنكسا والسلطان راكب من الزغاوة . وسار فى ركب كل أمير وزعيم عدد من رجاله واهله بعد أن رفعت لكل منهم راية ، فبلغ مجموع الرايات سبعاً وعشرين (٣) .

---

(١) يفهم من هذا ان سلطة يوسف ابراهيم كما حددها زقل كانت قاصرة على مركزى الفاشر وكبكابيه اللذين يكونان معا المنطقة التى يسكنها الفوز ومن داخلهم من القبائل الأخرى . ويختلف هذا عما اتفق عليه سلاطين ( السيف والنار : ص ٤١١ ) وهل ( هل : ٣٨٦ ) وشبيكه ( السودان فى قرن : ٢٦٤ ) وهولت ( هولت : ١٣٤ ) وثيوبولد ( The Mahdiya : P. 147 ) من أن زقل سمى يوسف اميراً على دارفور كلها.

(٢) مهدية : ١/١٠/١٤/٥ — جماد اول ١٣٠٣ الموافق ١٣ فبراير ١٨٨٦ ( محمد خالد إلى الخليفة).

(٣) الرسالة السابقة.

جاء فى شقير ( شقير ٣ : ص ٤٥٢ ) ان عمر خير ترحوا وحسب الله عثمان الماهرى رافقا زقل إلى امدرمان وهذا خطأ ، فقد قتل الاول فى الفاشر ، وهرب الثانى برجاله بعد أن وصل فوجه مهاجراً. (أنظر ص ٢٤ وص ١٣٣).

وبينما كان جيش زقل يتقدم في بطء وقائده مزهو بقوته ، كان الخلاف قد استعر بين الخليفة والأشراف ، فبعد أن انتصر الخليفة على خصومه بفرض مرشحه عثمان آدم عاملا على كردفان ، أنزل بهم ضربات أخرى أضافت إلى ذخيرة الكراهية الكامنة في علاقات الجانبين ، فساد التوتر وأشفق الناس من حدوث انفجار يهتز له كيان دولة المهدية . واتخذ الخليفة من أحداث دنقلا ذريعة لتقليم أظافر الأشراف وأولاد البلد . فعندما هزم الأنصار في جنس في ٢٩ ديسمبر ١٨٨٥ إثر هجوم قام به الجيش الانجليزى أثناء تراجعه من دنقلا ، أنحى الخليفه باللائمة على الشيخ محمد الخير عبد الله ، وعزله من عمالة دنقلا وبربر ، وعين لهما عثمان الدكيم وهو من اقاربه (١) فسخط الاشراف وزاد من تبرمهم أن سبقهم الخليفة الى احتلال أرض الجزيرة ، بتعيين يونس الدكيم عاملاً عليها . وكان الأشراف قد سعوا الى تخصيص خيراتها لجيش زُقَل القادم من دارفور(٢).

وازدادت بفعل ذلك الفتنة استعاراً ، وراح الفريقان يستعرضان قوتهما في شوارع أم درمان ، كأنما يعلنان الحرب على بعضهما . حدث هذا في بداية فبراير ١٨٨٦ (٣) . وتبين للخليفة ألاسبيل إلى أخضاع الاشراف وتأكيد سيادته على الدولة غير تجريدهم من جيوشهم وضمها إلى الراية الزرقاء ، وبذا تتوحد جيوش المهدية تحت إمرة واحدة هي إمرته . ومن البدهى أن تتجه انظار الخليفة الى جيش زُقَل كما اتجهت إلى حرس الخليفة محمد شريف في ام درمان .

وسعى الخليفة بادئ الامر إلى إضعاف قوة زُقَل العسكرية باستدعاء جهاديته إلى أمدرمان كي يدخلوها قبل وصوله اليها ، علّ الخليفة يستميلهم الى جانبه . فلما فشل في هذا السعى اجتهد في اخراجهم من طاعة زُقَل وضمهم الى أبي عنجه ، فكتب إلى محمد سليمان قائد الجهادية يثنى عليه عاطر الثناء ، وينقل اليه تحيات أبي عنجه ثم يشير عليه بمتابعة السير إلى أم درمان ، وعدم انتظار زُقَل في بارا كيلا تزدحم كردفان بالجيوش ويصعب إمدادها بما تحتاج اليه (٤) . وكتب الخليفة ثانية إلى محمد سليمان

(١) هولت : ص ١٢٦.

(٢) نفس المصدر : ص ١٢٨.

(٣) A. B. Theobald: The Mahdiya, p. 144.

(٤) مهدية : مصادر ٩ ص ٢٧٧ – ١٠ جماد اول ١٣٠٣ الموافق ١٤ فبراير ١٨٨٦.

حين علم بوصوله بارا وإقامته فيها رغم ما أمر به من الاستمرار فى المسير بحمد الله على وصوله سالما ، ويوجهه إلى مساعدة أبي عنجه فى حرب جبال النوبه إن طلب منه عوناً (١) .

وخاب ظن الخليفة فى محمد سليمان إذ نقل هذا ماجاءه الى زُقَل الذى تنبه الى تآمر الخليفة عليه ، فخاطبه محتجا بحق ولايته على الجهادية ، محبذا ضرورة ذهابهم إلى أم درمان أولا لتكتمل تربيتهم وتدريبهم ،وللخليفة بعد ذلك أن يرسلهم الى جبال النوبة إن شاء ، وطلب زُقَل فى ذات الوقت من محمد سليمان أن يبقى فى بارا إن لم يكن قد لحق بأبي عنجه فى الجبال (٢) . ولم يفتّ سلوك محمد سليمان من عزم الخليفة على كسب تأييد الجهادية ، فاقترح على أبي عنجه دعوة زُقَل بجيشه لمؤازرته فى سحق ثورة جبل الداير ، فإن جاءه فليوادد جهاديته ، وليغرس محبته فى نفوس اهل الغرب المرافقين له ، طمعاً فى انحيازهم الى صفه ، شريطة أن يكرم وفادة زُقَل ، فمازال يظهر الإمتثال وإن أضمر السوء ، وألايشعره بما يبطنه من نية لفض أتباعه من حوله (٣) .

غير أن تأزم الموقف فى أم درمان وتحرجه أجبر الخليفه على التخلى عن أسلوب المهادنة تجاه زُقَل وانتهاج سياسة أكثر حزماً ، فقد جاهر الأشراف بعدائهم وكثرت اجتماعاتهم فكثر اللغط ، وانتشرت الشائعات بمؤامرات يدبرونها فى الخفاء ويقوم فيها جيش زُقَل بدور رئيسى . فقرر الخليفة تحطيم معارضة خصومه بتجريد الخليفة محمد شريف من حرسه وأسلحته ورايته بحجة توحيد جيش المهدية لمواجهة الانجليز فى شمالى السودان . وحتى لايبدو الخليفة متحيزاً فى قراره أشار على الخليفة على ود حلو بتسليم جهاديته وأسلحته ورايته أسوة بالخليفة محمد شريف ، فأذعن للأمر وتبعه الخليفة محمد شريف ساخطاً كارهاً ، وتم التسليم فى منتصف مارس ١٨٨٦ (٤) .

وانكسرت بذلك شوكة الأشراف فى امدرمان وبقى للخليفة أن ينزل بزُقَل ضربة مماثلة . والحقيقة أن الخليفة خطا خطوته الاولى فى هذا السبيل قبل أن يحل بالخليفة محمد شريف ماحل به . فقد كتب إلى زُقَل فى ٥ جماد أول ١٣٠٣ الموافق ٩ فبراير

---

(١) مهدية : صادر ٩ ص ٣٠٨ – ٢٩ جماد اول ١٣٠٣ الموافق ٥ مارس ١٨٨٦ .

(٢) مهدية : ١/١٠/١٤/٦/ – ١٢ جماد ثانى ١٣٠٣ الموافق ١٨ مارس ١٨٨٦ ( محمد خالد إلى الخليفة ) .

(٣) مهدية : ١/٢٥/٣/٨٩ – ٢٥ جماد اول ١٣٠٣ الموافق ١ مارس ١٨٨٦ (الخليفة إلى أبى عنجه ) .

(٤) شقير ٣ : ص ٤٥٢ – هولت : ص ١٢٩ .

١٨٨٦ يذكره بما كان معمولاً به في عهد المهدى من تقسيم الجهادية والخيول والأسلحة بين رايات المهدية الثلاثة الزرقاء والحمراء والخضراء (١) . ونسبة لإشتغال زُقَل بالجهاد في دارفور فلم يكن ممكنا تطبيق ذلك النظام على جيشه ، أما وقد أنجز مهمته وقدم إلى أمدرمان فعليه أن يسلم أبا عنجه عند لقائه به. ورفعه هذا الامر اليه نصيب الراية الزرقاء من جهادية وخيول واسلحة لتقوية جيش كردفان ، وأن يبق نصيب الراية الحمراء تحت قيادته (٢) .

ويبدو أن الخليفة تريث فى إرسال هذه التعليمات الى زُقَل ليمتحن إخلاصه ويختبر مدى حماسه للخليفه محمد شريف ، ولعله انتظر أيضا دخول زُقَل فى كردفان حتى يصبح فى متناول يد أبي عنجه، وهو المنوط بمهمة تجريده خوفا من أن يعلن عصيانه وهو بعيد ، فيصعب حينذاك إخضاعه . ولما جاء مارس ١٨٨٦ واطمأن الخليفة إلى توغل زُقَل فى كردفان إذ انقضى شهران على قيامـــه من الفاشر بعث المدثر ابراهيم الحجاز – كاتب الخليفة الخاص – برسالة سرية الى أبي عنجه فى جبال النوبه، كلف فيها هذا بالرحيل الى الأبيض، وعرض امر الخليفة على زُقَل بتقسيم جيشه واستلام نصيب الرايتين الزرقاء والخضراء منه. وأضاف الخليفه شيئا جديداً إلى تعليماته هو أن يتخلى كذلك زُقَل من كل ماعنده من جبخانه فى الابيض(٣) . وقصد الخليفة بهذا أن ينتزع من زُقَل أهم وسائل الحرب إن أرادها .

ولم يرد فى رسالة الخليفة هذه ذكر لما يفعله أبوعنجه بزُقَل إن عصى الأمر ، ولعل الخليفة لم يأتمن القرطاس على ذلك السر ، فحمله المدثر شفاهة وليس هذا بأمر مستغرب فكثيراً ما أبلغ الخليفة عماله وقواده رأيه فى مسائل تستوجب السرية والكتمان عن طريق خاصة الرسل ، ولم يكن الإجراء الذى اقترحه الخليفة على أبى عنجه غير اعتقال زُقَل إن رفض الاذعان لما طلب منه . ويتضح هذا من خطاب أنهى فيه الخليفة إلى أبى عنجه تسرب خبر بعثة المدثر إلى الأشراف وعلمهم بأمر ضبط زُقَل ، ونصحه باتخاذ الحيطة

(١) تم تكوين هذه الرايات إبان اقامة المهدى فى قدير وكانت امرة الراية الزرقاء للخليفة عبدالله، والحمراء للخليفة محمد شريف، والخضراء للخليفة على ود حلو. أنظر : هولت : ص ١٠٤ – ١٠٥.

(٢) مهدية : ٨٨/١٠/١٠/١.

(٣) مهدية : ٩٦/٣/٢٥/١ – ٥ جماد ثانى ١٣٠٣ الموافق ١١ مارس ١٨٨٦ ( الخليفة إلى أبـى عنجه).

والحذر، وأشار عليه بتوجيه على منير عامل المهدية فى الدويم بحجز الخطابات المتبادلة بين الأبيض وام درمان ، مالم يكن بحوزة حملتها إذن من الخليفة أو أبي عنجه (١) .

ولما اندلعت نيران الفتنة ثانية باطلاع الأشراف على ما أنتوى الخليفة صنعه بزُقَل حين جرد الخليفة محمد شريف من حرسه كما تقدم ، أصبح الخليفة فى موقف المنتصر الذى يملى شروطه دون جدل . فخاطب زُقَل فى لهجة آمرة بتسليم أبىعنجه كل جهاديته بأسلحتهم وجميع ممتلكات بيت مال دارفور من ذهب ورقيق ودمور ، وفرض عليه أيضا ترك مخزونه من الجبخانة فى الأبيض ، لكنه سمح له بالاحتفاظ بنصيب الراية الحمراء من الخيول والدروع والسيوف (٢) . وكتب الخليفة فى نفس المعنى إلى أبي عنجه فأبطل أمره الأول باقتسام الجهادية، ثم حذره من دهاء زُقَل ومكره، وأشار عليه بتنفيذ أمره السابق إن رفض زقل التسليم ويقصد بذلك اعتقاله (٣) .

وأخذ الخليفة بعد هذا يعد المسرح لإذلال زُقَل حتى اذا ما التقى بأبي عنجه لايجد إلى الفكاك سبيلا ، فنصح أبا عنجه بالإستيلاء على كل المؤن والجمال التى جمعت فى الأبيض استعداداً لجيش زقل (٤) ، وأمر محمد سليمان وآدم عامر قائدى الجهادية بالإنضمام الى أبي عنجه (٥) ، ثم طلب من على بخيت — الذى أرسله الأشراف لإحضار رجال محمود عبد القادر وممتلكاته الى أم درمان — مغادرة كردفان فوراً بحجة إخلائها كى لاتزدحم بالجيوش (٦) . وواضح أن الخليفة رمى الى منع اتحاد بين على بخيت وزُقَل فكلاهما من الأشراف . ولم يفت الخليفة وهو يجهز مسرحه أن يطمئن زُقَل فى سخرية بأن الخير ينتظره حين يصل بارا (٧) .

وأخيراً حط زقل الرحال فى أطراف بارا فى ٢ أبريل ١٨٨٦ (٨) ، ولم يكن ثمة دلائل للخير فى استقباله ، بل أن نشوة الإنتصار على أشراف أم درمان واعتزامه القضاء

---

(١) مهدية: ١/٢٥/٣/٩٧ – ٧ جماد ثانى ١٣٠٣ الموافق ١٣ مارس ١٨٨٦ (الخليفة إلى ابى عنجه).

(٢) مهدية: ١/١٠/١٠/٨٩ – ١٧ جماد ثانى ١٣٠٣ مارس ١٨٨٦ ( الخليفة إلى محمد خالد ).

(٣) مهدية: ١/٢٥/٣/١٠٤ – ٢٧ جماد ثانى ١٣٠٣ الموافق ٣ أبريل ١٨٨٦ ( الخليفة إلى ابى عنجه ).

(٤) مهدية: ١/٢٥/٣/١٠٣/٢٦ جماد ثانى ١٣٠٣ الموافق ١ أبريل ١٨٨٦ ( الخليفة إلى ابى عنجه ).

(٥) مهدية : ١/٢٥/٣/١٠٤ – ٢٧ جماد ثانى ١٣٠٣ الموافق ١٢ أبريل ١٨٨٦ ( الخليفة إلى ابى عنجه ).

(٦) مهدية: صادر ٩ ص ٣٥٩ – ٢٨ جماد ثانى ١٣٠٣ الموافق ٣ أبريل ١٨٨٦ ( الخليفة إلى على بخيت ).

(٧) مهدية: صادر ٩ ص ٣٦٠ – ٢٨ جماد ثانى ١٣٠٣ الموافق ٣ أبريل ١٨٨٦ ( الخليفة إلى محمد خالد ).

(٨) اهروالدر: عشر سنوات ص ٢٠٠.

على مظاهر المعارضة كلها جعلت الخليفة يمضى فى أوامره فأضحى الخير الذى وعد به زقل تحقيراً وسجناً ، إذ قر رأى الخليفة على تجريده من كل مايملك . ففى ٥ رجب ١٣٠٣ الموافق ٩ أبريل ١٨٨٦ أشار الخليفة على زُقَل بتسليم أبي عنجه نصيب الراية الحمراء من خيول وسيوف ودروع وهذا كل مابقى له من معدات الحرب ، (١)وقضى الخليفه أيضا بتخلى زُقَل وأمرائه عن أملاكهم الخاصة من بازنقر ورقيق ونقود ، وأسدى لهم النصح بعدم إخفاء شىء مما يملكون (٢) .

ثم دخل أبوعنجه بارا بجهاديته ، وكان عثمان آدم قد سبقه اليها (٣) . وأحاط ابو عنجه بمعسكر زُقَل ثم عرض عليه أوامر الخليفه ، فهال زُقَل الأمر وتلفت حوله باحثا عن التأييد إن اختار الحرب على الإمتثال ، فلم يجده إذ خذله جهاديته بانحيازهم إلى أبي عنجه (٤) . ولم يكن بد لزُقَل من الرضوخ لواقع الحال فقبل التسليم . والحقيقة أن ولاء قائد الجهادية قد تحول قبل وصول أبي عنجه الى بارا ، فقد كتب محمد سليمان إلى الخليفة فى ٥ رجب ١٣٠٣ الموافق ٩ أبريل ١٨٨٦ يعتذر عن انتظاره لزُقَل فى بارا ويعلن كامل استعداده لما يؤمر به بعد هذا (٥) .

وزيادة على خذلان الجهادية له ألفى زُقَل قادة الأشراف يخدمون أغراض الخليفة إن كرهاً أو عن رضا بعد هزيمتهم فى معركة الملك . فاشترك الخليفة محمد شريف مع الخليفة على ود حلو فى التوقيع على منشور عام أيدا فيه سياسة الخليفة بتوحيد جيوش المهدية ، وقد أمر أبوعنجه بإطلاع زُقَل على هذا المنشور فإن رفضه فليقم بالقبض عليه لخروجه على إجماع الخلفاء (٦) ، كما تلقى نصحا من أحمد شرفى جد الأشراف بعدم المقاومة (٧) .

وبينما عاش زُقَل لحظات ألم ممض كان أبو عنجه يختال عجباً بالنصر الذى أحرزه، وابلغ الخليفة فى ١٥ رجب ١٣٠٣ الموافق ١٩ أبريل نبأ تجريده لزُقَل ، فسر الخليفة

---

(١) مهدية: ١/١٠/١٠/١٠/ – (الخليفة إلى محمد خالد).

(٢) مهدية: ١/١٠/١٠/٩٢ – رجب ١٣٠٣ الموافق ابريل/مايو ١٨٨٦ ( الخليفة إلى محمد خالد ).

(٣) مهدية : ١/١١/١/٧١ – ٢١ رجب ١٣٠٣ الموا فق ٢٥ أبريل ١٨٨٦ (الخليفة إلى عثمان آدم ).

(٤) عشر سنوات: ص ٢٠٢.

(٥) مهدية: صادر ٩ ص ٣٧٧ – ١٥ رجب ١٣٠٣ الموافق ١٩ أبريل ١٨٨٦ (الخليفة إلى محمد سليمان).

(٦) مهدية: ١/٢٥/٣/١٠٧ – جماد ثانى ١٣٠٣ الموافق مارس/ أبريل ١٨٨٦ (الخليفة إلى ابى عنجه ).

(٧) مهدية: صادر ٩ ص ٣٨١ – ١٨ رجب ١٣٠٣ الموافق ٢٢ أبريل ١٨٨٦ ( الخليفة إلى محمد خالد).

سروراً عظيماً (١). وكيف به لايفرح وقد أنزل بالأشراف وشيعتهم ضربات قاضية، فأسلموا القياد وإن امتلات نفوسهم بالحقد والكراهية .

ولئن تخلى زُقَل عن قيادة جيشه وهو على كل حال ملك للدولة ، فكيف يرضى بالتنازل عن ممتلكاته الخاصة ؟ لقد ساءه أن يستذل بتلك الطريقة، فأخفى عن أبي عنجه كثيراً من النفائس ، ثم ناب عن أبناء النور الحاج موسى فى المطالبة باسترجاع الف وخمسمائة ريال كان أبو عنجه استولى عليها بدعوة أنها مال ورثوه عن ابيهم (٢) . وحاول أبو عنجه إثناء زُقَل عن طلبه لأن ذلك المال غنيمة وليس ملكاً خاصاً للنور ، فرفض زُقَل إدعاء أبي عنجه ورفع الامر الى نائب الشرع ، وشتم أبا عنجه أمام جمع من الناس ، وضاق أبو عنجه ذرعا بزُقَل فكبله بالحديد وأرسله مخفوراً إلى الأبيض عله يرعوى ويكشف عن الذى أخفاه من ماله (٣) . ولم تلن قناة زُقَل بفعل السجن ، فظل على عناده حتى يئس أبو عنجه من صلاحه ، فكلف عثمان آدم بترحيله إلى امدرمان(٤) ، فبرح زُقَل الابيض وعليه حراس أشداء فى ١٢ ربيع اول ١٣٠٤ الموافق ٩ ديسمبر ١٨٨٦ (٥) ، واتى الخليفة طائعاً منيباً ، ففك إساره وعفا عنه (٦) .

وطرأ على سياسة الخليفة نحو الأشراف وأتباعهم تغيير كبير بعد أن استسلموا له ، فعمل على التودد اليهم وإزالة الحقد من نفوسهم، خاصة وأنه رأى ضرورة توحيد الصفوف لمواجهة خطر هجوم الجيش المصرى الذى خاله يتبع هزيمة عبد الرحمن النجومى فى توشكى (٧) . وكانت وسيلة الخليفة لإسترضاء خصومه اعادتهم الى مراكز الدولة الهامة، وكان زُقَل بين من رد اليهم اعتبارهم، فعين عاملا على دنقلا خلفاً ليونس الدكيم فى ابريل ١٨٩٠ ، لكن المقام لم يطل بزُقَل فى دنقلا، إذ أقصى من منصبه إثر

---

(١) هولت : ١٢٩.

(٢) توفى النور هذا بداره بعد ان خلف عبد الصمد احمد شرفى عاملا عليها (مهدية: ٦/٨٣/١٠/١ صفر ١٣٠٣ الموافق ١٤ نوفمبر ١٨٨٥ – الخليفة إلى محمد خالد أنظر كذلك ص ١٢١.

(٣) مهدية: ١٤٢/٣/٢٥/١/– ٢٥ رمضان ١٣٠٣ الموافق ٢٧ يونيو ١٨٨٦ (الخليفة إلى ابى عنجه).

(٤) مهدية : ١٦/٢/٤٢/٢ – ٢٣ صفر ١٣٠٤ الموافق ٢١ نوفمبر ١٨٨٦ ( ابوعنجه إلى عثمان آدم).

(٥) مهدية: ٥٩/٢/١١/١ – ٢ ربيع ثانى ١٣٠٤ الموافق ٣٠ ديسمبر ١٨٨٦ ( الخليفة إلى عثمان آدم) يفهم. من هذا أن زقل قضى حوالى الستة شهور فى سجن الابيض لكنا نرى هولت ( هولت : ص ١٢٩ ) يقول بأن زقل ظل محبوساً مدة عام باكمله.

(٦) مهدية: ٢/٢٨٦/٤/٢٥/١ ربيع ثانى ١٣٠٣ الموافق ١٩ يناير ١٨٨٧ (الخليفة إلى ابى عنجه )

(٧) هولت/١٦٢ – ١٦٣ .

خلاف نشب بينه وبين نائبه مساعد قيدوم ، واتهم زُقَل كذلك بتعريض شيعة الخليفة لنيران الجيش المصرى المرابط على حدود السودان الشمالية، فزج به فى السجن مرة ثانية، وتولد من ذلك شرارة أزمة جديدة بين الخليفة والأشراف انتهت بسجن الخليفة محمد شريف نفسه .

وبقى زُقَل فى سجنه حتى سيق الى الرجّاف فى اغسطس ١٨٩٣ ليقضى بقية عمره فى المعتقل ، لولا أن فك البلجيكيون إساره بعد أن هزموا الأمير عربي دفع الله فى فبراير ١٨٩٧ . وكان بين سجناء الخليفة فى الرجّاف الامير محمد عثمان أبو قرجه ، فرحل هو وزُقَل إلى دارفور ليجدا السلطان على دينار قد تربع على عرش أجداده بعد فراره من أم درمان وقضائه على كل منافسيه (١) . واختار زُقَل الإقامة فى الفاشر بينما عاد ابو قرجة إلى أم درمان ، وماكان على دينار لينسى لزُقَل صنيعه بقومه لولا أن شفعت له الميرم عرفه التى تزوج بها زُقَل يوم كان أميراً على دارفور ، غير أن على دينار تربص بزُقَل الدوائر وقتله فى ١٩٠٣ بتهمة التآمر والخيانة .

وهكذا انتهت حياة رجل بدأ فقيراً لكنه بجده واجتهاده اعتلى أرقى المناصب وتقلب فيها، ومن سخرية القدر أن يقتل زُقَل ويدفن فى البقعة التى شهدت له مجداً وعزاً (٢) .

---

(١) سيأتى ذكر الكيفية التى استولى بها على دينار على عرش دارفور فى الفصل السابع .

(٢) هولت: ص ١٧٦ – ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢٠٠ ، ٢٢٠ ، هل: ٢٦١ – ٢٦٢.

# الفصل الثالث

# المقاومة الاولى

## يونيو ١٨٨٦ – يناير ١٨٨٨

شهدت دارفور فى الفترة التى أعقبت رحيل زُقَل منها هزة سياسية عنيفة اضطرب لها حبل ادارتها وكاد الزمام يفلت من يد الخليفة . تمرد مادبو وتبعه فى عصيانه خلق كثير من الرزيقات والهبانية والمعاليا ، ومال اليه بنو هلبة (١) ، وثار يوسف ابن السلطان ابراهيم ثورة عنيفة ووجد من يشد ازره من بين رعاة الإبل فى شمال دارفور والبقارة فى جنوبها ، كما أيده سلطان دار برْقو . غير أن ثورة يوسف ابراهيم قامت فى المكان الأول على أكتاف الفور وأهل « السودان » عموما ، وليس من تفسير للثورتين مهما اختلفتا فى جزئيات دوافعهما وأحداثهما غير الرغبة فى التخلص من حكم الخليفة والعودة بدارفور إلى ماكانت عليه قبل حلول الإدارة التركيه بها . لذا قاوم الناس – وهذه حقيقة هامة – وتصحبها حقيقة ثانية هى أن الخليفة قضى على تلك المقاومة بالسيف ، فأرسل عثمان آدم على رأس جيش ضخم أخضع به يوسف ابراهيم بعد أن كسر كُرقُساوى وكرم الله شوكة مادبو .

### أ – عصيان مادبو :

اتضح قبل هذا أن مادبو شق عصا الطاعة على الخليفة نفوراً من الهجرة ، واستنكاراً لأن يكون الخليفة وهو إبن القبيلة الصغيرة سيداً عليه ، ونضيف الآن سببين آخرين دفعا بمادبو فى طريق العصيان أكثر من ذى قبل . أول السببين أن مادبو أراد سيادة تامة على

(١) افادنى الشيخ محمد عمر الضهيب بأن ثلاثة من زعماء بنى هلبة هم شمبال الضهيب وابراهيم رحمة الله الوالى ، وعمهما الناقى بكر تنافسوا على امارة القبيلة واحتكموا الى زقل بعد أن دانت له دارفور ، وحكم بينهم بالآتى : كبر سن الناقى وغزارة علمه يرشحانه لإمامة الناس فى الصلاة كتب ابراهيم مهاجراً فليهاجر الى المهدى ، اما شمبال فله الامارة .

ورغم أن الوثائق لا تكشف كثيراً عن تاريخ بنى هلبة فى امارة زقل ، لكنه من الثابت ان الخليفة اشار على زقل بمصادرة أموال ابراهيم الوالى ان أبى الخضوع ، وشاع انه هرب الى أم درمان دون أن يعثر له على أثر فيها . ( مهدية : ١/١٠/١٩/٨ – ١٨ جماد أول ١٣٠١ الموافق ١٦ مارس ١٨٨٤ ) « الخليفة الى محمد خالد » .

دار الرزيقات وماجاورها من قبائل ، فكره لذلك أن يرى البحارة (١) يهيمنون على منطقة شَكا ، فقد جاءها أولاً محمد كُرقُساوى وتبعه أفواج المهاجرين من بحر الغزال ثم لحق بهم كرم الله . وسخط شيوخ الرزيقات والمعاليا لوجود محمد كُرقُساوى بينهم ، فاتفقوا على حربه (٢) . لكن خوفهم من جيش زُقَل جعلهم يتريثون لحين خروجه من دارفور . والعداء بين الرزيقات والبحارة قديم، ومبعثه النزاع على الارض الواقعة بين جنوب دارفور وبحر الغزال ، فقد حاربوا الزبير لما سعى إلى مد نفوذه فى بلادهم، وعاونوا «جسى» فى تأديب سليمان الزبير . ثم جاءت المهدية وحلم مادبو بملك عظيم فى ظلها ، وإذا بالخليفة من ناحية وكرم الله ومحمد كُرقُساوى من ناحية اخرى يقفون حجر عثرة فى سبيل تحقيق ذلك الحلم . فأبي مادبو إلا القتال . ولما اطمأن إلى ابتعاد جيش زُقَل من دارفور راح يغير على البحارة الوافدين من بحر الغزال فقتل عددا منهم ثم قطع عليهم الطريق (٣) .

أما السبب الثاني فهو خوف مادبو من إنتقام الخليفة منه إن هاجر إلى أم درمان . فقد افرط مادبو فى عدائه للخليفة ، وأوصد على نفسه كل باب للتراجع ، فلم يعد يطمئن للوعود التى بذ لها له الخليفة بالأمان فى شخصه وولده وماله ، ولعل هناك من دس لمادبو عند الخليفة فأوغر صدره عليه وترسبت فى نفسه أحقاد خشى مادبو من مغبتها إن رضى بالرحيل إلى أم درمان (٤) . ولم يكن تقدير مادبو لنوايا الخليفة نحوه بعيداً عن الحقيقة . كتب الخليفة الى محمد كُرقُساوى فى ٨ شوال ١٣٠٢ الموافق ١٠ يوليو ١٨٨٦ يقول « .... أما فى خصوص مادبو وأتباعه مادام أنهم ارتدوا وندبتم اليهم سرية فالله يهلكهم فشدوا حيلكم على المخالف المذكور وحرضوا الأنصار على جهادهم

(١) وردت كلمة البحارة فى وثائق المهدية كثيراً وهى صفة اطلقت على من نزح من أهل السودان الشمالى إلى مديرياته الجنوبية خاصة بحر الغزال وهناك أسس تجارة او ابتنى ملكاً. جاء فى خطاب من عثمان آدم إلى يوسف ابراهيم ما يفيد بانه قادم إلى دارفور لاصلاح ما فسد بينه وبين البحارة ويقصد بذلك كرم الله ومحمد كرقساوى واتباعهما. (مهدية: ١/١٢/٢/١٨ – ١٤ محرم ١٣٠٤ الموافق ٢ أكتوبر ١٨٨٧ ).

(٢) أنظر ص ١٢١ و ١٢٥.

(٣) مهدية: صادر ١٠ ص ١٩ – ٨ شوال ١٣٠٣ الموافق ١٠ يوليو ١٨٨٦ (الخليفة إلى محمد كرقساوى)

(٤) أفادنى بهذا الشيخ عبد الحميد موسى مادبو ويؤيده فيما ذهب إليه خطاب من الخليفة إلى أبى عنجه بعد قتل مادبو فى الا بيض جاء فيه ان مادبو «.... طالما عصى الامر ونقض العهود وتلفظ فى حقنا بما لا يليق .... » (مهدية ١/٢٥/٤/٣٣٥ ٢١ جماد ثانى ١٣٠٤ الموافق ١٧ مارس ١٨٨٧).

وإحضارهم فى حال الحياة ليذوقوا السوء جزاء لما فعلوه (١). »

إذن فالخليفة يريد أن ياتيه الأنصار بمادبو حياً ليذيقه العذاب أصنافا جزاء مافعل . فما لمادبو لايحارب ليظفر بالحرب ويحيا كريما، أو يصرع عزيزاً بدلاً من أن يستذل وهو شيخ لقوم يأبون الضيم والمذلة ؟

جاهر مادبو إذن بالعداء وتخلى عن أسلوب المراوغة ، وسعى بين القبائل ينشد تأييدها ، فالتفت حوله جموع من الهبانية ، ووقف الى جانبه بُرار اجْبر الذى نافسه فى زعامة الرزيقات زمنا ، وجاءه صافى النور ساغه بجماعة من المعاليا (٢) ، كما بقى حَليفُه مُحمد أبوسلامة على ولائه وإخلاصه له . فتقوى مادبو بهؤلاء الرجال وشن الغارات على البحارة المهاجرين من بحرالغزال وسد الطريق بينها وبين شَكا ، فجن جنون محمد كُرقُساوى، وأرسل سرية من البازنقر طردت مادبو من مواقعه (٣) ، فتحول بجيشه على مركز دَارَه ، وكان عليه فى هذا الوقت شيخ من شيوخ بنى هلبة هو البشارى خليل ، ونشر الفزع بين قبائله (٤) ، كما هجم على الأطراف الجنوبية لمركز الفاشر (٥) .

وهكذا اتسعت دائرة عصيان مادبو وزاد خطره ، فأصبح زعيما للخارجين على الخليفة ومأوى للنافرين من الهجرة ، وتهدّد لذلك نفوذ المهدية فى جنوب دارفور . بل أن مادبو سعى للتعاون مع جهادية الأبيض الذين فروا الى جبال النوبة بعد مقتل محمود عبد القادر، لولا أن فوت أبوعنجه الفرصة عليه بأن دحر أولئك الجهادية قبل أن تتحد جهودهم مع جهود مادبو فى ثورة مشتركة ضد الخليفة (٦) . وشاع كذلك أن مادبو حاول الاتصال بمصر طلبا للمساعدة ، فوجه أبوعنجه يوسف ابراهيم وسلطان دار بَرْقو إلى مراقبة الطرق وضبط رسل مادبو الى مصر (٧) . ويكشف إتصال مادبو بجهادية

---

(١) مهدية: صادر ١٠ ص ١٩.

(٢) مهدية: صادر ١٠ ص ١١٥ – ٢٥ ربيع ثانى ١٣٠٤ الموافق ٢١ يناير ١٨٨٧ ( الخليفة إلى محمد كرقساوى ).

(٣) مهدية : صادر ١٠ ص ١٩ –٨ شوال ١٣٠٣ الموافق ١٠ يوليو ١٨٨٦ (الخليفة إلى محمد كرقساوى ).

(٤) مهدية : صادر ١٠ ص ٢٢ – ٨ شوال ١٣٠٣ الموافق ١٠ يوليو ١٨٨٦ (الخليفة إلى البشارى خليل).

(٥) مهدية : صادر ١٠ ص ٢٨ – ٢٣ شوال ١٣٠٣ الموافق ٢٥ يوليو ١٨٨٦ (الخليفة إلى يوسف ابراهيم).

(٦) مهدية: مصادر١٠ ص ٤٠– ١٨ القعدة ١٣٠٣ الموافق ١٨ أغسطس ١٨٨٦ ( الخليفة إلى أبي عنجه).

(٧) مهدية : ١/٢٨/١/١ – ٢٧ الحجة ١٣٠٣ الموافق ٢٦ ديسمبر ١٨٨٦ ( أبو عنجه إلى الخليفة ).

الأبيض وسعيه للحصول على عون من مصر عن حقيقتين: أولاهما تماديه فى الإعراض، والثانية إحساسه بأن مقدراته المحلية من السلاح والذخيرة غير كافية لمواصلة القتال دون أمداد من الخارج فهو بحاجه ماسة اليه .

وتبين قبل هذا مابذله الخليفة من جهد فى إرجاع مادبو الى جادة الطريق بأسلوب اللين والمهادنة ، فلما لم يرعو لجأ إلى العنف فى إنهاء تمرده ومكافحة خطر ثورته قبل أن تعصف بمركز المهدية بين البقارة . وجند الخليفة لقهر مادبو قوى كثيرة . فاعتمد أولاً على جيوش البحارة ، وظل يشجع محمد كُرُقساوى على مجاهدة مادبو وأبلغ كرم الله قبل أن يعلم برحيله من بحر الغزال بخبر التمرد، واشارعليه بشد الرحال إلى شكا حتى إذا وصلها اشترك برجاله فى قمعه (١) ، وحث البشارى خليل ويوسف ابراهيم عاملى دَارَه والفاشر على معاونة محمد كرقساوى فى القبض على مادبو وقتله إن رفض التسليم . وكى يضمن الخليفة استجابة ابراهيم لندائه ذكره بأن مادبو أغار على منطقة نفوذه ، وذلك أمر يأباه يوسف الذى عمل على استعادة مجد الفور وإبعاد كل الطامعين فى أرضهم (٢) .

ثم خاطب الخليفة مؤيدى مادبو من الرزيقات والهبانية والمعاليا طالبا منهم الإنفضاض من حوله بعد أن ضل الطريق السوى ، وأنهى اليهم عزل مادبو من عمالة المهدية ، وحذرهم من مغبة الإستمرار فى مساندته ، فإنهم ان فعلوا ذلك صاروا أعداء للمهدية وحل لرجالها قتلهم وتغنيمهم (٣) . ورمى الخليفة كذلك إلى فض الشركة القائمة بين مادبو ومحمد أبى سلامة ، فطلب من الثاني الإنفصال عن حليفه واستنفره إلى السعى لمرضاة الله والتوقف عن مؤازرة مادبو (٤) . وراح الخليفة بعد هذا يستعدى القبائل الأخرى على مادبو ، فوجه بنى هلبة إلى منع الخارجين من دخول ديارهم ، وزين لهم حربهم فإنهم بذلك يكسبون وده ورضاءه (٥) .

وبلغ استغلال الخليفة للتناحر القبلى بين البقارة فى مكافحة عصيان مادبو أقصى

---

(١) مهدية: صادر ١٠ ص ٦١ – ٣ الحجة ١٣٠٣ الموافق ٢ سبتمبر ١٨٨٦ ( الخليفة إلى كرم الله ).

(٢) مهدية : صادر ١٠ ص ٢٢ – ٨ شوال ١٣٠٣ الموافق ١٠ يوليو ١٨٨٦ ( الخليفة إلى البشارى).

(٣) مهدية : صادر ١٠ ص ٢٨ – ٢٣ شوال ١٣٠٣ الموافق ٢٥ يوليو ١٨٨٦ ( الخليفة إلى يوسف ابراهيم ).

(٤) مهدية : صادر ١٠ ص ٢٦ – ١٧ شوال ١٣٠٣ الموافق ١٩ يوليو ١٨٨٦( الخليفة إلى محمد ابو سلامة. وأهله المعاليا ).

(٥) مهدية: صادر ١٠ ص ٢٧ – ١٧ شوال ١٣٠٣ الموافق ١٩ يوليو ١٨٨٦ ( الخليفة إلى بنى هلبة).

درجاته حين دفع ساقه العبيد الذى حل محل بُرار أُجبر فى منافسة مادبو على زعامة الرزيقات إلى قتال غريمه ، ومناه بالإمارة على الرزيقات جميعهم إن هو نجح فى اسر مادبو أو قتله (١) . وإعتقد الخليفة أن تدبيراته تلك ستضعف مقاومة مادبو ، فيضطر إلى البحث عن مخرج من مأزقه ، فقرر أن يمنحه فرصة للتراجع ، وخاطبه قائلا إنه ظل يحسبه فى عداد الذين يبذلون كل مرتخص وغال فى سبيل المهدية حتى بلغه نقضه لعهدها فعجب لأمره ، لكنه مازال يحسن الظن فى رجاحة عقل مادبو فليأت محمد كُرقُساوى طائعا ، وليرحل من عنده مهاجراً إلى ام درمان ، أما إن اغترّ واتبع الشيطان فذنبه عليه وسيندم على فعلته ذات يوم ولات ساعة مندم (٢) .

ولم يستجب مادبو لنصح الخليفة ، كما لم تلن قناته لوعيده ، فتحتّم إخضاعه بالسيف . فقاد أحمد الجابرى ــ الذى أرسله الخليفة أولاً لهداية مادبو ــ جيشا من الأنصار وتتبع مادبو بالهجوم حتى ضاق به الخناق ، فسعى إلى الهدنة كسبا للوقت حتى ينظم صفوفه ويعيد الكرة على الأنصار ، فأبدى لأحمد الجابرى رغبة فى التسليم ووعده بالهجرة ، لكنه نكث بوعده ما أن استجمع قواه ، وإذ أرهق القتال المستمر جماعة أحمد الجابرى عاد بهم الى شكا (٣) . وخرج من شكا جيش آخر بقيادة سليمان كُرقُساوى وحمل على مادبو حملة شعواء فانهزم وهرب إلى دار بنى هلبة (٤) . واتفق أن وصل كرم الله فى هذا الوقت بجيشه إلى شكا بعد أن أمضى فى الطريق بينها وبين بحر الغزال شهرين كاملين ، فأطلعه محمد كُرقُساوى على مجريات الاحداث ، فنهض لتوه ليلحق بأخيه سليمان ويعينه فى مطاردة مادبو (٥) .

وخشى الخليفه من إنحياز بنى هلبة الى مادبو وهم قوة لايستهان بها ، فناشد زعماءهم الا يأووه وطلب منهم ضبطه وتسليمه إلى مندوبي محمد كُرقُساوى ، فإن

(١) مهدية : صادر ١٠ ص ٢١ – ٨ شوال ١٣٠٢ الموافق ١٠ يوليو ١٨٨٦ (الخليفة إلى ساقه العبيد).

(٢) مهدية : صادر ١٠ ص ٢٠ – ٨ شوال ١٣٠٢ الموافق ١٠ يوليو ١٨٨٦ ( الخليفة إلى مادبو) .

(٣) مهدية : صادر ١٠ ص ٧٩ – ٢ صفر ١٣٠٤ الموافق ٣١ أكتوبر ١٨٨٦ ( الخليفة إلى محمد كرقساوى) .

(٤) مهدية : صادر ١٠ ص ٩٠ – ٢٥ صفر ١٣٠٤ الموافق ٢٣ فبراير ١٨٨٦ ( الخليفة إلى كرم الله ) .

(٥) مهدية : صادر ١٠ ص ١٠٢ – غاية ربيع اول ١٣٠٤ الموافق ٢٧ ديسمبر ١٨٨٦ ( الخليفة إلى كرم الله ) .

هـرب فليطـاردوه ، أما إن اختاروا غير هذا فستضحى أرضهم ومالهم غنيمه للأنصار(١).
وكما احتمى مادبو ببنى هلبة هرب حليفـه محمـد أبو سلامة إلى الفاشر خوفاً من أن تمتـد إليه يد كرم الله ، على أنه لم يتنكر لصديقه، فجعل ابنه يوسف على رأس جماعة من المعاليا لمؤازرة مادبو فى محنته (٢) . ومرة ثانية استنفر الخليفة يوسف ابراهيم على مجاهدة قادة الفتنة فأمره باعتقال محمد أبي سلامة وارسـاله إلى محمـد كُرقُسـاوى فى شـكا ، كما ناشـده بسـد الطريق على مادبو كي لايفلت من يد الانصار الذين عينوا لملاحقته (٣) .

وكان فرار محمد أبي سلامة إيذاناً بنهاية مادبو، إذ خسر رجلا من اقوى مناصريه . ثم تخلى بنو هلبة عنه وأبعدوه من ديارهم ، فدب الوهن بين أتباعه وعم صفوفهم خوف شديد من الأنصار الذين تكاثروا عليهم بعد أن أمدهم كرم الله بالسلاح والبازنقر(٤) . وانتهز سليمان كُرقُساوى فرصة انهيار مقاومة مادبو فألح فى طلبه حتى سلم له جمع غفير من الرزيقات فى الدّبَاكر التى تقع داخل حدود مركز الفاشر . وتقرر نتيجة لهذا مصير مادبو ودارت عليه الدوائر ، فهـام على وجهه طريدا ، فتعقبه النقيب محمد كتمبور أحد أعوان كرم الله ، وأوقـع به واستولى على ثلاثين مـن جياده ، لكنه أفلت منه وفر فى خمسة من رجاله نحو الفاشـر عله يجد حماية عند يوسف ابراهيم كصاحبه محمد أبي سـلامة (٥) .

وخاب أمل مادبو فى يوسف ابراهيم الذى خشى أن يظن به الخليفة الظنـون إن لم ينفـذ تعليماته القاضية بمحاربة مادبو ، فأذن لرجاله بضبطه، فألقوا القبـض عليه فى الدُورْ مسيرة يوم من الفاشر ، ودفعوا به إلى كرم الله الذى أقتفى أثر مادبو بعد فـراره من دار

---

(١) مهدية : صادر ٣ ص ١٩ — ٢٥ صفر ١٣٠٤ الموافق ٢٣ نوفمبر ١٨٨٦ ( الخليفة إلى كافة بنى هلبه ) حدثنى الشيخ محمد عمر الضهيب بأن شمبال الضهيب سمح لمادبو حين لجأ إليه بالإقامة فى دار بنى هلبه وعاهده على ذلك ، لكن البعض من شيوخ القبيلة اعترضوا على قرار شمبال وكادت القبيلة تنقسم على نفسها فاجبر شمبال على الرجوع عن وعده وطلب من مادبو مغادرة دار بنى هلبه ، فرضخ للامر وهو برم ساخط .

(٢) مهدية: صادر ١٠ ص ٩١ — ٢٥ صفر ١٣٠٤ الموافق ٢٣ نوفمبر ١٨٨٦ (الخليفة إلى محمد كرقساوى).

(٣) مهدية : صادر ١٠ ص ٩٣ — ٢٥ صفر ١٣٠٤ الموافق ٢٣ نوفمبر ١٨٨٦ ( الخليفة إلى يوسف ابراهيم).

(٤) قدر سلاطين عدد الاسلحة النارية التى كانت بحوزة كرم الله حين قدم شكا بما يزيد عن الثلاثة آلاف بندقية (السيف والنار : ص ٤١٢).

(٥) مهدية: صادر ١٠ ص ١٠٣ — غاية ربيع أول ١٣٠٤ الموافق ٢٧ ديسمبر ١٨٨٦ ( الخليفة إلى محمد كرقساوى) .

بنى هلبة ووصل ببازنقره قريبا من الفاشر ، ولعل يوسف ابراهيم أراد بالقبض على مادبو كذلك إبعاد كرم الله من التدخل فى عمالة الفاشر بحجة السعى وراء مادبو . وتحقق ليوسف مقصده حين عاد كرم الله الى دَارَه بجيشه ، ومن هناك بعث بمادبو الى محمد كُرقُساوى فى شَكا (١) .

وبادر محمد كرقساوى بترحيل مادبو مخفوراً إلى أم درمان (٢) التى لم يقدر له الوصول اليها ، إذ لقى حتفه فى الأبيض على يد أبي عنجه . فزيادة على استنكار أبي عنجه لخروج مادبو على إمرة الخليفة كان يحمل له فى نفسه حقداً شخصيا (٣) أراد التنفيس عنه ، فقتله إثر مشادة كلامية كال أثناءها مادبو السباب لأبي عنجه ووصفه بأنه عبد حقير . ويكشف لنا خطاب أرسله أبوعنجه من جبال النوبة إلى عثمان آدم فى الأبيض عن شر انتواه أبوعنجه بمادبو قبل أن يصل هذا الى الأبيض ، جاء فى الخطاب : « . . . ولايخفاكم حلم سيد الجميع ( يقصد بذلك الخليفة ) بالمسيئين ومثل المذكور ( يقصد بهذا مادبو) مما لابد من تنكيله لإرتداع أمثاله وظهور تأييد الدين ، فافهموا ذلك واحجزوه عندكم . . (٤) » لقد كان ممكنا لمادبو أن يواصل سيره إلى ام درمان لولا أن أمر عثمان آدم بحجزه حتى يحضر ابو عنجه من الجبال . ومن الواضح أن أباعنجه خشىَ أن يعفو الخليفة عن مادبو بينما أراد له هو الموت أيّاً كانت دوافعه . وكان لأبي عنجه ماطلب ، فقتل مادبو وارسل رأسه الى أم درمان .

ويحكى سلاطين أن الخليفة أسف لمقتل مادبو وأسر الى بطانته بأن مادبو لو عاش لقدم له خدمات جليلة (٥) . ويبدو أن كلاما كهذا ترامى الى مسامع أبي عنجه ،فأعتذر للخليفه لقتله لمادبو دون الرجوع اليه ، فبعث اليه الخليفة بخطاب يختلف فى مضمونه عما رواه سلاطين . جاء فى الخطاب « . . . . كل مايصدر منك فهو مقبول عندنا . . . .

---

(١) مهدية : صادر ١٠ ص١٠٨ – ٦ ربيع ثانى ١٣٠٤ الموافق ٢ يناير ١٨٨٧ ( الخليفة إلى محمد كرقساوى ).

(٢) مهدية : صادر ١٠ ص ١١٦ – ٢٦ ربيع ثانى ١٣٠٤ الموافق ٢٢ يناير ١٨٨٧ ( الخليفة إلى محمد كرقساوى) جاء فى السيف والنار (ص ٤١٣) خطأ أن يوسف ابراهيم أرسل مادبو إلى أبى عنجه فى الأبيض.

(٣) مبعث ذلك الحقد أن مادبو أساء معاملة أبي عنجة لما كان واحداً من أسراه بعد مقتل سليمان الزبير ، الذى أيده أبوعنجه بينما حاربه مادبو. فقد فرض مادبو على أبى عنجه أن يحمل صندوقا من الذخيرة يوماً كاملا فسبب له جرحاً فى رأسه ظل أثره باقياً رمزاً للاهانة. ( السيف والنار ص ٤١٤ ).

(٤) مهدية : ٢/٤٢/٢/٥٦ – ١٢ ربيع ثانى ١٣٠٤ الموافق ٩ يناير ١٨٨٧ ( ابو عنجه إلى عثمان آدم ) .

(٥) السيف والنار : ص ٤١٥ .

ولتعلم أن من ضمن إجراءاتك السديدة قتل مادبو لما أن فى ذلك مصلحة للدين وعبرة للعصاة فليتحقق لكم أنه لم يلج بالفكر اصوبيه ذلك فلايخطر بقلبك غير ذلك لاجل ماصدر لكم بطلب المذكور كان قبل العلم بما عليه قصدكم ولما ورد لنا خبر قتل المذكور سرنا وليس مؤمل فى ابقائه ( اى ابقاء مادبو ) أقل ثمرة .» (١)

وتشتت شمل اعوان مادبو بعد أسره ، فوقع بعض زعمائهم فى قبضة الأنصار ، وهرب آخرون الى بحر العرب خوفا من بطشهم ، وكان محمد أبو سلامة أكثر اولئك الزعماء عناداً . فبعد فراره إلى الفاشر دخل فى خدمة يوسف ابراهيم ، فعينه وكيلاً له على أهل شكا ، فرجع محمد أبوسلامة إلى دار المعاليا بعد أن اطمأن الى توغل كرم الله فى دار بنى هلبة بحثا عن مادبو ، وسعى الى جمع الضرائب منهم نيابة عن يوسف . فبلغ خبره سليمان كُرقُساوى إبان اقامته فى الدَبَاكُر ، فأغار عليه والحق به هزيمة منكرة (٢) . وفر محمد أبو سلامة بقومه الى جبل مَرّة (٣) ، غير أنه لم يتمتع بحريته طويلا ، فقبض عليه كرم الله وارسله الى شَكا (٤) . ومن هناك رحل محمد أبو سلامة فى عدد من شيوخ المعاليا إلى أم درمان (٥) . أما شيوخ الرزيقات فقد انفرط عقدهم فهرب موسى مادبو الى بحر العرب (٦) ، بينما أصبح بُرار طريد امر الخليفة القاضى بعزله من إمارة النوابيه وتعيين خلف له بعد القبض عليه (٧) .

---

(١) مهدية: ١/٢٥/٣/٣٣٥ — ٢١ جماد ثانى ١٣٠٤ الموافق ١٧ مارس ١٨٨٧

(٢) مهدية : صادر ص ١٠٣ غاية ربيع أول ١٣٠٤ الموافق ٢٧ ديسمبر ١٨٨٦ (الخليفة إلى محمد كرقساوى)

(٣) مهدية : صادر ١٠ ص ١٠٦ — ٢٦ ربيع ثانى ١٣٠٤ الموافق ٢٢ يناير ١٨٨٧ ( الخليفة إلى محمد كرقساوى).

(٤) مهدية : ١/٣٣/١١/٤ — ٦ جماد ثانى ١٣٠٤ الموافق ٢ مارس ١٨٨٧ ( الخليفةإلى محمد كرقساوى).

(٥) قال لى الشيخ عبدالحميد موسى مادبو أن من بين من سيق مع محمد أبى سلامة ابن عمه حنيطير أبى موسى ، وكان حنيطير يكثر من شرب الخمر «المريسة» فمنعه الخليفة من تعاطيها والحقه «بخلوة» لدراسة القرآن مع فتية صغار ، ولما انقضى عهد المهدية وعاد حنيطير إلى دارالمعاليا انشد قائلا :

أنا حنيطير ابو موسى راجلا غليظ ( لعل كلمة غليظ تحمل هنا معنى كبر السن وضخامة الجسم )

الخليفة ما يخاف الله يقرينى مع العويلة ( ألم يخشى الخليفة الله حين جعلنى ادرس مع الصغار )

ويلحقنى ألم تر كيف ؟ (فى هذا إشارة إلى السورة الكريمة ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل )

(٦) مهدية: صادر ١٠ ص ١٣٤ — ٦ جماد ثانى ١٣٠٤ الموافق ٢ مارس ١٨٨٧ (الخليفة إلى محمد كرقساوى)

(٧) مهدية : صادر ١٠ ص ١١٥ — ٢٥ ربيع ثانى ١٣٠٤ الموافق ٢١ يناير ١٨٨٧ ( الخليفة إلى محمد كرقساوى).

وترتبت على عصيان مادبو آثار خطيرة . تعمق أولاً الخلاف بين البقارة فانشطرت قبائلهم بين مؤيد لمادبو ومعارض له ، وما انحياز ساقه العبيد الى جانب الخليفة طمعا فى تعيينه اميراً على الرزيقات إلا مثال واحد من شواهد عديدة . وشجع ثانيا روح التمرد بين من رفضوا زعامة الخليفة السياسية ونفروا من الهجرة ، فقد وجدوا فى مادبو قائدا شجاعا ، فتبعه أغلبية الرزيقات والهبانية والمعاليا وبعض من أهل« السودان ». وبذا أصبح مادبو زعيما لأكثر من قبيلة . ولعل أخطر آثار عصيان مادبو ما اصاب كرم الله ومحمد كُرقُساوى من خسائر عسكرية، كتناقص مخزونهما من الذخيرة ، فراح كرم الله يرجو الخليفة فى الحاح أن يمده بقدر كبير منها (١) . وتضافر هذا مع إنتشار أسباب التمرد بين البقارة وأهل « السودان » فى اضعاف استعداد كرم الله ومحمد كُرقُساوى لمواجهة تحرش يوسف ابراهيم بهما .

**ب – ثورة يوسف ابراهيم :**

ماكان يوسف ابراهيم ليقنع مهما اجتهد فى عرض ولائه للخليفة بسلطان أسمى فى دارفور . ثم كيف له يرضى أن يشاركه كرم الله ومحمد كُرقُساوى الحكم فيها ؟ ولاغرابة أن تمثل يوسف ابراهيم فى كرم الله زبيراً آخر ، غازياً معتدياً ينوى اغتصاب ملكه كما فعل الزبير ود رحمه بأبيه . لقد اراد يوسف سلطانا فعليا لاتشوبه تبعية أوينتقص من كماله مشاركة ، فرفع لهذا الراية التى رماها دُودْ بَنْجَه ، ونادى باستقلال دارفور الذى تجلى فى بَعثه لتقاليد آبائه فى الإدارة والحكم ، وطرده لكرم الله من عمالة دَارَه ، وسعيه الى بسط نفوذه بين القبائل فى شمال دارفور وجنوبها ، ثم فى تذرعه بأسباب كثيرة لتفادى الهجرة إلى أم درمان ، وقتاله للأمير عثمان آدم حتى خر صريع نضاله لإستعادة مجد أجداده الضائع .

وظهرت بوادر هذه السياسة عند يوسف ابراهيم وتمرد مادبو فى أوجه ، فشك الخليفة فى إخلاصه واقتنع بوجوب هجرته وهجرة كبار أتباعه إلى أم درمان كى يستقيم الحال فى دارفور ، فاقترح على أبي عنجه ارسال من يقف على حقيقة يوسف (٢) ورغم أن يوسف اجاب داعى الخليفة بمساعدة كرم الله فى القبض على مادبو ، إلا أن وقائع معينة أكدت ماذهب اليه الخليفة من شك فى ولائه ، وأثبتت عزمه على الإنفصال بدارفور .

---

(١) مهدية : صادر ١٠ ص ١٢٤ – ٢٧ جماد اول ١٣٠٤ الموافق ٢٠ فبراير ١٨٨٧ (الخليفة إلى كرم الله ).
(٢) مهدية : ١/٢٥/٤/٢٦٣ – ١٧ صفر ١٣٠٤ الموافق ١٥ نوفمبر ١٨٨٦ ( الخليفة إلى ابى عنجة ).

فقد جعل محمد أبا سلامة أميراً على إقليم شكا الشمالى لإستثارة أهله ضد البحارة مع أن أبا سلامة عادى المهدية وحالف مادبو ، ثم أبى يوسف تسليمه لمندوب محمد كُرقُساوى، وأدعى كذبا أنه كتب إلى الخليفة مستفهما عما يفعله به (١) كما عمل يوسَف على إدخال بنى هلبة فى طاعته ، فلما أعرضوا حاربهم وقتل فريقاً منهم ، فاستعان زعيماهم شُمبال الضهيب والبشارى خليل بكرم الله، ورغبا فى الإنضمام اليه حماية لأهلهم واموالهم من عدوان الفور ، ورفع كرم الله الأمر إلى الخليفة فأذن له بالاقامة فى دَارَه عاملا عليها لتأمين بنى هلبة ورد المعتدين عن غيهم (٢) ، وما علم الخليفة أنه بذلك القرار قد أثار ثائرة يوسف وأشعل نار الفتنة بينه وبين كرم الله .

ومضى يوسف ابراهيم فى الطريق الذى اختطه لنفسه مستهينا بالصعاب وماقد يجلبه له من مشاكل مع الخليفة والبَحّارة . فعين ابراهيم عبد الجليل حاكما على الطويشة التى تقع فى دائرة اختصاص كرم الله ، فلما جاءها النقيب احمد محمد عبد الله مندوب محمد كُرقُساوى لجباية الزكاة من أهلها وجد ابراهيم عبد الجليل قد غنمهم (٣) ، وبذا زادت شكوك الخليفة فى ولاء يوسف ابراهيم للمهدية ، ثم اصبح الشك يقينا حين نقل اليه ابو عنجه ماجاء على لسان رسله إلى الفاشر من أن يوسف احيى سنة سلاطين الفور الأول فى الحكم بأن قسم دارفور إلى حواكير ، ولقب رجال دولته بالشراتي والمقاديم والملوك ، فراحوا بدورهم ينادونه بالسلطان ويسجدون فى حضرته حفاة الرأس والقدمين . وبارك الخليفة مبادرة أبى عنجة بنصح يوسف إبراهيم بإبطال هذه الألقاب التى تخرج بدارفور عن نظام المهدية الإدارى (٤) .

واقام كرم الله فى دَارَه بعد القبض على مادبو كأمر الخليفة، وبث اتباعه فى جهاتها لتنظيم شئونها وجمع الزكاة من سكانها ، فاحتج يوسف ابراهيم على كرم الله ظناً منه

(١) مهدية: صادر ١٠ ص ١٠٣ – غاية ربيع أول ١٣٠٤ الموافق ٢٧ ديسمبر ١٨٨٦ (الخليفة إلى محمد كرقساوى).

(٢) مهدية: صادر ١٠ ص ١١٤ – ٢٣ ربيع ثانى ١٣٠٤ الموافق ١٩ يناير ١٨٨٧ (الخليفة إلى كرم الله).

(٣) مهدية : صادر ١٠ ص ٢٣٥– ٦ جماد اول الموافق ٣١ يناير ١٨٨٧ (الخليفة إلى محمد كرقساوى) .

(٤) مهدية : ١/٢٥/٤/٣١٤/ – ٢٥ جماد اول ١٣٠٤ الموافق ١٩ فبراير ١٨٨٧ (الخليفة إلى ابى عنجه) جاء فى تقرير للامبن ( Lampen ) أن السلطان يوسف ابراهيم عين عبد الغفار حنفى مقدوماً على كبكابية، واحمد شطة على دار كرنى ، وحسن ابكر على دارمادى . وتشكل هذه الديار فى مجموعها الجزء الشمالى والغربى من جبل مرة حتى حدود دار مساليت وقمر وتامه ، وأضاف ان اولئك المقاديم عضدوا السلطان أبا الخيرات الذى تولى قيادة الفور اثر مقتل يوسف أبراهيم (مركز شمال دارفور ٦٦/ب/٨/٢ ).

بأن البَحّارة خولوا لأنفسهم سلطة ليست من حقهم ، فدفع كرم الله حجة يوسف بأن أرسل اليه صورة من أمر الخليفة بتعيينه عاملا على دَارَه، فلم يعر يوسف مادفع به كرم إهتماماً ، وجمع جيوشه لمحاربته وإبعاده من دَارَه كلية . وفى ٢٦ يناير ١٨٨٦ اشتبك الفور مع جماعة من أتباع كرم الله فى مكان يقال له الصَفْرا وقتلوا نقيبهم كور كتى (١).
وأبلغ كرم الله الخليفة ماحدث فأسقط فى يده ، لكنه بعد تفكير ملى كتب إلى كرم الله يشرح له خيبة أمله فى يوسف ابراهيم وينصحه بالإقلاع عن كل مايوسع شقة الخلاف بينهما، فالموقف يستدعى الحكمة والروية، ثم أفاده بأنه سيرسل فى طلب يوسف إلى الهجرة ، فإن امتثل فذلك مبلغ الرجاء، وإن رفض وبقى فى الفاشر دون أن يتحرش به فليكُن الخليفة على علم بذلك ، أما إن حاول يوسف الفرار فليتعقبه الأنصار حتى يقبضوا عليه (٢) .

وبدأ الخليفة ينفذ سياسة الحكمة التى أشار بها على كرم الله ، فدعا يوسف ابراهيم إلى الحضور إلى أم درمان لأخذ البيعة وتجديد العهد ، وطلب منه أن يوصى نائبه على الفاشر بالتعاون مع كرم الله لحين عودته اليها ، كما أمره بإحضار عمته الميرَمْ عرفه صاحبة النفوذ القوى ووزيره آدم بوش، وأعيان الفور أحمد ولد سعيد وزايد عجاج ورحمة حسين قومو وشرف الدين سليمان وجبر الله طاهر (٣) .

واتفق أنْ كان أبوعنجه بالأبيض حين وصلت هذه الرسالة إلى يوسف ابراهيم ولما كان أبوعنجه طيلة إقامته فى كردفان مستشاراً للخليفة فى شئون دارفور ، احتجز أمره بهجرة يوسف ابراهيم ، كما احتجز الرسائل الموجهة إلى كرم الله ومحمد كرقساوى فى شرح السياسة التى يجب انتهاجها نحو يوسف ، اذ كان من رأى أبي عنجه أن يوسف ممتثل للمهدية ، فإذا بدر منه مايثير المخاوف فإن تأليفه مستطاع . وزاد أبو عنجه على ذلك بأن اقترح على الخليفة تأجيل طلب يوسف إلى الهجرة حتى لايرتاب ، فأيد الخليفة أبا عنجه فى رأيه (٤) .

---

(١) مهدية : ٢/١٥/٢/٩٣-١٩ صفر ١٣٠٥ الموافق ٦ نوفمبر ١٨٨٧ ( ابوه جودة فات إلى الخليفة ).

(٢) مهدية : صادر ١٠ ص ١٢٤-٢٧ جماد اول ١٣٠٤ الموافق ٢١ فبراير ١٨٨٧ (الخليفة إلى كرم الله).

(٣) مهدية : صادر ١٠ ص ١٢٧ و ٢٨-٢٨ جماد اول ١٣٠٤ الموافق ٢٢ فبراير ١٨٨٧ ( الخليفة إلى يوسف ابراهيم ).

(٤) مهدية: صادر ١٣٧/١٠- ١٥ جماد ثانى ١٣٠٤ الموافق ١ مارس ١٨٨٧ ( الخليفة إلى أبي عنجة).

والحقيقة أن أبا عنجه كوّن رأيه هذا عن يوسف ابراهيم منذ مايقرب من العام ، واختار مصاهرة أسرة ملوك الفور وسيلة لكسب ود يوسف وضمان إخلاصه ، فابلغه بعد تجريده لزقل مباشرة رغبته فى الزاوج من إبنة أخيه عبد الرحمن التى كانت زوجاً لعمر ترّحوا . وصادفت رغبة أبي‌عنجه هوى فى نفس يوسف الذى طمع فى الاستفادة من نفوذ أبي‌عنجه لدى الخليفة فى إقصاء البَحّارة من دارفور ، فأرسل اليه أخته لأبيه واعتذر لابنة أخيه التى تزوجت برجل من أهلها (١) . ولم يكتف ابو عنجه بهذا الزواج « السياسى » فى استمالة يوسف ابراهيم بل طرق جوهر المشكلة بينه وبين كرم الله لماأشار على هذا بالكف عن التدخل فى ادارة دارفور ، وبمعاونة يوسف فى إخضاع القبائل التى عضدت مادبو فى ثورته . وما ذاك إلا دليل على اقتناع أبي‌عنجه بأن وجود البَحّارة فى جنوب دارفور أمر يرفضه يوسف ، وقد يدفعه إلى إحداث فتنة تجره إلى معاداة الخليفة ومناهضته ، ومرة ثانية بارك الخليفة قرار أبي‌عنجه ، لكنه نبهه إلى أنه عين كرم الله عاملا على دَارَه (٢) فاعتذر أبوعنجه عن تعجله فى رفع كرم الله عن عمالته لجهله بأمر ذلك التعيين (٣) .

وهنالك عوامل ثلاثة أملت على الخليفة مهادنة يوسف والصبر على سوء سلوكه كل هذا الوقت . فحين ثبت ميل يوسف إلى التمرد كان الخليفة قد انصرف الى إعداد العدة لإخضاع زعيم الكبابيش صالح فضل الله (٤) ، ولم يكن سهلاً تبعاً لذلك أن يشغل

(١) مهدية : ١/٨/٢/٨/٢١-٢ جماد ثانى ١٣٠٤ الموافق ٢٠ مارس ١٨٨٧ ( ابو عنجه إلى الخليفة ).

(٢) مهدية : صادر ١٠ص ١٤٥-غاية جماد ثانى ١٣٠٤ الموافق ٢٥ مارس ١٨٨٧ (الخليفة إلى أبى عنجه).

(٣) مهدية : ١/٢٨/٨/١٣/-٤ رجب ١٣٠٤ الموافق ٢٩ مارس ١٨٨٧ ( ابو عنجه إلى الخليفة ).

(٤) كان على الكبابيش حين قامت الثورة المهدية الشيخ التوم فضل الله الذى رفض دعوة المهدى لأسباب قد يكون أقواها ارتباط مصالح قبيلته بتجارة الإبل مع مصر ، وسقط الشيخ التوم ضحية اعتراضه حين قتله الأنصار فى ١٨٨٣ ، فخلفه أخوه صالح على رئاسة القبيلة وسار على نهجه فى معارضة المهدية رغم الانذارات التى وجهها اليه المهدى ، وكان الكبابيش يسيطرون على طريق الاربعين الذى يربط صعيد مصر بغرب السودان ، فأضحوا لذلك مصدر ازعاج للخليفة الذى خاف من تسرب أخبار دولته عن طريقهم إلى مصر ، فاجتهد فى كسب ودهم وأرسل أماناً إلى شيخهم فى سبتمبر ١٨٨٦ ، فأذعن بعضهم له وراح الشيخ صالح يفاوض فى شروط الصلح ، ففطن الخليفة إلى أنه إنما فعل ذلك كسباً للوقت . وكان الشيخ صالح فى واقع الأمر على اتصال بالدوائر المسئولة فى مصر أملا فى الحصول على أسلحة وذخيرة ، فوجه الخليفة أبا عنجة إلى إثارة قبائل دار حامد على الكبابيش ، وكتب إلى عبد الرحمن النجومى فى دنقلا يأمره بقطع الطريق على الغادين والرائحين منهم إلى مصر . وفى يناير ١٨٨٧ أرسل الخليفة إنذارا نهائيا إلى الشيخ صالح كان مصيره الاهمال ، فصدر إلى عثمان آدم فى الأبيض أمر بتوجيه السرايا إلى دار الكبابيش وفى أبريل قبض النجومى على جماعة من الكبابيش كانوا يحملون سلاحاً وذخيرة من مصر وفى ذات الشهر أكتملت استعدادات الأنصار فحملوا على الشيخ صالح ، وظلوا ينزلون به الهزيمة تلو الأخرى حتى قتلوه فى مايو ١٨٨٧ ( شقير ٣ : ص ٤٥٥-٤٥٦ ، هولت ص ١٣٥ - ١٣٦ السودان فى قرن ص ٢٦٤ ).

الخليفة نفسه بحرب ثانية في جبهة واحدة هي غرب السودان . فلو أراد ذلك لتعين عليه استبقاء جيش أبي عنجه لقتال يوسف بينما يحارب عثمان آدم صالح فضل الله . ولم يكن ذلك ممكنا إذ إنفتحت جبهة قتال اخرى حين أغار الأحباش على القلابات فى يناير ١٨٨٧ وغنموها وقتلوا عاملها محمد ود ارباب . فاستعجل الخليفة خروج أبي عنجه بجيشه من جبال النوبة للدفاع عن حدود دولته الشرقية ورد عدوان الأحباش (١) .

اما السبب الثالث فهو أن الخليفة لم يجد فى دارفور نفسها قوة يؤدب بها يوسف ابراهيم غير البَحّارة . ولإعتبارين هامين لم يشأ الخليفة الاعتماد على كرم الله ومحمد كُرقُساوى فى محاربة يوسف . خاف أولاً من ازدياد قوتّهما ونفوذهما إن نجحا فى إخضاعه ، كذلك خشى من جنوحهما إلى الخروج عليه — كما فعل زُقَل من قبل — إن تمت لهما السيطرة على دارفور . ومصدر الخوف أن البَحّارة من أولاد البلد والنزاع بين هؤلاء والخليفة مازال قائما وإن هَدأ أواره ، وليس من مصلحة الخليفة تقوية نفوذ خصومه السياسيين ، بل اتجهت خطته إلى إضعافهم ، ولذا رأى مبدأ الامر أن فى البَحّارة خطراً أكبر من تمرد يوسف ابراهيم (٢) .

ويتضح من عدم اطمئنان الخليفة لإخلاص كرم الله ومحمد كُرقُساوى ورغبته فى خروجهما من دارفور سريعا من شواهد كثيرة . كتب الخليفة الى محمد كُرقُساوى يبلغه ضمه إلى الراية الزرقاء تحت إمرة اخيه الخليفة يعقوب بن محمد ، ويمنعه من مخاطبة

---

(١) احتل الأنصار القلابات فى مارس ١٨٨٥ إثر انسحاب حاميتها المصرية بمعاونة ملك الحبشة يوحنا . وكانت تلك بداية الجفوة بين الأحباش ودولة المهدية ، واتسعت شقة الخلاف بين الجانبين نتيجة رفض الملك يوحنا لدعوة المهدى ، ثم ازدادت اتساعاً بسبب الحماية التى منحها الرأس عدار حاكم المقاطعة الحبشية المقابلة للقلابات للفارين من حكم الخليفة ، وتهيأ بذلك الجو لاحتكاك بين الطرفين ، فلما أغار أتباع محمد ود أرباب على حدود الرأس عدار ، اجابهم بهجوم مماثل على القلابات قتل أثناءه محمد ود أرباب ، وأنزعج الخليفة للنبأ فانتدب الأمير يونس الدكيم على رأس حملة استعادت مركز الأنصار فى القلابات ، بيد أن الخليفة أحس بأن الوقت قد حان لتسوية حساب طال عليه الزمن مع الأحباش ، فاستدعى أبا عنجه من جبال النوبة ، فوصل أم درمان بجيشه فى ٢٣ ابريل ١٨٨٧ أى عند بداية الجولة الأخيرة فى الحرب بين الانصار والكبابيش ، وعقد الخليفة لأبي عنجه لواء القيادة فى القلابات فنهض اليها فى اكتوبر ، وشن أبو عنجه عقب وصوله أرض المعركة هجوماً عنيفاً على الرأس عدار ، وتوغل فى أراضيه حتى خرب عاصمته قندار ، ثم عاد إلى القلابات لتجهيز جيشه لهجوم جديد ، غير أن المنية وافته فى يناير ١٨٨٩ ، فتولى الزاكى طمل قيادة الأنصار بعده ، وحزن الخليفة اشد الحزن على أبى عنجه ، فقد كان رجلا شجاعاً وقائداً محنكاً وجندياً مخلصاً له . (هل: ص ١٤٨ ، هولت : ص ١٥٠ — ١٥١ ، السودان فى قرن: ص ٢٦٦)

(٢) السيف والنار ص ٤١٣ ، هولت: ص ١٣٧ .

غيره أو طلب حاجة من سواه ، فإن أراد الإتصال بالخليفة فليكن ذاك عن طريق يعقوب وحده (١). ومن الجلى أن الخليفة قصد بهذا تحويل ولاء البحّارة من الخليفة محمد شريف والأشراف . ولما تم القبض على مادبو ، سارع الخليفة باستعجال هجرة كرم الله ومحمد كُرقُساوى (٢)، رغم أن بوادر عصيان يوسف ابراهيم قد بدت واضحة للعيان . فلو أراد الاستعانة بهما فى قتاله لما حثهما على الهجرة ، واذ شاع فى أم درمان أن كرم الله لايعير أوامر الخليفة بوجوب هجرته كبير اهتمام، وبلغت مسامعه شكوك الخليفة فيه ، نفى فى قوة الإشاعة وأكد للخليفه تبعيته المطلقة (٣) .

والاعتبار الثاني الذى حدا بالخليفة الى منع كرم الله ومحمد كُرقُساوى من قتال يوسف ابراهيم منبعه الرغبة فى اشتغالهما بتهجير البقارة بعد أن انكسرت شوكتهم وأضحوا أكثر استعداداً — كرهاً إن لم يكن عن رضا — لمغادرة اوطانهم . وحرصا منه على حرمان البقارة من كل فرصة للتخلف عن الهجرة، نصح الخليفة محمد كُرقُساوى بإخفاء امر هجرته هو ، حتى تتقدمه مواكب البقارة خشية أن يسمعوا بذلك الأمر ويركنوا الى الفرار ، فإذا مارحل محمد كُرقُساوى من شَكا عادوا إلى ديارهم مطمئنين آمنين (٤) . وعندما شكا محمد كرقساوى إلى الخليفة تحرش يوسف ابراهيم المستمر بالبحارة ، أشار عليه بالتودد إلى يوسف وعدم مجاراته فى عدوانه إلى أن تتم هجرة البقارة ، ثم أخبره بأنه نهى يوسف عن الإعتداء على عمالتى دَارَه وشَكا (٥) ، وحث الخليفة كرم الله بالإنصراف إلى جمع البقارة فى صعيد واحد كى لاتتشتت فروعهم، حتى إذا حان وقت هجرتهم سهل عليه قيادتهم (٦) .

ومضى يوسف ابراهيم فى تنفيذ خطته للتخلص من البحّارة غير عابيء بنصح الخليفة له بالإتفاق مع كرم الله ، فانطلقت جيوشه الى بير ام لَوّاى فقتلت النقيب محمد

---

(١) مهدية : صادر ١٠ ص ٩١ — ٢٥ صفر ١٣٠٤ الموافق ٢٣ نوفمبر ١٨٨٦.

(٢) مهدية: صادر ١٠ ص ١٣٨ — ١٨ جماد ثانى ١٣٠٤ الموافق ١٤ مارس ١٨٨٧ ( الخليفة إلى محمد كرقساوى ).

(٣) مهدية: ١/٣٢/٢٠/٢ — ٨ الحجة ١٣٠٤ الموافق ٢٨ اغسطس ١٨٨٧ (كرم الله إلى الخليفة ).

(٤) مهدية: صادر ١٠ ص ١٣٩ — ١٨ جماد ثانى ١٣٠٤ الموافق ١٤ مارس ١٨٨٧ ( الخليفة إلى محمد كرقساوى ).

(٥) مهدية: صادر ١٠ ص ١٧٠—٦ شعبان ١٣٠٤ الموافق ٣٠ ابريل ١٨٨٧ ( الخليفة إلى محمد كرقساوى ).

(٦) مهدية: صادر ١٠ ص ١٨١ — غاية شعبان ١٣٠٤ الموافق ٢٣ مايو ١٨٨٧ ( الخليفة إلى كرم الله ).

عالم ومن معه من البازنقر فى ٢٢ مايو ١٨٨٧ ، ثم أوقعت بالبحّارة المقيمين فى منواشى فى٨ يونيو . وقام جيش آخر بالهجوم على الطويشة فى ٢٥ يونيو ، فانبرى له النقيب احمد محمد عبد الله ليصد عدوان الفور ، لكنه قتل فى عدد من اصحابه ، وقد استعان الفور فى هجومهم على الطويشة بالبرْتي الذين حالفوا البحّارة أول الامر حتى اطمأنت نفوس البحارة اليهم ، ثم غدروا بهم ونقلوا أخبارهم إلى يوسف ابراهيم، كما ساعدوا رجاله فى الإستيلاء على الطويشة . وغنمت جيوش يوسف فى هذه المواقع كثيرا من الأسلحة والخيول والمتاع . ولما شدد الفور النكير على البحّارة، وضاق بكرم الله الحال أخلى دارَه وتراجع الى السنليله التى تقع على مسيرة يوم من شكا (١) وظل الفور يشيعونه بالهجمات المتصلة حتى بلغ وجهته فى ٤ يوليو ١٨٨٧ (٢) .

وعمد يوسف إبراهيم بعد هذا الى الضغط الإقتصادى ، وإثارة القبائل لطرد البحّارة من منطقة شكا بعد أن أقصاهم من دارَه ، فأمر مندوبيه فى الطويشه باستنهاض المعاليا والرزيقات لحرب محمد كُرقُساوى، وبمنع سكان الطويشة من الإتجار مع شكا، وتحويل تجارتهم إلى الفاشر ودارَه ، فمن رفض منهم الانصياع لهذه التعليمات فلتصادر أمواله وممتلكاته (٣) . وللباحث أن يسأل هنا ما إذا كان كرم الله ومحمد كُرقُساوى قادرين على تأديب يوسف ابراهيم لو أن الخليفة أحسن الظن فيهما ورمى زعيم الفور بهما ؟ إن انحسار نفوذ البحّارة أمام هجمات يوسف لدليل على ضعفهم وفى ذلك شاهد على أن الخليفة بالغ فى تخوفه من قوتهم العسكرية .

وبدأ طور جديد فى العلاقات بين الخليفة ويوسف ابراهيم عقب هزيمة الشيخ صالح فضل الله فى مايو ١٨٨٧ ، إذ هدأ الحال فى كردفان وتيسر للخليفة الالتفات إلى ما يجرى فى دارفور بروح اختلفت عن سياسة المهادنة التى انتهجها تجاه يوسف لأسباب بيناها من قبل . فردا على تضرر كرم الله قبيل انسحابه من دارَه من اعتداءات الفور المتلاحقة عليه ونهبهم أموال بيت ماله ، أجابه الخليفة بأنه مقتنع بفساد يوسف ابراهيم وأبلغه عزمه على انتداب رسل لاستدراجه إلى ام درمان ، فإن راوغهم أو امتنع عن الحضور فليواف

(١) مهدية: صادر ١٠ ص ٢١٨ - ٦ القعدة ١٣٠٤ الموافق ٢٧ يوليو ١٨٨٧ ( الخليفة إلى محمد كرقساوى).
مهدية: ٢/١٥/٢/٩٣ - ١٩ صفر ١٣٠٥ الموافق ٦ نوفمبر ١٨٨٧ ( ابوه جودت فات إلى الخليفة ).
(٢) مهدية: ١/٣٢/٢٠/٧ - ٩ الحجة ١٣٠٤ الموافق ٢٩ اغسطس ١٨٨٧ ( كرم الله إلى الخليفة ).
(٣) مهدية: ٢/٣٦/١٠/٩/١٧ شوال ١٣٠٤ الموافق ٩ يوليو ١٨٨٧ ( يوسف ابراهيم إلى احمد عبد الرحمن).

المندوبون الخليفة بخبره ، لينظر فى أمره ويقضى فيه بمايتفق ومصلحة الدولة . وأشار الخليفة فى ذات الوقت على كرم الله ومحمد كُرقُساوى بحصر رجالهما فى مكان واحد حتى لايتفرقوا فى جماعات صغيرة فيسهل على الفور اقتناصهم (١) . وكانت أوامر الخليفة قد توالت على يوسف ابراهيم بالهجرة . فلما تثاقل فى الرحيل من الفاشر بعث اليه الخليفه بتذكير فى ٢ مارس ١٨٨٧ وآخر بتاريخ ١٧ مايو (٢) .

وقاد أبوه جـودت فات رسل الخليفة الذين انيط بهم التحقيق فيما حدث بين يوسف ابراهيم والبَحّارة (٣) . وحمل أبوه فات كذلك خطاباً من الخليفة إلى يوسف دعاه فيه إلى النهوض إلى ام درمان فهو فى شوق عظيم للقائه ، ووصف يوسف فى الخطاب بأنه من صحب الخليفة العظام الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً وأوفوا بالعهد (٤) . وماخلع الخليفة هذه الصفات على يوسف إبراهيم وخاطبه فى أدب جم الا بقصد إشاعة الاطمئنان فى قلبه حتى يتمكن من تجهيز جيش يرميه به إن استمر فى عصيانه ، فما كان انتداب أبوه فات إلا مقدمة لخطوة جريئة سعى الخليفة من ورائها الى السيطرة على يوسف ابراهيم والبَحّارة بضربة واحدة ، وتفويت الفرصة على يوسف فى تأسيس حكم مستقل فى دارفور . فبعد خمسة وعشرين يوماً من تاريخ قيام أبوه فات من أم درمان، اى قبل أن يتمكن من الوصول إلى الفاشر ثم يرحل منها الى شَكا والسنليله لمقابلة محمد كُرقُساوى وكرم الله والتعرف على آرائهما، ثم موافاة الخليفة بتقرير عما حدث ، أصدر الخليفة أمره إلى عثمان آدم بدعوة أمرائه الموزعين فى أنحاء كردفان للتجمع فى الأبيض ، والتأهب للزحف على دارفور لتأمين جهاتها وقمع الفتنة القائمة بين يوسف ابراهيم والبَحّارة ، ثم عينه قائداً لتلك الحملة واستدعاه إلى أم درمان للتشاور (٥) .

ولما انتهت مشاورات عثمان آدم مع الخليفة رجع إلى الابيض لتعبئة جيشه، وأنهى الخليفة إلى يوسف ابراهيم خبر قدوم الأنصار إلى دارفور ليمنعوا عدوان المعتدين عليه

---

(١) مهدية: صادر ١٠ ص ١٩٥ – ١٢ رمضان ١٣٠٤ الموافق ٨ يونيو ١٨٨٧ ( الخليفة إلى كرم الله ).

(٢) مهدية: صادر ١٠ ص ١٣٣ – ٦ جماد ثانى ١٣٠٤ الموافق ٢ مارس ١٨٨٧ ( الخليفة إلى يوسف إبراهيم) مهدية : صادر ١٠ ص١٧٧ ـ ٢٣ شعبان ١٣٠٤ الموافق ١٧ مايو ١٨٨٧ (الخليفة إلى يوسف ابراهيم ).

(٣) مهدية: صادر ١٠ ص ٢٠٦– ١٦ شوال ١٣٠٤ الموافق ٨ يوليو ١٨٨٧ (الخليفة إلى محمد كرقساوى).

(٤) مهدية: صادر ١٠ ص ٢٠٤– ١٣ شوال ١٣٠٤ الموافق ٥ يوليو ١٨٨٧ ( الخليفة إلى يوسف ابراهيم ).

(٥) مهدية: ١/١١/٢/١٤٨ – ٩ القعدة الموافق ٣٠ يوليو ١٨٨٧ ( الخليفة إلى عثمان آدم. ).

ويعيدوا الأمن والإستقرار إلى ربوع البلاد ، وناشده مقابلة عثمان آدم بما هو أهل له من الإكرام والإحترام [١] . وكان الخليفة قبل هذا قد قبل عذر يوسف عن الهجرة بدعوة انشغاله بثورة قام بها المحاميد والعريقات والميدوب، وسمح له بالبقاء في الفاشر [٢] حتى يطمئن قلبه بينما هو مقتنع بسوء نوايا يوسف ، فصمم على إخضاعه. فآخر مابلغ الخليفة من نشاط يوسف أن رجاله عسكروا في أم ضريسايه مسيرة يوم ونصف من شكا ، وأطلقوا يدهم في عمالة محمد كُرقُساوى ، واستثاروا المعاليا عليه فتبعوا الفور في ضلالهم، فجاهدهم محمد كُرقُساوى، لكنه لم يقو على طردهم لقلة مابيده من الذخيرة [٣] .

وتنفيذاً لما تم عليه الاتفاق في أم درمان نهض عثمان آدم من الأبيض في ٢٣ محرم ١٣٠٥ الموافق ١١ أكتوبر ١٨٨٧ قاصداً دارفور . وتكونت الحملة حين وصل عثمان آدم الاضيّه من ١٢٥١٢ محارباً و٩٤٩ من الخيول و٢٩١٠ من البنادق بذخيرتها البالغة ١٧٥ صندوقا [٤] . ومنح الخليفة قائد الحملة صلاحيات استثنائية خولت له حق التصرف في كل شيء بما يراه صحيحا، وذلك إعتماداً على ثقة الخليفة التامة فيه. ونظرا لبعد الشقة بين دارفور وأم درمان ومايترتب على ذلك من صعوبة الاتصال [٥] . واسرع عثمان آدم الخطى فطوى المسافات طياً رغم كثافة جيشه، كي يستعيد للخليفة سلطانه الذى هبت عليه الأعاصير وتهددته أعمال يوسف ابراهيم بالزوال . ودلل عثمان على حنكة سياسية ومقدرة عسكرية فائقة، وهو ينهض بالمهمة الشاقة التي القيت على كاهله رغم حداثة سنه وقلة خبرته وتجربته ، فكان عند حسن ظن الخليفة به .

رأى عثمان آدم في يوسف ابراهيم رجلاً ماكراً مخادعاً يظهر للناس غير ما يبطن، فعامله بأسلوبه حتى غلبه . فحين فطن عثمان إلى الشكوك التي تساور قلب يوسف وتغض مضجعه بعد أن بلغه عزم الخليفة على إرسال جيش إلى دارفور ، كتب

---

(١) مهدية: صادر ص ١٠ - ٢٣٩ - ٢١ الحجة ١٣٠٤ الموافق ١٠ سبتمبر ١٨٨٧ ( الخليفة إلى يوسف ابراهيم ).

(٢) مهدية: صادر ١٠ ص ٢٣٣ - ١٢ ذو القعدة ١٣٠٤ الموافق ٢ اغسطس ١٨٨٧ ( الخليفة إلى يوسف ابراهيم ).

(٣) مهدية: ١٥٣/٢٢/٣٢/١ القعدة ١٣٠٤ الموافق ٥ اغسطس ١٨٨٧ ( محمد كرقساوى إلى الخليفة ).

(٤) مهدية: ٣١/٢/١٢/١ - ٢٢ محرم ١٣٠٥ الموافق ١٠ اكتوبر ١٨٨٧ (عثمان آدم إلى الخليفة).
مهدية: ٣٧/٢/١٢/١ - ٢٣ صفر ١٣٠٥ الموافق ١٠ نوفمبر ١٨٨٧ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

(٥) مهدية: ١٨٤/٣/١١/١ - صفر ١٣٠٥ الموافق ١ نوفمبر ١٨٨٧ ( الخليفة إلى عثمان آدم ).

اليه قبل رحيله من الابيض مطمئنا فقال « . . . وليكن معلوماً يقينا أن محبتنا فيكم زائدة وظننا بكم جميل لما أنتم عليه من العقل والإستقامة، وثانيا كونه خليفه المهدى عليه السلام يحبكم ويثنى عليكم بالخير... فليكن فكركم ياحبيبى واثقا بظن الخير وحصول المحبة... وبإذن الله لما تحصل المقابلة ماتروا الا مايسركم ويشرح صدركم . . . (١) ». ولما حل عثمان آدم بالإضيه واجتمعت له الأدلة الدامغة بعصيان يوسف قرر تضليله وإحاطة تحركاته العسكرية بسرية تامة ، حتى يأخذه على حين غرة ، فأخبره بأنه قادم الى الفاشر رأسا عن طريق الطويشَه ، بينما اعتزم السير الى شَكا ومنها الى دَارَه ومن هناك الى الفاشر (٢) .

### ج ـ عود إلى البقارة :

لم يكن تضليل يوسف ابراهيم الدافع الوحيد لتغيير خط سير حملة عثمان آدم. فقد اشتد النكير بكرم الله ومحمد كُرقُساوى نتيجة عدوان الرزيقات والمعاليا والهبانية والمسيرية عليهما ، واستدعت الضرورة إنقاذ البّحّارة قبل أن تبتلعهم أمواج ثورة هذه القبائل التى تجدد نشاطها ما أن بدأ الصراع بين يوسف ابراهيم وكرم الله ، ولعل ذلك من أوضح النتائج التى ترتبت على ثورة الفور .

فلقد انفصمت عرى الإتحاد الذى كان قائما بين الرزيقات والمعاليا إثر هزيمة مادبو ، وتشتت جموعهم وتفرقت أيدى سبأ ، غير أنهم ظلوا على حالهم من الإعراض ، ورحل كثيرون من الرزيقات إلى بحر العرب إتقاء بطش الأنصار بهم ، وحاول محمد كُرقُساوى استمالتهم فأوقف تنفيذ أمر الخليفة بمصادرة ممتلكاتهم كى لا يزدادوا نفوراً(٣). ولكن دون جدوى . فما ابتعد الرزيقات عن بحر العرب وعادوا الى ديارهم إلاحين اضطرهم هطول الأمطار إلى ذلك ، وإذ أصبحوا فى متناول يد محمد كُرقُساوى، وفد عليه زعماؤهم ووعدوه بالهجرة مع ابراهيم صابون الرزيقى الذى انتدبه الخليفة لسوقهم إلى أم درمان ، فنفروا منه أولاً بإستثناء موسى مادبو الذى اطمأن إلى وعد الخليفة بالعفو عنه ، فأرسل ابن عمه حماد لأخذ البيعة نيابة عنه . وآمن محمد كُرقُساوى بما قاله شيوخ

---

(١) مهدية : ١/١٢/١٨ – ١٤ محرم ١٣٠٥ الموافق ٢ اكتوبر ١٨٨٧ (عثمان آدم إلى يوسف ابراهيم).

(٢) مهدية: ١/١٢/٣٦٢ – ٢٢ صفر ١٣٠٥ الموافق ٩ نوفمبر ١٨٨٧ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) مهدية: صادر ١٠ ص ١١٦ – ٢٦ ربيع ثانى ١٣٠٤ الموافق ٢٢ يناير ١٨٨٧ (الخليفة إلى محمد كرقساوى ).

الرزيقات له ، وأحسن معاملة موسى مادبو برد أمواله ونسائه اللائي سبين ابان عصيان أبيه اليه ، وأشرقت نفسه بالأمل فى انقياد الرزيقات بعد طول إمتناع (١) .

ثم خبا أمل محمد كُرقُساوى لما ارتد شيوخ الرزيقات عدا موسى مادبو على أعقابهم حال نشوب النزاع بين يوسف ابراهيم وكرم الله ، واعتقدوا حقا أن البَحّارة سيشغلون بصد عدوان الفور عن إكراههم على الهجرة ، فأغضب سلوكهم الخليفة فندد بموقفهم ووسمهم باتباع الشيطان ، ثم ارتفع صوته بتهديدهم إن لم يبادروا إلى الهجرة (٢) . ومن جهة اخرى فشلت مساعى محمد كُرقُساوى السلمية لتهجير المسيريّة. وعجز عن استخدام القوة فى دفعهم إلى أم درمان بسبب انصرافه لمجاهدة الفور (٣) .

وعندما تغلب الفور على كرم الله وأجبروه على التراجع إلى النـليلَه ، ظن أنه سيجد عند الرزيقات والهبانية والمعاليا عونا وسندا ، غير أنه استجار من الرمضاء بالنار ، وأصبح من التجأ اليه عونا عليه ، وبذا دخل تمرد هذه القبائل طوراً جديداً ، ولعل الأمل فى إدراك مافشل مادبو فى تحقيقه راود نفوس البعض من زعمائها فاتصل حبل المودة بينهم وبين الفور ، وتضافرت جهود الجانبين فى القضاء على سلطان البَحّارة نهائيا ، وقام أبكر عمر البيقاوى بدور الوسيط بين يوسف ابراهيم وأعيان الرزيقات ، ومن علامات ذلك خطاب بعث به إلى بُرار أجْبَر يشجعه على حرب البحارة الذين نعتهم الخطاب بالاشقياء أعداء السنة والكتاب الذين خذلهم الله جزاء ما أتوه من المنكرات ، وكان بُرار أجْبَر ممن وفدوا الى شَكا بعد عودة الرزيقات من بحر العرب ، واعلن عزمه على الهجرة ثم استأذن محمد كُرقُساوى فى مغادرة شَكا لجمع أهله وقد ابطن السوء، فما بر بوعده حتى انفضح أمره (٤) . وحذا ساقه العبيد حذو بُرار اجْبَر ، فتعاون مع اسماعيل شيخ المحاميد ، ومع المؤمن عمَران فى قيادة عصاة الرزيقات والاتحاد مع الفور فى الإغارة على النَليلَه ، فتربص كرم الله بهم الدوائر ، فلما وقعوا فى قبضته زج بهم فى السجن بنية إرسالهم إلى أم درمان (٥) . وفعل كرم الله مثل هذا بزعماء الهبانية

---

(١) مهدية: صادر ١٠ ص ٢١٩ – ٦ القعدة ١٣٠٤ الموافق ٢٧ يوليو ١٨٨٧ ( الخليفة إلى محمد كرقساوى).

(٢) مهدية: صادر ١٠ ص ٢٣١ – ٧ القعدة ١٣٠٤ الموافق ٢٨ يوليو ١٨٨٧ ( الخليفة إلى كافة الرزيقات).

(٣) مهدية: صادر ١٠ ص ٢٢٠ – ٦ القعدة ١٣٠٤ الموافق ٢٧ يوليو ١٨٨٧ (الخليفة إلى محمد كرقساوى).

(٤) مهدية: ٦/٤/٣٤/٣٢/١ الحجة ١٣٠٤ الموافق ٢٦ أغسطس ١٨٨٧ ( محمد كرقساوى إلى الخليفة ).

(٥) مهدية: ٧/٢٠/٣٢/١ – ٩ الحجة ١٣٠٤ الموافق ٢٩ اغسطس ١٨٨٧ (كرم الله إلى الخليفة ).

بعد أن يئس من هدايتهم واستمر اتصالهم بالفور، بل واستولى بعضهم على مافى بيت مال الككلكَه وذهبوا به إلى يوسف ابراهيم فى الفاشر (١) .

وحاول شيوخ الرزيقات الفكاك من أسر كرم الله ، فقتل ساقه العبيد والمؤمن عمران وفر الباقون (٢) . ومثّل كرم الله بساقه العبيد ، فازداد أهله نفوراً من المهدية وضراوة فى محاربة كرم الله (٣) ، ومدوا أيديهم إلى المعاليا — الذين استضافوا الفور فى أم ضريسَايَه — وآزروهم على قتال محمد كُرقُساوى، فتجددت عرى الإتحاد بين القبيلتين وراح رجالهما يضيقون الخناق على كرم الله فى السَنليله ومحمد كُرقُساوى فى شَكا ، وشجعهم على موالاة البحارة بالهجوم علمهم بانعدام الجبخانة عندهم (٤). ولما أشتد حصار العصاة على النليلَه احتج عليهم محمد كُرقُساوى بأن الله حرم على المسلمين حرب بعضهم بعضاً ، ثم أخبرهم بأنه كتب إلى الخليفه بتأخير هجرتهم أملا فى فك ضائقة كرم الله ورفع الحصار عنه، واستصرخ محمد كُرقُساوى فى ذات الحين الخليفة أن يوافيه بكمية من الذخيرة تمكنه من قهر العصاة واستعادة المهدية بينهم (٥) .

واستجاب الخليفة لصرخة محمد كُرقُساوى وندائه ، فوجه عثمان آدم إلى مد البَحّارة بحاجتهم حال وصول أمره اليه ، وأفاده بأن كرم الله فقد كثيراً من أتباعه اثناء المعارك التى دارت بينه وبين الرزيقات وشيعتهم من أهل « السودان » والمنضله ، وأن جهاديته انسلخوا عنه لما انعدمت وسيلة الدفاع ، ثم حثه على المبادرة بإنقاذهم قبل فوات الأوان ، فقد قاسوا الشدائد وتجرعوا كؤوس العذاب أصنافا (٦) . والشفقة التى نضحت بها كلمات هذه الرسالة تعكس تحولاً فى نظرة الخليفة الى البَحّارة ، فهو لم يعد يرى فى كرم الله ومحمد كُرقُساوى — بفعل ماصار اليه حالهما من ضعف

---

(١) مهدية: ١/٣٢/٢٠/٣ — ٨ الحجة ١٣٠٤ الموافق ٢٨ أغسطس ١٨٨٧ (كرم‌الله إلى الخليفة ).

(٢) مهدية: ١/٣٢/٢١/٢٣ — ٢٧ صفر ١٣٠٥ الموافق ١٢ نوفمبر ١٨٨٧ (كرم‌الله إلى الخليفة ) توجد اليوم فى رهد النليله شجرة « عرديب» ضخمة يعرفها الناس « بعرديبة المشايخ » نسبة إلى مشايخ الرزيقات الذين قتلهم كرم‌الله عند جزعها.

(٣) مهدية: ١/١١ب/٦/٣٤ — ٢٢ ربيع اول ١٣٠٥ الموافق ٨ ديسمبر ١٨٧٧ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٤) مهدية: ١/١٢/٢١٢٢/١٨ محرم ١٣٠٥ الموافق ٦ أكتوبر ١٨٨٧ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٥) مهدية: ١/٣٢/٢٥/١٦ — ٦ محرم ١٣٠٥ الموافق ١٤ أكتوبر ١٨٨٧ ( محمد كرقساوى إلى الخليفة).

(٦) مهدية: ١/١١/٣/١٨٥ — ١٤ صفر ١٣٠٥ الموافق ١ نوفمبر ١٨٨٧ ( الخليفة إلى عثمان آدم).
ثم ١/٣٢/٢٥/٢٣ — ٢٠ صفر ١٣٠٥ الموافق ٧ نوفمبر ١٨٨٧ (محمد كرقساوى إلى الخليفة).

وانكسار – قوة تخشى أو خطراً يحترز ، بل تابعين بددت جهودهما فى مكافحة عصاة البقارة الشبهات التى حامت حولهما أولاً ، واذ أصبحا فى خطر وجبت مساعدتهما .

والحقيقة أن الضيق بلغ بكرم الله ومحمد كُرقُساوى منتهاه ، فاستحال عليهما جمع الزكاة ، فاضطر محمد كُرقُساوى إلى بيع رقيق بيت المال لدفع مرتبات البازنقر وشراء مايأتي به التجار من داربرْقو من ذخيرة بأثمان باهظة . كذلك سد العصاة الطريق بين شَكا والنليلَه ، فانقطع الاتصال بينهما وصعب على البَحّارة الحصول على قوتهم من خارج استحكاماتهم لتربص العدو بهم ، فعاشوا فى هلع دائم والجوع يعتصر بطونهم والأمل فى نجدة يرسلها الخليفة بعيد ، بعيد (١) .

وقبل أن تصله إشارة الخليفة بالإسراع فى إنقاذ كرم الله ومحمد كُرقُساوى قرر عثمان آدم الرحيل الى شَكا ، فقد نقل اليه الأمير البشارى ريده الذى انتدب لملاحقة الحُمُر والمسيرية الذين هربوا إلى دار الرزيقات بعد أن حاربهم جيش الأنصار وهو فى طريقه إلى دارفور عقابا لهم على تأييدهم للمتمردين من أهل جبال النوبة ، نقل البشارى أنباء مزعجة عن حال البَحّارة مفادها أن محمد كُرقُساوى علم بحضور الأنصار قريبا من شَكا ، فاستنجد بهم غير أن البشارى عاد الى الاضيّه حسب أمر سابق من عثمان آدم برجوعه حال انتهائه من مطاردة الحُمُر والمسيرية ، ولما فشل محمد كرقساوى فى الإستعانة بجيش البشارى كتب اليه وإلى عثمان آدم بحال كرم الله الذى انكسرت شوكته واصبح عرضة للموت فى أى لحظة ، وخاف عثمان آدم أن يزداد العصاة غروراً ويدفعهم رجوع جيش البشارى من منطقة شَكا إلى طلب القضاء على البَحّارة ، وهو أمر مؤكد إن لم يتداركهم الأنصار ، فقرر القيام الى شَكا توا ، وغادر الاضيّه فى ١١ نوفمبر ١٨٨٧ (٢) .

وقطع عثمان آدم المسافة بين الاضيّه وشَكا فى سبعة أيام (٣) ، وانهارت بوصوله مقاومة الرزيقات والمعاليا والهبانية ، فهم لايفهمون غير منطق القوة . جاءه المعاليا بأسرهم مذعنين ، ورغب ألف ومائة وستة عشر شخصا منهم فى الهجرة ، فأعد لهم عثمان آدم عدتها ، ودفع بهم إلى سالم عثمان وكيله فى الابيض لمساعدتهم فى إكمال

---

(١) مهدية : ١/١٢/٢/٣٨ – ٢٤ صفر ١٣٠٥ الموافق ١١ نوفمبر ١٨٨٧ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٢) مهدية : ١/١٢/٢/٣٨ – ٢٤ صفر ١٣٠٥ الموافق ١١ نوفمبر ١٨٨٧ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٣) مهدية : ١/١٢/٢/٥٢/ ربيع اول ١٣٠٥ الموافق نوفمبر/ديسمبر ١٨٧٧ (عثمان آدم إلى الخليفة).

رحلتهم إلى ام درمان ، أما بقيتهم فانخرطوا في جيش الأنصار بخيولهم واسلحتهم بغية الإشتراك في حرب الفور أصدقاء الامس ، أعداء اليوم (١) . ووفد عليه بُرار أجْبر فصفح عنه وندبه لإحضار بقية شيوخ الرزيقات . فتقاطروا عليه معتذرين عما صنعوه بكرم الله بأنه أساء إلى زعمائهم ونكل بهم .

وكان عثمان آدم قد وجه الرزيقات عند قيامه من الاضَيّه إلى الإقلاع عن محاربة كرم الله، فانصاعوا للأمر خوفاً ورهبة، ولولا ذلك للقى كرم الله حتفه على أيديهم . وغفر عثمان آدم لشيوخ الرزيقات سوءتهم، وأعلن بينهم أنه لايقصد غير هدايتهم، فما جاء لسلب مالهم أو خيولهم . ولما اطمأنت نفوسهم إلى حديثه رغبوا في الهجرة واستأذنوه في الرحيل عن طريق بحر العرب لوفرة المياه فيه ومنه إلى فاشودة ثم شمالاً إلى امدرمان وفطن عثمان إلى حيلة الرزيقات فقرر سوقهم معه الى دَارَه . فإذا ما انقضى امر يوسف ابراهيم واستتب الامن في ربوع دارفور، جعل عليهم فرقة من الأنصار تهاجر بهم الى أم درمان . وأنهى قراره ذاك الى شيوخ الرزيقات فلم يعارضوه ، وقاموا من شكا بنية جمع أهليهم استعداداً لمصاحبة الأنصار إلى دَارَه ، وقطع الشيوخ على أنفسهم عهداً آخر هو رد كل ماسلبوه من كرم الله ومحمد كُرقُساوى ، وكان الرزيقات قد غنموا من كرم الله في واقعة واحدة ١٣٤حصانا و٦٦٧ بندقية كما قتلوا ٦٥٤ من رجاله (٢). ورضخ مائتان واربعة وتسعون من أولاد محمد للامر الواقع، فهاجروا بنسائهم واطفالهم (٣). وكانت جماعة أخرى بقيادة موسى مادبو التقت بعثمان آدم في الاضَيّه ، فسعى موسى مادبو إلى العودة مع الأنصار إلى دارفور ، لكن عثمان أشار عليه بمواصلة السير إلى امدرمان ففعل (٤)، ثم انضم أربعون من أولاد أم سريرة بخيلهم ودروعهم إلى الأنصار . أما بقية بطون الرزيقات فعادوا سيرتهم الأولى في العصيان وهربوا الى بحر العرب ، وتقاعس من بقى منهم في ديارهم عن الهجرة في إنتظار ما تسفر عنه المعركة المقبلة بين الأنصار والفور . وخشى عثمان آدم أن يفلت يوسف أبراهيم من يده إن ضيّع الوقت في استدراج الرزيقات أو محاربتهم ، فرحل بجيشه إلى دَارَه وفي صحبته ثلاثة من

---

(١) مهدية: ١/١١ب/٣٦/٦/ - ٢٢ ربيع اول ١٣٠٥ الموافق ١٨٧٧ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) مهدية: ١/١١ب/٣٤/٦ - ٢٢ ربيع اول ١٣٠٥ الموافق ٨ ديسمبر ١٨٨٧ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) مهدية: ١/١١ب/٢٢/٣٤/٦ ربيع اول ١٣٠٥ الموافق ٨ ديسمبر ١٨٨٧ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٤) مهدية: ١/١٢/٢/٣٦ - ٢٢ صفر ١٣٠٥ الموافق ٩ نوفمبر ١٨٨٧ (عثمان آدم إلى الخليفة).

شيوخهم المطيعين ، هم بُرار اجْبر وسلمان العبيد وإبراهيم صابون ، فانتهز المتقاعسون الفرصة وأخذوا يغيرون على شَكا من جديـد (١) .

وبينما ظل الكثيرون من الرزيقات على إعراضهم، استسلم الهبانية لمنطق القوة ، فانخرطوا تحت راية عثمان آدم، وشاركوه فى جهاد الفور ، فقد وفد عليه فى شَكا أربعون من أجاويدهم، بينهم محمود أبو سعد (٢) ورفعوا اليه ولاء قبيلتهم للمهدية ، ثم عادوا الى الكَلكَه لتنفير اهلهم والاجتماع بعثمان فى النَليله او دَارَه (٣) ، وصدقوا وعدهم .

ورحبت جموع بنى هلبة كذلك بمقدم عثمان آدم أحرّ الترحيب ، فوجد فيهم سنداً قوياً ، وأحس منهم اندفاعاً شديداً لمقاتلة الفور ، فأتاه فى دَارَه شيوخهم البشارى خليل وحماد حامد واحمد عبد الرحيم واسماعيل ولد حامد ، جاءوه برجالهم وسيوفهم إلا يوسف سِنْدكّه الذى تخلف عن الركب وشاع عنه أنه ينوى الهرب إلى دار سُلا رغبة عن اتباع المهدية (٤) . ومصدر حماس بنى هلبة لمكافحة الفور أنهم حين رفضوا الخضوع لسلطان يوسف ابراهيم شن عليهم الغارات كما تقدم (٥) ، ثم واصل سعيه لإذلالهم لما خلا له الجو بانسحاب كرم الله من دَارَه واشتبك جيشه بقيادة وزيره آدم بوش مع بنى هلبة فى معركة حامية فى وادى بُلْبُلْ كانت الغلبة فيها لبنى هلبة الذين استماتوا فى القتال دفاعاً عن أرضهم (٦) .

---

(١) مهدية: ١/١١ب/٣٨/٦ – ٦ ربيع ثانى ١٣٠٥ الموافق ٢٢ ديسمبر ١٨٨٧ (عثمان آدم إلى الخليفة)، ثم ١/١٢/٢/٦٠ – ٢ جماد أول ١٣٠٥ الموافق ١٦ يناير ١٨٨٧ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) افادنى شيوخ الهبانية بأن شميس ولد أبو سعد كان رئيسا على الهبانية عند دخول الزبير دارفور، فأمنه الزبير فى منصبه وظل يحكم اهله حتى مات فى بداية الثورة المهدية ، فتزاحم عدد من الرجال على المنصب ، حتى آلت إلى محمود ولد أبو سعد ، لكن تكنة القوزوا لم يتخل عن منافسة محمود حتى هاجر هذا إلى أمدرمان ، فتزعم تكنة الهبانية غير أنه حكم فترة قصيرة مات فى نهايتها دون أن يستجيب لنداءات الخليفة بهجرته.

(٣) مهدية: ١/١٢/٢/٦٠ – ٢٢ ربيع اول ١٣٠٥ الموافق ٨ ديسمبر ١٨٨٧ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٤) مهدية: ١/١٢/٢/٦٠ – ٢ جماد اول ١٣٠٥ الموافق ١٦ يناير ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
افادنى الشيخ عمر البشارى عيسى سندكه الذى يسكن كبم بأن خلافا نشب بين يوسف سندكة زعيم بنى لبيد وبين اولاد جمعان – وهم عشيرة البشارى بكر – على زعامة بنى هلبة بعد مقتل البشارى أيام سلاطين ، ولما انتصرت المهدية فى دارفور وتقلد اولاد جمعان ممثلين فى شمبال الضهيب امارة بنى هلبة، رفض يوسف سندكة مبايعة المهدى كما امتنع عن الهجرة إلى أمدرمان زمن الخليفة.

(٥) انظر ص ١٦٧ – ١٦٨.

(٦) مهدية: ١/١١ب/٦/٣٥ – ٢٢ ربيع اول ١٣٠٥ الموافق ٨ ديسمبر ١٨٨٧ (عثمان آدم إلى الخليفة ).

أما التعايشة فبلغ عثمان آدم أنهم مالوا إليه ، لكن أبناء الشيخ الطاهر التلب الذين امتلأت نفوسهم حقداً بفعل ماصنعه الأنصار بأبيهم (١) حذروهم من الإمتثال له . وأشاعوا بينهم أن الأنصار يقصدون إذلالهم واعتقال الغزالى احمد خوّف، وغيره من الزعماء الذين امتنعوا عن الهجرة، فوجدت كلماتهم آذاناً صاغية، ودفع الغزالى وشيعته بنسائهم وأولادهم وممتلكاتهم إلى حدود دار برْقو ، وبقى الفرسان على أهبة الاستعداد للهرب إن جاءهم الأنصار . واجتهد عثمان فى دحض الفرية التى أطلقها أبناء الشيخ الطاهر التلب فكتب إلى الغزالى مطمئنا (٢) . وسبق وصول عثمان إلى دارفور خطاب من الخليفه إلى الغزالى؛ ذكره فيه بإكرامه له حين التقيا فى الأبيض وبانتدابه لإحضار أهله مهاجرين ، فما كان منه الا أن اعرض رغم تعاقب الإنذارات عليه ، ثم بذل الخليفة الأمان للغزالى واستنهضه على الرحيل دون إبطاء (٣) . وأهمل الغزالى دعوة الخليفة تلك، ثم أشاح بوجهه عن عثمان آدم وفر بمن تبعه إلى دار برْقو ما أن دخل الأنصار دارَه . وإزاء ذلك خلع عثمان آدم إمارة التعايشة على أم بدى جميل الله وأخيه صالح أبي حوه اللذين بادرا إلى الإنقياد ، وأمرهما بجمع المطيعين من التعايشة والانضمام إليه (٤) . وبذا أثار عثمان حفيظة الغزالى ، وزاد شكوكه فى أن الخليفة يرمى إلى تجريده من زعامة أهله ، فكان له مع منافسيه شأن ، أى شأن .

وتحقق للخليفة بدخول جيش عثمان آدم شكا هدفان ، أولهما ارهاب البقارة المتمردين حتى أذعن أكثرهم ، وثانيهما السيطرة على البَحّارة . فتمشيا مع سياسته بتجريد كل من شك فى ولائه من أولاد البلد دفع الخليفة إلى عثمان آدم قبل قيامه من الابيض بأمر يقضى بإلحاق كرم الله ومحمد كُرقُساوى وأتباعهما من الجهادية والبازنقر بأمرته ، بيد أنه أوصاه بإكرامهما إعترافاً بما بذلاه من جهد فى خدمة المهدية (٥) .

ويبدو أن شك الخليفة فى إخلاص كرم الله ومحمد كُرقُساوى قام على أدلة ضعيفة ، فقد دافع محمد كُرقُساوى عن نفسه دفاعاً حاراً أكد فيه اعتقاده التام فى المهدية كعقيدة منذ أن بايع المهدى فى أبا، وروى جهاده فى سبيل نصرتها حتى دان لها السودان

---

(١) أنظر ص ١٢٨.

(٢) مهدية: ١/١١ب/٦/٣٨ – ٦ ربيع ثانى ١٣٠٥ الموافق ٢٢ ديسمبر ١٨٨٧ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) مهدية: صادر ١٠ ص٢١٢–٢٦ شوال ١٣٠٤ الموافق ١٨ يوليو ١٨٨٧ (الخليفة إلى الغزالى احمد خوف).

(٤) مهدية : ١/١٢/٢/٦٠ – ٢ جماد اول ١٣٠٥ الموافق ١٦ يناير ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٥) مهدية: صادر ٢ ص ١٥٨ – ٣ محرم ١٣٠٥ الموافق ٢١ سبتمبر ١٨٨٧ (الخليفة إلى عثمان آدم).

فكيف له يعصى خليفة المهدى ويختار طريقاً يؤدى إلى الخذلان فى الدنيا والعذاب فى الآخرة [1] . وأثبت محمد كُرقُساوى إخلاصه بالدليل القاطع حين عرض على عثمان آدم يوم وصوله شَكا تسليم جهاديته وبازنقره وأسلحته قبل أن يطلعه على أمر الخليفة ؛ وشهد عثمان آدم كذلك لمحمد كُرقُساوى بصدق النية والتفاني فى خدمة المهدية . وبلغ ما استلمه عثمان آدم من محمد كُرقُساوى ١٧٢ من الجهادية و٤٧٦ من البازنقر ضمهم إلى جيشه ورحل إلى النِليلَه بعد أن ابقى محمد كُرقُساوى فى منصبه عاملا على شَكا .

ومن جهة أخرى إنصاع كرم الله لتعليمات الخليفة كما فعل أخوه ، وكان معه١٨٧ جهادية، و٥٤٢ بازنقر، و٣٥٩ من الخيل، واختار عثمان آدم بقاء كرم الله اميراً على رجاله والحقه بقيادته . وهكذا انتهى وجود البَحّارة كقوة مستقلة فى دارفور ، ولم يبق لعثمان آدم بعد ذلك غير منازلة يوسف ابراهيم فى ميدان الحرب ، فاندفع نحو الفاشر بطريق دَارَه ، وهو واثق من النصر، وسار خلفه ١٧١٥٩ مقاتلاً بخيلهم ودروعهم واسلحتهم النارية [2] .

**د — نهاية يوسف ابراهيم :**

كتب يوسف ابراهيم إلى الخليفة مرحباً بقدوم عثمان آدم إلى دارفور [3] ، غير أن ترحيبه كان ذراً للرماد فى العيون ، فقد تبين عثمان أثناء إقامته فى الاضَيّه وبعد رحيله منها أن يوسف مابرح يعصى أمر الخليفة بإيقاف الفتنةبينه وبين البَحّارة ،ومازال يواصل مسعاه لغرض سيطرته على دارفور ، وأدرك ألا أمل فى عودة يوسف إلى رشده، وألا محيص من قتاله، وقد رفض يوسف ابراهيم تنفيذ توجيهات الخليفة المتكررة اليه بالقبض على زايد عجاج الذى كان من قواد دُودْ بِنْجَه بل اتخذه مستشاراً [4] ، وانتدب رجلاً يدعى عبد النبى لطرد آدم سَرَف أمير الأنصار فى جبل الحِلّه، والإستيلاء على عمالته . فأمر عثمان آدم عبد النبى ذاك بالإنسحاب من جبل الحِلّه ، كما كتب إلى

---

(١) مهدية : ٩/٢٤/٣٢/١ — ١٤ الحجة ١٣٠٤ الموافق ٣ سبتمبر ١٨٨٧ ( حمد كرقساوى إلى الخليفة).

(٢) مهدية: ٥٥/٢/١٢/١ — ربيع ثانى ١٣٠٥ الموافق ١٨٨٧ يناير ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) مهدية: ٦٠٤/١٣/١٦/٢ — ١٣٠٥ الموافق ١٨٨٧ ( يوسف ابراهيم إلى الخليفة).

(٤) مهدية: ٣٦/٢/١٢/١ — ٢٢ صفر ١٣٠٥ الموافق ٩ نوفمبر ١٨٨٧ (عثمان آدم إلى الخليفة).

يوسف في نفس المعنى ، وبث يوسف رجاله بين قبائل شمال دارفور لنشر نفوذه بينهم ، فأيده الزيادية وتبعه قسم من الماهرية .

أما الزيادية فإن الخليفة أرسل ابراهيم عيسى الزيادى لتهجيرهم ، وطلب من يوسف قبل أن يتمادى فى عصيانه مساعدته فى أداء واجبه (١) ، فصدع يوسف للامر الا أن الزيادية نفروا من الهجرة وفروا إلى اطراف الصحراء بإيعاز من شيخهم حُميده ولد بليل وعلى كوع النمر اللذين كالا السباب للمهدى وخليفته (٢) . ولم يتطرق اليأس إلى نفس ابراهيم عيسى فظل يستعطف أهله لإتباعه ، لكنهم اصروا على معارضته ، فرجا يوسف مده بقوة تعينه على تأديبهم، وكان يوسف قد جاهر بالعصيان بعد أن بلغه وصول عثمان آدم الى الاضيّة ، فأشار على ابراهيم عيسى بالحضور إلى الفاشر ، فتوجس هذا خيفة، خاصة وأن رسل يوسف اليه عنفوه وأساءوا إليه ، وهرب بليل من دار الزيادية ولحق بعثمان آدم فى شكا (٣) . وأما الماهريّة فقد انشقوا على شيخهم حسب الله عثمان والتفوا حول زعيم آخر لهم يدعى دَقَاش الذى انحاز إلى جانب يوسف ، فلجأ حسب الله عثمان إلى بقعة بين دار البديّات ودار بَرْقو (٤) .

ثم تلقى الخليفة تقرير ابوه جودت فات الذى دمغ يوسف ابراهيم بالإعتداء على كرم الله ، فأكمل البيانات على تغاضى يوسف عن أوامر الخليفة وجريمته فى حق المهدية ، واختتم ابوه فات تقريره الذى دون فيه المعارك التى دارت بين الفور والبَحّارة بهذه الكلمات « . . . . وحيث ياسيدى أن الذى تحقق لنا فالعامل يوسف هو المعتدى لكون الخمس جهات التى حصلت بها الوقعات هى بالتبعية لدَارَه وكان الواجب عليه لما أنه لم يصدق كرم الله بتولية السيادة ( الاشارة هنا إلى الخليفة ) له على عمالة دَارَه أولاً يصبر ويمنع جماعته من المحاربات ويخابر سيادتكم وينتظر مايصدر له من جانبكم....(٥)» .

وطابقت إستجابة الخليفة لما ورد اليه من عثمان آدم وابوه فات فى شرح موقف يوسف ابراهيم قراره السابق باخضاع زعيم الفور . فصدر منشور إلى كافة قبائل دارفور

(١) مهدية : صادر ١٠ ص ٢٠٤-٢٤ شوال ١٣٠٤ الموافق ١٦ يوليو ١٨٨٧ ( الخليفة إلى يوسف ابراهيم).

(٢) مهدية : ١٢٢/٢/٣٠/٢ - بدون تاريخ ( ابراهيم عيسى الزيادى إلى الخليفة) ثم مهدية : ١٠٣/١/٣٠/٢ -٩ صفر ١٣٠٥ الموافق ٢٦ اكتوبر ١٨٨٧ ( ابراهيم عيسى الزيادى إلى الخليفة) .

(٣) مهدية : ٤٩/٢/١٢/١ - ٢٣ ربيع اول ١٣٠٥ الموافق ٩ ديسمبر ١٨٨٧ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ٣٣٢/١٢/١/ - ٥٥٢ - ١٣٠٥ الموافق ٩ نوفمبر ١٨٨٧ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

(٥) مهدية : ٩٣/٢/١٥/٢ - ١٩ صفر ١٣٠٥ الموافق ٦ نوفمبر ١٨٨٧ ( ابوه جودت فات إلى الخليفة ).

بعزل يوسف من عمالة المهدية ، وتعيين عثمان آدم عاملا عليهم ، وبعث الخليفة بالمنشور إلى عثمان وطلب منه الاحتفاظ به سراً وعدم اذاعته بين الناس إلا إذا يئس من خضوع يوسف وإذعانه سلماً (١) . وسبق هذا اشارة لعثمان بأن يقضى الشتاء فى دَارَه ويشتغل بجمع البقارة وأهل « السودان » بغرض تهجيرهم، على أن يرصد فى ذات الوقت تحركات يوسف وتصرفاته ، وأن يحتاط من مكره حتى إذا ماجاء الصيف نهض إلى الفاشر لإكمال سيطرته على دارفور (٢) . وشاعت تطورات الأحداث غير هذا ، إذ بادرت جيوش يوسف عثمان آدم بالحرب ، فانبرى لهم الأنصار يردون كيدهم ، واتصلت الوقائع بين الفريقين دون انقطاع حتى دخل عثمان الفاشر ولما ينقض شتاء عام ١٣٠٥ هـ .

خرج جيش الأنصار من السنليلَه فى ٢٢ ديسمبر ١٨٨٧ متجها صوب دَارَه بعد أن انقطع الامل فى تفاهم سلمى بين عثمان آدم ويوسف ابراهيم الذى جيّش جيوشه من كل اطراف دارفور ، وأرسل أخويه أبا الخيرات وناصر مع عدد من قواده إلى دَارَه ، بينما اجتمع له جيش آخر فى كَرشوا بقيادة وزيره آدم بوش ، واعتذر عن لقاء عثمان بحجة اشتغاله بتأليف القوم الذين وفدوا اليه من جهات بعيدة ، فخطر على بال عثمان أن يوسف رمى بذلك لتهديده (٣) ، وإذ أفلت نجوم السلم احتكم الجانبان إلى السيف .

والتحم الأنصار بجيوش يوسف ثلاث مرات قبل أن يدخلوا دَارَه منتصرين . ففى ٢٤ ديسمبر ١٨٨٧ التقوا بجموع من بِرْقِد ومَسَلات وقِمر فى مكان يقال له رهد جاب الله ، فأوقعوا بهم وشتتوا شملهم وأسروا مائة من نسائهم وأطفالهم ، ثم أطلق عثمان آدم سراحهم تسامحا وتأليفا ، وبعد يومين من هذه الموقعة اصطدم الأنصار فى نسَيره التى تقع مسيرة ساعة جنوبي دَارَه بالبيقو بقيادة سلطانهم أبكر فدحروهم ونجا أبكر بجلده (٤) ونقل نبأ هزيمته إلى يوسف ابراهيم فشكر هذا للبيقو حسن بلائهم وحثهم على مواصلة الكفاح لرد غائلة المعتدين (٥) . وحتى هذا الوقت لم يلتق الأنصار بقادة

(١) مهدية : ١/١١/٣/١٩٥ – ١٢ ربيع اول ١٣٠٥ الموافق ٢٨ نوفمبر ١٨٨٧ (الخليفة إلى عثمان آدم).

(٢) مهدية : ١/١١/٣/١٧٨ – غرة صفر ١٣٠٥ الموافق ٢٩ اكتوبر ١٨٨٧ ( الخليفة إلى عثمان آدم).

(٣) مهدية : ١/١١ب/٦/٣٩ – ٦٠ ربيع ثانى ١٣٠٥ الموافق ٢٢ ديسمبر ١٨٨٧ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ١/١١ب/٦/٤٥ – ربيع ثانى ١٣٠٥ الموافق ديسمبر ١٨٨٧ يناير ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٥) مهدية : ٢/٤١/٥/٢٤ – ١٢ ربيع ثانى ١٣٠٥ الموافق ٢٨ ديسمبر ١٨٨٧ ( يوسف ابراهيم إلى ابكر عمر البيقاوى ).

الفور أو بجنود منهم وإنما اعترض سبيلهم أهل « السودان » الذين حاربوهم دفاعاً عن أرضهم وبتشجيع من يوسف .

ثم كانت موقعة دَارَه الاولى . فبعد إندحار البِيقو طلب عثمان آدم من آدم بوش ورحمه حسين قوموا وسعيد فضل بروس تسليم دَارَه إتقاء شر الحرب وحقنا لدماء المسلمين، فعصوا وتكبروا، فحمل عليهم الأنصار في صباح ٢٧ ديسمبر حملة شعواء. وقد علت صيحاتهم واختلطت تكبيراتهم بصهيل الخيل ووقع حوافرها . وكان على رأس رايات الأنصار الامراء البشاري ريده ومحمد بشاره والختيم موسى وعبد القادر دليل وكرم الله شيخ محمد ومحمد احمد عُوجَه . وعند مشارف دَارَه دارت معركة حامية. بادر فيها قادة الفور الأنصار بالهجوم لكنهم لم يصبروا على القتال طويلا ، فانهزموا هاربين فاقتفى الأنصار أثرهم حتى شَعَيرِيَه، وقتل في المعركة مايزيد على ثلاثة الوف من جيش الفور يقابلهم من الأنصار خمسة وأربعون قتلى ومائة وستة عشر جرحى ، وغنم الأنصار ثلاثمائة بندقية (١) .

وفتحت دَارَه أبوابها لعثمان آدم ، فدخلها وأهازيج النصر يرددها الأنصار. وقد علا البشر وجوههم، بينما غشي خصومهم الوجوم . ومكث عثمان أياما قليلة في دَارَه ، ودعا قبائلها إلى التسليم، فانصاعت لأمره جماعات صغيرة من أهل « السودان » وأحجم أكثرهم من الامتثال، وإن ترددوا في تأييد الفور خوفاً من الأنصار . وسعى عثمان إلى إستمالة اولئك المعرضين، لكنه استعجل إقتحام الفاشر بعد أن اسلمت دَارَه القياد ، فلم يجد من الوقت متسعا للصبر على موادتهم . وبث عثمان في ذات الوقت عيونه ليقف على تحركات الفور، فإن جاءوه جاهدهم، وإن تأخروا عنه فهو عازم على غزو يوسف في عقر داره ، فكتب اليه ينذره ويمنحه فرصة أخيرة للتسليم (٢) .

وماكان يوسف ابراهيم ليتأخر عن حرب الأنصار رغم الهزائم المتكررة التي توالت على جيوشه ، فطفق في حزم ورباطة جأش يعد نفسه لجولة أخرى مع عثمان آدم، وإذ اتضح له أن إخفاق جيوشه في موقعة دَارَه الاولى يعزى إلى التنافر والبغضاء بين قواده ، صرخ في وجوههم مناديا باتحاد الكلمة ووحدة الصف دون أن يتهمهم بالجبن ، بل إنه اثنى على مابذلوه من جهد في مجابهة الأنصار ، ثم أعلن تعيين زايد عَجّاج الذى

(١) مهدية: ١١/١ب/٦/٤٥ ربيع ثاني ١٣٠٥ الموافق ديسمبر ١٨٨٧ (يناير ١٨٨٨) (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٢) مهدية : ١١/١ب/٦/٤١ – ١٧ ربيع ثاني ١٣٠٥ الموافق ٢ يناير ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

أشتهر بالشجاعة وحسن التدبير قائداً عاماً للجيوش ، وأستحث كبار قومه على اتباعه وإنكار ذواتهم ونبذ الطمع فى الرئاسة وحبها (١) . واشتركت والدة يوسف بمالها من مكانة فى النفوس ونفوذ فى بلاط السلطان فى اثارة زعماء الفور وتنفيرهم الى الذود عن حياضهم . وذكرتهم بماضى اجدادهم التليد ، وتمنت لهم النصر على «المشركين» (٢) .

وكان يوسف قد اعتزم ابتداء قيادة جيوشه بنفسه حين رأى الخلاف يمزق وحدة قواده . لكنه نصح بالبقاء فى الفاشر فأناب زايد عَجّاج فى إدارة المعركة ، ونشط زايد فى تنظيم صفوف المقاومة حتى اجتمع له نحو العشرين الف رجل بينهم جماعات من الزياديّة ، والزغاوة ، والماهريّة ، والمناصرة ، والميما ، وبنى فضل ، والبِرْقِد ، مما يدل على مساندة أهل شمال دارفور وشرقها ليوسف ، زيادة على تفاني الفور فى نصرته . هذا بينما عضد بنو هلبة والهبانية والمعاليا عثمان آدم ، وانشغل الرزيقات بمناوأة محمد كُرقُسلوى .

ولم يعلم عثمان باقتراب جيوش زايد من مواقع الأنصار إلا فى مساء ١٤ يناير ١٨٨٨ وهو اليوم السابق لموقعة دَارَه الثانية ، وذلك نتيجه لإنقطاع طرق الاتصال . فقضى الليل كله يستنفر رجاله ويناقش مع أمرائه خطة القتال . وجاء صباح ١٥ يناير ، فسمع الأنصار دقات نحاس الفور تصم الآذان ، ثم أبصروا حشودهم تسد الأفق وتندفع نحوهم فى جنون ، والتقى الجمعان فى معركة ساخنة استمرت حتى منتصف النهار ، وانتهت بنصر مبين لعثمان آدم ، وسقط أثناء المعركة خمسة ألاف من جيش زايد عَجّاج بينهم رحمه قوموا . بينما نجا زايد من موت محقق ، وانفرط عقد قَواته وولوا الأدبار هاربين ، فطاردهم الأنصار حتى مغيب الشمس . وخشية أن يفر يوسف ابراهيم إلى جبل مرة حين يبلغه خبر الهزيمة فيستعصى إخضاعه ، قرر عثمان آدم الزحف نحو الفاشر فوراً ، فبرح دَارَه التى ترك عليها محمد أحمد عُوجه فى ١٦ يناير بعد أن أذاع بين الناس نبأ عزل يوسف من إمارة المهدية (٣) .

وهال يوسف ابراهيم سماع النبأ العظيم ، رجاله يتساقطون والأنصار يكتسحون فى

---

(١) مهدية : ٢/٤١/٥/٣٧/ – ١٧ ربيع ثانى ١٣٠٥ الموافق ٢ يناير ١٨٨٨ (يوسف ابراهيم إلى رحمةالله قوموا ، وسعيد فضل ، وجمعه بخيت ، وكلفة العمال).

(٢) مهدية : ٢/٥/٣٢٤ – ٢٤ ربيع ثانى ١٣٠٥ الموافق ٩ يناير ١٨٨٨ (الحبوبة كبرا بنت عبد الرحمن إلى زايد عجاج والملك سعيد فضل والمقدوم حامد آدم).

(٣) مهدية: ١/١٢/٢/٥٦ – جماد اول ١٣٠٥ الموافق ١٦ يناير ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

خطى ثابتة كل معاقل المقاومة وهاهم يتجهون نحو الفاشر ، فما العمل ؟ إن بعض الناس ينصحونه بالإعتصام بجبل مرة حتى يعيد تنظيم رجاله وينازل عثمان آدم في جولة جديدة ، لكن يوسف أشاح بوجهه عن ناصحيه وخرج من الفاشر لملاقاة الأنصار ، ومن جهة أخرى واصل عثمان آدم ليله بنهاره كي يدرك خصمه قبل أن يفلت من يده . دون أن يدرى أن يوسف أبي الفرار .

وعند منتصف النهار من يوم ٢٢ يناير احترب الخصمان في مكان فسيح عند وَدْ بيره ، فكان لقاء الموت . وللمرة الثالثة حالف النصر عثمان آدم ، ولم يجد يوسف بداً من الهرب إلى جبل مرّة بعد أن جندل ألفان من جنوده في المعركة ، وفرت بقيتهم إلى أرْقُد شرقاً وملّيط وكُوبي شمالا . وتدفقت جموع الأنصار بعد الموقعة على الفاشر ، فقتلوا رجالها عدا قلة ، واسروا نساءها وأطفالها الذين بلغ عددهم أربعة آلاف وخمسمائة ، وكان بين الاسرى الفان ومائتان من الرقيق وزعوا على رايات الأنصار لخدمتهم ومائة وثلاثون من أميرات الفور (١) . وهكذا اورد يوسف نفسه وأهله مورد الهلاك ، واسترد الخليفة سلطانه في دارفور ، فإرتفعت رايته في سماء الفاشر خفاقة عالية .

وبث عثمان آدم عيونه بحثاً عن يوسف ابراهيم ، فعلم أنه إلتجأ إلى أبي حَراز بغرب جبل مرّة ، ونشط في دعوة الفور إلى الالتفاف حوله ، وأرسل إلى سلطان دار بَرْقو يطلب نجدة سريعة من الذخيرة . يوسف إذن لم يستكن بل هو مصمم على الإستمرار في المقاومة، حريص على أن تظل رايتها مرفوعة، وما تأخر عثمان آدم في إجابته إلى الحرب . فأنفذ في ٣ فبراير ١٨٨٨ جيشا قوامه تسعة آلاف من الأنصار بقيادة الختيم موسى ، يصحبه الأمراء عبد القادر دليل والعطا اصول واحمد مالك وفضل الله شرف الدين لمطاردة يوسف (٢) .

وأفلت يوسف من يد السرية إذ هجر أبا حَراز لما علم بخبرها واتجه إلى جبل كَرومه ، فلاحقه عبد القادر دليل بقسم من الأنصار ، بينما انتشرت بقيتهم في وادى ازُوم تؤدب أهله وجلهم من الفور . ثم شجر خلاف بين يوسف ابراهيم وزايد عَجّاج الذى انشق عليه برجاله العبيديّة (٣) وسعى إلى الإتحاد مع جبر الله طاهر ، غير أن جبر

---

(١) مهدية : ١/١١ب/٦/٤٧/١١ جماد اول ١٣٠٥ الموافق ٢٥ يناير ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) مهدية: ١/١٢/٢/٦٧ – جماد اول ١٣٠٥ الموافق يناير/فبراير ١٨٨٨ (عثمان آدم الى الخليفة).

(٣) تطلق هذه التسمية على اتباع السلطان الذين ينتمون إلى طائفة العبيد.

الله غدر به وقتله ليلة ١٨ فبراير بعيداً عن أعين العبيديّة ودفع برأسه إلى الفاشر ، فأكرم عثمان آدم وفادة من حملوا الرأس اليه، وأشاد بإخلاص جبر الله، وأمره باللحاق بسرية الختيم لمقاتلة يوسف . ومبعث سلوك جبر الله هذا أمران ، أولهما عداء قديم بينه وبين زايد عَجّاج ، وثانيهما أن عثمان آدم زيّن له معاونة الأنصار فى سد طرق النجاة على يوسف، ومناه إن فعل ذلك بعمالة المهدية على دارفور، فدفعه الطمع في الحكم إلى خيانة رفاقه فى السلاح ومعاداة رجل كان إلى عهد قريب يركع فى حضرته ويدين له بالولاء (١).

وحدث انقسام ثان فى صفوف يوسف فخرج عليه جمعة أبو دنيبو وشرف الدين سليمان برجالهما ، فبقى يوسف طريداً فى قلة من الأتباع على رأسهم أبكر البيقاوى الذى ظل وفيا للعهد ، وإقترب عبد القادر دليل من جبل كَرومه ويوسف على تلك الحال من الضعف . وإذْ لم يأنس فى نفسه قدرة على مجابهة الأنصار هرب يوسف إلى شعاب جبل مرّة عله يجد فيها درعا يقيه من ضربات خصومه ، وعساه يستثير أهل الجبل لنصرته ، فنزل بجماعته فى مكان يسمى تُرْدى .

فعاد عبد القادر إلى أبي حَراز حيث التقى بالختيم موسى ، ومن هناك أغارت السرية بكليتها على بطن جبل مرة ومرتفعاته الشمالية ، بينما سد جبر الله طاهر وبنو هلبة مسالكه الجنوبية والغربية (٢) . وبذا أحاط الأنصار بجبل مرّه فتضاءلت فرص النجاة أمام يوسف ابراهيم ، فقرر الموت وبرز لقتال الختيم موسى ، فقتله وبعث برأسه إلى الفاشر ، فعجل عثمان آدم بإرساله إلى امدرمان، ليحمل الرأس البشرى إلى الخليفة بنهاية خصم لدود ومكافح عنيد (٣) .

وثمة سببان جوهريان يفسران خذلان يوسف إبراهيم فى مواجهة الأنصار واخفاقه فى حربهم رغم عناده وصبره على القتال . هناك أولا طبيعة تكوين جيوشه واستعدادها المادى للحرب، وقدرتها على الإستمرار فيها . فهذه الجيوش – وإن ربط بينها هدف مشترك هو معارضة الخليفة – تجمع من عناصر متنافرة يصعب إزالة الفوارق بينها ومحو

---

(١) مهدية: ١١/١ب/١٨/٥٢/٦ جماد ثانى ١٣٠٥ الموافق ٢ مارس ١٨٨٨ (عثمان إلى الخليفة).

(٢) مهدية: ١١/١ب/٦١/٦ – جماد ثانى ١٣٠٥ الموافق فبراير/مارس ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ١١/١ب/٦٣/٦/ – ٤ رجب ١٣٠٥ الموافق ١٧ مارس ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

جاء فى شقير ( شقير ٣ ص ٤٥٩) أن يوسف ابراهيم قتل فى يناير ١٨٨٨ والصحيح أنه قتل بعد ٣ فبراير وهو اليوم الذى خرجت فيه سرية الختيم موسى من الفاشر لمطاردته. ومن المرجح أن يكون يوسف لقى حتفه فى بداية مارس كما هو واضح من تاريخ الخطاب الذى صحب إرسال رأسه إلى أمدرمان.

الخلافات المتأصلة فى علاقاتها . قبائل عربية كالزيادية وأخرى زنجية كالبيقو والبرقد، اسكان بادية كالزغاوة وآخرون من الحضر كالفور ، ولكل قبيلة شيخ تحارب تحت إمرته ، فإن اختلف مع غيره من الشيوخ إنحطم الصف وانهدم البنيان . ورغم وجود فوارق مشابهة فى تكوين الأنصار إلا أن وحدة القيادة وتبعية المحاربين وشيوخ قبائلهم للامراء أضعفت من خطرها . وزيادة على افتقار جيوش يوسف للإنسجام افتقدت كذلك القدر المقابل لما عند الأنصار من الأسلحة النارية والذخيرة ، فقد رأينا كيف استنجد يوسف بعد فراره إلى جبل مرّة بسلطان دار برقو طلباً للذخيرة، بينما كان عثمان آدم يبعث بالسرايا مزودة بكل ماتحتاج اليه منها . ويفسر هذا بجانب الإعتبارات الأخرى هزائم يوسف المتوالية رغم تفوق رجاله عدداً على الأنصار .

وهناك ثانياً ذلك التناحر والبغضاء بين قواد الفور الذى تسبب فى اندحارهم فى موقعة دارَه الأولى التى قررت مصير الحرب كلها ، إذ قتل فيها عدد كبير من جيش يوسف ، فشاع الخوف بين بقيتهم مما أثر على روحهم المعنوية . وظل الخلاف ينخر فى تماسك زعماء الفور حتى إذا مادانت الفاشر لعثمان آدم بلغ الشجار أشده ، فانشق زايد عَجّاج على يوسف ، وتبعه جمعة أبو دنيبو وساقا معهما كثيراً من المقاتلين ، فانهارت مقاومة يوسف تبعاً لذلك ، ودخل معركته الأخيرة مع الأنصار طلباً للموت بعد يأس ، لا أملا فى الحياة بعد النصر .

# الفصل الرابع

# إمـارة عثمان آدم

## مرحلة الإخضاع الأولى – يناير – سبتمبر ١٨٨٨

أوَ قُضى الأمر فأسلمت دارفور قيادها لعثمان آدم بعد أن أسقط الفاشر وقتـل يوسف ابراهيم ؟ إن أحداث الواحد والعشرين شهراً التى قضاها عثمـان أميراً على دارفور تجيب على هـذا التساؤل بالنفى . فالقـوم بمختلف عناصرهم وعلى تباين نزعاتهم وأهدافهم أبوا الرضوخ . ربما ضعفت مقاومتهم فامتثلوا ولكـن إلى حين ، فهم دائماً ميالون إلى التمرد،تواقـون إلى الخلاص ، فإن واتتهم فرصة اهتبلوها ، وإن برق فى دجى حياتهم أمل تشبثوا به ، وثاروا طلبا للفكاك . لـذا قضى عثمان عهده كله يحارب نزعة الإنفصال عند أهل دارفـور كى يخضعهم لمركزية ام درمان . فما من قبيلة أو جهة إلاوحل بها رجاله يبطشـون ويغنمـون .

وتمخضت عن المعارك المستمرة وعن سياسة التهجير التى واصلها الخليفة نتائج خطيرة . خلت أجزاء كبيرة من دارفـور من سكانها بسبب الحرب أو الهجرة أو الفـرار إلى حيث النجاة من قبضة الأنصار ، وتعطل النشاط فى المزارع فانعدمت الغلال واصاب القحط الناس . وزيادة على ذلك استحال تأسيس إدارة مستقرة قوية الدعائم ثابتة الأركان .

ومرت عملية الإخضاع بمرحلتين كبيرتين توسطتهما ثورة أبي جميزه التيأوشـكت أن تعصف بحكم الأنصار فى دارفور بعد أن دان لهم جل قومها، فاستوجب ذلك اعادة الكرة لإخضاعهم ثانية . وسيفرد هذا الفصل لمعالجة المرحلة الاولى التى بـدأت بدخول عثمان آدم الفاشر فى مـطلع عام ١٨٨٨ وانتهت فى سبتمبر من ذات السنة بسيطرته عـلى شـمال دارفور ووسطها ، ثم غزت جيوشه الجبهة الغربية (١) لتصطـدم بحركة أبي جميزه فى مهدها ، فدارت على الأنصار الدوائر ، وأضحى نصرهم هزيمة . وحطم الأنصار خـلال هذه الفترة مقاومة الفـور ، وأذلوا عصاة قبائل البقارة ، ورفعـوا راية المهدية

---

(١) يقصد بالجهة الغربية فى هذا البحث جميع السلطنات التى كانت تقوم آنذاك على حدود دارفور الغربية وهى زغاوة ، كوبى ، ودار قمر ، ودار تامة ، ودار المساليت ، ودار سلا ، ودار برقو . وتشمل أيضا شياخة بنى‌حسين.

فى جبال الميدوب النائية ، ومدوا نفوذها بين الزيادية ، كما انتشروا فى ديار الزغاوة فأخضعوهم واخضعوا من جاورهم من قبائل كالماهرية .

## (أ) الفور :

انتهج عثمان آدم سياسة ذات شعب ثلاث فى إحكام قبضته على الفور بعد سقوط الفاشر ، الحرب لمن أرادها ، والسلم لمن رغب فيه ، والهجرة لمن خشى الخليفة من بقائهم فى دارفور على طاعة أهلها واستقرارهم . وكان يوسف ابراهيم ممن ارادوا الحرب فأجابه الأنصار اليها ، وكان من أمر ذلك مافصلناه آنفاً (١) . وطلب القتال غير يوسف رجال آخرون ، فقد عاد جمعة أبو دنيبو وشرف الدين سليمان عقب انفصالهم من يوسف إلى جبل كَرومه وتحصنوا به ، فأنفذ عبد القادر دليل فرقة من الأنصار لجهادهم فأوسعوهم ضربا حتى فروا (٢) . وجعل العبيدية عمر لمْلامه قائــداً لهم بعد أن صرع زعيمهم زايد عَجّاج ، وقصدوا دار تامة بغرض السيطرة عليها واتخاذها قاعدة لنشاطهم المناوىء للأنصار ، فتسرب خبرهم إلى آدم محمد عامل بنى هلبة الذين اشتركوا مع سرية الختيم موسى فى تعقب يوسف ابراهيم ، فاقتفى أثرهم يصحبه جبر الله طاهر ويوسف سِنْدِكّه الذى كذب ماشاع عن اعتزامه الهرب إلى دار سُلا ، وآزر الأنصار فى مطاردة العبيدية . وأدرك بنو هلبة وحليفهم جبر الله العبيدية فى ٢٧ فبراير ١٨٨٨ فى مكان يقال له بَارْدَه بغرب جبل مرّة ، فأعملوا السيف فى رقابهم وقتلوا عمر لمْلامه فتفرق اتباعه (٣) .

وكان لإنتصارات عثمان آدم المتوالية أثر عميق فى إضعاف مقاومة الفور ، خاصة بعد مقتل سلطانهم يوسف ابراهيم الذى شدهم اليه بشجاعته وجرأته ، فالتفوا حوله وظاهروه غير هيابين . فلما سقط افتقدوا فيه فتوة الشباب ومضاءه ، فآثر بعض أعيانهم السلامة ، ولم يتردد عثمان فى إجابتهم إلى داعى السلم ، فوفد عليه من شراتى جبل مرّة أبو البشر ومحمد كنوّا ، فأكرم عثمان وفادتهما وخلع عليهما الكساوى وردهما إلى أهلهما مسرورين بعد أن عاهداه على الطاعة . وجاءه كذلك شرتاى أبو حرّاز الذى

(١) أنظر ص ١٩٩ - ٢٠١ .

(٢) مهدية : ١/١١ب/٦١/٦ - جماد ثانى ١٣٠٥ الموافق فبراير/مارس ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة) .

(٣) مهدية : ١/١١ب/٦٣/٦ - ٤ رجب ١٣٠٥ الموافق ١٧ مارس ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة) .

أرشد الختيم موسى إلى مخبأ يوسف ابراهيم، فابتهج عثمان بمقدمه وغمره بعطفه وهداياه (١).

أما سياسة الإبعاد إلى أم درمان فقد أريد بها إقصاء ذوى النفوذ من قادة الفور وعزلهم عن عشيرتهم كى تصبح بلا راع ، فيسهل قيادها . ومن سخرية القدر أن يكون جبر الله طاهر الذى أخلص الولاء للأنصار من ضحايا تلك السياسة . فحين بسط عثمان آدم للخليفة تفاني جبر الله فى خدمته حذره الخليفة من مكر جبر الله وخداعه ، فهى شيمة اشتهر بها فى عهد الإدارة التركيه (٢) وأخبره بأن جبر الله من أحفاد سلاطين الفور الطامعين فى الملك ، ثم نصحه بالإستمرار فى موادته واستدراجه إلى الفاشر ، حتى يتم ترحيله مع غيره من أبناء السلاطين إلى أم درمان ، فيكون ذلك مدعاة لصلاح حال الفور (٣).

وعمل عثمان آدم بإرشاد الخليفة ، فاطمأن جبر الله إلى كلماته الرقيقة ، وجاء إلى الفاشر ، فاستقبله عثمان بعرض عسكرى ضخم ، وأهدى اليه أحسن جياده إكراماً له وتوطيداً للشعور بالطمأنينة فى نفسه (٤) . ثم جاءت دعوة الخليفة إلى جبر الله بالهجرة إلى ام درمان مع وعد برجوعه إلى دارفور بعد اخذ البيعة ، فبرح جبر الله الفاشر فى ١٨ يونيو ١٨٨٨ قاصداً أمدرمان وكله أمل فى العودة إلى أرض آبائه ، وقد كلل الخليفة هامته بغار الملك فيها (٥) .

وسبق رحيل جبر الله هجرة الميَرم عرَفه وأختها بخيته ، ومعهما مائة وأربع وثلاثون من أميرات الفور وحرائر نسائهم ، وثلاثمائة من الرقيق الإناث (٦) . ولم تكن الميَرم عرَفه بأقل نفوذاً أو خطراً من جبر الله وغيره من زعماء الفور ، مما حدا بالخليفة إلى الالحاح فى طلب هجرتها مع يوسف ابراهيم فى بداية تمرده (٧) . ثم تابع عثمان آدم التخلص من كبار رجال الفور ، فألحق بجبر الله طاهر خمسة من اولاد السلاطين فى جمع من سكان جبل مرّة (٨) .

---

(١) مهدية : ١/١١/ب/٦/٧٢ — ١٢ شعبان ١٣٠٥ الموافق ٢٤ ابريل ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) أنظر صفحة ٥١.

(٣) مهدية: ١/١١ب/٢/٢٥٤ — ١٢ رجب ١٣٠٥ الموافق ٢٥ مارس ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٤) مهدية: ١/١٢ب/٢/١٠ — ١٢ شعبان ١٣٠٥ الموافق ٢٤ ابريل ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٥) مهدية: ١/١٢/٢/١٢٧ — ٨ شوال ١٣٠٥ الموافق ١٨ يونيو ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٦) مهدية : ١/١١ب/٦/٦٧ — غرة شعبان ١٣٠٥ الموافق ١٣ ابريل ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

(٧) انظر ص ٧٠.

(٨) مهدية : ١/١٢/٢/٦٥ — ٢٥ القعدة ١٣٠٥ الموافق ٣ اغسطس ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

قفل الختيم موسى راجعاً بسريته إلى الفاشر بعد مصرع يوسف ابراهيم دون أن يكمل اخضاع منطقة كَبْكابيّه لما أصاب الأنصار من نصب من صعود الجبال والسير في شعابها ومنحدراتها،فجلهم سكان بادية وسَهْل لم يألفوا الحياة والقتال فى أرض جبلية (١) . ولما كانت كَبكابيّه بوغازاً يشرف على الطرق المؤدية إلى الجبهة الغربية وقاعدة يهيمن منها الأنصار على شمال جبل مرّة وغربيه ، دفع عثمان آدم فى ٢ يوليو ١٨٨٨ بثمانية الف محارب بقيادة عبد القادر دليل وحامد مجبور للإقامة فيها (٢). وإذ بلغ عثمان أن سلطان دارقِمِر تحالف مع أبي الخيرات ابراهيم وراحا يغيران على أطراف كَبْكابيّه،أمر عبد القادر دليل باستطلاع أخبارهما وتأديبهما ، وأشار على العطا إصول الذى كان في سرية بدار الزغاوه بالتعاون مع عبد القادر (٣). فلما تحقق عدوان القمراوى (٤) وأبي الخيرات،حمل الأنصار على دار قِمِر ، فهرب سلطانها إلى حدود دار بَرْقو.بينما التجأ أبو الخيرات إلى الجرف الأحمر بين دار بَرْقو ودار المساليت ، فطرده هؤلاء فاحتمى بسلطان دار سُلا (٥) .

وكان أبو الخيرات قد تصدى لقيادة الفور إثر مقتل أخيه يوسف . فبايعه البعض من زعمائهم سلطاناً عليهم ، وعطف عليه سراً خلق كثير ، فما انطفأت حميتهم ولاماتت في جنوبهم نار المقاومة ، غير أنهم أحجموا عن إعلان تأييدهم خشية أن تمتد اليهم يد الأنصار بالإنتقام . فألفى أبو الخيرات نفسه فى موقف حرج . إنه راغب فى القتال عازم على الثأر لأخيه ، مصمم على حمل الراية لبعث تراث أجداده ، لكن من أين له السند وقومه قد استكانوا ؟ وزاد من حرجه أن التصدع الذى حدث فى صفوف قادة الفور على عهد يوسف ظل قائماً،بل عمق من أثره انسياق بعضهم مع اغراءات عثمان آدم كجبر الله طاهر واستسلام آخرين كشراتي جبل مرّة . ونتيجة لذلك قرر أبو الخيرات الإبتعاد عن ميدان المعركة مؤقتا حتى يستجمع قواه ويعد للحرب عدتها ، فرحل بصحبة جمعة أبو دنيبو وآدم بوش إلى دار قِمِر ، فرحب بهم سلطانها واتفق معهم على قتال الأنصار ، فكان من أمرهم ماتقدم .

---

(١) مهدية : ١/١١ب/٧٢/٦ – ١٢ شعبان ١٣٠٥ الموافق ٢٤ أبريل ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

(٢) مهدية : ١٣٨/١/١٢/١ – ٢٣ شوال ١٣٠٥ الموافق ٣ يوليو ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ١/١١ب/٩٦/٦ – ٢٦ شوال ١٣٠٥ الموافق ٦ يوليو ١٨٨٨ ( عثمان إلى الخليفة ).

(٤) انظر ص ١٠٨.

(٥) مهدية : ١٧٠/٢/١٢/١ – ٥ الحجة ١٣٠٥ الموافق ١٣ أغسطس ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة .

**(ب) شمال دارفور :**

لم يكن الميدوب والزيادية والزغاوة والماهرية بأقل اعراضاً من البقارة أو الفور عن الإذعان لدولة المهدية ، فهذه القبائل تسكن أرضاً صحراوية أو شبه صحراوية ، ومن أهم مقومات الحياة فى الصحراء التجوال ومايتبعه من انطلاق وحب عميق للحرية ، وكره شديد للقيود . فإذا سعى الخليفة إلى فرض سلطانه عليهم رأوا فى ذلك منكراً وضنوا عليه بحريتهم ورفضوا تدخله فى تكييف حياتهم . وما قيل عن تمسك البقارة بحياة البادية ونفورهم بسبب ذلك عن الهجرة (1) يقال كذلك عن قبائل شمال دارفور . فللصحراء رغم غفرها وخشونة العيش فيها سحرها الذى انطبع فى قلوب أهلها وأفئدتهم حتى خيل اليهم ألاحياة بدون رمال وريح تهب باردة جافة أو حارة تحرق الوجوه والأجسام، إنه الطبع وحكم العادة ،وما ألف الإنسان يصعب عليه التخلى عنه .

وسبب ثالث يفسر على وجه الخصوص موقف الميدوب من المهدية هو ضعف العقيدة الإسلامية عندهم ، وتغلغل شعائر الوثنية وتقاليدها فى نفوسهم ، لهذا لم تجد الدعوة المهدية صدى بينهم ، فما ورد فى رسائل المهدى وانذارات الخليفة اليهم من ذكر للجهاد فى سبيل الله وإشارات للجنة وثوابها ، والنار وعذابها بدا للميدوب كلاماً غامضاً بعيد المدلول كأنه سراب الصحراء . وصف عثمان آدم الميدوب مرة بأنهم قوم مجوس لادين لهم (2) ، وأعطى فى مرة أخرى مثالاً حياً للخرافة والوثنية فى حياتهم إذ أفاد الخليفه بأن محمد بشارة حين غزا جبال الميدوب استولى بعد لأى على سيف من ملكهم الأكبر شايبوا ، وكانت لهذا السيف عند الميدوب قداسة ، فاتخذوه من دون الله الها ، فإن جاءهم خطر أو حل بهم مكروه دفنوه فى الأرض وأقاموا عند مدفنه الطقوس ثم سألوه النصح فى الذى يصنعونه درءاً للخطر وصداً للمكروه (3) .

واختلفت قبائل شمال دارفور فى درجة عصيانها للمهدية . فقد كان الزيادية والزغاوة بحكم قربهم نسبياً من الفاشر أقل إعراضاً من الماهرية والميدوب ، فهؤلاء أكثر تجوالاً وأبعد موطناً عن قصبة الحكم فى دارفور . بيد أن هذه القبائل اشتركت جميعها

---

(1) انظر ص ١٢٠.

(2) مهدية : ١/١١/٣/ ٢٦٤/١ ـ ٢٥ رجب ١٣٠٥ الموافق ٧ أبريل ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(3) مهدية : ١/١٢/٢/١٠٤ ـ ٨ شوال ١٣٠٥ الموافق ٧ أبريل ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة) أنظر. كذلك ص ٢٠ ـ ٢١.

في الخضوع بعد أن أشهر الأنصار السيف في وجهها ، وكان الزيادية أول من بادر إلى الإمتثال ، فقد أقبل شيوخهم حُميده ولد بليل شيخ أولاد جابر ، وعلي كوع النمر شيخ أولاد جرَنْبوع ، وسلمان شيخ أولاد مُفَضّل ، أقبلوا على عثمان آدم بعد دخوله الفاشر مباشرة ، وهم مذعنون فعفا عنهم شريطة أن يهاجروا بعشيرتهم ، فقبلوا شرطه وارسلوا في طلب أهلهم (١) . ولبى الزياديّة نداء شيوخهم فاجتمعوا بمليط حيث استقبلهم ابراهيم عيسى الزيادى الذى عينه عثمان آدم أميراً عليهم ، فراح يحثهم على إخراج الزكاة غرساً للإيمان في قلوبهم (٢) . ثم انتقل الزياديّة من مليط إلى الفاشر تمهيداً للرحيل إلى أم‌درمان (٣) .

وتقدم أن زُقَل اقتاد ثلاثة من ملوك الزغاوة هم راكب وحجر ولد بحر وآدم بوش صالح إلى أم درمان (٤) . وانهمرت بعد ذلك دعوات الخليفة على من تخلف من الزغاوة عن الهجرة ، فلم يحفلوا بها ، وعاد حجر ولد بحر إلى أهله زغاوة تُورليسوقهم إلى أم درمان ، فانقاد له ثلاثمائة واربعة وسبعون منهم ونهضوا مهاجرين ثم ارتدوا ، فشكا أمرهم إلى الخليفة (٥) . وفعل مثل ذلك خمسمائة واثنان وسبعون من زغاوة كايتينقا (٦) . ولما اشتد ساعد ثورة يوسف ابراهيم حارب كثير من الزغاوة تحت لوائه (٧) ثم رجعوا إلى ديارهم إثر هزيمته ، وطلب زعماؤهم من عثمان آدم الأمان ، فأمنهم لكنهم ابطأوا في المجيء إلى الفاشر (٨) ، فرماهم بفرقة من الأنصار بقيادة العطا أصول الذى أذل عصاتهم ، غير أنه لم يقم بينهم طويلاً ، إذ استعجل الرحيل لمعاونة عبد القادر دليل في هجومه على دار قِمِر فتنفس الزغاوة الصعداء .

أما الميدوب فكانوا أكثر قبائل شمال دارفور نفوراً من المهدية ، وقد وجدوا في جبالهم القصية معتصماً يلوذون به من سطوة الفاشر وجبروتها ، فصعب لذلك إخضاعهم

---

(١) مهدية : ٢٣/٢/١٢/١ – ٢٣ جماد اول ١٣٠٥ الموافق ٦ فبراير ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ٧٢/٢/١٢/١ – ١٨ جماد ثانى ١٣٠٥ الموافق ٢ مارس ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة ).

(٣) مهدية : ٨٢/٢/١٢/١ – جماد ثانى ١٣٠٥ الموافق فبراير/مارس ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة ).

(٤) انظرص ١٤١ .

(٥) مهدية : ٦٤/٦/٧٤/٢ – ٢٩ جماد ثانى ١٣٠٥ الموافق ٢٥ مارس ١٨٨٨ ( حجر ولد بحر إلى الخليفة ).

(٦) مهدية : ٢٠/٦/٢٤/٢ – ٢١ جماد ثانى ١٣٠٥ الموافق ٢٥ مارس ١٨٨٨ ( نور ولد بكر إلى الخليفة).

(٧) انظر ص ١٩٧ .

(٨) مهدية : ١١ب/٥٩/٦ – جماد ثانى ١٣٠٥ الموافق ٢٨ فبراير ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

فى عهد زُقَل . ولكن عثمان آدم وفق فى إخراجهم من معتصمهم وإن فشل فى إدخال الإيمان بدعوة المهدى على قلوبهم التى ازدادت صلابة بفعل ماحل بهم من نكبات على يد الأنصار . كتب الخليفة إلى الميدوب بعد موت المهدى بشهر يقول « هذه الدنيا خيال سراب والآخرة هى دار السرور . . أعلموا أن المكاتبة منا إليكم بطلب الحضور للهجرة تعددت وما رأينا منكم اجابة وهذا لايصح وإلى الآن مطلوب منكم الحضور . . وكل من يتأخر وتغره الدنيا يخشى عليه أن يكون من أتباع الدجال والعياذ بالله . . (1) ». ما للميدوب وللجنة وسرورها وهم قوم مجوس ، وكيف لهم يدركون أن نعيم الآخرة خير من متاع الدنيا التى يحبونها ، وليس للآخرة حساب فى تصورهم ؟ طبيعى إذن أن يخفق الخليفة فى مخاطبة الميدوب بلغة يفهمونها فصدوا عن كلامه .

ثم خاطبهم بلغة السيف . فبعد أن دخل عثمان آدم الفاشر أرسل فى طلب ملوك الميدوب فتثاقلوا عليه ، فندب محمد بشارة وكرم الله شيخ محمد على رأس حملة لتأديبهم (2). ففهم ملوك الميدوب مدلول اللغة الحديدة ، واستقبلوا الحملة طائعين قبل أن تتوغل فى جبالهم (3). وساق محمد بشارة جموع الميدوب إلى الفاشر وملوكهم شايْبوا وتُكراسى واحمد انجْرى يندبون حظهم ، ويبكون عروشهم التى هوت . على أنهم لم يستسلموا فشجع تُكرْاسى هروب عشيرته من الفاشر سراً حتى لم يبق من الالوف التى جاء بها الأنصار غير خمسمائة قرر عثمان آدم تهجيرهم إلى ام درمان ، فغادروا الفاشر فى ٢٤ يونيو ١٨٨٨ وفى مقدمتهم الملكان شايْبوا واحمد انجْرى . ولم يكن تُكرْاسى فى الركب لأن عثمان قتله يوم هجرة اهله جزاءاً له وإرهاباً لبقية زعماء الميدوب . ولما بلغ الركب الابْيَض انتهز الميدوب فرصة هطول مطر غزير فهجموا على حراسهم فى ظلام الليل وجردوهم من بنادقهم ثم هربوا . ولما جاء الصباح تعقبهم الأنصار دون طائل ، فرجع شايْبوا وأحمد انجْرى بمن معهما إلى جبالهم (4) .

ويلى الماهرّية الميدوب فى عنف مبارزتهم للمهدية بالعداء، فقد رأيناهم بزعامة شيخهم حسب الله عثمان يصدون عن الهجرة أيام زُقَل (5) ، وشهدناهم محاربين فى

---

(1) مهدية : صادر ٢ ص ٣٢ - ٨ شوال ١٣٠٢ الموافق ٢١ يوليو ١٨٨٥ (الخليفة إلى الميدوب).

(2) مهدية : ١/١١/٣/٢٦٤ - د ٢ رجب ١٣٠٥ الموافق ٧ أبريل ١٨٨٨ (الخليفة إلى عثمان آدم).

(3) مهدية : ١/١١ب/٦٣/ - ٤ رجب ١٣٠٥ الموافق ١٧ مارس ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(4) مهدية : ١/١٢/٢/١٥٥ - ٢٨ شوال ١٣٠٥ الموافق ٨ يوليو ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(5) انظر ص ١٣٣.

صفوف يوسف ابراهيم (١) ، فلما أفل نجمه خافوا من بطش الأنصار ، فوفد حسب الله عثمان إلى الفاشر نادماً تائباً ، فقبل عثمان آدم توبته ورده إلى أهله بغية إحضارهم أسوة بالزيادية (٢) . وكان حسب الله قبل هذا قد كتب إلى الخليفة معتذراً عن هروبه من فُوجَه ، شارحاً الظروف التى أجبرته على تلك الفعلة ثم أهدى الخليفة جملين(٣). وتأكيداً لتوبته حمل حسب الله الماهريّة على النهوض إلى الفاشر ، فهجروا صحراءهم ونزلت باديتهم فى كُتُم بإشارة من عثمان آدم .

ثم عنّ لعثمان أن يأتي بالماهريّة إلى الفاشر لتشديد الرقابة عليهم حين أحس بينهم ميلا إلى التمرد والفرار ، فدعاهم اليها بواسطة شيخهم حسب الله . وصدق حدس عثمان. فقد انفجر ثائر الماهريّة وعصوا الأمر بالرحيل إلى الفاشر . وهربوا من كُتُم عائدين إلى صحرائهم . فلاحقهم محمد الأمين صالح عامل كُتُم دون جدوى. وحطت أغلبية الماهريّة رحالها فى فُوراويّة بدار الزغاوة، ثم أغاروا على تُور وقَلا ، فأخذ عثمان الماهريّة بالشدة بهدف معاقبتهم ولتأمين الزغاوة الذين لانت قلوبهم بعد إعراض . فجرد حسب الله – الذى أدين بالتواطؤ مع أهله – وغيره من الماهريّة المقيمين بالفاشر من خيولهم ، وأنفذ قوة بقيادة العطا أصول وأحمد مالك لضرب الماهريّة الهاربين فى فُوراويّة (٤)، ثم دفع حسب الله فى ٤٩٢ من قومه إلى ام درمان، وكان بين المهاجرين دَقّاش الذى نافس حسب الله فى زعامة الماهريّة على عهد يوسف ابراهيم (٥) .

وحاق بعصاة الماهريّة مصير أليم . ففى ٢٤ مايو ١٨٨٨ أنزل بهم العطا أصول ضربة قاضية فى فُوراويّة . قتل الأنصار عدداً كبيراً من العصاة وطاردوا من فر حتى مات عطشاً (٦) ، وبلغ ماغنمه العطا من الماهريّة ثلاثون الف بعير ،أعتزم عثمان آدم إرسال قسم منها إلى بيت مال أم درمان والإستفادة من بقيتها فى تهجير التعايشة (٧) .

---

(١) انظر ص ١٩٧.

(٢) مهدية: ١/١١ب ٥٩/٦ – ١٥ جماد ثانى ١٣٠٥ الموافق ٢٨ فبراير ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ٣٠/١/٣٠/٢ و١١٨/١/٣٠/٢ بدون تاريخ ( حسب الله عثمان إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ١/١١ب/٨٤/٦ – ١٧ رمضان ١٣٠٥ الموافق ٢٨ مايو ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٥) مهدية : ١٢١/٢/٢/١ – ١٧ رمضان ١٣٠٥ الموافق ٢٨ مايو ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

(٦) مهدية: ١٢٣/٢/١٢/١ – ١٨ رمضان ١٣٠٥ الموافق ٢٩ مايو ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٧) مهدية: ١٢٩/٢/١٢/١ – ٨ شوال ١٣٠٥ الموافق ١٨ يونيو١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

وفى منتصف يونيو رحل أسرى الماهرية من الفاشر صوب امدرمان (١) . وتلى ذلك إرسال ستة ألوف من إبلهم الى الخليفة (٢) .

( ج ) البقارة :

اتجهت أنظار عثمان آدم إلى جنوب دارفور بعد أن دوخ الفور ودان له الزيادية والزغاوة والماهرية والميدوب ، فما زال التعايشة والرزيقات والهبانية على إعراضهم وتحرشهم بالأنصار . عاد الغزالى أحمد خوّف إلى دار التعايشة بعد رحيل عثمان آدم من دارَه إلى الفاشر ، واحترب مع صالح أبي حوه وامبدى أخيه ، فاستنجدا بيوسف سنْدكّه الذى خرج من دار بنى هلبة قاصداً الفاشر ، فقفل راجعاً لمعاونتهما . وبارك عثمان آدم ليوسف سنْدكّه اجتهاده فى نصرة المهدية وأشار عليه بقتال الغزالى إن كان قريبا منه ، وإلا فليقم بأتباعه للاشتراك فى مطاردة فلول الفور (٣) . واستراح الرزيقات إلى منفاهم الإختيارى فى بحر العرب ، وأصلى من بقى منهم فى ديارهم جنود محمد كُرقُساوى ناراً حامية (٤) ، أما الهبانية فحنث أكثريتهم بالوعد الذى قطعوه على انفسهم باللحاق بعثمان آدم فى دَارَة (٥) ، ولم يشترك من فرسانهم فى مجاهدة الفور إلا مائة وخمسة وثلاثون، بينهم من المشاهير محمود ولد أبو سعد والكبور ونيس وعمر ولد أبو الفيله الذين عادوا إلى أرضهم بعد سقوط الفاشر بنية تنفير ذويهم للهجرة (٦). وعلى النقيض من مسلك التعايشة والرزيقات والهبانية وضع بنو هلبة مقدارتهم العسكرية تحت تصرف عثمان آدم فى حرب يوسف إبراهيم وتعقب اتباعه بعد مصرعه (٧) .

وجنح الخليفه وعثمان آدم ابتداء إلى المسالمة والتعنيف معاً فى فرض كلمة المهدية على زعماء التعايشة والرزيقات والهبانية المعرضين ، لكن شكوك الخليفة فى امكانية خضوعهم لغير سلطان القوة جعلته يحتاط للطوارىء فأنفذ جيشا من امدرمان بقيادة الأمير

---

(١) مهدية: ١٣٠/٢/١٢/١ – ٨ شوال ١٣٠٥ الموافق ١٨ يونيو ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ١٦١/٢/١٢/١ – ٧ القعدة ١٣٠٥ الموافق ١٦ يوليو ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) مهدية: ٦٦/٢/١٢/١ – ٢٥ جماد اول ١٣٠٥ الموافق ٨ فبراير ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٤) انظر ص ١٨٧.

(٥) انظر ص ١٨٨.

(٦) مهدية: ٩٩/٢/١٢/١ – ٨ شعبان ١٣٠٥ الموافق ٢٠ ابريل ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٧) انظر ص ١٨٨ – ١٨٩ ، ٢٠١ – ٢٠٦.

أحمد فضيل (١) لمساندة عثمان آدم في قهر الرزيقات بعد تأديب الُحمُر الذين واصلوا تمردهم بعد توغل عثمان آدم في دارفور (٢) .

كتب الخليفة الى الغزالى فى ٢٠ جماد ثاني ١٣٠٥ الموافق ٤ مارس ١٨٨٨ يلومه على إصغائه لقول الوشاة وانسياقه مع هواجس ومخاوف لاسند لها مما دفعه إلى مجافاة المهدية والهروب إلى دار برقو ، واستقبح الخليفة تخريب الغزالى لديار التعايشة الذين آذعنوا للمهدية دون ذنب ارتكبوه فى حقه ، وهداه إلى الكف عن إفساد الناس والحضور إلى الفاشر طائعاً وإلا فالويل له (٣) . ثم حث الخليفة التعايشة المناصرين للغزالى على اعتزاله ، وأبلغهم رفعة عن إمارة المهدية فلا طاعة له عليهم ، على أنه نصح عثمان آدم بالإحتفاظ بهاتين الرسالتين حتى إذا يئس من صلاح الغزالى نشرهما لتكونا حجة عليه وعلى أعوانه (٤) . ومن جهة أخرى بعث عثمان آدم بإبراهيم صابون وبُرار أجْبر لهداية الرزيقات ودعوتهم إلى الفاشر . كما انتدب حُمودى ولد جَبير ورشيد كَرومه إلى الهبانيه لذات الغرض (٥) .

وفشلت مساعى السلم فى إعادة الغزالى إلى رشده ، فما انفك يشن الهجوم على صالح أبي حوه ، واتخذ من السلاوى (٦) مثولا وارسل اليه الكتب والهدايا ، وحظى الغزالى بتأييد أغلبية التعايشة ، فالتف حوله جميع أولاد سرحان وأولاد حميدان والفاطمية وأولاد أبو رحيمه ، والجوارحه ، والضبابنه ، وأكثرية سِنه ، وقسمٌ من أولاد عباس ، بينما تبعت بقية بطونهم وهم الجُبارات ، والهضاليل ، وأم لسعه ، وأم ريده صالح أبا حوه . وكان أحمد القُرقُر وآدم اللّول من ابرز مؤيدى الغزالى ، ومن ثم اتضح لعثمان آدم ألا سبيل لإدخال التعايشة فى الطاعة غير قتل الغزالى (٧) .

وساء الخليفة أن تسفه عشيرته نداءاته ويسفرون فى معاداته وهو الذى أراد لهم

---

(١) ينتمى احمد فضيل إلى الجبارات وهم ذات البطن التى ينتسب اليها الخليفة عبدالله ( هل : ٣١ ).

(٢) مهدية : ٢١٦/٣/١١/١ – ٢ جماد ثانى ١٣٠٥ الموافق ٥ فبراير ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

(٣) مهدية : ١٤٢٥/٣١/٢/ – ٢٠ جماد ثانى ١٣٠٥ الموافق ٤ مارس ١٨٨٨ ( الخليفة إلى الغزالى ).

(٤) مهدية : ٢٤٤/٣/١١/١ – ٢٠ جماد ثانى ١٣٠٥ الموافق ٤ مارس ١٨٨٨ ( الخليفة إلى عثمان آدم ).

(٥) مهدية : ٧٢/٢/١٢/١ – ١٨ جماد ثانى ١٣٠٥ الموافق ٢ مارس ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

(٦) انظر ص ١٠٨.

(٧) مهدية : ٧٢/٢/١٢/١ – ٣ رجب ١٣٠٥ الموافق ١٦ مارس ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).
مهدية : ٩٩/٢/١٢/١ – ٨ شعبان ١٣٠٥ الموافق ٢٠ ابريل ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

الخير وابتغى من هجرتهم إلى أمدرمان سنداً ، وغاظه أن يتحدى الغزالى أوامره وهو الذى وجبت طاعته على كل الناس ، فنبه عثمان آدم إلى خطورة الإبطاء فى إخضاع التعايشة لتماديهم فى العصيان ولإتصال ديارهم وزعمائهم بدار برّقو ، واشار عليه بأن ينصرف إلى تأديبهم سريعاً،وإن عنى ذلك تأجيل هجرة ماعداهم من القبائل ، فمعالجة آمر التعايشة تلى إذلال الفور مباشرة فى الأهمية . ولم ير الخليفة بأساً فى رمى أهله برجال من الهبانية والرزيقات وبنى هلبة مستغلاً بذلك التناحر القبلى بين البقارة ، فاقترح على عثمان آدم إشراك هذه القبائل فى الحملة على دار التعايشة ، وبلغ الغيظ بالخليفة حداً جعله يأذن لقادة الحملة فى منع التعايشة من زراعة حتموهم وحرق قراهم حتى يكونوا عبرة لغيرهم من العصاة (١) .

وشارك عثمان آدم الخليفة في حنقه على الغزالى والتعايشة ، وتطلع إلى اليوم الذى فيه يقهرون، فاستدعى سرية الختيم موسى من جبل مرّة ومحمد بشارة من جبال الميدوب، واستعجل قدوم بنى هلبة والهبانية ليشتركوا فى غزو دار التعايشة ، ومناهم بنصيب وافر من الغنيمة كى ينشطوا فى قتالهم، وكتب إلى البرقاوى محذراً من إيواء التعايشة إن فروا من وجه الحملة إلى بلاده . غير أن عثمان استصوب مسامحة التعايشة والعمل على تهجيرهم دون عقاب إن جاءوه طائعين قبل خروج الحملة عليهم (٢) . وكأنى به أحس بأن شيئا كهذا قد يحدث . فأني للغزالى وللتعايشة بمجابهة الأنصار ؟ فقد أتاه رسل من الغزالى بخطاب طلب فيه الأمان، والقى تبعة هروبه إلى دار برْقو وحربه لصالح أبي حوه بعد رجوعه منها على عاتق صالح ذاك . ولما كان عثمان قد تلقى من صالح فى ذات الوقت مايدحض أقوال الغزالى ويرميه بالكذب شك فى نوايا الغزالى لكنه آثر اختبار مقصده ، فانتدب من يحمل إليه الأمان شريطة حضوره بأتباعه مع احضار أحمد القُرقُر ، ثم منع صالح من التحرش بالغزالى إن أذعن للأمر (٣) .

وحل اليوم الذى انتظره الخليفة طويلاً ، فامتثل الغزالى والتعايشة خوفاً دون حرب فبرغم فرصة التراجع التى منحت للغزالى ، رأى عثمان آدم ألا مندوحة من إشهار السيف فى وجه التعايشة لضمان خروجهم من ديارهم كلية ، فأنفذ جيشاً من عشرة آلاف

---

(١) مهدية: ١/١١/٣/$\frac{٢٥٨}{١}$/١٢ رجب ١٣٠٥ الموافق ٢٥ مارس ١٨٨٨ ( الخليفة إلى عثمان آدم).

(٢) مهدية: ١/١٢/٢/٩٧/ - ٨ شعبان ١٣٠٥ الموافق ٢٠ ابريل ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) مهدية: ١/١٢/٢/٩٣ -٨ شعبان ١٣٠٥ الموافق ٢٠ ابريل ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

محارب كان فى عدادهم فرسان الهبانية وبنو هلبة المقيمون بالفاشر . وصحب عثمان آدم الجيش الذى ولى إمرته الختيم موسى والبشارى ريده وفضل النبى أصيل إلى دَارَه للتشاور مع قادته وإرشادهم ، كما قصد تخويف أهل « السودان » والنظر فى شأن هجرتهم (١) . وما أن توغلت الحملة فى أرض بنى هلبة فى طريقها إلى دار التعايشة حتى توافدت عليها جموع هؤلاء ، وكتب الذين بعدت بهم الشقة منهم إلى قوادها بالإمتثال . وكان نفر من اولاد أم ريده فى طليعة المذعنين، فانضموا إلى الحملة فى جمع من بنى هلبة بقيادة يوسف سنْدكّه وعمر الضّهيب ، ولحق بهم شيخهم صالح أبو حوه ببقية أهله ومعه عدد من الهضاليل . أما الغزالى فقصد أولاً اللحاق بالحملة وندب من يوصل خبر قدومه إلى الختيم موسى ، بينما اعتذر احمد القُرقُر عن الحضور بدعوى المرض (٢) . ولما فشل الغزالى فى إدراك الحملة عدل عن رأيه الأول واتجه إلى دَارَه ومنها رحل إلى الفاشر حيث التقى بعثمان آدم نادماً تائباً (٣) .

وتتابعت وفود التعايشة على الحملة إبان إقامتها فى طُوّال حتى خلت الديار منهم ، ولم يشذ عن إجماعهم على الإذعان دون قتال إلا أحمد القُرقُر وآدم اللّول ، فحمل عليهما فضل النبى أصيل (٤) وأوقع بالأول وأسره وأفلت الثاني من قبضته فى نفر من أهله الهضاليل (٥) . وقطعاً لأمل التعايشة فى العودة إلى ديارهم حرق الأنصار قراهم ومزارعهم ، فاصبحت الدار قفراً يباباً . وساق الختيم موسى وفضل النبى أصيل التعايشة بعد هذا إلى دَارَه، بينما نهض البشارى ريده إلى الككَلكَه على أمل أن يلتقى بالختيم وفضل النبى فى دار الهبانية ليلحقوا بهم مثل ما ألحقوه بالتعايشة (٦) .

ثم سيق التعايشة إلى الفاشر حيث أحسن عثمان آدم استقبالهم وفقاً لتعليمات الخليفة الذى أوصاه بالرفق بهم وتهجيرهم على الجمال التى غنمت من الماهرية (٧) ، وكان

---

(١) مهدية: ١/١٢/٢/١١٣ – ٢٢ شعبان ١٣٠٥ الموافق ٤ مايو ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).
مهدية : ١/١١ب/٦/٧٧ – ٢٢ شعبان ١٣٠٥ الموافق ٤ مايو ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) مهدية: ٢/٤١/٢/٦ – ١٠ رمضان ١٣٠٥ الموافق ٢١ مايو ١٨٨٨ ( الختيم موسى والبشارى وفضل النبى إلى عثمان آدم ).

(٣) مهدية: ١/١٢/٢/١١٩ – ١٧ رمضان ١٣٠٥ الموافق ٢٨ مايو ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ١/١٢/١٢٥ – ١٨ رمضان ١٣٠٥ الموافق ٢٩ مايو ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

(٥) مهدية : ١/١١ب/٦/٨٨ – ٥ شوال ١٣٠٥ الموافق ١٥ يونيو ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٦) مهدية : ١/١٢/٢/١٤٨ – شوال ١٣٠٥ الموافق ٧ يوليو ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

(٧) مهدية: ١/١٢/٢/١٧٢ – ٥ الحجة ١٣٠٥ الموافق ١٣ اغسطس ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

الخليفة قبل هذا قد حرم الأنصار من نصيبهم فى ممتلكات التعايشة باعتبارها فيئاً وليس غنيمة، لأن التعايشة سلموا بلا حرب، وأمر عثمان بعدم نزعها من أربابها كى يستعينوا بها على الهجرة[1] ، وعمل عثمان بأوامر الخليفه،بل إنه بالغ فى إكرام التعايشه، فأغدق عليهم من بيت المال طمعاً فى محبتهم إن لم يكن تحيزاً لهم . فخصص ٩٥٦٣ بعيراً لحمل متاعهم وأطفالهم إلى أم درمان ، ونفحهم ٩٢٠٩ ريالاً و ١٠٥٥٦ ثوباً من الدمور [2] . ثم انصرف عثمان إلى تهجير التعايشة ، فرحلوا من الفاشر فى جماعات وكثرتهم تبكى موطناً خيم عليه الحزن ونعقت فى سمائه الغربان حتى أكتملت هجرتهم فى نهاية أغسطس ١٨٨٨ . وكان بين من رحلوا صالح أبو حوه والغزالى أحمد خوّف الذى اذعن لمصيره وأبدى من مظاهر الطاعة ماحدا بعثمان آدم إلى الثناء عليه ، فرجا الخليفة أن يتلطف به ويكافئه على إذعانه خيراً [3] .

واخفقت وسائل اللين كذلك فى إخراج الهبانية من وطنهم ، فرغم مانقله حمودى ولد جبير إلى عثمان آدم من أن زعماءهم أعلنوا رغبتهم الأكيدة فى الهجرة وشرعوا فى التأهب للنهوض إلى الفاشر [4] إلاأن زمناً طويلاً انقضى قبل أن يتبع الهبانية—الذين تمرسوا بفن المراوغة وأجادوه — قولهم بالفعل ، فراحوا يتنقلون داخل حدود ديارهم حتى جاءتهم سرية البشارى ريده [5] . وهنا اختلف موقف قسم من الهبانية عن رصفائهم التعايشة ، فبينما خضع هؤلاء لحملة الختيم موسى فشل سيف البشارى فى إرهاب الطاره فصمدوا إلى الفرار حينا وإلى القتال حينا أخر . ولم ييأس البشارى مباغتة الهبانية ، فانتدب قبل وصوله الى الكلكة من يأمر شيوخهم بإعداد أهلهم للرحيل معه إلى الفاشر ، فجاءوه

---

(١) مهدية : ١/١١/٣/٢٨٦ – ٦ شوال ١٣٠٥ الموافق ١٦ يونيو ١٨٨٨ ( الخليفة إلى عثمان آدم ).

(٢) مهدية : ١/١٢/٢/٢٠٤ – غاية الحجة ١٣٠٥ الموافق ٦ سبتمبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ١/١٢/٢/١٩٨ – ٢٤ الحجة ١٣٠٥ الموافق ١ سبتمبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).
لا يبدو أن الغزالى استراح للاقامة فى امدرمان، إما شوقاً لموطن ملكه وعزه أو بسبب المخاوف التى ظلت تساوره من تربص الخليفة به وهذا أقرب الاحتمالين إلى الحقيقة. حدثنى الشيخ على السنوسى بأن بعضاً من اقرباء الغزالى أدخلوا فى روعه أن الخليفة يأتمر به ويريد قتله ، فهرب الغزالى طلباً للنجاة غير أن رجال الخليفةلحقوا به وقتلوه مسيرة يوم شمال امدرمان. وغضب الخليفة لما حدث؛ رغبة منه فى تجنب إثارة الأحقاد القديمة، فحقق فى الأمر فتبين له أن أحمد ود أبى جوهره – الذى طمع فى إمارة التعايشة – أراد الإيقاع بالغزالى عند الخليفة حتى تؤول اليه هذه الإمارة فحثه على الهرب ، فقرر الخليفة سجن ود أبى جوهرة ثم أمر بترحيله إلى الرجاف وفيها بقى حتى مات. (انظر شقير٣ : ٥٣٤).

(٤) مهدية: ١/١٢/٢/٩٩ – ٨ شعبان ١٣٠٥ الموافق ٢٠ أبريل ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٥) مهدية : ١/١٢/٢/١٤٩ – ٢٧ شوال ١٣٠٥ الموافق ٧ يوليو ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة) .

في رَجَاجَ التي تقع مسيرة يوم شمال غربي الكَلَكَه، وأبلغوه رضاءهم بأمره ، فدخل الأنصار الكلَكَه وانتشروا في أطرافها يجمعون أهلها توطئة لتهجيرهم،وسر البشاري لإنقياد الهبانية حتى فاجأه الهليلات وهم فرع من الطّارة بما قتل البهجة في نفسه إذ هربوا إلى بحر العرب ، فطاردهم وكيله فضل الله شرف الدين وأدركهم في مكان موحل وأعمل السيف في رقابهم فانهزموا وعاد بأسراهم إلى الكَلَكَه (١) .وتنبه البشاري ريده إلى الخطر فحذر شيوخ الهبانية من مغبة الفرار ، ثم نهض بمن إجتمع له منهم قاصداً دَارَه . لكن قناة الطاره لم تلن لتهديد البشاري ووعيده ، فحطموا أسوار الحراسة التي أقامها عليهم ، وولوا هاربين بعد ساعات قليلة من مبارحة الأنصار للكَلَكَه ومرة آخرى انبرى فضل الله شرف الدين للعصاة فتعقبهم داخل ديار الرزيقات ، وقتل منهم مازاد على الألفي رجل ، فدخل الرعب في قلوب من بقي من الهبانية ، وتبعوا البشاري وهم يبكون أباً أو أخاً أو بعلاً إلى أن حل الركب الحزين بدَارَه في ٣٠ يوليو ١٨٨٨ . وهناك التقى البشاري بالختيم موسى وفضل النبي أصيل ، فتعاون ثلاثتهم في ترتيب شئون المهاجرين من التعايشة والهبانية ودفعوا بهم الى الفاشر ثم لحقوهم في ٣ اغسطس . وبلغ عدد من ساقهم البشاري من الهبانية ٤٦٥٠ رجلاً و٨٤١٦ من النساء والأطفال والرقيق (٢) .

وقسا عثمان آدم في معاملة الهبانية عند وصولهم الفاشر بدعوي أنهم أبوا الخضوع سلماً ، فجردهم من خيولهم التي هي وسيلتهم للهرب (٣) ، وسلب ١١١٤ من رقيقهم و٨٠٥٠ من أبقارهم ولم يعطهم غير ٤٧٠ بعيراً لنقل نسائهم واطفالهم ومتاعهم إلى

---

(١) مازال الهبانية يحفظون مقطوعة شعرية راقصة ويتغنون بها في ليالي افراحهم ومرحهم ، وفي المقطوعة تعبير صريح صادق عن صدود الناس عن الهجرة التي دعاهم اليها عثمان آدم رغم ما مناهم به من نعيم في الآخرة وتحكي المقطوعة كذلك اندفاع الراغبين عن الهجرة نحو دار الفرتيت ورغبتهم في الإرتباط بأحد سلاطينها المدعو زميو ، مع علمهم بانه وثني مآله إلى النار. تقول المقطوعة :
المكتوب الجابوه لما قروه قالوا لينا كوه « المقصود بالمكتوب هنا خطاب الدعوة للهجرة»
«وكوه معناها اتجهوا صوب جهة يشار اليها والجهة هنا هي امدرمان ».

ابينا جانو بي جنانه　　دايرين زميو بي نيرانه　　ابيت جانو وبدور زميو.
( جانو هو الاسم الذى اشتهر به الأمير عثمان آدم).

(٢) مهدية : ١٦٨/١٢/١ غاية القعدة ١٣٠٥ الموافق ٨ أغسطس ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٣) مهدية : ١٩٠/٢/١٢/١ — ١٢ الحجة ١٣٠٥ الموافق ٢٠ أغسطس ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

أم درمان (١) . واضاف عثمان بذلك وقوداً جديداً إلى نار الحقد الكامنة فى نفوس الهبانية الذين قارنوا بين مذلتهم وبؤسهم وبين الكرم والنعيم الذى طوق به عامل دارفور جيد أهله التعايشه ، فازدادوا إعراضاً لكنهم سكتوا على غبنهم وهم كارهون . ثم نهض الهبانيه مع الناهضين إلى أم درمان وعليهم حرس أقوياء من الأنصار بقيادة بشير كـثير (٢) ، وقـد اعتزم بعض شيوخهم سرا الفكاك من حراسهم ، فما أن بلغ الجمع ارقّد حتى فرت فرقة كبيرة من الهبانية إلى دار الرزيقات بقصد التحالف معهم ، وطير بشير كـثير النبأ إلى عثمان آدم الذى أرسل للفور سرية لتتبع الهاربين (٣) ، فلحقت بهم شرقى دارَه وفتكت بهم وقتلت من شيوخهم عمر أبا الفيـله الذى ناصر عثمان آدم يوماً فى مجاهدة الفور (٤) . وهكذا حطم الأنصار مقاومة الهبانية ، وأخلوا ديارهم إلا من جماعة اختفت عن عيون سرية البشارى ريده ، فاستحال عليه بعد أن وصل دارَه العودة لمحاربتهم نتيجة لنزول الأمطار (٥) .

وتحولت قوة الأنصار الضاربة عقب انتصارهم على التعايشة والهبانية إلى دار الرزيقات الذين صموا آذانهم عن نصح عثمان آدم واستكبروا استكباراً ، فما اكتفى الرزيقات باهمال الأوامر القاضية بهجرتهم ، بل اتخذوا من بحر العرب مأوى يقيهم من ضربات الأنصار ، فرحل اليه أولاد حسن وأولاد زويد والنوايبه والقديانيه وأولاد ام سلمه أهل ابراهيم صابون وأولاد أم سريره وأولاد محمد، عدا قلة ثم أولاد زيد ، بينما بقى المحاميد فى أرضهم فهم أكثر فروع الرزيقات انقياداً بسبب استقرارهم واشتغالهم بالزراعة (٦) . ولما جاء ابراهيم صابون لهدايتهم وسوقهم إلى الفاشر حاربوه

(١) مهدية : ٢٠٦/٣/١٢/١ - ٣ محرم ١٣٠٦ الموافق ٩ سبتمبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

(٢) مهدية: ٢٠٤/٢/١٢/١ - غاية الحجة ١٣٠٥ الموافق ٦ سبتمبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) كان محمود ابو سعد بين من هاجروا فى رفقة بشير كثير. وقد اقام محمود فى امدرمان حتى كانت موقعة كررى فنافح مع المنافحين عن دولة المهدية ، فلما انجلت المعركة عن هزيمة الأنصار تراجع محمود مع الخليفة إلى شركيلة فى دار الجمع ، لكنه افترق عنه هناك وسلم نفسه فى جماعة بينهم مساعد قيدوم إلى ماكسويل بك ( MAXWELL ) الذى اشترك فى مطاردة الخليفة ، وسيق محمود إلى ام درمان ، فسكن بها حتى عام ١٩٢٠ حيث عين ناظراً على الهبانية خلفاً للشيخ الغالى تاج الدين، فعاد إلى دارفور وظل يحكم عشيرته إلى ان توفى فى يونيو ١٩٢٧. ( مديرية دارفور/سرى/٣٦/د/١/٨).

(٤) مهدية: ١/١١ب/٧/١٠٧ - ١٢ محرم ١٣٠٦ الموافق ١٨ سبتمبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٥) مهدية: ١٦٩/٢/١٢/١ - ٤ الحجة ١٣٠٥ الموافق ١٢ أغسطس ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٦) مهدية: ٩٩/٢/١٢/١ - ٨ شعبان ١٣٠٥ الموافق ٢٠ أبريل ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

وقتلوا ثمانين من رجاله، فرجع الى عثمان آدم ساخطاً (١) فعمد عثمان إلى حيلة اخرى يستميل بها الرزيقات واتخذ لذلك وسيلة هى الدس بينهم وبين حلفائهم الحُمُر الذين هربوا إلى بحر العرب إثر دخول احمد فضيل أرضهم . وأمل عثمان فى شطر هذا الحلف اولاً وفى كسب ود الرزيقات ثانياً ، فوجه اليهم رسالة مع سليمان احمد أكرت الذى انتدب ليخلف محمد كرقساوى عاملاً على شكا (٢) ، حذرهم فيها من غدر الحُمُر لأن هؤلاء على اتصال ومودة بمحمد كُرقُساوى الذى صب عليه الرزيقات جام غضبهم ثم زين عثمان للرزيقات محاربة الحُمُر وتغنيم أبقارهم (٣) .

وباءت مساعى عثمان آدم للتفريق بين الرزيقات والحُمُر بالفشل ، فعداء القبيلتين للأنصار رباط أقوى من أن تفكه دسائسه ، آية ذلك استمرار ذلك الاتحاد حتى بعد رحيل الرزيقات والحمُر من بحر العرب عند هطول الأمطار . فقد بدأت غارات رجال القبيلتين على شكا حين اقتربوا منها ، ثم مدوا أيديهم إلى أطراف دارَه مما شجع أهل «السودان» على الإنحياز الى صفوفهم ، كما انضم إليهم الهبانية الذين أفلتوا من قبضة البشارى ريده ،

(١) مهدية : ١/١٢/٢/١٨١ – ٨ الحجة ١٣٠٥ الموافق ١٦ أغسطس ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) كتب عثمان آدم إلى الخليفة للمرة الثانية بعد دخوله دارفوريشيد بكرم الله شيخ محمد واخيه محمد كرقساوى (مهدية : ١/١٢/٢/٦٤–٢٤ جماد اول ١٣٠٥ الموافق ٧ فبراير ١٨٨٨) لكنه رأى بعد ذلك فى بعض اعمال محمد كرقساوى منكراً، فرفعه عن عمالة شكا. اتهم محمد كرقساوى أولا بتهريب أموال ورقيق إلى أهله فى كرقوس خشية أن يستولى عليها الخليفة إن بعث بها إلى امدرمان، وأدين كذلك بمخالفة اوامر عثمان بعدم السماح لأهل المسلمية والمتمة القاطنين فى شكا بالعودة إلى قراهم دون اذن من الفاشر ( مهدية ١/١٢/٢/٨٤ – رجب ١٣٠٥ الموافق مارس/ابريل ١٨٨٨)، ولما تبينت للخليفة صحة هذه الا تهامات خير عثمان بين عزل محمد كرقساوى عن عمالة شكا واستدعائه إلى الفاشر أو تعيين وكيل له يكون عينا عليه ويقاسمه الحكم، واتفق ان طلب محمد كرقساوى فى هذا الوقت عونا من عثمان لمواجهة هجوم الرزيقات عليه ، فاهتبل عثمان الفرصة وأرسل سليمان احمد أكرت على رأس قوة لحفظ الامن فى شكا، وكتب إلى محمد كرقساوى يبلغه قدوم سليمان لمعاونته ومشاركته فى إدارة عمالته. وصدر فى ذات الحين امر سرى لسليمان بالإجتهاد فى استمالة بازنقر محمد كرقساوى والإستيلاء فى حكمة على ما تبقى من ممتلكات بيت مال شكا (مهدية : ١/١١ب/٦/٩١ – ١٢ شعبان ١٣٠٥ الموافق ٢٤ أبريل ١٨٨٨)، وصعب على سليمان اداء مهمته ومحمد كرقساوى مقيم فى شكا، لأن من معه تحزبوا له ، وأنكروا وجود شىء فى بيت المال ، مدعين ملكية خاصة على ما بيدهم من خيول وسلاح ومال ، فقرر عثمان استدعاء محمد كرقساوى إلى الفاشر واستبقائه فيها، فارسل فى طلبه بحجة التشاور معه فى شئون عمالته (مهدية ١/١١ب/١٠/٢٠٠ – ٨ شوال ١٣٠٥ الموافق ١٨ يونيو ١٨٨٨) ، فأطاع محمد كرقساوى الأمر ، وجاء إلى الفاشر فى قلة من اتباعه فى ٧ يوليو ولقيه عثمان بترحاب ( مهدية ١/١١ ب/٦/٩٤/ – ٢٨ شوال ١٣٠٥ الموافق ٨ يوليو ١٨٨٨ ) ثم أرسل عثمان فى طلب أسرتى كرم الله ومحمد كرقساوى ورجال الثانى قطعاً لصلته بشكا ( مهدية ١/١٢/٢/١٨٩ – ١٢ الحجة ١٣٠٥ الموافق ٢٠ أغسطس ١٨٨٨).

(٣) مهدية : ١/١١ب/٦/٨٧ – ٢٢ شعبان ١٣٠٥ الموافق ٤ مايو ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

واستدعى ذلك تجريد حملة لقهر الرزيقات والحُمُر منعاً للفساد من الانتشار فى جنوب دارفور، ولإكراه القبيلتين على الهجرة انتهازاً لفرصة اقترابهم من مواقع الأنصار ، فإن حل بهم الجفاف فإن العصاة لامحالة عائدون إلى بحر العرب . وتولى قيادة الحملة فضل النبى آصيل ، فغادر الفاشر فى ٢ سبتمبر ١٨٨٨ وبرفقته بُرار أجْبر وابراهيم صابون (١) . وكان قوام الحملة ١٣٨٤١ مقاتلاً حمل ٢٧٣٧ منهم اسلحة نارية (٢) .

وجَّد فضل النبى أصيل فى السير رغم ماتعرض له جيشه من صعاب بفعل توالى الأمطار ، يطلب فى دار الرزيقات خصماً وينشد قتالاً ، على أن من قصد حربهم لم يصبروا على منازلته طويلاً ، فسلم من سلم منهم، وركن من امتنع عن الخضوع إلى الفرار ، فما أن ظهرت فى الافق رايات الأنصار وبلغت مسامع الرزيقات تكبيراتهم حتى اضطربت صفوف القوم وهربت جموعهم كل إلى جهة . وألح فضل النبى فى طلب العصاة ، فأدرك أولاد ام سلمه فى مكان يقال له النُحاسيّه ، وقاتلهم فى ضراوة ، فولوا الادبار وتفرقت السبل ببقية بطون الرزيقات. ثم اتجه أولاد حسن وأولاد أم سلمه ، والنوايبه ، والقديانية إلى بحر العرب مفضلين قسوة المطر والوحل على مواجهة نيران الأنصار وسيوفهم (٣). لكنهم عادوا أدراجهم حين أشتد بهم الضيق وخافوا على انفسهم وأبقارهم من موت محقق ، وناشدوا محمد جودة عامل دارَه (٤) تأمينهم على أرواحهم وأموالهم، فأجابهم إلى طلبهم رفقاً بهم وتأليفاً (٥) . وكان فضل النبى أصيل قد انطلق وراء أولاد أم سلمه وأولاد محمد وأولاد زيد واولاد زويد الذين قصدوا دار الحُمُر ، وشاع أنهم يرمون إلى الإتصال والاتحاد مع الخارجين من أهل جبال النوبة ، فألحق بهم هزيمة منكرة فى منتصف سبتمبر ١٨٨٨ (٦) . وهكذا ضيق الأنصار الخناق على الرزيقات وكادوا يقضون على مقاومتهم، لولا أن صدر الأمر لفضل النبى أصيل وسليمان أحمد أكرت

---

(١) مهدية : ١/١٢/٢/١٩٩/١ – ٢٦ الحجة ١٣٠٥ الموافق ٣ سبتمبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ١/١٢/٣/ ٢١٤/١ محرم ١٣٠٦ الموافق ١٠ سبتمبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ١/١٢/٣/٢٢٤/١ – ٢٨ محرم ١٣٠٦ الموافق فى اكتوبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٤) عين محمد جوده عاملا على داره خلفا لمحمد احمد عوجة الذى اوكلت اليه ادارة مركز الطويشة لمراقبة هجرة التعايشة والهبانية إلى امدرمان ( مهدية ١/١٢/٢/١٨٥ – ٩ الحجه ١٣٠٥ الموافق ١٧ أغسطس ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٥) مهدية: ١/١٢/٣/٢٤٤ – ٢ صفر ١٣٠٦ الموافق ٨ أكتوبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٦) مهدية: ١/١١ب/١١٢/٧ – ٢ صفر ١٣٠٦ الموافق ٨ أكتوبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

بإيقاف حملاتهما التأديبية والنهوض بجيوشهما إلى الفاشـر للإشتراك فى قمع ثورة أبو جميزة التى تفاقم خطرها فى هذا الوقت [1] .

**( د ) الجبهة الغربية**

تقدم أن ملوك هذه الجبهة وعلى رأسهم سلطان دار برقو ، خافوا على استقلالهم من أنتصار المهدية فى دارفور، وارتضوا اتباعهـا اسماً طالما أمنـوا توسـع الأنصار فى بلادهم . ومصدر الخوف أن عزم المهدى ومساعى خليفته لبث الدعوة المهدية فى أطراف العالم الإسلامى وتشبع الأنصار بروح الجهاد فجرا فى حوض النيل وأفريقيا الوسطى طاقة عسكرية ومعنوية لاتعترف بالحدود الجغرافية او السياسية ، فهى لذلك خطر كبير على أولئك السلاطين . وتقدم كذلك ان زُقَل بدد مخاوفهم بالسياسة السلمية التى انتهجها حيالهم [2] .

لكن خوف سلاطين الجبهة الغربية تجدد بتحطيم عثمان آدم لانتفاضة الفور بقيادة يوسف ابراهيم فى مهدها . وكان هؤلاء السلاطين يأملون فى انفصال يوسف بدارفور كى يقف سداً بينهم وبين الأنصار ، فلما خاب مسعى الفور وانهار السد الذى خاله سلاطين الجبهة الغربية مانعاً لتوسع الأنصار فى ممالكهم فزعوا ، على أنهم عمدوا إلى مهادنة عثمان آدم فإعترفوا بإمارته عليهم طمعاً فى أن ينهج معهم نهج زقَل ، وإذ امتدت يد الأنصار إلى دار قِمِر ، وتبين أن عثمان يبغى فرض سيادته بحد السيف ، تحركت فى الجبهة الغربية قوى كثيرة لمناهضته ، وتصدى البرقاوى لقيادة المناهضين ، فحمى الهاربين من سطوة الأنصار ، وحث القِمْراوى والتاماوى وشيخ بنى حسين على قتالهم ، فقد رأى فيهم سداً ثانيا يقيه زحف المهدية بعد أن تكسر السد الاول بهزيمة يوسف ابراهيم ، غير أن اتباع البرقاوى هؤلاء تساقطوا أمام جحافل الأنصار ، فانهار السد الثاني ، وتعين على البرقاوى إعداد الجيوش دفاعاً عن ملكه ، فرد عثمان آدم على هذا بتقوية قواته المرابطة فى الجبهة الغربية ، فأضحى الإصطدام بين الأنصار وجيوش البرقاوى وشيك الوقوع ، لولا أن دحر أبو جميزة الأنصار فابتعد الخطر عن حدود دار برْقو .

عثر عثمان آدم بين مخلفات يوسف ابراهيم عقب واقعة ود بيره على خطاب فضح تأييد البرقاوى ليوسف إذ أمده بقنطار من البارود وتمنى له الفوز فى مكافحة

---

(١) مهدية : ١/١١ب/١١٤/٧/٧ – ٧ صفر ١٣٠٦ الموافق ١٣ أكتوبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

(٢) انظر ص ١٠٦ – ١١٠ .

الأنصار (١) . وانزاح بذلك الستار عن مراوغة البرقاوى، واتضح بطلان دعواه باتباع المهدية ، فكتب اليه عثمان شارحاً أسباب مجيئه إلى دارفور آمراً أياه بقطع صلته بيوسف ثم منذراً بالزحف على دار بَرْقو إن أوى اليها يوسف وفتح سلطانها ذراعيه للمعرضين(٢). وظهرت روح التهديد هذه ثانية فى خطاب أنحى فيه الخليفة باللائمة على البرقاوى وعنفه على إهمال رسائله اليه (٣) ، فسارع البرقاوى إلى الدفاع عن خالص اعتقاده فى المهدية ونفى عن نفسه تهمة التحيز ليوسف ابراهيم ضد البَحّارة ، ثم احتج بأن مودته مع يوسف راجعة إلى أنه أكبر عمال المهدية فى دارفور وإلى أن زُقَل أوصاه عند قيامه من الفاشر بيوسف خيراً (٤) .

غير أن سياسة البرقاوى العملية تعارضت مع ما أعلنه من إخلاص للمهدية . من ذلك أن البرْقو قطعوا الطريق على ألف واربعمائه من الفلاتة كانوا مهاجرين إلى آم درمان ، ففتكوا بأكثريتهم ومزقوا الرسائل التى جاء بها الفلاتة من حَياتُوبن سعيد إلى الخليفة ، وأخذ البرقاوى كذلك يتأهب لحرب الأنصار بشراء الأسلحه من الفيزان كما جعل فقهاء بلاده يداومون على قراءة سورة يس على ذلك يبعد عنهم خطر الأنصار(٥).

وازداد عثمان آدم يقيناً بعداء البرقاوى للمهدية وعزمه على مناهضتها عندما دخل

---

(١) مهدية: ١٦/٣١٨/٥/٢ ربيع اول ١٣٠٥ الموافق ٢ ديسمبر ١٨٨٧ (السلطان محمد يوسف إلى حسين رحمة قوموا ).

(٢) مهدية: ١/١١ب/٢٠٦/١٣م– ١٢ جماد اول ١٣٠٥ الموافق ١٦ يناير ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى السلطان محمد يوسف).

(٣) مهدية :٤٩/٣/١/٣ – ١٣٠٥ الموافق ١٨٨٨/١٨٨٧ (الخليفة إلى السلطان محمد يوسف).

(٤) مهدية: ٣٣٨/٧/١٦/٢ – رجب ١٣٠٥ الموافق مارس/ابريل/١٨٨٨ (السلطان محمد يوسف إلى عثمان آدم).

(٥) مهدية: ١٧٩/٢/١٢/١ – ٨ الحجة ١٣٠٥ الموافق ١٦ أغسطس ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
ذكر بديس وهو مغربى من مواليد قرية جالو التى تقع بين بنغازى وكفره فى ليبيا والذى كان ابوه يعمل تاجراً ومرشداً للقوافل التى تسير بين كفره ووداى، ذكر انه بعد وصولهم إلى أبشى عاصمة وداى فى احدى رحلا تهم التجارية ذهب إلى منزل السلطان محمد يوسف وباع له باروداً فى مقابل أربعة مقاطع من الدمور لكل رطل، ثم باع بقية ما لديه من بارود فى سوق أبشى خلسة إذ كان السلطان يحتكر تجارة البارود وارسل يونس كذلك خمسين رطلا من بضاعته إلى اسحق أبى ريشه سلطان دار سلا ، وحصل فى مقابلها على مائة وخمسين رطلا من العاج أنظر :
W. E. Jemmings Bramely: Tales of the Wadai Slave Trade in the Nineties. S.N.R. 23, Part I, pp. 169 & 175–176.

الأنصار دار قمر لتأديب سلطانها ادريس أبي بكر هاشم (١) الذى استخف بأوامر عثمان القاضية بعدم تعاونه مع الفور وبحضوره إلى الفاشر (٢) ، ثم بلغ عثمان ان القمراوى ينتوى اللجوء إلى دار برقو إن ضاق به الحال فى أرضه (٣) . ولما كان عثمان مشغولاً أول الأمر بمطاردة يوسف ابراهيم أمهل القمراوى ، غير أن هذا اشتط فى معاداة المهدية ، فدعا أبا الخيرات ابراهيم ورفاقه إلى الاتحاد معه وراح يغير على أعمال كبكابيه . حينئذ ضاق عثمان بالقمراوى ذرعاً ، فأنفذ سرية عبد القادر دليل وحامد مجبور لقتاله (٤) ، وكان من خبرها ماذكرنا سابقا (٥) .

واقترب خطر الأنصار من دار برقو إثر هزيمة القمراوى وأبي الخيرات ، فتملك الذعر البرقاوى ، فحشد الجيوش وأسس نقاط الحراسة على حدود بلاده الشرقية ثم قبل القمراوى لاجئاً . وعمد البرقاوى فى ذات الوقت إلى مهادنة الأنصار كى يأمن شرهم ، فأنكر إيواء القمراوى ، وأضاف أنه امتنع عن معاونة أبي الخيرات رغم أن هذا نشأ فى دار برقو مما يلزم أهلها أدبياً بمساعدته ، ولم يكن البرقاوى صادقاً فى هذا فقد انزل القمراوى مقاماً كريماً فى بلاده ، وسمح له بالتجوال فى ربوعها ، وطلب إلى رعيته الترحيب به أينما حل ، ونهاهم عن اعتراض سبيله أو مسه بأذى(٦) .

وكأني بعثمان علم بهذا فأخذ بما جاءه من عبد القادر دليل من أن البرقاوى كاذب فى كل أقواله ، فصدر الأمر إلى الختيم موسى بالتوجه لتقوية جيش الأنصار فى الجبهة الغربية وتولى قيادتهم . فغادر الختيم الفاشر فى ٧ سبتمبر ١٨٨٨ . ورمى عامل دارفور من دعم قوة الأنصار إلى إرهاب البرقاوى الذى ازداد غروراً بسبب امهاله زمناً طويلاً (٧) ،

---

(١) ولد السلطان إدريس حوالى ١٨٥٩ ، وتوج ملكاً على اهله فى ١٨٨٠ ( مديرية دارفور/سرى٣٦/د/١/٨)
وجاء فى حديث السلطان ادريس مع محرر جريدة الحضارة السودانية انه قبل دعوة المهدى لكنه امتنع عن الهجرة اليه خوفا من أن يمنعه من العودة إلى بلاده ، وسارت علاقته بالمهدية على هذا المنوال حتى حل عثمان آدم بدارفور ، وغزت جيوشه دار قمر ، فتعكر صفو صلات السلطان بالخليفة ( حضارة السودان/العدد ١٤٧٤ بتاريخ ٢ أبريل ١٩٣٦).

(٢) مهدية : ١/١١ب/٦/٥٠ – ١٤ جماد أول ١٣٠٥ الموافق ٢٨ يناير ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة) .

(٣) مهدية: ١/١١ب/٢/٧٢ – ١٢ شعبان ١٣٠٥ الموافق ٢٤ أبريل ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ١/١١ب/٦/٩٦ – ٢٦ شوال ١٣٠٥ الموافق ٦ يوليو ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة) .

(٥) أنظر ص ٢٠٩.

(٦) مهدية : ٣/٣٧/٢/٢٢٥ – ١٣٠٦ الموافق ١٨٨٨/١٨٨٩ ( السلطان محمد يوسف إلى كافة من يقف على هذا الرسم) .

(٧) مهدية: ١/١٢/٢٠٦٣ – غرة محرم ١٣٠٦ الموافق ٧ سبتمبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

وقصد عثمان كذلك إلى تخويف السلاوى رغم أنه لم ينشط فى هذا الوقت فى مناهضة المهدية بمستوى معارضة البرقاوى لأن بلاده لم تهدد تهديداً مباشراً نتيجة لتوسع الأنصار فى دارى قمر وتامه . ولايجب أن يتبادر إلى الذهن أن السلاوى لم يعاد المهدية كما عاداها البرقاوى . فعلى الرغم من أنه كتب إلى عثمان آدم بالطاعة ووعد بانتداب أبنائه ليحملوا ولاءه إلى الفاشر (١) ، إلا أنه أوصد باب الإتصال بينه وبين عثمان حين أمر شيوخ قبيلة السُميّات المجاورين لحدود عمالة دارَه الغربية بمنع رسل الأنصار من دخول دار سُلا (٢) .

وقبيل قيام الختيم موسى من الفاشر أوقع عبد القادر دليل بإبراهيم سليمان سلطان دار تامه (٣) الذى كان بين من خاطبهم عثمان آدم حال دخوله الفاشر بالإبتعاد عن مصادقة الفور والحضور لمقابلته (٤) . وبدا للوهلة الأولى أن سلوك التاماوى مغاير لموقف بقية سلاطين الجبهة الغربية ، إذ أوفد ابنه يحى فى نفر من أهله لتقديم فروض الطاعة لعامل دارفور ، وأعلن نيته على الهجرة إلى الفاشر معتذراً عن سابق تأخيره . ومضت شهور أربعة دون أن يفى التاماوى بوعده، فظهر أنه شبيه بالقِمْراوى فى نفوره عن الهجرة، فقر رأى عبد القادر دليل – الذى كان قد أخضع دار قمر فى هذا الوقت – على إكراهه عليها ، واستصوب عبد القادر كذلك مباغتة التاماوى خشية أن يفر إلى دار بَرْقو إن أغار عليه الأنصار جهراً ، وانتدب لتنفيذ الخطة ألفاً من الخيالة ساروا على فرقتين ، وأمرهم بالسير ليلاً والإختفاء عن الأعين نهاراً ، ونجحت الخطة ، ففى ضحى ٢٧ أغسطس ١٨٨٨ طوقت فرقة الخيالة الأولى منزل التاماوى واعتركت مع حرسه ساعات طويلة حتى أقبلت الفرقة الثانية فرجحت كفة الأنصار ، واعتقل التاماوى بعد أن حصدت نيران الأنصار فريقا كبيراً من قومه . وفى هذه الأثناء وصل ركب

---

(١) مهدية: ١/١٢/٢/١٢٠ – ١٧ رمضان ١٣٠٥ الموافق ١٨ مايو ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة ).

(٢) مهدية: ١/١٢/٢/١٧٩ – ٨ الحجة ١٣٠٥ الموافق ٦ أغسطس ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) تربع السلطان ابراهيم سليمان على عرش دار تامه أربعين عاما وكان عمره حين قبض عليه الأنصار ينوف عن المائة عام، وله سبعة وثلاثون ولداً منهم سليمان الذى قاد عشيرته بعد أسر أبيه ضد الأنصار ، وكانت نيره فى كلا العهدين عاصمة لدار تامه (مديرية دارفور/سرى/٨/هـ/٢/١). أما عثمان آدم فقدر عمر السلطان ابراهيم عند اعتقاله بما يزيد عن المائة وعشرين عاما (مهدية ١/١٢/٢/٨٩ – ٧ شعبان ١٣٠٥ الموافق ١٨٨٨، – عثمان آدم إلى الخليفة).

(٤) مهدية: ١/١١ب/٢/٥٠ – ١٤ جماد أول ١٣٠٥ الموافق ٢٨ يناير ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

عبد القادر دليل دار تامه ، فجاءه قيادة الخيالة بسلطانها (١) الذى إقتيد إلى الفاشر ومنها إلى أم درمان فى ٨ أكتوبر ١٨٨٨ (٢) . وبهذا سيطر الأنصار على دار قِمِر وتامه ، فأثاروا حفيظة البرقاوى ، فرمى ثوب المراوغة أرضاً وطفق يجيّش الجيوش مما حدا بعثمان آدم إلى إرهابه .

رجل واحد انفرد بين زعماء الجبهة الغربية باتباع المهدية ذلكم هو اسماعيل عبد النبى المسلاتي . وليس أدل على ذلك من بيعته الإختيارية للمهدى فى الأبيض ، وتمسكه بمستوجبات تلك البيعة من طاعة وامتثال بعد عودته إلى دار المساليت (٣) ، فلما توفى المهدى جدد اسماعيل البيعة للخليفة الذى رد عليه شاكراً له حسن انقياده وطلب منه الحضور إلى أم درمان (٤) . ولعل الخليفة رأى فى نهضة المساليت كإمارة مستقلة مايوغر صدر يوسف ابراهيم ، فيسعى إلى الإيقاع بزعيمهم ، فأشار على يوسف بعدم إعتراض سبيل اسماعيل إن قام مهاجراً (٥) . ولم يهاجر اسماعيل لعصيان يوسف كما أفاد بذلك عثمان آدم ، فقبل عثمان عذره وأمره بالإنضمام إلى الختيم موسى وعبد القادر دليل فى تعقب يوسف (٦) .

ثم ثارت شكوك حول ولاء اساعميل حين أبطأ فى الرحيل الى الفاشر بعد مقتل يوسف ابراهيم بدعوى إشتغاله بمكافحة غارات البرقاوى والسلاوى عليه كرها منهما لتبعيته للمهدية ، غير أن عثمان آدم إكتشف أن دار المساليت لم تتعرض للهجوم الذى قال به اسماعيل ، فألح فى طلب حضوره دون أن يشعره بسخطه عليه ، (٧) فصدع اسماعيل للأمر وجاء إلى الفاشر فى مايو ١٨٨٨ آملاً فى العودة إلى دياره بعد لقاء عثمان لكن عثمان حرمه من بغيته ، واقترح على الخليفه استدعاء اسماعيل إلى أم درمان محتجاً بعدم جدوى رجوعه إلى دار المساليت بغير سرية تصحبه اليها لتعود به وبأهله إلى الفاشر تمهيداً لهجرتهم إلى ام درمان ، إذ لم يكن ممكنا لعثمان التخلى عن قسم من جيشه وقد

---

(١) مهدية: ١/١١ب/١٠٦/٧ – غرة محرم ١٣٠٦ الموافق ٧ سبتمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) مهدية: ١/٢٣٩/٢/١٢ – ٢ صفر ١٣٠٦ الموافق ٨ أكتوبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) أنظر ص ١٠٧.

(٤) مهدية : صادر ١ ص ٧١ – ١٥ محرم ١٣٠٤ الموافق ١٤ أكتوبر ١٨٨٦ (عثمان آدم إلى اسماعيل عبد النبى).

(٥) مهدية: صادر ١ ص ٨٨ – ٢٢ صفر ١٣٠٤ الموافق ٢٠ نوفمبر ١٨٨٦ (الخليفة إلى يوسف ابراهيم).

(٦) مهدية: ١/١١ب/٥٩/٦ – ١٥ جماد ثانى ١٣٠٤ الموافق ٢٨ فبراير ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٧) مهدية: ١/١١ب/٧٢/٦ – ١٢ شعبان ١٣٠٥ الموافق ٢٤ أبريل ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

انصرف لإخضاع التعايشة والهبانية والرزيقات (١) . والحقيقة أن عثمان رأى فى اسماعيل طموحاً وطمعاً فى الملك، ومن الخير أن تكبح تلك الشهوة فى نفسه برحيله إلى أم درمان(٢). وقر الخليفة عثمان على رأيه ، (٣) فتوجه اسماعيل إلى أم درمان فى ركب البشارى ريده بعد أن عاد هذا من حملته التأديبية للهبانيه (٤) .

---

(١) مهدية : ١/١٢/٢/١١٧ – ١٥ رمضان ١٣٠٥ الموافق ٢٦ مايو ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة) .
صحب اسماعيل عبد النبى إلى الفاشر ابناؤه ابو بكر وعمر وجمال الدين ، فلما أقاموا بها أياماً مهد اسماعيل لهروب ابى بكر وعودته إلى دار المساليت ليحكمها دون طاعة لعثمان آدم، ومما قاله اسماعيل لا بنه قبل أن يفترقا إن حال المهدية قد تغير ، فقد كانت رسالة دينية على عهد المهدى واصبحت اليوم ملكاً يقوم على الإستبداد والتسلط ، فرجع ابوبكر الذى اشتهر بأبكر ، إلى أهله وكله عزم على مناهضة ما اسماه ابوه بحكم البقارة ( حضارة السودان العدد – ١٤٨٠ بتاريخ ٢٣ أبريل ١٩٣٦).
(٢) مهدية: ٢/١٦/٩/٤٤٧–٧ رمضان ١٣٠٥ الموافق ١٨ مايو ١٨٨٨ (محمد أبوه عبدالله فات إلى الخليفة) .
(٣) مهدية : ١/١٢/١٤٣ – ٢٧ شوال ١٣٠٥ الموافق ٧ يوليو ١٨٨٨ ( الخليفة إلى عثمان آدم) .
(٤) مهدية: ١/١٢/٣/٢٠٨ – ٤ محرم ١٣٠٦ الموافق ١٠ سبتمبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

الفصل الخامس

# إمارة عثمان آدم

## المقاومة الثانيـــة وإخضاعها

### أ ـ ثـورة أبي جميـزة :

لـــقد جابه الخليفة مشاكل وخصوماً عديدين بعد انتقال المهدى (١) لكن الهبة التى تزعمها أبو جميزة فى دارفور فاقت فى درجة خطورتها كثيراً من المعضلات السياسية التى هددت مركزه. فمن هو أبو جميزة ؟ وما دوافع ثورته ؟ وما الذى ترتب عليهـــا ؟

اجتهد عثمان آدم منذ اليوم الأول لظهور أبي جميزة فى التعرف على شخصه واتجاهاته ، فاضطربت عنده الأخبار إبتداء ، وأحاط الغموض بشخصية أبي جميزة ، فمن قائل بأنه محمد المهدى السنوسى ، هجر ليبيا غازيا للخليفة فى عقر داره (٢) . ومن قائل بأنه فقيه كان يقيم بين الماهريّة ويشتغل بكتابة الأحجبة والتمائم ويزيغ أبصار الناس بأسحلوه، فاعتقدوا فى صلاحه، وآمنوا بقدرته على الإتيان بالمعجزات ، فلما حمل الأنصار على الماهريّة هرب إلى دار تامه واستقر بها ، وحين دخلها الأنصار وأسروا سلطانها ابراهيم سليمان، لعب أبو جميزة على وتر الكراهية فى نفوس أبنائه وأدخل فى روعهم أنه موفد من قبل محمد المهدى السنوسى لجهاد الأنصار ، وزيّن لهم حربهم وضمن لهم النصر بما لديهْ من أسحار تحجب عنهم نيران العدو (٣) .

ثم انجلى ما غمض من أمر أبي جميزة واتضح أنه شاب صغير السن ، اسمه محمد الزين ، أسود اللون ، فصيح اللسان ، يلبس زيا كزى الأنصار ويقرأ راتب المهدى مثلهم ، وزاد عثمان آدم علما بحقيقة أبي جميزة لما بعث اليه هذا الثائر وإلى الخليفة

---

(١) أنظر ص ٦ – ٧.

(٢) شاع هذا الإعتقاد فى مصر أيضا وبلغ المسئولين فيها أن السنوسى أسقط الفاشر واحتل الأبيض وبدأ يزحف نحو امدرمان ، وبلغهم كذلك أن السودان كله تجاوب مع تلك الإنتصارات ، وأن الخليفة لا محالة فاقد سلطانه ، فأخذت دوائرهم تخطط معالم السياسة التى تتبع مع حاكم السودان الجديد ، ثم تبددت الشائعات حين نفى السنوسى نفياً قاطعاً أية صلة له بأحداث دارفور ، فظهر ان ما جرى فيها لا لا يعدو ان يكون ثورة محلية. (ونجت : المهدية والسودان المصرى ص ٣٧٦ – ٣٧٧).

(٣) مهدية : ١/١٢/٣/٢٣٥ – ٢٩ محرم ١٣٠٦ الموافق ٥ أكتوبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

بخطابين قال فيهما إنه من أصحاب المهدى ، يسترشد مثلهم بالقرآن ويقتدى بسنة الرسول وأنه يبايع الخليفة قائداً وإماماً ، ثم ادعى أبو جميزة خلافة عثمان بن عفان وأضاف أن ماحدث بينه وبين الأنصار حدث مثله بين أصحاب الرسول [1] .

أما أصل التسمية « أبو جميزة [2] » فقد أرجعه عثمان آدم إلى إعتقاد الناس بخروج الرجل من شجرة « جميز » ، وفى هذا دون شك مبالغة خرافية تتسق مع ما تناقلته الألسن عن اتصال أبي جميزة بالجن الذين أمدوه بقدرة خارقة لفعل كل معجز ، حتى غدا أسطورة بين القوم . ولعل ماذكره شقير من أن التسمية ناشئة عن تعود أبي جميزة على الجلوس فى ظل شجرة « جميز » حين يعظ أتباعه [3] قرين الصحة ، فهو يتفق مع رواية محلية تقول بأن أبا جميزة أقام زمناً فى بلدة جميزة حمرا بدار تامه ، وفيها تكثر أشجار الجميز الظليلة ، وقد اعتاد أبو جميزة أن يقيل تحتها طلباً للراحة أو عندما يستقبل حوارييه [4] .

وكما هو بيّن فإن أبا جميزة لم يأت برسالة جديدة أو يبتدع مذهباً مناوئاً لفكرة المهدية ، فقد عد نفسه تابعاً من أتباع المهدى ينهج نهجه ويسير على منواله ، بيد أنه استهجن سد الخليفة لطريق الحج [5] ، فخرج عليه وحارب جيوشه دون أن يرى فى ذلك سوى خلاف بين فئتين على مذهب واحد ، تماماً كما اشتجر أصحاب الرسول بعد وفاته . ودليل آخر على إستمساك أبي جميزة باعتقاده فى المهدية هو أنه رضى بمبايعة الخليفة زعيماً لدولتها رغم مابينهما من خلاف وحرب ، ولم يطمح إلى أكثر من الجلوس على كرسى عثمان بن عفان كواحد من خلفاء المهدى بعد أن رفض محمد المهدى السنوسى قبول ذلك المنصب .

وثمة أمر آخر أضفى على شخص أبي جميزة وعلى حركته صبغة دينية هو أنه قرن اسمه باسم محمد المهدى السنوسى ليستغل نفوذه الروحى فى كسب المؤيدين من سكان الجبهة الغربية [6] . واستغل أبو جميزة كذلك بدائية كثير ممن حوله وميلهم إلى تصديق

---

(١) مهدية : ١/١١ب/١٢٤/٧/ – ٥ ربيع ثانى الموافق ٩ ديسمبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ١/١٢/٣/٢٤٦ – ٧ صفر ١٣٠٦ الموافق ١٣ اكتوبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

(٣) انظر شقير ٣ : ص ٤٦٢ .

(٤) افادنى بهذا الشيخ باسى ابكر محمد رئيس محكمة صليعة الاهلية التى تقع شمال الجنينة بدار جبل.

(٥) شقير ٣ : ص ٢٦٠ ، السودان فى قرن : ص ٢٦٥ انظر كذلك ص ٤٤.

(٦) انظر ص ١٢.

الخرافة فأيدوه ، فرمى بهم الأنصار وأصاب منهم مقتلاً . وهكذا ركل رجل الدين المتواضع حياة القناعة والزهد ، فطلب العلا حين واتته الفرص ، وتزعم الساخطين على الخليفة .

على أن من يدقق النظر فى ثورة أبي جميزة يرى خلف الغشاء الدينى الذى كساها هبة سياسية ذات أهداف محددة واضحة ، فهى من جهة تعبير عن احتجاج سلاطين الجبهة الغربية على تغول الأنصار على ملكهم، وسعى لإيقاف توسعهم وزحفهم ، آية ذلك السند الذى لقيه أبو جميزة من أولئك السلاطين ، وهى من زاوية أشمل محاولة جديدة قام بها أهل دارفور للتخلص من حكم الأنصار . فما أن حقق أبو جميزة نصره الأول حتى انحاز اليه الفور بقيادة أبي الخيرات إبراهيم وبنو هلبة بزعامة ابراهيم الوالى والزغاوة بمختلف أقسامهم ، بينما نزل الميدوب من جبالهم وأغاروا على البرْتي الموالين للأنصار ، وعاد الرزيقات والهبانية الذين شُتت شملهم غزوات البشارى ريده وفضل النبى أصيل إلى ديارهم وأقاموا فيها آمنين . ولعله من الواضح أن صفة الدين عند أبي جميزة وفرت لمقاومة أهل دارفور الثانية هذه قيادة تبعها القوم على اختلاف مشاربهم وتباين أغراضهم السياسية .

حقيقة أخرى عن هبّة أبي جميزة هى أن سلطان المهدية فى دارفور كاد ينهار من جراء الضربات المتوالية التى أنزلتها جيوشه الجرارة بالأنصار ، فجاء حين أجبر فيه عثمان آدم على سحب عماله من شَكا ودَارَه وكَبَاكابيّه وكُتم فلم يعد له نفوذ خارج الفاشر نفسها . لكن عثمان ظل رابط الجأش رغم ما أصاب أصحابه من خَور ، ووقف فى صلابة الشباب يتحدى الهزيمة إلى أن انْحسر المد الذى أطلقه أبو جميزة بيده الساحرة ، فاستجمع الأنصار قواهم وكالوا للعدو الصاع صاعين ، واستردوا مواقعهم السياسية والعسكرية .

مست كلمات أبي جميزة الساحرة وتراً حساساً فى قلوب أبناء السلطان ابراهيم سليمان، فهبوا بقيادة أخيهم سليمان يطلبون القصاص لأبيهم. وإذ تعذر عليهم محاربة جيش عبد القادر دليل كله انفردوا بفرقة منه ولى إمرتها حامد مجبور ، فانهزم الأنصار وقتل قائدهم واستولى تامه على نحاسه . غير أن عبد القادر دليل والعطا أصول عجلا

بالثأر لرفيقهما فأوقعا بجيش السلطان سليمان في ٩ سبتمبر ١٨٨٨ (١) . ولما تأكد لعثمان آدم أن أبا جميزة يساند بنفوذه الروحي هبة تامه ويسعى إلى إفساد غيرهم من القبائل ، وأن خطراً كبيراً يكمن في ارتباط عصاة الجبهة الغربية برجل ذي صبغة دينية وجه الختيم موسى إلى القضاء على الثائر قبل أن يزداد نشاطه . وتعيّن على الختيم بعد ذلك إخضاع الجبهة الغربية دون أن يؤذن له بدخول دار بَرْقو رغم إقتناع عثمان بفساد سلطانها ، فليس من المصلحة استثارته في ذلك الوقت خَوْفَ أن يمنح أبا جميزة تأييده فتتضاعف هموم الأنصار وتزداد تبعاتهم ثقلاً . وأشار عثمان على الختيم بنقل رئاسة جيش الجبهة الغربية من كَبْكَابيّه إلى أبي قرين الواقعة على الحدود الشمالية لدار المساليت لوفرة الغلال فيها ولأنها تهيمن استراتيجياً على ديار المساليت وتامه وقمر وبني حسين(٢).

ولم يكن الختيم موسى حين صدر هذا الأمر إليه قد التقى بعبد القادر دليل والعطا أصول ، بل كان يطارد حامد تُور جُوك شيخ بني حسين الذي فر بأهله إلى دار تامه بقصد الإتحاد مع أبي جميزة الذي انتصر على الأنصار (٣) . وكان تُورجُوك قد وفد إلى الفاشر إستجابة لأمر عثمان آدم وبقي فيها أياماً عاد بعدها إلى باديته بزعم تهجير أهله(٤) لكنه حنث بعهده ، وتثاقل عن الحضور وقلبه واجف خوفاً من هجوم الأنصار عليه؛ خاصة بعد أن دخلوا دار قمر . فلما أشرق الأمل بظهور أبي جميزة راح يطلب الحماية في كنف ثورته . ولم يدرك الختيم تورجوك ، فشق طريقه في ديار بني حسين يفتك بكل من القاه الحظ العاثر في دربه،حتى اجتمع بعبد القادر دليل والعطا أصول في اللّرم بدار جَبَل ، وهناك بلغه أن فريقاً من أتباع أبي جميزة عسكروا قريبا من أبي قرين ، ونشطوا في استمالة المساليت وإثارة دار جَبَل ، فحمل عليهم ألف من الخيالة ودحروهم في ٢٣ سبتمبر (٥) . وماذاك إلا دليل على أن الأنصار مابرحوا سادة الموقف ينتصرون في المعارك ويرهبون الأعداء . ولكن أنى للنصر أن يلازمهم وقد سرت في الجبهة الغربية نار حامية أوقدها أبو جميزة بسحر بيانه ، فتدفق عليه الأتباع من كل

---

(١) مهدية: ٢١٧/٣/١٢/١ – ٩ محرم ١٣٠٦ الموافق ١٥ سبتمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
مهدية: ٢١٩/٣/١٢/١ – ١٢ محرم ١٣٠٦ الموافق ١٨ سبتمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٢) مهدية: ١/١١ب/١٠٨/٧ – ١٢ محرم ١٣٠٦ الموافق ١٨ سبتمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٣) الوثيقة السابقة.
(٤) مهدية: ١/١١ب/٧٢/٢ – ١٢ شعبان ١٣٠٥ الموافق ٢٤ أبريل ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٥) مهدية: ٢٣٤/٣/١٢/١ – ٢٩ محرم ١٣٠٦ الموافق ٥ أكتوبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

فج وصدورهم تعتمل بالسخط والثورة وهم يطلبون الموت دفاعاً عن أرض أو ملك اغتصبه الأنصار ، وكان أن أنهزم السلاح النارى على فعاليته ومضائه امام الغلبة العددية .

احتل الختيم موسى أبا قرين بعد تراجع جنود أبي جميزة منها ، واتخذها قاعدة لتحركات جيشه ، ومن هناك طيّر نبأ انتصاره الأول على أبي جميزة إلى الفاشر ، وما علم أن نصره يتيم،وأنه سيهزم حيث انتصر . ففى اعقاب سبتمبر جاءت طلائع الأنصار الى الختيم بخبر تجمع ضخم من الأعداء على حدود دار المساليت ، فاعد لقتالهم جيشا بقيادة العطا أصول ، وبقى هو وعبد القادر دليل يجترّان ذكرى فوزهما السابق ، بينما شمر أبو جميزة عن ساعد الجد وقصد الختيم فى مقره . واتفق أن سار العطا أصول بدرب غير الذى جاء به أبو جميزة ، فشق هذا طريقه الى أبي قرين ، وألحق بالختيم هزيمة شنيعة فى ٤ أكتوبر ١٨٨٨ ، وغنم سلاحاً كثيراً وواحداً وعشرين صندوقا من الذخيرة .

وتراجع الختيم فى غير نظام وهو يلعق دماءه كأسد جريح ، وحز النبأ فى نفس عثمان آدم دون أن يفقده صوابه ، فدفع بمحمد بشارة على رأس قوة مكونة من ألفى محارب ، وعينه قائداً عاما للأنصار فى الجبهة الغربية ، وأمره بجمع الجيوش فى كَبكابيّه استعداداً لجولة جديدة مع أبي جميزة (١) ثم نظر عثمان فى أسباب الهزيمة فعزاها إلى خلاف بين الختيم ورفاقه من الأمراء وإلى استهانتهم بالعدو وميلهم إلى الدعة والراحة ، كما أرجعها إلى عدم تمرس اتباع حامد مجبور ـ الذين ألحقوا بربع الختيم بعد مقتل اميرهم ـ بالقتال وأدبارهم من ميدان المعركة حين أقبل أبو جميزة ، مما نشر روح الهزيمة بين الأنصار (٢) .

وسريعا ما انتشر خبر أبي قرين كنار تحصد هشيما ، وصحب ذيوع الخبر نشاط معاد للأنصار فى جميع أنحاء دارفور ، فقد ظن القوم أن سيف الأنصار ارتفع عن رقابهم أو عله انكسر ، فانفجر الغبن الذى اختزنته القلوب دهراً بركاناً ثائراً . وبالرغم من أن الفور وبنى هلبة والزغاوة شخصوا بأبصارهم نحو أبي جميزة،لكن أيديهم لم تمتد اليّه فى هذه المرحلة ، فعملت كل جماعة منفرده آملة فى إصابة نفع مما حَل بالأنصار

(١) مهدية : ١/١١ب/١١٤/٧ – ٧ صفر ١٣٠٦ الموافق ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ١/١٢/٣/٢٤٦ – ٧ صفر ١٣٠٦ الموافق ١٣ اكتوبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

مهدية : ١/١٢/٣/٢٤٨ – ٧ صفر ١٣٠٦ الموافق ١٣ اكتوبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة) .

من انكسار . وغير بعيد أن يكون سبب هذا بعد المسافات مع صعوبة الإتصال زيادة على رغبة فى الإطمئنان إلى إمكانية زوال جبروت الأنصار قبل أن يسلم الساخطون عليهم قيادهم لأبي جميزة . وكان الزغاوة أول من بادر بالخروج على عثمان آدم . فقد انشق من كان منهم في جيش الختيم عليه وهربوا إلى وطنهم ، وكذلك فعل من كانوا فى خدمة عامل كتم ، بينما تمرد من تبع منهم محمد بشارة فجردهم من خيولهم منعا لفرارهم (١) . ونسمع بعد صمت دام شهوراً عن أبي الخيرات ابراهيم وقادة الفور الآخرين الذين هاموا على وجوههم حيرى بعد اندحارهم فى دار قمر ثم تسللوا فى غفلة من الأنصار إلى جبل مرّة حيث اختبأوا لايبدون حراكا،حتى كانت موقعة أبي قرين فخرجوا من مخبأهم وناصبوا الأنصار العداء عيانا ، وراحوا يجمعون المحاربين تمهيداً للزحف على كبكابيّة (٢) .

هذا عن أثر إنتصار أبي جميزة فى شمال دارفور ووسطها ، أما فى جنوبها فليس هناك مايثبت اتصالا مباشراً بين ثورته وبين قبائل البقارة ، غير أن بنى هلبة ازدادوا جرأة فى معارضة عثمان آدم كما يبدو من سعيهم للتعاون مع الفور وهجومهم على جبال الداجيو قريبا من دارّه واتخاذهم إبراهيم الوالى الذى عصى أمر الخليفة بالهجرة زمنا طويلا وافرط فى إعراضه زعيما (٣) .

وذلك تحول مذهل فى موقف هذه القبيلة (٤) تفسيره أن أكثرية شيوخ بنى هلبة أيدوا عثمان ابتداء بدافع الإنتقام من يوسف ابراهيم الذى تغول على استقلالهم وقتل رجاله ذويهم ، ثم امسكوا عن مناصرة عثمان والإنقياد له قبل أن يظهر أبو جميزة نفوراً من الهجرة . واتخذ نكوص بنى هلبة على أعقابهم صوراً مختلفة ، انسلخ جميع شيوخهم الذين اشتركوا فى غزو دار التعايشة من سرية الختيم موسى،عدا يوسف سندكه وحماد حامد (٥) ، وجعل العصاة وهم الرجبيه واولاد جمعان والزنانيت والعشارية

(١) مهدية : ١/١٢/٣/٢٥٤ – ٨ صفر ١٣٠٦ الموافق ٢٤ أكتوبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ١/١٢/٣/٢٢٩ – ٢٨ محرم ١٣٠٦ الموافق ٢٥ اكتوبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

مهدية : ١/١١ب/٧/١١٩ – ٦ ربيع اول ١٣٠٦ الموافق ١٠ نوفمبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) الوثيقتان قبله .

(٤) انظر ص ١٨٨ .

(٥) مهدية : ١/١٢/٢/١٧٩ – ٨ الحجة ١٣٠٥ الموافق ٦ اغسطس ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة ) .

وجماعة كبيرة من بنى لبيد ، جعلوا تيراب الناقى قائداً لهم ، وإتصلوا بالسلاوى طمعاً فى إيوائه إياهم إن اجبروا على اخلاء موطنهم . وحين أحس عثمان آدم فى يوسف سنْدكّه وحماد حامد - الذين جاءا إلى الفاشر فى ركب الختيم موسى - ميلاً إلى تأييد مسلك العصاة زج بهما فى السجن إرهابا لغيرهما . ثم ظهر أبو جميزة فكان من أمر بنى هلبة ماقدمنا . على أن بعض بطونهم وهم العلاونه والميساويه والحزازرة ظلوا على ولائهم للأنصار ، فانضموا الى قواتهم المقيمة فى دارهم يشدون أزرها ضد العصاة (١) .

وزيادة على هذه النتائج السياسية الخطيرة ترتب على هزيمة أبي قرينْ تغيير كبير فى إستراتيجية الأنصار وخطتهم العسكرية ، فبعد أن كانت جيوشهم مذ دخل عثمان آدم دارفور فى حالة غزو مستمر ، أخذت تتراجع من مواقعها إما عجزاً عن مواجهة الظروف الناشئة من انتصار أبي جميزة أو استعداداً للقاء جديد معه . فقد آمن عثمان آدم بأن الحرب سجال مرة لك وأخرى عليك ، واطمأن إلى أن الأنصار لامحالة منتصرون فى نهاية الشوط ، فالحق يعلو ولا يُعلا عليه (٢) .

ولهذا نرى عثمان يعمل فى همة لاتعرف الكلل على رفع معنويات جنوده وتجهيزهم للقضاء على أبي جميزة قبل أن يستفحل خطره ويستعصى إخضاعه . فبالاضافة الى إنتداب محمد بشارة لجمع جيش الجبهة الغربية فى كَبْكابيّة استدعى عثمان آدم فضل النبى أصيل وسليمان أحمد أكرت من شكا ومحمد أحمد عُوجه من الطويشة ، واستعجل حضور ثلاثتهم بقواتهم إلى الفاشر (٣) . ثم أبطل عثمان قراره باستدعاء سليمان أحمد آكرت وأختار بقاءه فى مركزه لحفظ الأمن فيه، خاصة وأن البعض ممن فروا فى وجه فضل النبى أصيل من الرزيقات عادوا إلى ديارهم وقد يجددون نشاطهم المعادى للأنصار (٤) . كذلك أنهى عثمان إلى أحمد فضيل وهو بدار الحُمُر ماحدث فى أبى قرينْ ، ورغب فى الاستعانة به بعد أن يأذن الخليفة له بذلك (٥) . ثم تابع عثمان إجراءاته فأمر محمد الأمين صالح بإخلاء كُتم والتراجع إلى الفاشر ، فقد

---

(١) مهدية: ١/١٢/٣/٢٣٠ - ٢ صفر ١٣٠٦ الموافق ٨ اكتوبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٢) مهدية: ١/١٢/٣/٢٤٩ - ٧ صفر ١٣٠٦ الموفق ١٣ اكتوبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٣) مهدية: ١/١١ب/٧/١١٤ - ٧ صفر ١٣٠٦ الموافق ١٣ اكتوبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٤) مهدية : ١/١٢/٣/٢٥٣ - ١٠ صفر ١٣٠٦ الموافق ١٦ اكتوبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٥) مهدية: ١/١٢/٣/٢٥٠ - ٧ صفر ١٣٠٦ الموافق ١٣ اكتوبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
انظر كذلك ص ٢١٧.

تستحيل نجدته إن داهمه خطر والناس مشغولون بما هو أكبر (١) . وإذ رأى عثمان نقصاً كبيراً فى مخزونه من الذخيرة استعجل استجابة الخليفة لطلبه السابق بإرسال كل مافى الأبيض من جبخانة لمواجهة خطر أبي جميزة المتزايد (٢) .

وحلت بالأنصار الكارثة الثانية قبل أن يلتقطوا أنفاسهم من أثر الصدمة الاولى ، فزلزلت الأرض تحت أقدامهم وحاق بهم مصير أليم ، فبعد واقعة أبي قرين غزا أبو جميزة بجيش غفير من المساليت فى مقدمتهم ابكّر اسماعيل عبد النبى دار تامه لمحاسبة أهلها على احجامهم عن مؤازرته بعد أن ذاقوا الأمرين فى مواقعهم الاولى ضد الأنصار وأكتشفوا خطل دعواه بمنع نيران العدو من الفتك بهم (٣) ، ثم علم محمد بشارة الذى اجتمع له فى كَبْكابيّه ١٦٢٥٣ مجاهداً أن أبا جميزة دخل دار بنى حسين متجها صوب كَبْكابيّه فى طريقه إلى الفاشر ، فقرر انتظاره (٤) . فلما أتضح خطأ تلك الأنباء وخشى محمد بشارة من انتشار فساد أبي جميزة بين من لم تصلهم رسالتَه إن ترك حراً طليقاً ، نهض من كَبكابيّه فى ٢٦ أكتوبر ١٨٨٨ تاركا بها عبد القادر دليل ليحمى ظهره ، وقصد دار المساليت لملاقاة أبي جميزة . وحط محمد بشارة الرحال أولا فى كُلْكُل ، وبث الطلائع يمنة ويساراً ، فلما لم يأتوه بخبر العدو جاس بجيشه فى دار المساليت يستعرض قوته وينتقم منهم على تأييدهم لأبي جميزة فى أبي قرين . ثم استقر المقام بمحمد بشارة فى أم دُخن؛ وهى مورد ماء ومستودع للغلال عظيم فى وسط دار المساليت ، وهناك بلغه أن أبا جميزة يعسكر بأتباعه فى مكان يسمى حَرازَة عَبْد الله مسيرة ساعات قليلة من أم دُخُن (٥) . ومن جهة اخرى أشار عثمان آدم على فضل النبى أصيل — الذى وصل دَارَه قادما من شَكّا فى ٦ نوفمبر — بالتوجه فوراً الى دار المساليت لمعاونة محمد بشارة ماراً بدار بنى هلبة علهم يثوبون إلى رشدهم فيتبعونه أو يرهبون (٦) .

غير أن محمد بشارة لم يصبر حتى يأتيه المدد ، فقد أحس فى رجاله قدرة على

---

(١) مهدية : ٢٥٤/٣/١٢/١ — ١٨ صفر ١٣٠٦ الموافق ٢٤ اكتوبر ١٨٨٨ (عثمان ادم إلى الخليفة) .
(٢) مهدية : ٢٤٥/٣/١٢/١ — ٧ صفر ١٣٠٦ الموافق ١٣ اكتوبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة) .
(٣) مهدية : ٢٤٦/٣/١٢/١ — ٧ صفر ١٣٠٦ الموافق ١٣ اكتوبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة) .
(٤) مهدية : ١٨/٢٥٦/٣/١٢/١ صفر ١٣٠٦ الموافق ٢٤ اكتوبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة) .
(٥) مهدية : ٢٥٩/٣/١٢/١ — ٥ ربيع أول ١٣٠٦ الموافق ٩ نوفمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة) .
(٦) مهدية : ١/١١ب/١١٩/٧ — ٦ ربيع اول ١٣٠٦ الموافق ١٠ نوفمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة ) .

لهلاك أبي جميزة دون عون ، ولعله اغتر بدخوله دار المساليت دون معارضة، وظن بالعدو جبناً وخوراً ، وإلا فماله لايقدم على الحرب ؟ ونجده لهذا يشرع راياته ويدق طبوله ويندفع نحو معسكر أبي جميزة الذى استقبله بجموع سدت الافق ، وكان بين جنود أبي جميزة نفر كبير من الفور يقودهم ابو الخيرات ابراهيم ، (١) ورجال من بنى هلبة وآخرون من بنى حسين ودار سُلا ، كذلك حظى أبو جميزة بتأييد البرقاوى الذى أمده بالسلاح والخيول (٢) . واقتتل الجيشان حين التحما نهار ١١ نوفمبر ١٨٨٨ كله ، وألفى الأنصار أنفسهم منذ بداية المعركة كجزيرة فى بحر تلاطمت أمواجه أو«كشامة بيضاء فى ظهر ثور أسود »كما صوّر محمد بشارة حال رجاله وسط الأعداد الغفيرة التى أحاطت بهم واحتوتهم من كل جنب . ولما تلاقت المناكب واستعصى استعمال البنادق تدافع الرجال بالسيوف والأيدى حتى كلت سواعد الأنصار عن الضرب، وسقط مئات منهم صرعى فى حلبة القتال . فرأى محمد بشارة الضعف والإجهاد يعتريان جنوده وخاف لو استمر فى الحرب ان ينقرضوا كلهم ، فأمر بالانسحاب وانهزم راجعا إلى كلكل ثم كَبْكابيّه (٣) .

وتمخضت عن كارثة أم دُخُن نتائج أشد خطراً وأبعد اثراً من تلك التى تبعت هزيمة الأنصار فى أبي قرين . إنحطت روح الأنصار المعنوية واستولى عليهم الفزع ، ومن علامات ذلك أن تسابق الجيش الذى تركه محمد بشارة فى كَبْكابيّة لحماية ظهره نحو الفاشر ما أن سمعوا بنبأ الهزيمة (٤)، فصعب على عثمان آدم ان يرى أصحابه يفرون فى وجه العدو طلباً للنجاة ، وكانوا قبل هذا يتزاحمون على المعارك حبا فى الموت ، لكن الهزيمة لم تقعده كما لم يبطره النصر من قبل ، فقرن بين انهزام جنوده معنويا وبين انعدام الذخيرة فى يديه، ثم ربط هذا بحتمية ثورة أهل دارفور كلهم ليخلص إلى ضرورة إنتهاج خطة سياسية وعسكرية جديدة باركها كبار القواد من رفاقه . وقضت السياسة الجديدة بجمع جيوش الأنصار من كل العمالات فى الفاشر واتخاذ موقف الدفاع

---

(١) مهدية: ٢٦٢/٣/١٢/١ – ١٢ ربيع أول ١٣٠٦ الموافق ١٦ نوفمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٢) مهدية: ٢٦٣/٣/١٢/١ – ١٣ ربيع أول ١٣٠٦ الموافق ١٧ نوفمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٣) مهدية: ٢٧/٢/٣٧/٢ – ٧ ربيع أول ١٣٠٦ الموافق ١١ نوفمبر ١٨٨٨ (محمد بشارة إلى عثمان آدم).
مهدية ٢٦١/٣/١٢/١ – ١٢ ربيع أول ١٣٠٦ الموافق ١٦ نوفمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة) .
(٤) مهدية: ١١٣/٣/١٧/٢ – ١٢ ربيع أول ١٣٠٦ الموافق ١٦ نوفمبر ١٨٨٨ (محمد الامين النايب وآخرون إلى الخليفة).

حتى تصل الذخيرة التى أرسل عثمان فى طلبها سابقا ، ويزول إحساس الأنصار بمرارة الهزيمة وتمتلىء نفوسهم بالأمل بعد قنوط ، ويستجمعوا قواهم لمنازلة أبي جميزة فى جولة جديدة فالنصر لهم .

وتنفيذاً لهذه الخطة أشار عثمان على محمد بشارة بخراب كَبْكابيّه والحضور إلى الفاشر ، ووجه فضل النبى أصيل إلى الخروج من دار بنى هلبة، وكان قد دخلها فى طريقه إلى دار المساليت ، والعودة الى دَارَه (١). ثم صدر الأمر بإبطال عمالتى دَارَه وشكّا ، فاستدعى محمد جودة وفضل النبى أصيل وسليمان أحمد أكرت بمن معهم من رجـال (٢) ، إلا أن عثمان فطن إلى أهمية وجود مركز بين الفاشر وشكّا يساعد فى ترحيل سكان الثانية وتصد منه هجمات الرزيقات المتوقعة على المعاليا الموالين للمهدية فعين الأمير على قَش للإقامة فى الطويشَة تحقيقا لذينك الغرضين (٣) . وهكذا تراجع الأنصار عن مواقعهم ولم يبق لهم من قوة فعلية خارج حدود الفاشر ، فانحسر تبعا لذلك نفوذهم وانكمشت سلطتهم ولكن إلى حين .

وصدق حدس عثمان آدم . وانتشرت الثورة فى كل أصقاع دارفور بعد أن كانتْ قاصرة على الجبهة الغربية،وقويت نزعة الإنفصال بين أهلها،فألحوا فى طلب الخلاص غير هيابين لما رأوا الأنصار يعيدون السيف إلى غمده . خرج الميدوب من جبالهم وأغاروا متحدين مع الزغاوة على منطقة الصيّاح وجبال تَقَابُوا التى يسكنها البَرْتي ، فانتدب عثمان آدم جدّو ولد عبد الرسول للإقامة فى ملّيط لدفع المغيرين ، واجتمع شمل الرزيقات الذين دوخهم فضل النبى أصيل بعد شتات ، فرجعوا إلى موطنهم مطمئنين بل حاربوا الأنصار اثناء انسحابهم من شكّا (٤) كما عاد الهبانية الذين افلتوا من البشارى ريده إلى ديارهم (٥) . أما بنو هلبة فقد هرب زعيماهم يوسف سنْدكَه وحماد حامد من السجن ساعة اضطراب الفاشر عند وصول خبر موقعة

(١) مهدية : ١/١٢/٣/٢٦١ - ١٢ ربيع اول ١٣٠٦ الموافق ١٦ نوفمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٢) مهدية : ١/١٢/٣/٢٦٤ - ١٩ ربيع اول ١٣٠٦ الموافق ٢٣ نوفمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٣) مهدية : ١/١١ب/١٤/٢١١ - ١٢ ربيع ثانى ١٣٠٦ الموافق ١٦ ديسمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٤) مهدية: ١/١٢/٣/٢٦٧ - ٢٦ ربيع اول ١٣٠٦ الموافق ٣٠ نوفمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٥) مهدية: ١/١٢/٣/٢٨٨ - ٢٠ ربيع ثانى ١٣٠٦ الموافق ٢٤ ديسمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

ام دُخن (١) ، وشيع عصاتهم المقيمون فى ديارهم فضل النبى أصيل بالهجمات حال تراجعه إلى دَارَه ، بينما انخرط فريق آخر منهم بقيادة ابراهيم الوالى فى صفوف أبي الخيرات ابراهيم (٢) . وأما الفور فإنهم سعوا إلى إستغلال هبة أبي جميزة لتقويض حكم الخليفة في دارفور وطرد الأنصار نهائيا من الفاشر ، فتقدموا الثائر إلى كبكابية ، واجتهد أبو الخيرات وجمعة أبو دنيبو وشرف الدين سليمان فى جمع الجيوش من جبل مرّة ، بينما اشتغل المقدوم حامد آدم باستنفار قبائل شمال دارفور ، والجميع يتطلعون فى لهفة شديدة إلى اقتحام الفاشر (٣) . وأما سلاطين الجبهة الغربية فانزاح عن صدورهم هم كبير حين انحسر توسع الأنصار فى ممالكهم ، بينما راح أبو جميزة يختال بنصره ووفود البرقو وسُلا وتامه والمساليت وقمر وبنى حسين وزغاوه تترى عليه ، فأبطره الفوز فكتب إلى عثمان آدم يأمره بتسليم دارفور اليه (٤) .

وفزعت أم درمان لأخبار دارفور المثيرة . لكن الخليفة تحلى بالصبر وأخذ فى ثبات القائد المدرب البصير وهدوئه ، يشارك عثمان آدم فى رسم مخطط لمجابهة ثورة أبي جميزة،ويعينه فى استئصال شأفتها . وأقر المخطط سياسة عثمان الدفاعية،وأكد وجوب استمرارها حتى يعد الأنصار ماديا ومعنويا قبل أن يقتحموا ميدان الوغى ثانية . فأذن الخليفة لأحمد فضيل فى الإنضمام إلى عثمان والتكاتف معه ، وانفذ جيشا من أم درمان بقيادة شرف الدين هاشم لهذا الغرض (٥) ، وأشار على عامل كردفان ابراهيم الشريف بمد عثمان بكل مالديه من جبخانة ، (٦) فاستجاب ابراهيم للنداء سريعاً وبعث بأربعة وثلاثين صندوقاً منها إلى الفاشر ، فوصلتها فى ٢٤ ديسمبر ١٨٨٨ ، وعلم عثمان فى هذا الحين بإرسال مائتى صندوق أخرى من ام درمان (٧) . ثم خاطب الخليفه امراءه فى دارفور ، فنهاهم عن الشجار فيما بينهم وحثهم على نبذ الإحن والبغضاء واتباع أوامر عثمان آدم والأنصياع لها (٨) .

---

(١) مهدية : ٢٦٧/٣/١٢/١ – ٢٦ ربيع اول ١٣٠٦ الموافق ٣٠ نوفمبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).
(٢) مهدية : ١/١١ب/١٤٤/٧ – ٢٨ جماد ثانى ١٣٠٦ الموافق ١ مارس ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٣) مهدية : ١/١١/ب/١٢٥/٧ – ٥ ربيع ثانى ١٣٠٦ الموافق ٩ ديسمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٤) مهدية : ١/١١ب/١٢٤/٧ – ٥ ربيع ثانى ١٣٠٦ الموافق ٩ ديسمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٥) مهدية : ٢٨٦/٣/١٢/١ – ٢٠ ربيع ثانى ١٣٠٦ الموافق ٢٤ ديسمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٦) مهدية : ٢٧٢/٣/١٢/١ – ٢٠ ربيع ثانى ١٣٠٦ الموافق ٤ ديسمبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).
(٧) مهدية : ٢٨٠/٣/١٢/١ – ٢٠ ربيع ثانى ١٣٠٦ الموافق ٢٤ ديسمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٨) مهدية : ٢٩٧/٣/١٢/١ – ٢٠ ربيع ثانى ١٣٠٦ الموافق ٢٤ ديسمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

ومن جهة أخرى راح عثمان يستعرض جيوشه خارج الفاشر ، ويشيع بين الناس أنه ينتوى الزحف على الجبهة الغربية لتأديب أبي جميزة ، كل هذا إرهاباً للأعداء ورفعاً لمعنويات الأنصار (١) . وقد ساعد عثمان فى تحقيق هدفه هذا وصول الجبخانة من الأبيض وتدفق الجيوش على الفاشر ، فوصلها أولا فضل النبى أصيل ومحمد جُوده من دَارَه (٢) ، وتلاهما سليمان احمد أكرت من شَكا (٣) ، ثم جاءها احمد فضيل من كردفان وفى صحبته البشارى ريدة الذى عاد لتوه من ام درمان (٤) . وبلغت القوة المعسكرة فى الفاشر قبل وصول أحمد فضيل ٣٦٤١٩ مقاتلا بينهم ٧٦٥٦ من حملة البنادق (٥) .

وتوكيداً للخطة الدفاعية وسياسة الانتظار عمد الخليفة إلى حيلة واكبتْ استعدادات الأنصار العسكرية وهى مهادنة أهل دارفور والسعى إلى اقناع أبي جميزة بالحجة والمنطق للإقلاع عن طريق الحرب ، فاقترح على عثمان آدم تعيين أبناء دارفور لإدارة شئون أهلهم ورفع الغرباء عنهم (٦). ومما لاريب فيه ان الخليفة بهذا قد فطن الى ما ترتب على التسلط والحكم المباشرمن نتائج وخيمه . ثم كتب إلى أبي جميزة فى ٢٤ ديسمبر ١٨٨٨يفند ماجاء فى خطابه اليه (٧) ، فقال إن دعوى أبي جميزة باتباع القرآن والسنة باطلة ، لأنه حارب الأنصار وهم حزب الله ، وأن تطلعه الى خلافة عثمان بن عفان قبض الريح لأنه فتن بين المسلمين ، ومن كان فى مقام عثمان ينأى بنفسه عن مثل هذا الفعل المنكر ، وأنهى الخليفة رسالته بقبول بيعة أبي جميزة والزامه بها ، وطلب منه الكف عن حرب الأنصار وتفريق جيوشه والهجرة إلى ام درمان برهاناً على صدق إتباعه إن كان حقا صادقا (٨) .

وما أجدت الحيلة مع أبي جميزة لأن ثورته لم تكن ثورة فرد ، بل هى هبة قطر

---

(١) مهدية : ١/١٢/٣/٢٦٦ – ٢٦ ربيع اول ١٣٠٦ الموافق ٣٠ نوفمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ١/١١ب/٧/١٢٠ – ٢٣ ربيع اول ١٣٠٦ الموافق ٢٧ نوفمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ١/١٢/٣/٣٠٢ – ربيع ثانى ١٣٠٦ الموافق ديسمبر ١٨٨٨/يناير ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ١/١٢/٣/٣١٠ – ١٠ جماد أول ١٣٠٦ الموافق ١٢ يناير ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٥) مهدية : ١/١٢/٣/٢٩٨ – ٢٩ ربيع ثانى ١٣٠٦ الموافق ٢ يناير ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٦) مهدية : ١/١١ب/٧/١٢٩ – ٢٠ ربيع ثانى ١٣٠٦ الموافق ٢٤ ديسمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٧) أنظر ص ٢٤٠.

(٨) شقير ٣ : ص ٤٦٠ – ٤٦٢.

بأكمله واتت أهله فرصة للفكاك من حكم الأنصار فاستغلوها ، فأضحى الاحتكام إلى السيف أمراً حتميا . فلما أكتملت استعدادات الأنصار بوصول الجبخانة إلى الفاشر (١)، ووثق عثمان آدم من ارتفاع معنويات جنوده ، عمد إلى إثبات مقدرتهم فعلا لاقولا على دحر اعدائهم واستعادة مافقدوه من نفوذ . فأنفذ جيشا تحت إمرة عبد القادر دليل لقتال المقدوم حامد الذى واصل جهوده في جمع قبائل شمال دارفور واشراكها فى الهجوم على الفاشر ، وما وجد عبد القادر دليل المقدوم حامد فى كُتم كسابق الخبر عنه ، فلاحقه فى دار الزغاوه بلاطائل ، لكنه التقى بجموع معادية من قبائل شتى فى مكان يقال له فَرْقل ، فأعمل رجاله السيف فى العدو حتى انهزم . وحينئذ عاد عبد القادر دليل إلى الفاشر إذ استحسن عثمان آدم ألايتخلى تماما عن سياسته الدفاعية فى هذا الوقت(٢).

وبينما تجرأ الأنصار على مفارقة الفاشر وطلب أعدائهم بعيداً عنها تقدمت جيوش أبي جميزة إلى دار بنى حســين (٣) ، ثم الى كُونْقى بغرب كَبْكابيّه (٤) ، وهناك اتحدت مع طليعة قوات الفور ، فواصل الجميع المسير حتى نزلوا فى الطينة . واختلفت الأنباء حول أبي جميزة نفسه ، فمن قائل بأنه يرافق أتباعه ، ومن قائل بأنه تخلف عنهم ، بسبب الجدرى الذى أصابه . وأوكل قيادتهم إلى أخيه ساغه بالتعاون مع أبي الخيرات ابراهيم (٥) . وهذا ما أكده من أسر من الأنصار فى أم دُخُن وظلوا فى الأسر حتى اطلق سراحهم اثر اندحار جيش ابي جميزة فى موقعة الفاشر الآتي ذكرها . وأكد أولئك الأسرى أيضا أن أبا جميزة مات متأثراً بمرض الجدرى (٦) .

واحتفظ عثمان آدم بموقفه الدفاعي حين سمع باقتراب العدو فهو فى موقع استراتيجى أمثل ، ذلك أن الكثبان التى تحيط بالفاشر تمكن الأنصار من إمطار العدو بوابل نيرانهم وهو فى ارض مكشوفة دون أن يتعرضوا هم لنيرانه (٧) . وفى ٢٢ فبراير ١٨٨٩ انعقدت ألوية النصر للأنصار وتحقق لعثمان ادم ما ابتغاه من فوز ، فقد التحم

---

(١) مهدية : ١/١١ب/١٣٤/٧ – ١٥ جماد ثانى ١٣٠٦ الموافق ١٦ فبراير ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٢) مهدية: ١/١١ب/١٤٧/٧/ – ١٥ جماد ثانى ١٣٠٦ الموافق ١٦ فبراير ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٣) مهدية: ١/١١ب/١٢٥/٧ – ٥ ربيع ثانى ١٣٠٦ الموافق ٩ ديسمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٤) مهدية : ١/١٢/٣/٢٩٤/ – ٢١ ربيع ثانى ١٣٠٦ الموافق ٢٥ ديسمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٥) مهدية: ١/١٢/٣/٣٣٢/ – ١٥ جماد ثانى ١٣٠٦ الموافق ١٦ فبراير ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٦) مهدية : ١/١١ب/١٥٢/٧ – ٢٥ جماد ثانى ١٣٠٦ الموافق ٢٦ فبراير ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة). (أنظر كذلك شقير ٣ : ٤٦٢، هولت ص ١٤٠).
(٧) مهدية: ١/١١ب/١٣٣/٧ – جماد ثانى ١٣٠٦ الموافق ١٦ فبراير ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

الأنصار صباح ذلك اليوم بأخلاط من قبائل دارفور عند سفح الهضبة التي تقوم عليها الفاشر ، وحارب الفريقان ببسالة ، لكن الأنصار ظفروا بخصم كال لهم الضربات قبلا تباعا فجرعوه ذلك اليوم من عار الهزيمة كأسا مراً (١) . وانفرط عقد أتباع أبي جميزة في نهاية المعركة ، وولت كل قبيلة الأدبار عائدة إلى موطنها ، فتهدمت لهذا جبهة المعارضة وتهيأت للأنصار الفرص لاسترجاع ماخسروه من هيبة وسلطان . وكان بين من قتلوا من رفاق أبي جميزة اخوه ساغه ، ومحمد بخيت بن سلطان دار سُلا (٢) الذي أوفده أبوه لمعاونة أبي الخيرات في قتال الأنصار (٣) .

وثمة عاملان يفسران على الصعيد السياسي الفشل النهائي لثورة أبي جميزة وتصدع الجبهة التي شيدها بنفس السرعة التي أكتمل بها بناؤها . لقد كان لأبي جميزة سلطان روحي عظيم بين اتباعه ، فاتحدت بفعل ذلك عناصرهم المتنافرة واندفعت إلى قتال الأنصار ، فلما مات خمدت جذوة الحماس التي أشاعها بينهم ، وتولى قيادتهم رجال ليس لهم لبوس الدين التي حببت أبا جميزة إلى نفوس حوارييه ، بل هم دونه في مقدرتهم على إلهاب عواطف المقاتلين واستثارتهم .

ويرجع الفشل والتفكك في المكان الثاني إلى اختلاف في الأهداف القصوى للفئات التي ارتكزت عليها ثورة أبي جميزة رغم اتفاق تلك الفئات على عداء الأنصار ، فقد أنف سكان الجبهة الغربية عن متابعة القتال حين حققوا مأربهم في طرد الأنصار من ديارهم ، آية ذلك عدم ملاحقة أبي جميزة للأنصار وقت تراجعهم وابطاؤه في الزحف نحو الفاشر ، وكان للمساليت الذين تبنوا نهضة أبي جميزة بعد خذلان تامه لها ضلع كبير في تسبيب ذلك الإبطاء ، اذ رغبوا عن الحرب بعيداً عن وطنهم (٤) . وعلى النقيض من ذلك عمل الفور على موالاة الأنصار بالهجوم طمعاً في هدم دولتهم ، فتسابقت جموعهم إلى كَبْكابيّه ، تتقدم ركب أبي جميزة وتستحثه على مواصلة الزحف ، فلا غرابة إذن إن فتر حماس فرقة كبيرة من أتباع أبي جميزة بعد أن قضوا مأربهم ، وانفرط

---

(١) مهدية: ١/٤٠/٣/٢٥/٢٢ جماد ثاني ١٣٠٦ الموافق ٢٣ فبراير ١٨٨٩ (احمد فضيل إلى الخليفة).
(٢) مهدية: ١/١٢/٣/٣٥٠ - ٢٥ رجب ١٣٠٦ الموافق ١٧ مارس ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٣) مهدية: ١/١١ب/٧/١٥١ - ٢٥ جماد ثاني ١٣٠٦ الموافق ٢٦ فبراير ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٤) مهدية : ١/١٢/٣/٢٩٤ - ٢١ ربيع ثاني ١٣٠٦ الموافق ٢٥ ديسمبر ١٨٨٨ (عثمان آدم إلى الخليفة).

عقد بقيتهم إثر هزيمتهم فى ٢٢ فبراير ١٨٨٩ فتفرقوا أيدى سبأ .

**ب - مرحلة الاخضاع الثانية :**

تنقسم مرحلة الإخضاع الثانية هذه إلى فترتين، يفصل بينهما غزوة قام بها عثمان آدم الى جبال النوبة، ثم تمرد قاده الامير أحمد فضيل . واستعاد الأنصار فى الفترة الأولى نفوذهم بين البقارة والفور دون أن يكسروا شوكتهم نهائيا ، وكالوا فى الفترة الثانية صفعات قاتلة للفور وبنى هلبة ثم انطلقوا لحرب الجبهة الغربية فى حملة منظمة .

تنفس عثمان آدم الصعداء حين ظفر بجيوش أبي جميزة ، وفرح فرحة كبيرة لما أصابه من فوز ، فاستزاد الله نصراً على أعدائه وراح يطلبهم فى عقر دارهم بعد أن كانوا هم الطالبين . وبذا انتهت سياسة الدفاع وخرج الأنصار من معتقلهم بالفاشر فى حملات تأديبية ، قصدوا بها الإنتقام لما حل بهم من هزائم، كما هدفوا إلى استرداد مواقعهم فى دارفور كلها . ورمى الأنصار من غزواتهم فى الفترة الأولى كذلك إلى سد حاجتهم من الغلال والماشية ، فزيادة على جدب المنطقة التى تحيط بالفاشر انقطع عن هذه المدينة ماكان يرد اليها من أقاليم دارفور الأخرى من أنعام ودخن وذرة ، فسعى الأنصار إلى هذه الجهات لمشاركة أهلها نتاج زرعهم مهما قل، فإذا بأملهم يخيب . وخرج عثمان آدم إلى جبل سى طلباً للقوت ، فلم يجد فى ودیانه التى أشتهرت بوفرة الإنتاج إلا القليل (١) . وأغار البشارى ريده على ديار بنى حسين لنفس الغرض ، لكنه أجبر على الرجوع منها خوفا على اصحابه من الموت جوعا (٢) . ومات ثمانية وخمسون من الأنصار الذين غزوا دار التعايشة جوعاً بعد أن عاشوا أياماً طويلة على ورق الأشجار وعروقها (٣) .

إذن فقد عم القحط دارفور وأصاب الناس رهق شديد . ورغم أن المحنة ألمت بالسودان كله فى هذا الوقت فانتشرت المجاعة التى اشتهرت « بسنة ستة (٤) » نتيجة شح المطر لعامين متواليين زيادة على غزو أسراب الجراد الذى أتى على الأخضر واليابس(٥)، إلا أن أهل دارفور خبروا التجربة فى صورة أقسى وأشد . ويرجع سبب القحط فى

---

(١) مهدية : ١/١٢/٣/٤٠١ - ٢٣ القعدة ١٣٠٦ الموافق ٢١ يوليو ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ١/١١/٥/٣٤٧ - ١٤ محرم ١٣٠٧ الموافق ١٠ سبتمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ١/١٢/٣/٤٠٥ - ١٢ الحجة ١٣٠٦ الموافق ٩ اغسطس ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٤) يقصد بسنة «ستة» السنة السادسة بعد الثلا ثمائة والف لهجرة الرسول وتقابل عام ١٨٨٨/١٨٨٩ لميلاد المسيح.

(٥) شقير : ٣ ص ٥٣٤ - ٥٣٦.

دارفورَ بالدرجة الاولى إلى ماصحب ثورة أبي جميزة وحروبه وماتبعها من حملات تأديبية قام بها الأنصار من توقف العمل في ميدان الزراعة والتجارة ، إذ شغل الناس بالحرب فانصرفوا عن فـلاحة الأرض ، وشاعت الفوضى فلم يعد اصحاب السلع في مأمن إن هم خرجوا ببضاعتهم إلى الاسواق . فليس بمستغرب والحال هـذا الايجد عثمان آدم والبشارى ريده ضالتهما من الغلال في جبل سي ودار بنى حسين أو أن يموت نفر من الانصار نتيجة للجوع في دار التعايشة ، وانعكس سوء الوضع أيضا في داخل بيت مال دارفـور ونصيب بيت مال ام درمان منه . فقد بعث عثمان آدم بقدر ضئيل من المال الى الخليفة معتذراً بعجزه عن جمع الزكاة وقت جهاده لأبي جميزة ، ثم بفقر أهـل دارفـور وما أصابهم من عوز (١) .

**(١) الفترة الأولى : مارس — نوفمبر ١٨٨٩ :**

**البقارة والفور :**

رأينـا كيف نقض بنو هلبة حلفهم مع عثمان آدم وتنكروا له عقب هزيمة يوسف أبراهيم ، وكيف سفروا في عدائهم للأنصار حين انضموا إلى أبي جميزة وشاركوه الجهد لتقويض حكم الخليفة في دارفـور (٢) . فلـم يكن بد للأنصار إزاء ذلك مـن مناجزة بني هلبة بالسيف ، فخرجت من الفاشر في ١٠ مارس ١٨٨٩ حملة بقيادة البشارى ريده إلى أبي حَمْره بجنوب جبل مَرّة لإخضاعهم ولإستطلاع أخبار الجبهة الغربية والفـور (٣) . وزيادة في الحرص والإهتمـام بأمر بنى هلبة لحق عثمان آدم بالحملة في مَنَواشي ، واشترك في رسم خطة تأديبهم التي قضت بهجوم فوري يقـوم به البشارى على ديارهم على أن تتبعه بقية جيش الأنصار بقيادة عثمان نفسـه . فنهض البشارى من مَنَواشي في أعقاب مـارس وفي ركبـه عـدد من الأمـراء بينهم فضل الحسَنه ، وكيـل ربع احمد فضيل (٤) . ثم انتدب عثمان آدم الأمير التجاني العَازْ ومعه فرقة من الأنصار للإقامة في دَارَه ونشر الأمن في ربوعها (٥) . وبذا كانت دَارَه أول مركز استعاد فيه الأنصار سلطتهم بعد نصرهم على أتباع أبي جميزة .

---

(١) مهدية : ١/١٣/١/١/١٠ — ١٩ محرم (١٣٠٧) الموافق ١٥ سبتمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) أنظر ص ٢٤٧.

(٣) مهدية : ١/١١ب/٧/١٥٥ — ٧ رجب ١٣٠٦ الموافق ٩ مارس ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ١/١٢/٣/٢٥٣ — ٢٩ رجب ١٣٠٦ الموافق ٣١ مارس ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٥) مهدية : ١/١١ب/٧/١٥٨ — ٢٩ رجب ١٣٠٦ الموافق ٣١ مارس ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

وقلب الزمان ظهر المجن لبنى هلبة ، فطردوا من ديارهم،وذاق من وقع منهم في يد الأنصار نكالا . تنسم البشارى ريده أولا خبر يوسف سنْدكّه،فبلغه أنه يقيم فى كُتم فى جمع من فرسان بنى لبيد ومن عاهدهم من بطون بنى هلبة ، فحمل عليهم للتو لكنهم هربوا قبل وصوله بثلاثة أيام واتجهوا يقصدون دار سُلا . فانطلق الأنصار خلفهم حتى أدركوا شعبة منهم عند بحر طرّابوا على حدود دار سُلا،وأعملوا السيف في رقابهم . وبما أن عثمان آدم منع الأنصار من دخول دار سُلا كتوجيه الخليفة فقد عاد البشارى بأسرى بنى هلبة إلى دارهم حيث التقى بعثمان (١) . ثم رحل عثمان بجيوشه الى دارّه وهناك إنضم اليه شرف الدين هاشم الذى حضر لحينه من كردفان بصحبةعاملها إبراهيم الشريف (٢) . وتابع عثمان المسير إلى الفاشر بعد ان ترك محمد جُوده وفضل النبى أصيل بربعيهما فى دارّه لدعم ما استرده الأنصار من نفوذ فى جنوب دارفور (٣).

واندفعت قبيل عودة عثمان إلى الفاشر حملة يقودها الختيم موسى وشرف الدين هاشم والأمير على السنوسى إلى دار التعايشة بغية القبض على آدم اللّوُل الذى أفلت من يد الختيم إبان حملته على التعايشة (٤) ، ثم رجع إلى طوّال بعد خروج الأنصار منها . وأصابت الحملة بعض النجاح ، فسلم لها نفر من العصاة،غير أن آدم اللّوُل فر مرة ثانية بأهله المضاليل إلى حدود دارسُلا حين أقترب الأنصار من طوّال (٥) ، فطارده الختيم وظفر بعدد كبير من المضاليل دون أن يلحق بآدم نفسه . وهرب فريق آخر من عصاة التعايشة جنوبا ، فانبرى لهم شرف الدين هاشم ، فكان له حظ الختيم في أسر بعضهم وقتل آخرين . ثم عاد القائدان إلى طوّال ومنها أرسلا أسراهما إلى الفاشر ونهضا إلى دارّه (٦) . وأغار الختيم فى طريق عودته إلى دارّه على دار بنى هلبة لمتابعة تأديب الذين رجعوا إلى موطنهم عقب رحيل البشارى منه . ومرة أخرى دارت على بنى هلبة الدوائر ، فوقع فى الأسر منهم خلق كثير بينما لاذ آخرون بالفرار . وكان بين الفئة الهاربة

(١) مهدية : ١/١٢/٣/٣٧٦ – غاية رمضان ١٣٠٦ الموافق ٣٠ مايو ١٨٨٩ ( عثمان آدم إلى الخليفة).
(٢) أنظر كذلك ص ٢٥٤.
(٣) مهدية: ١/١٢/٣/٤٠١ – ٢٣ القعدة ١٣٠٦ الموافق ٢١ يوليو ١٨٨٩ ( عثمان آدم إلى الخليفة).
(٤) أنظر ص ٢٢٠ – ٢٢١.
(٥) مهدية: ١/١٢/٣/٤٠٠ – ٢٣ القعدة ١٣٠٦ الموافق ٢١ يوليو ١٨٨٩ ( عثمان آدم إلى الخليفة).
(٦) مهدية: ١/١١ب/٧/١٦٨ – ١٢ الحجة ١٣٠٦ الموافق ٩ أغسطس ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).
مهدية: ١/١٢٣/١/٢٢ – صفر ١٣٠٧ الموافق اكتوبر/نوفمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

ابراهيم الوالى (١) .

واستطلع عثمان آدم أثناء إقامته بدار بنى هلبة أخبار الفور ، فعلم أن الهزيمة التى منوا بها ضمن جيوش أبي جميزة لم تنل من معنوياتهم وإن اضعفتهم عسكريا ، فما فتئوا يجمعون الرجال ويحلمون بدخول الفاشر دخول الفاتحين ، واتخذ أبو الخيرات وجمعة ابو دنيبو وابكر البيقاوى من ابى حَرَازْ مركزاً لنشاطهم بينما أقام سعيد بروس والشريف ولد باره فى تُرْدى ، فبادر عثمان بعد عودة الأنصار من بحر طَرَابُوا إلى جهاد الفور ، فأنفذ جيشاً تحت إمرةالبشارى إلى أبي حَرَازْ، وآخر بقيادة الختيم موسى ومحمد بشاره إلى تُرْدى (٢). وكسب الأنصار الجولتين وولى أبو الخيرات الادبار ساعة سماعه بقدوم البشارى، وقصد جبل كَرُومه حيث مرّ منه إلى حدود دار سُلا ، فجاس الأنصار فى غربي جبل مرّة وجنوبيه يغنمون أهله ويأسرونهم علهم بذلك يهدمون عشاً باضت فيه الفتنة والعصيان وأفرخا زمناً طويلاً . وخرج البشارى من جبل مرّة بعد أن امتلأت يداه بالغنيمة والأسرى ، فوقع فى قبضته ستة الوف من الرجال والنساء والاطفال استرقوا جميعهم ، والفان من البقر (٣) . أما الختيم ومحمد بشارة فلقيا مقاومة عنيفة وظلا لأيام يحاربان سعيد بروس والشريف ولد باره حتى قتل الثاني فاختفى الأول برجاله فى شعاب الجبال (٤) .

وتوالت بعد هذا حملات التأديب على الفور . فعند رجوع عثمان آدم إلى الفاشر واجه أزمة حادة فى توفير المؤن لجيوشه ، فغزا جبل سى طمعاً فى خيراته ومتابعة للجهود الرامية إلى القضاء على مقاومة الفور ، وحط الرحال فى مكان يسمى السَرَفَايَه وانتشر الأنصار فى جبل سى ، فأسروا من سكانه ألوفاً ثلاثة أرسلهم عثمان إلى الفاشر لبيع النساء فى سوقها وتهجير الرجال الى ام درمان ، لكن الأنصار أخفقوا فى فك ضائقتهم للغلال (٥) . ثم انتقل عثمان بفرقة من الأنصار إلى كُتم حيث أعاد محمد الامين صالح إلى منصبه عاملاً عليها ، وترك بقيتهم فى السَرَفَايَة تحت إمرة البشارى ريده ، ليواصل

---

(١) مهدية: ٢٢/١/١٣/١ – صفر ١٣٠٧ الموافق اكتوبر/نوفمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٢) مهدية: ٣٦٩/٣/١٢/١ – ١٥ رمضان ١٣٠٦ الموافق ١٥ مايو ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٣) مهدية : ٣٧٣/٣/١٢/١ – ٢٩ رمضان ١٣٠٦ الموافق ٢٩ مايو ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).
مهدية : ٢٣/٢٩٠/٣/١٢/١ شوال ١٣٠٦ الموافق ٢٢ يونيو ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٤) مهدية: ١/١١ب/١٦٧/٧ – رمضان ١٣٠٦ الموافق مايو ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٥) مهدية: ١/١١ب/٦٩/٧ – ١٢ الحجة ١٣٠٦ الموافق ٩ اغسطس ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

إخضاع الفور ، وليكون عينا على الجبهة الغربية ، فطفق البشارى يدفع السرايا هنا وهناك حتى جاءه أن سعيد بروس مازال مقيما فى جبل مرّة يفسد أهله ويوغر صدورهم على الأنصار ، فرماه البشارى بجيش أنزل به ضربة إنفرط لها عقد أتباعه ، فلاذ سعيد بالفرار (١).
وهكذا انفتحت أبواب جبل مرّة للأنصار فطرقوا دروبه وخبروا شعابه ونشروا أينما حلوا الفزع ، فلم يعد الجبل ذلك الحصن المتين ، فهجره قادة الفور إلى ديار الجبهة الغربية ، واستسلم خوفاً من بقى فيه من السكان .

والتفت عثمان إلى دار الرزيقات بعد أن دوخ بنى هلبة والتعايشة والفور ، فقاد جيشه الظافر إلى شكّا . وكان برُار أجْبرَ وياسين فضل قد تقدماه اليها ، رسولى هداية وسلم فانقاد للاول فريق منهم وأعرض عن تبعيته كثيرون (٢) . أما ياسين فلقى فى سبيل استمالة من قصدهم من الرزيقات عنتا شديداً ، فقد قتلوا ستة من رفاقه وتهدد الهلاك حياته هو لولا أن ادركه جيش عثمان ، فأنقذه من موت محقق (٣) ، وازاء ذلك حمل عثمان حملة شعواء على الرزيقات ، فولوا الأدبار الى بحر العرب ، فاقتفى الأنصار اثرهم ، وظفروا بجماعة من الهاربين وعادوا بهم الى شكّا (٤) .

غير أن قلة الغلال فى شكّا منعت عثمان من الاستمرار فى حرب الرزيقات . واذ الفى نفسه قريبا من جبل أبي جنُنُوق فى الجنوب الغربي لجبال النوبة غزاه أملا فى سد حاجة الأنصار للغلال (٥) . وثمة دافع آخر حدا بعثمان إلى غزو أبي جنُنُوق هو أن ذلك الجبل أصبح مركزاً لتجمع العصاة من الحُمُر والمسيريّة زيادة على امتناع ملوكه عن الإذعان للمهدية ومجاهرتهم بالعداء عندما انصرف عامل كردفان لمظاهرة عثمان فى قمع ثورة أبي جميزة ، ووجد عثمان ضالته فى الغلال فى أبي جنُنُوق كما نجح فى إذلال ملوكه (٦) . واستراح الأنصار للحياة الرغدة فى أبي جنُنُوق ، وودوا لو امتدت اقامتهم به حتى يصيبوا مزيداً من خيراته ، لكن عثمان آدم أجبر على الرحيل منه لتلافى خطر العصيان الذى قاده أحمد فضيل (٧) .

---

(١) مهدية : ٢٢/١/١٣/١ – صفر ١٣٠٧ الموافق أكتوبر/نوفمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم الى الخليفه).
(٢) مهدية : ٤٠٤/٣/١٢/١ – ١٢ الحجة ١٣٠٦ الموافق ٩ اغسطس ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٣) مهدية: ٨٧/١٩/٢ – ٢٥ صفر ١٣٠٧ الموافق ٢١ أكتوبر ١٨٨٩ (يسين فضل إلى الخليفة).
(٤) مهدية : ١١/١ب/٨/١٧٤/٢٧ صفر ١٣٠٧ الموافق ٢٣ أكتوبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٥) مهدية : ٢٦/١/١٣/١ – غرة ربيع ثانى ١٣٠٧ الموافق ٢٥ نوفمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٦) مهدية: ١١/١ب/٨/١٧٨/٢٧ ربيع أول ١٣٠٦ الموافق ٢١ نوفمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٧) مهدية : ٣٦/١/١٣/١/غرة ربيع ثانى ١٣٠٧ الموافق ٢٥ نوفمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

**(٢) عصيان احمد فضيل :**

تناول أحمد فضيل مذ وصل إلى الفاشر إدارة عثمان آدم بالنقد والتجريح ، فأضحى أحمد منافسا وخصما بينا ابتغى فيه عثمان صديقا وسنداً . وطعن أحمد علنا فى كفاءة عثمان العسكرية ومقدرته السياسية ، وسكت عثمان على ذلك الطعن والتشهير مراعاة لرابطة القربي بينه وبين أحمد فضيل فهما أبناء عمومة ، وحفاظاً على وحدة قيادة الأنصار وهم يواجهون محنة أبي جميزة ، لكن صمت عثمان شجع بعض الأمراء على مشايعة أحمد فضيل ، فاستحسنوا سلوكه وشاركوه رأيه فى أعمال عثمان . وحينذاك طفح الكيل ، وظهر جليا أن الوحدة التى رمى عثمان إلى صيانتها بالتغاضى عن تصرفات أحمد فضيل قد تهددت ، فأصبح لزاما أن يقف الخليفة على جلية الأمر ، فشكى إليه عثمان مالحق بشخصه من أذى، ونبه إلى وجوب إتخاذ أجراء يحفظ للجيش دارفور تماسكه ، قبل أن تستشرى فى صفوفه سموم الفرقة التى نفثها أحمد فضيل (١) .

وساء الخليفة أن يرى أمراء التعايشة على خلاف وتنابذ وهم محط أمله وسنده فى قيادة سفين ناصبه كثير من ركابه العداء ، فتعين عليه رتق الخرق قبل أن يتسع فيجد خصومه ثغرة ينفذون منها إلى ملكه . كذلك فطن الخليفة إلى ضرورة تجديد ثقته فى صلاحية عثمان آدم للاضطلاع بحكم دارفور وضمان انصياع امراء الجيش فيها له ، فأذن له فى عزل احمد فضيل عن قيادة ربعه وإرساله إلى أم درمان ، أو إبقائه عليه إن ثاب اليه رشده فامتثل (٢) .

ولم يجد عثمان آدم عند أحمد فضيل ميلا للاذعان ، بل رآه يتمادى فى تحديه ويسدر فى غيه فيشيع الفوضى،حتى أخل بالنظام فى الجيش وأساء إلى المهدية فى نفوس أهل دارفور فازدادوا نفوراً . وكان أحمد فضيل يقيم بجيشه فى طويله ضمن قوات البشارى ريده الذى انتقل إلى هذا المكان بعد إقامة قصيرة فى السَرَفَايَة (٣) ، فعن له الرحيل إلى الاضيّه قبل أن يأذن له عثمان — الذى كان بجبل أبي جنُوق — فقصدها لكنه آتي بمعاونة وكيله فضل الحسَنه أفعالا منكرة وهما بالطريق . ومن ذلك أن أحمد

---

(١) مهدية : ١/١١ب/١٧١/٨ — ٢٠ محرم ١٣٠٧ الموافق ١٦ سبتمبر ١٨٨٩ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).
(٢) مهدية : ١/١١/٥/٣٥٤ — ١١ ربيع اول ١٣٠٧ الموافق ٥ نوفمبر ١٨٨٩ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).
(٣) مهدية : ١/١٣/٢٢ — صفر ١٣٠٧ الموافق اكتوبر/نوفمبر ١٨٨٩ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).

اشتجر مع بشار ونيس نائب عثمان آدم فى الفاشر ، وسلب بعض الأنصار ممتلكاتهم واستولى على غلال وأنعام كل قرية طاف بها (١) .

وحز فى نفس عثمان ألا يستمع احمد فضيل للنصح ، فقرر تأديبه رداً لاعتباره كعامل لدارفور وقائد لجيشها ، ثم حماية لأرواح الناس وممتلكاتهم من شر الغرور الذى أصاب البعض من أمراء الأنصار ، فحمّل على قَش أمرا إلى احمد فضيل بإقصائه من قيادة ربعه وتسليمه إلى التجاني العَاز (٢) . ولما علم عثمان بوصول أحمد إلى أم شَنْقَه وجه على قَش إلى قطع الطريق عليه ، واحتجازه فى النهود ريثما يصلها هو قادما اليها من أبي جُنُوق (٣) . وأذن عثمان عليا كذلك فى تولى إمارة ربع أحمد فضيل إن تخلى عنها ، دون مقاومة (٤) . ومن جهة أخرى استقبل الخليفة إجراءات عثمان تلك بالاستحسان ، فكتب اليه مؤيداً كما كتب إلى أحمد فضيل وفضل الحَسَنَه بعزلهما وإلى رجالهما باحترام كل مايصدر اليهم منْ عامل دارفور (٥) .

وزاد من سخط عثمان آدم على قادة العصيان أن جاءه حين بلغ الاضيّه وفد من الطويشَه يشكون مافعله فضل الحسَنَه بأهلها إذ سلبهم ممتلكاتهم وأسر ٢٣٥٠ من حرائر نسائهم (٦) . وعبر عثمان عن سخطه بتوجيه على قَش إلى تجريد فضل الحَسَنَه من أملاكه وتكبيله بالحديد بعد اعتقاله جزاء إمعانه فى الفساد (٧) . وعندما اقترب عثمان آدم من النهود واطمأن الى استحالة إفلات احمد فضيل من قبضته صدر توجيه آخر إلى على قَش بالإستيلاء على كل ماعند زعيم العصيان من مال (٨) ، لكن انصياع احمد فضيل لأمر الخليفة وتخليه عن إمارة ربعه لعلى قَش ساعة دخوله النهود جعل عثمان يعيد النظر فى هذا القرار ، فرأى الايشتط فى اذلاله احمد ، فترك له ماله الخاص واكتفى برد ماسلبه من الأهلين فى ام شَنْقَه والطويشَه إلى أربابه (٩) . وشفع لأحمد فضيل

---

(١) مهدية : ٣٨/١/١٣/١ - ٢ ربيع ثانى ١٣٠٧ الموافق ٢٦ نوفمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة) .
(٢) مهدية : ٣٠/١/١٣/١ - غرة ربيع ثانى ١٣٠٧ الموافق ٢٥ نوفمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة) .
(٣) مهدية : ٣٨/١/١٣/١ - ٢ ربيع ثانى ١٣٠٧ الموافق ٢٦ نوفمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة) .
(٤) مهدية : ٤٢/١/١٣/١ - ٧ ربيع ثانى ١٣٠٧ الموافق ١ ديسمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة) .
(٥) مهدية : ٣٦٢/٤/١١/١ - ١٦ ربيع ثانى ١٣٠٧ الموافق ١٠ ديسمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة) .
(٦) مهدية : ٤٩/١/١٣/١ - ١٣ ربيع ثانى ١٣٠٧ الموافق ٧ ديسمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة) .
(٧) مهدية : ٤٥/١/١٣/١ - ٨ ربيع ثانى ١٣٠٧ الموافق ٢ ديسمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة) .
(٨) مهدية : ٤٦/٢/١٣/١ - ١٠ ربيع ثانى ١٣٠٧ الموافق ٤ ديسمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة) .
(٩) مهدية : ٥٣/١/١٣/١ - ١٧ ربيع ثانى ١٣٠٧ الموافق ١١ ديسمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة) .

وفضل الحَسَنَة أيضا كونهما من التعايشة . فامتناع عثمان عن المغالاة فى تأديب احمد رغم تجريحه له وإخلاله بالنظام،وعدم تعقبه لفضل الحَسَنَة الذى هرب من السجن؛ راجع فى المكان الأول إلى كره عثمان أن يمنح القبائل المعادية للتعايشة فرصة للشماتة والسخرية من هذه الجماعة التى آل اليها حكم السودان فإذا بافرادها يتناحرون (١) .

واستعجل عثمان آدم العودة إلى الفاشر عقب تسليم أحمد فضيل ، فبارح النهود فى ١٤ ديسمبر ١٨٨٩ (٢) ، بعد أن فشل فى اصطحاب أحمد للتحقيق معه فى شكاوى الذين سلبهم مالا أو عرضا كأمر الخليفة (٣) . وعلم عثمان وهو بالطريق إلى الفاشر برحيل أحمد إلى أم درمان التى جاء منها أمير جيش ذائع الصيت مرهوب الجانب ورجع إليها كسيراً مهيض الجناح (٤) .

لم يغمض لعثمان آدم جفن منذ وطئت قدماه ثرى دارفور ، كان دائب الحركة موفور النشاط ، وكان إلى جانب هذا ذكيا فى رسم مخططه السياسى والعسكرى وفى تنفيذه كذلك . وكسب عثمان بنشاطه وذكائه جولات كثيرة، أعادت للخليفة سلطانه فى ذاك الاقليم . صحيح أن ثورة أبي جميزة كادت تطيح بذلك السلطان مرة ثانية لكن النهج الذى اتبعه عثمان فى مواجهة الظروف التى نجمت منها أثبت يقينا قدرته السياسية والعسكرية الفائقة، فحق للخليفة أن يطنب فى الثناء عليه. هذا ماكشفته مجريات الأحداث فى دارفور ابان ولاية عثمان آدم عليها . ورغم ذلك نرى أحمد فضيل يتهم عثمان بالقصور السياسى ويطعن فى كفاءته كقائد عسكرى .

وليس من تفسير لموقف أحمد ذاك غير تطلعه للقيادة والزعامة ، بيد أنه سلك لتحقيق غايته مسلكا إتسم بضيق الأفق والفردية المطلقة . قد تكون ثمة هنات فى إدارة عثمان ، لكن ذلك لايبرر لأحمد فضيل التعريض به علنا، مما نال من وحدة قيادة الأنصار فى وقت كانوا يجابهون ثورة أبي جميزة بكل عنفها وخطرها . ولم تفت على عثمان آدم حقيقة دوافع أحمد فضيل فوضع يده عليها فى بساطة وتواضع جم .

---

(١) مهدية: ٦٠/١/١٣/١ – ١٩ ربيع ثانى ١٣٠٧ الموافق ١٣ ديسمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ٦٩/١/١٣/١ – ١٩ ربيع ثانى ١٣٠٧ الموافق ١٣ ديسمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) مهدية: ٦٠/١/١٣/١ – ١٩ ربيع ثانى ١٣٠٧ الموافق ١٣ ديسمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ٧٩/١/١٣/١ – ٢٥ جماد أول ١٣٠٦ الموافق ١٧ يناير ١٨٩٠ (عثمان آدم إلى الخليفة).
للوقوف على حياة احمد فضيل بعد عودته من دارفور وحتى مقتله مع الخليفة فى واقعة أم دبيكرات فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩ أنظر هل: ٣١ ، هولت ١٩٥ – ١٩٦ و ٢٢٣ – ٢٢٤.

كتب عثمان إلى الخليفه يقول « . . . . ولم يحملنى على هذا إلا مارأيته فى أحمد فضيل وفضل الحَسَنَه وذلك مما أوجب لى الخشية على نفسى والتمست له المخارج والمحامل الحسنة فلم اجد له مخرجا غير النفسانية والمنازعة فى الرياسة وأنا مامنعتهم رياستهم ولا قصدى ضررهم إلا أن نفوسهم منعتهم المحبة معى ولوكنت ممن يرضى بالشكوى لشكوتهم كل يوم ولكنى لا أرضى بالشكوى لأن الشكوى الكثيرة مافيها ثمرة خصوصا من يكـــون مثل هؤلاء عشيرة ولحم ودم (١) . »

ولئن كان حب الزعامة والتطلع اليها دفعا أحمد فضيل إلى الخروج على قائده، فإن الجوع الذى أنشب أظافره وأنيابه فى دارفور فى أعقاب ثورة أبي جميزة قد هيأ لعصيان أحمد ظروفاً مواتية إذ اضطر المحاربون إلى استباحة كل محرم بحثا عما يقتاتون به ، فجنحوا للفوضى وأخلوا بالنظام . وعند ذاك التقت مطامع أحمد فضيل الشخصية بنزعة عند جنوده فى تمرد هتكت اثناءه أعراض الناس واستبيحت ممتلكاتهم بما أوغر الصدور وأساء بالغ الإساءة للمهدية بين أهل دارفور .

**(٣) الفترة الثانية — فبراير — أكتوبر ١٨٩٠ :**

عقد عثمان آدم العزم إثر عودته من النهود على تطهير ماتبقى للمعارضة من جيوب فى دارفور وجعلها أرضا خالصة للأنصار لاينازعهم الملك فيها أحد ، وتراه لهذايشتبك مع مناهضى حكمه فى معارك عديدة قدر له فيها النجاح ، بيد أنه أخفق آخر الأمر فى فرض سيادة الأنصار المطلقة عليهم . وثمة خاصية ثانية تميزت بها هذه الحقبة الأخيرة من ولاية عثمان على دارفور ، هى أنها فترة سلم وهدوء نسبى إذا ماقيست أحداثها ونشاط الأنصار العسكرى خلالها بالحروب الضارية التى ارتج لها كيان دارفور أيام أبي جميزة وقبله . وعلة ذلك أسباب ثلاثة :

أولها انعدام القوت فى بعض جهات دارفور مما جعل بقاء الأنصار فيها أو وصولهم إليها — وان استوجبته ضرورات سياسية وعسكرية — أمراً مستحيلا . من ذلك أن اضطر الأنصار المرابطون فى الككلكه حين اشتد بهم الجوع إلى البحث فى بيوت النمل عن شيء يسدون به الرمق ، فأشار عثمان آدم على قائدهم الختيم موسى بالرحيل من دار المبانية إلى جبل كونوا غربي جبل مرة حيث توفرت الغلال (٢) . ومنه أيضا عدول عثمان

(١) مهدية : ٥٧/١/١٣/١ — ١٩ ربيع ثانى ١٣٠٧ الموافق ١٩ ديسمبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٢) مهدية : ١/١١ب/٨٩/٨ — ١٣ شعبان ١٣٠٧ الموافق ٤ أبريل ١٨٩٠ (عثمان آدم إلى الخليفة).

عن قراره بغزو دار كُوبي التى ظلت خارجة عن طاعته ماشارف العامين (١) لما تبين له أن القحط عم تلك الدار وألاسبيل إلى بلوغ غرضه فيها إلا إذا أرادها مقبرة يدفن فيها من يموت من أصحابه جوعا (٢) .

وثانيها أن كثيراً من قبائل دارفور رضخت للأنصار تحت ضغط حملاتهم التأديبية المتصلة ، فلم يعد ثمة داع لمتابعة إرهابها ، بل اقتضى حسن السياسة والتقدير السليم أن يجنح الأنصار للسلم كنقيض للحرب أسلوبا فى نشر كلمة المهدية بين تلك القبائل . وهذا مافطن اليه عثمان آدم ، خاصة وأنه رأى الجوع يبطش بخصومه فيزيدهم ضعفا على ضعف فواتته الفرصة لتأليفهم بإظهار اهتمامه بأمرهم وإبداء عطفه عليهم ، فمنع الأنصار من الإعتماد على الأهلين فى الحصول على أقواتهم ، وأمرهم بزراعة مايكفى حاجتهم من الغلال (٣) . غير أنه لم يكن ممكنا تطبيق سياسة السلم والإسترضاء هذه على الفور وبنى هلبة وسكان الجبهة الغربية لمداومتهم على معاداة الأنصار والتربص بهم ، ومن ثم اتجهت جهود عثمان إلى حربهم فى هذه المرحلة ، بينما ساد الهدوء ربوع دارفور الأخرى .

أما ثالث الأسباب فيعزى إلى تفشى وباء فى جيش الأنصار إبان إقامتهم فى دار المساليت ، فأرغموا على الخروج منها إلى دار بنى حسين أملا فى انحسار الوباء ومتابعة الحملات التأديبية فى الجبهة الغربية ، لكن الوباء إزداد انتشاراً وعتواً ، فاضحى ايقاف الحرب والتراجع إلى الفاشر أمراً لازما .

### (أ) عود الى الفور وبنى هلبة :

رجع عثمان آدم من النهود إلى الفاشر وشمس عام ١٨٩٠ التى بزغت لحينها تنشر أشعة دافئة غمرت قلبه بالأمل فى تسديد ضربة قاضية لزعماء الفور الذين عادوا من منفاهم الإختيـارى فى دار سُلا حين سمعوا برحيل عثمان إلى ابى جُنُوق ، فنزل أبو الخيرات ابراهيم بجبل كَرومه وطفق يدعو القبائل إلى مناصرته والإنضمام اليه ، فجاءه بنو هلبة وتقاطرت عليه جماعات من جبل مَرة أمسكوا قبلا عن تأييده علانية (٤).

---

(١) مهدية : ١/١٣/١/٧٢ – ٢ جماد أول ١٣٠٧ الموافق ٢٥ ديسمبر ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى الخليفة).
(٢) مهدية : ١/١٣/١/١١٢ – ١٣ شعبان ١٣٠٧ الموافق ٤ أبريل ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى الخليفة).
(٣) مهدية : ١/١١ب/١٥/٢٥٤/ – ٢٧ رجب ١٣٠٧ الموافق ١٩ مارس ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى على قش).
مهدية : ١/١٣/١/١٢٣ – غاية شعبان ١٣٠٧ الموافق ٢٠ أبريل ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى الخليفة).
(٤) مهدية : ١/١٣/١/٨١ – ٢٥ جماد اول ١٣٠٧ الموافق ١٧ يناير ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

وظن العصاة أن عثمان حين طالت غيبته ذهب إلى أم درمـــان . فازدادوا نشاطا كما ازدادوا إطمئناناً ، بينما كان عثمان قد رجع إلى الفاشر وبادر إلى اتخاذ التدابير لمباغتتهم، فوجه البشارى ريده فى طَوِيله ومحمد جُوده فى دَارَه إلى التأهب للحرب ، ثم اندفع بنفسه إلى طَوِيله لينظر فى تفاصيل خطة الهجوم على جبل كَرومه (١) .

ومما حث عثمان آدم وشجعه على الإسراع فى طلب الفور علمه بالضعف الذى اعتراهم نتيجة فقدهم لكثير من المحاربين والسلاح أثناء القتال الذى نشب بين أبكّر اسماعيل وأبي الخيرات إثر اشتداد الخصومة بينهما ، ثم اعتقاده الجازم بأن العداء الذى استمر بين الفريقين يمنع المساليت من مساعدة الفور إن تعرضوا لغارات الأنصار (٢) . والحقيقة أن الخلاف بين ابكّر اسماعيل وأبي الخيرات احتدم على صورة حدت بالسلاوى إلى التدخل لإصلاح ذات البين ، فكتب إلى أبكّر يقول « . . . وأنت يا ولدى أدخلت الطمع فى نفسك حتى ادعيت السلطنة ، وسلطنة الفور مدتها عديدة مانازع فيها أحد من رعيتها إلا أنت ، وما الطارقين لها كمثل البحارة والترك وأمثالهم كمثل زُقَل وجانو لايفتنوك بفتنهم بل اترك دواعيك واخرج من الحماقة التى فى قلبك . . . وكيف أنت ياولدى من أول صدمة مع سلطانك ( يقصد بهذا أبا الخيرات ) تدعى سلطنة وتحاوره بذلك ويكون سفك دماء المسلمين منك ومنهم . . . قم واقدم عندى ونجمع بينك وبين سلطانك ونصالحكم الصلح التام وتصيروا كرجل واحد . . . (٣) » والسلاوى بهذا انما يمنح نفسه حق الوصاية على واحد من صغار أمراء الجبهة الغربية ، وهى سياسة درج عليها البرقاوى أيضا . وفى خطاب السلاوى كذلك إشارة صريحة إلى سعى أبكّر واجتهاده للإنسلاخ من تبعية الفور وتأسيس سلطنة مستقلة ، هيهات إذن أن يستمع أبكّر لنصح السلاوى ، فظلت الجفوة قائمة بينه وبين أبي الخيرات مما أوغر صدر السلاوى على ابكّر وأورثه متاعب سيأتي ذكرها فى الفصل التالى . اجتمع الجيش الذى أعده عثمان آدم لجهاد الفور وبنى هلبة فى أبي حَرَازْ فى ٣٠ يناير ١٨٩٠ ومن هناك انطلق نحو معسكر العدو فطوى المسافات طياً ، وكما حسب عثمان فإن أبا الخيرات لم يكن يقوى

---

(١) مهدية : ٩١/١/١٣/١ - غاية جماد اول ١٣٠٧ الموافق ٢٢ يناير ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).
مهدية : ٨٥/١/١٣/١ - ٢٧ جماد اول ١٣٠٧ الموافق ١٩ يناير ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).
(٢) مهدية : ٨١/١/١٣/١ - ٢٥ جماد اول ١٣٠٧ الموافق ١٧ يناير ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى الخليفة ).
(٣) مهدية : ٢٤٠/٤/٣٧/٢ - رجب ١٣٠٧ الموافق فبراير / مارس ١٨٩٠ ( السلطان أبو ريشة إلى ابكر اسماعيل ).

على مجابهة الأنصار ، فأخلى جبل كرومه قبل تسعة أيام من وصولهم اليه ، وانسحب شمالاً إلى جبل ضِريسَه فتنسم عثمان خبره ثم اقتفى أثره ، وفى ٤ فبراير التحم الجمعان عند سفح جبل ضِريسَه فى معركة لم تدم طويلاً إذ فر أبو الخيرات إلى دار سُلا ، فلاحقه الأنصار وفتكوا بالمتخلفين من رجاله دون أن يدركوه هو ، ولما طال بالأنصار المسير وتوغلوا فى حدود دار سُلا التى لم يؤذنوا بدخولها عادوا أدراجهم وقد امتلأت أيديهم بالغنيمة ونفوسهم بالفرحة (١) .

وملأت البهجة نفس عثمان آدم كذلك ، فاستوثق من قدرة أصحابه على إحراز نصر نهائي على بقايا المعارضة فى دارفور ، فهاهم أولاء يوقعون بالفور وبنى هلبة ويطردونهم شر طردة ، وكادت موجة التفاؤل تدفع بعثمان إلى غزو الجبهة الغربية فورا ليجتث من أرضها جذور العصيان ويسقط بذلك آخر معقل من معاقل التمرد فى دارفور على أنه نظر فى الأمر ملياً فاختار لإعتبارات ثلاثة إرجاء تلك الحملة. فهناك أولاً الجوع الذى مازال يقيد تحركات الأنصار ويحدد اتجاهها ، فقد نحلت أجسامهم واصاب الهزال خيولهم فعجزت عن احتمال السير مسافات طويلة . وخشية أن يدخل عثمان برجاله فى حرب قد تطول والأنصار على تلك الحال قرر امهالهم حتى تقوى أبدانهم فينهضون بواجبهم على خير الوجوه . ولم يجد عثمان غير جبل كونوا مكانا أكثر صلاحية لإقامة الأنصار ، لوفرة الغلال والعلف فى وديانه ، زيادة على استراتيجية موقعه وتوسطه للطرق المؤدية إلى الجبهة الغربية وكَبْكابيّه ودار بنى هلبة ، فأمر ببقاء الجيش فيه ثم عاد هو إلى الفاشر (٢) .

وهناك ثانيا إشتغال عثمان آدم ببعض مهام إدارته المدنية كضرورة لازمة لدعم سلطته بين القبائل الموالية وتلك التى أجهدها طول القتال فدانت له ، وكأمر اقتضته أهمية العمل للخروج من الضائقة الإقتصادية التى حلت بدارفور . وكانت وسيلة عثمان لبسط نفوذه ومكافحة الآثار السيئة التى تمخضت عن المجاعة امتداداً لسياسة السلم التى بدأها بتحذير الأنصار من إرهاق الأهلين بمطالبهم اليومية ، فاستدعى كثيراً من زعماء القبائل ونقل اليهم تحيات الخليفة ورضاءه عن الذين جعلوا الطاعة ديدنهم وعفوه عمن زل وعصى ثم تاب . وفى جو ودى خالص بحث عثمان مع أولئك الزعماء تفاصيل

---

(١) مهدية : ١/١١ب/١٨٦/٨ – ٥ رجب ١٣٠٧ الموافق ٢٥ فبراير (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ١/١٣/١/١٢ – ١٣ شعبان ١٣٠٧ الموافق ٤ أبريل ١٨٩٠ (عثمان آدم إلى الخليفة).

الاستعدادات اللازمة لزراعة أراضيهم فقد ازف أوان الخريف، وحثهم على تنشيط عشائرهم ودفعها إلى الحرث كي يحل الرخاء وتنزاح عن الرءوس سحائب الجوع الذى اعتصر البطون مازاد على العام . وأصغت وفود القبائل فى اهتمام كبير إلى الرجل الذى خاطبهم بلغة العنف ردحا من الزمن، وهاهى اليوم لهجته تتغير فيسمعون منه كلمات تنضح روحا وفهما جديداً وتقطر عطفا ولينا ، فبادلوه شعوره الطيب نحوهم ، وبرحوا الفاشر عائدين إلى أهلهم منشرحى الصدر والقلب (١) .

أما العلة الثالثة فترجع إلى رغبة عثمان آدم فى زيارة ام درمان التى طال عهده بها . فلم يكن صائبا اذ ذاك أن يغزو الأنصار الجبهة الغربية وقائدهم بعيد عنهم . وكان الخليفة قد دعاه للقائه فاعتذر اولاً بانصرافه لقتال أبي الخيرات (٢) وتعلل ثانيا بضرورة بقائه بعض الوقت حتى يرتب شئون الأنصار ويطمئن إلى اشتغال الناس بإعداد حقول الزراعة قبل نزول الأمطار (٣) . فلما انجزت تلك المهام تأهب عثمان للرحيل وذهب إلى جبل كونوا لوداع قواد جيشه وتولية محمد بشارة نائبا له عليهم (٤) ، غير أن تطوراً في الموقف أجبر عثمان على تأجيل زيارته إلى ام درمان للمرة الثالثة ودفع به لحرب الجبهة الغربية .

**(ب) غزوة الموت :**

كان حريا بعثمان آدم أن ينصرف إلى محاربة سلاطين الجبهة الغربية فور انتصاره على جيوش أبى جميزة ، فتلك الجبهة موطن للفتنة والعصيان الدائم ، وبين سكانها ولدت حركة أبي جميزة ، فاحتضنوها ومنحوها عطفهم ، فإذا هى ثورة عارمة أوشكت أن تعصف بسلطان المهدية فى دارفور . وهذا ما أراده عثمان فعلا ، فجعل من أغراض حملة البشارى إلى أبي حَمْرَه استطلاع اخبار الجبهة الغربية (٥) ، بيد أن الخليفة نصح عثمان لأسباب ثلاثة بالتريث بل منعه من غزو دار بَرْقو . رأى الخليفة أولا أن يشغل عثمان نفسه بتأديب الفور والبقارة حتى إذا ما أغار على الجبهة الغربية كان قد حمى ظهره

---

(١) مهدية : ١/١٣/١/١١٣/ – ١٣ شعبان ١٣٠٧ الموافق ٤ أبريل ١٨٩٠ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٢) مهدية : ١/١٣/١/٧٧ – ٢٥ جماد اول ١٣٠٧ الموافق ١٧ يناير ١٨٩٠ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٣) مهدية : ١/١٣/١/١١٣ – ١٣ شعبان ١٣٠٧ الموافق ٤ أبريل ١٨٩٠ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٤) مهدية : ١/١٣/١/١٤٧ – ٢ القعدة ١٣٠٧ الموافق ٢٠ يونيو ١٨٩٠ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٥) انظر ص ٢٦١.

وحبذ الخليفة ثانيا أن ينتظر عثمان وصول جيش شرف الدين هاشم إلى دارفور ليدعم به قوته قبل أن يدخل فى معركة كبيرة لايملك أسباب النصر فيها ، فليس من الحكمة أو السياسة أن يتعرض مركز الأنصار فى دارفور لهزة جديدة إن هم هزموا نتيجة لضعف استعداداتهم (١) .

أما السبب الثالث فيتصل بعلاقات الخليفة بالحبشة ، فقد تأزم الموقف على الحدود الحبشية فى بداية عام ١٨٨٩ عندما رفض أبو عنجة فى تحد وكبرياء عروض الملك يوحنا بإبرام صلح بينهما وتسوية المشاكل القائمة بين الطرفين سلما ، وجرحت عنجهية أبي عنجة كرامة الملك يوحنا فثار لها وراح يعد الجيوش ويتوعد بالزحف على القلابات (٢) فألفى الخليفة نفسه فى حرج شديد وقتئذ ، فبينما تهدد سلطانه بالزوال فى دارفور نتيجة لثورة أبي جميزة تعرضت حدود السودان الشرقية للغزو الحبشى . ثم ابتسم الحظ للخليفة لما قمع الأنصار اتباع أبي جميزة إلا أن ازمته السياسية لم تنفرج تماما ، فمازال التوتر قائما فى القلابات وقت وصول خطاب عثمان آدم الذى أعلن فيه عزمه على مبادأة سلاطين الجبهة الغربية بالهجوم فنصحه الخليفة بالتريث . والخليفة بهذا النصح قد قدر دون ريب خطورة الانشغال بحرب فى جبهتين ، فآثر التفرغ لمواجهة انذارات الملك يوحنا .

ولما رد الزاكى طمل السهم إلى صدور الأحباش فى ٩ مارس ١٨٨٩ وقتل مليكهم يوحنا (٣) ، انزاح الخطر عن القلابات ، فانتفت أزمة العلاقات بين الخليفة والحبشة كمانع لشن عثمان آدم حربا على الجبهة الغربية ، على أن عثمان كان قد اشتغل عند وقوع ذلك الحدث العظيم بقتال بنى هلبة والفور والرزيقات ، ثم بمكافحة عصيان أحمد فضيل ، ولهذا ابتعدت قوة الأنصار الضاربة عن الجبهة الغربية وتعذر هجومهم عليها إلا من غارة قام بها البشارى ريده من السَرَفَاية على دار بنى حسين للقبض على حامد تُورْجُوك الذى لاذ بالفرار عند قدوم الأنصار (٤) ، ومن ثم ساد الهدوء الجبهة الغربية فانصرف سلاطينها إلى تنظيم شئون ملكهم وتدعيم إدارتهم التى اهتزت بفعل تغول الأنصار وماتبع ذلك من سعى لدفع توسعهم على عهد أبي جميزة .

---

(١) مهدية : ٣١٦/٤/١١/١ - ١٣ رجب ١٣٠٦ الموافق ١٥ مارس ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) شقير ٣ : ص ٤٧٨ - ٤٨١ ، هولت ص ١٥٤.

(٣) انظر ص ٨ ، ١٧٢ - ١٧٣.

(٤) مهدية : ٣٤٧/٥/١١/١ - ١٤ محرم ١٣٠٧ الموافق ١٠ سبتمبر ١٨٨٩ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

على أنه الهدوء الذى يسبق العاصفة . فحين جاء عثمان آدم إلى جبل كونُوا لوداع صحبه قبل أن يرحل إلى ام درمان وجدهم فى ضيق شديد لقلة مابأيديهم من مؤونة الطعام، وكان الأنصار قد أتوا فى ظرف وجيز على مافى وديان جبل كونوا والمنطقة المجاورة له من غلال وأنعام ، وأسقط فى يد عثمان . إنه اعتزم الهجرة إلى أم درمان وكتب إلى الخليفة بذلك ، إلا أن واجب القيادة فرض عليه إرجاء تلك الزيارة والبقاء بين جنوده يدبر أمرهم ريثما تنفك ضائقتهم ، فانبرى للمعضل يحله مستنيراً برأى صحبه فيما عساهم يفعلون . وبعد تقليب للأمر من كل وجوهه تقرر غزو دار المساليت بغية الاستفادة من مواردها الغذائية الغنية . بيد أن عصيان المساليت وتنكرهم للمهدية دفعا كذلك بعثمان إلى مبادرتهم بالحرب (١) .

ونهض الأنصار من جبل كونوا فى بداية الخريف مولين وجوههم شطر شُبْكى مقر ابّكر إسماعيل فدخلوها فى مطلع ذى الحجة ١٣٠٧ ( يوليو – اغسطس ١٨٩٠ ) إثر إنهزام ابّكر وفراره إلى دار برَقْو . ثم طارد العطا أصول فى ثلاثة ألوف من الخيالة عصاة المساليت وهم مدبرون ، فظفر بجماعة منهم عند حدود دار برَقْو ومن هناك رجع إلى شُبْكى كأمر عثمان آدم له (٢) . وجاس الأنصار بعد هذا فى دار المساليت يطعمون من خيراتها ويؤدبون أهلها ، فمكثوا على تلك الحال مازاد على الشهر حتى امتلأت منهم البطون وإن ضايقهم هطول المطر مدراراً (٣) .

وثمة أمران ينبغى لنا أيضاحهما قبل أن نستطرد فى سرد وقائع حملة الأنصار على الجبهة الغربية . أول الأمرين ماتبينه عثمان آدم من أن خضوع سكان هذه الجبهة رهن بإقصاء زعمائها من عروشهم واستبدالهم برجال يتبعون المهدية عن صدق وإيمان ، فقد امتد بعصيان أولئك الزعماء الزمن، وتبعتهم رعيتهم بما لهم من سيطرة عليها ، فتضاءل بمرور الأيام الأمل فى امتثال الرعية لأمر المهدية ونواهيها ، ولهذا طلب عثمان موافقة الخليفة على تنصيب محمد ابراهيم، وهو من بيت الملك فى دار قِمِر، عاملا عليها فى مكان ادريس أبي بكر هاشم ، واقترح ارسال هَجّام حسب الله (٤) وواحد من أبناء سلطان تامه المقيمين فى أم درمان ليحلا محل ابّكر اسماعيل وسليمان ابراهيم عاملين

---

(١) مهدية : ١٤٧/١/١٣/١ – ٢ القعدة ١٣٠٧ الموافق ٢٠ يونيو ١٨٩٠ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٢) مهدية : ١٦٠/١/١٣/١ – ١٥ الحجة ١٣٠٧ الموافق ٣ اغسطس ١٨٩٠ (عثمان آدم إلى الخليفة).
(٣) مهدية : ١٦٩/٢/١٣/١ – ١٢ محرم ١٣٠٨ الموافق ٢٨ اغسطس ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى الخليفة).
(٤) انظر ص ١٠٧.

على دار المساليت ودار تامه بالتوالى (١) . واستحسن الخليفة هذه السياسة فأيدها تأييداً مطلقا وانتدب هّجـاما وادريس ابراهيم ليقوما بأمر المساليت وتامه ، فنهضا من أمدرمان بعد أن تزودا بنصائح الخليفة وإرشاداته، وقصدا دارفور والشوق للإمارة يملك عليهما أقطار النفس (٢) .

وثاني الأمرين هو إحجام عثمان آدم عن غزو دار بَرْقَو رغم أن جيوشه وقفت عند حدودها، ورغم أنه اقتنع أكثر من أى وقت مضى بفساد البرقاوى وبعدائه الصريح للمهدية ، فقد وجد فى شُبّكى مايربو على السبعين رسالة بعث بها البرقاوى إلى أبّكر اسماعيل حرضه فى بعضها على قتال الأنصار ومناه فى بعض أخر بالتأييد والمؤازرة (٣) . وكان البرقاوى قد تدخل - كما فعل السلاوى - لفض النزاع بين أبّكر وأبي الخيرات وطلب من أبّكر المثول أمامه تحقيقا لذلك الغرض ، فلما اعتذر أبّكر بحجة اشتغاله بمجابهة الأنصار كتب اليه البرقاوى يقول « . . . . . بلغنى جوابك وقد فهمته، وكلما تذكر فيه من أخبار المشركين ( يقصد بهذا الأنصار ) وأحوالكم مع أبي الخيرات وأنكم مشغولون بجهاد عدوكم ، ولايمكن تفرغكم فى هذا الوقت للصلح كما أشرنا لكم بمجيء كل من الفرق امامنا . . . وما دام أنتم أمنتم على نفوسكم من جهة أبي الخيرات وانفرد لكم عدو واحد فالله ينصركم عليه . . . . (٤) » .

إن فى موقف البرقاوى ذاك حافزاً قويا كان خليقا بأن يدفع عثمان آدم إلى جهاده، لكننا نراه يمنع العطا أصول من التوغل فى دار بَرْقو ، ويكتفى بتحذير البرقاوى من إيواء المساليت وإيواء غيرهم من العصاة (٥) . ومبعث إستمرار عثمان فى مهادنة البرقاوى وامتناعه عن قتاله فى هذا الوقت شيئان : كان على عثمان أولا أن يطيح بسلاطين المساليت وتامه وقمر وزغاوة كُوبي - وجميعهم ممن خضع لنفوذ البرقاوى وتآمر معه - ويملك زمام الأمر فى ديارهم قبل أن يفكر مجرد التفكير فى غزو داربَرْقو وذلك خشية منه على توزيع جهود الأنصار بما يضعف قوتهم الضاربة ، وحماية لظهره إن اقتتل مع البرقاوى فعلا ، وظهر هذا من اعتزام عثمان التوجه إلى دار قمر بعد

(١) مهدية : ١/١١ب/١٩٧/٨ - ١٥ الحجة ١٣٠٧ الموافق ٢ اغسطس ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى الخليفة).
(٢) مهدية : ١/١١ب/٤٢٢/٦ - ١٠ صفر ١٣٠٨ الموافق ٢٥ سبتمبر ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى الخليفة).
(٣) مهدية : ١/١١ب/١٩٦/٨ - ١٥ الحجة ١٣٠٧ الموافق ٢ اغسطس ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى الخليفة).
(٤) مهدية : ٢/٥/٣٢٧ - ١٣٠٧ الموافق ١٨٨٩/١٨٩٠ ( السلطان محمد يوسف إلى ابكر اسماعيل).
(٥) مهدية : ١/١١ب/١٩٦/٨ - ١٥ الحجة ١٣٠٧ الموافق ٢ اغسطس ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

تأديب المساليت ثم دار تامه ومنها إلى دار الزغاوة (١) . ولابد أن عثمان كان متأثراً كذلك بنصائح الخليفة اليه بالابتعاد عن دار برْقو والإقلاع عن كل مايستعدى سلطانها وقد تكرر هذا النصح عندما علم الخليفة بدخول الأنصار لدار المساليت (٢) .

وزد على هذا أن ظهور وباء « أبودم » وانتشاره بين الأنصار وفتكه بما يتراوح بين المائتين والثلاثمائة شخصا يوميا أجبرهم على إخلاء دار المساليت (٣) . ولقد أجاد عثمان آدم فى وصف الظروف الطبيعية التى أحاطت بتفشى ذلك الوباء وفى تشخيص خصائصه وعلاماته . قال عثمان فى خطاب إلى الخليفة إنه منذ حل الأنصار بدار المساليت والمطر لاينقطع من النزول ،فابتلت من جراء ذلك الأرض حتى اترعت وغطى الوحل وجهها ، وتشبع الهواء بالماء فرطب الجو بدرجة أنهكت الأجسام وأرهقتها ، بينما راح الغمام والسحب الكثيفة تحجب الشمس لساعات طويلة كل يوم (٤) . وورد فى رسالة اخرى أن من أعراض الوباء سعالا شديداً وتورما فى الرئتين يصحبه نزول قيح منهما زيادة على أنه سريع القضاء بمن يصيبه فهو لايمهل المصاب به أكثر من أيام ثلاثة (٥).

وخرج عثمان آدم بجيشه من دار المساليت بعد إقامة دامت شهراً وبضعة ايام استولى أثناءها على مدخرهم من الغلال وشتت شملهم دون أن يبنى فى أرضهم مُستَقرّا دائما للأنصار ، لكنه لم يصرف النظر عن إعادة الكَرة عليهم، كمالم يتخل عن عزمه لإخضاع الجبهة الغربية بصورة قاطعة ، فقصد دار بنى حسين بنية اتخاذها قاعدة للهجوم على دار قِمِر ودار تامه ودار جَبَل وكافة قبائل الزغاوة (٦) . وبعد مسيرة أيام طويلة صارع الأنصار خلالها الوحل وعانوا الأمرّين من وطأة «أبودم » حط عثمان الرحال فى دار بنى حسين ودفع للتو بجيشين سار أحدهما إلى دار قِمِر بقيادة البشارى ريده،وأغار الثاني على دار الزغاوة تحت إمرة محمد بشارة يعاونه سليمان أحمد أكرت، وكللت جهود القوتين بالنجاح . فقد اصطدم البشارى بالقمراوى قريبا من عاصمته ام عُشَرَة وغلبه ، فهرب القمراوى إلى دار برْقو وعاد البشارى إلى معسكر الأنصار

---

(١) مهدية : ١٦٠/١/١٣/١ – ١٥ الحجة الموافق ٢ اغسطس ١٨٩٠ (عثمان آدم إلى الخليفة ).
(٢) مهدية : ٤٢٣/٦/١١/١ – ١٠ صفر ١٣٠٨ الموافق ٢٥ سبتمبر ١٨٩٠ ( الخليفة إلى عثمان آدم).
(٣) مهدية : ١٦٩/٢/١٣/١ – ١٢ محرم ١٣٠٨ الموافق ٢٨ اغسطس ١٨٩٠ ( الخليفة إلى عثمان آدم).
(٤) مهدية : ١٧٠/٢/١٣/١ – ١٢ محرم ١٣٠٨ الموافق ٢٨ سبتمبر ١٨٩٠ ( الخليفة إلى عثمان آدم).
(٥) مهدية : ١٧٦/٢/١٣/١ – ٢ صفر ١٣٠٨ الموافق ١٧ سبتمبر ١٨٩٠ ( الخليفة إلى عثمان آدم).
(٦) مهدية : ١٦٩/٢/١٣/١ – ١٢ محرم ١٣٠٨ الموافق ٢٨ اغسطس ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

فى دار بنى حسين بأمر من عثمان الذى خاف من شتات جيوشه . وباغت محمد بشارة الزغاوة قتلا واحتل حاضرتهم دار القلعته ، وقبض على أسرة زعيمهم عبد الشافع صالح دنكسا الذى ولى هارباً فى نفر من عشيرته ، فانبرى سليمان احمد أكرت لملاحقتهم (١) .

وكما طرد وباء « أبودم » عثمان آدم من دار المساليت قطع عليه تنفيذ خطته كاملة للسيطرة على الجبهة الغربية . لقد ظل الوباء يفتك بالأنصار فتكا ذريعا ، فأضحى لزاما ابتعادهم عن دار بنى حسين الممطرة الموحلة إلى أرض يقل فيها المطر ، عل الوباء ينقشع فيرتفع سيف الموت المسلط على الرقاب ، فهجر الأنصار تلك الدار قاصدين الفاشر عن طريق كَبْكابيّه ، وكما كان عثمان يستحث أصحابه أثناء المعارك على الاستماتة فى القتال راح يشجعهم على مغالبة الوباء ، فيسير تارة فى مقدمة الركب وتارة أخرى فى مؤخرته ، رافعا صوته بالدعاء لله ، مناديا أصحابه بالصبر على البلاء ، حتى بلغ الجمع كَبْكابيّه فى ١٧ سبتمبر ١٨٩٠ بعد غيبة قاربت الثلاثة شهور (٢) .

ومكث عثمان آدم فترة قصيرة فى كَبْكابيّه ريثما استراح الأنصار الذين هدّ كيانهم تعب المسير فى الوحل وحط من معنوياتهم انهيار صفوفهم تحت معاول «أبودم» ، ثم شمخ وهو أوفر مايكون صحة إلى كُوبِي فى طريقه إلى الفاشر ، تاركاً الامير سَنِينْ حسين التاماوى (٣) فى جمع من المحاربين لحفظ الأمن فى كَبْكابيّه ، ولإستطلاع أخبار الجبهة الغربية كما أسندت إليه مهمة رعاية مرضى الأنصار الذين عجزوا عن مواصلة المسير . ولم يكن اختيار عثمان لسَنِينْ وتحميله عبء تلك المسئوليات الجسام فى تلك الظروف العصيبة إعتباطا ، فقد رأى فيه شجاعة ودراية وتوسم فيه صدقاً وعفة (٤) . وعند حلول عثمان بكُوبِي كتب إلى الخليفة يطمئنه على حالة الأنصار ويبلغه اعتزامه

---

(١) مهدية : ١/١٣/٢/١٧٥ – ٢ صفر ١٣٠٨ الموافق ١٣ سبتمبر ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ١/١٣/٢/١٧٤ – ٢ صفر ١٣٠٨ الموافق ١٧ سبتمبر ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) ينتمى سنين إلى أسرة تدعى الانتساب إلى الخزرج ، وقد وفد جدها الاول إلى دار تامه واستقر بمكان يقال له جملى ، وتزوج من اهله. وقد بايع سنين المهدى بعد سقوط الخرطوم ، ثم انخرط فى صفوف الأنصار محاربا فى جبال النوبة والقلا بات حتى عاد إلى دارفور فى ركب عثمان آدم عند حملته على يوسف ابراهيم. انظر :

Samuel Atiya: Senin and Ali Dinar. S.N.R. Vol 7, Part 2, pp. 63–64.

(٤) مهدية : ١/١٣/٢/١٨٠ – ١٥ صفر ١٣٠٨ الموافق ٣٠ سبتمبر ١٨٩٠ ( عثمان آدم إلى الخليفة).

الهجرة اليه فور وصوله إلى الفاشر ، فإنه يتطلع عبر الأفق البعيد إلى زيارة أم درمان تبركا ومحبة (١) .

وكانت هذه أخر رسائل عثمان آدم إلى الخليفة فبعد أيام ثلاثة من تاريخ صدورها أنشب « أبودم » أظافره فى جسم القائد الشاب — بعد أن يمم وجهه شطر الفاشر — وراح يأكل بنهم فى رئتيه ، فحمله رفاق سلاحه على كتوفهم حتى ادركوا الفاشر فى ٥ أكتوبر ١٨٩٠ . وهناك ظل عثمان لإيام أربعة يصارع الموت ويأبى عليه بشبابه . وكبار أصحابه يعودونه بين الفينة والأخرى يدعون له بعاجل الشفاء . وهو يتطلع إلى وجوههم الباكية بابتسامة صبّ فيها كل عزيمته عله يشيع البهجة والتفاؤل فى نفوسهم ويطرد ظلال الموت من حوله . لكن الموت صرعه فتوفى ظهر الأربعاء ٢٤ صفر ١٣٠٨ الموافق ٩ أكتوبر ١٨٩٠ (٢) . وكرغبته دفن عثمان بداخل بيته وكفن بجبة كان يلبسها فى المعارك ، كأنه يستنكر على الموت أن يظفر به بعيدا عن ميدان القتال (٣) . وهكذا انقضت حياة قائد حفلت على قصرها بعظائم الأحداث وجليلها، فبكاه صحبه وبكاه الخليفة الذى انتظر وصوله فرحاً بمقدمه فإذا بالناعى ينعيه .

ورغم هول المصيبة وعظم الفاجعة التى حات بأمراء الأنصار الموجودين بالفاشر بفقد قائدهم الذى عدل بينهم فأحبوه ، فإنهم كبحوا جماح عاطفتهم وحكموا العقل قياما بواجبهم ، فقرروا كتمان خبر وفاة عثمان سراً خشية أن تهتز صفوف الأنصار لسماعه ، وخوف أن يشجع ذيوعه روح العصيان التى خمدت فى كثير من جهات دارفور ، فقد كان عثمان مرهوب الجانب بين أهلها الذين ربما طمعوا فى النيل من جيوشه بعد أن اختطفه الموت فارتفعت يده القوية عنهم . ولذا طاب البشارى ريده ورفاقه بالفاشر من قواد الجيوش بشكا ودارَه وكُتم الحضور سريعا دون أن يطلعوهم على حقيقة ماحدث، حتى إذا ما اجتمعوا بالفاشر واستعد الأنصار لكل طارىء أعلن نبأ

---

(١) مهدية : ١٨١/٢/١٣/١ — ١٥ صفر ١٣٠٨ الموافق ٣٠ سبتمبر ١٨٩٠ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٢) ذكر لا مبن خطأ ( لا مبن : تاريخ ، ص ١٩٦) إن عثمان مات وهو فى الطريق إلى الفاشر ، وأخطأ سلاطين كذلك ( السيف والنار ص ٤٧٥) حين قال بوفاته بعد يومين من وصوله اليها.

(٣) مهدية : ٣٤/٢/٢١/٢ — ٢٥ صفر ١٣٠٨ الموافق ١٠ أكتوبر ١٨٩٠ ( البشارى ريده والعطا اصول وآخرون إلى الخليفة).

الوفاة على الملأ (١) ، ومن جهة أخرى قرّ رأى الخليفه على تولية البشارى ريده إدارة دارفور حتى يبت فى أمر تعيين عامل جديد لها ، فكتب إلى أمراء الجيش فيها بمؤازرته وتأييده فقابلوا توجيهه برضى وترحاب (٢) .

---

(١) مهدية : ٢/٢١/٢/٣٥ – ٢٥ صفر ١٣٠٨ الموافق ٢٥ نوفمبر ١٨٩٠ ( البشارى ريدة والعطاء اصول وآخرون إلى الخليفة).

(٢) مهدية ٢/٢١/٤/١٠٣ – ١٢ ربيع ثانى ١٣٠٨ الموافق ٢٥ نوفمبر ١٨٩٠ ( محمد جودة إلى الخليفة).
مهدية ٢/٢١/٤/١١١ – ٢٠ ربيع ثانى ١٣٠٨ الموافق ٢ ديسمبر ١٨٩٠ ( فضل النبى أصيل إلى الخليفة).

الفصل السادس

# إمارة محمود احمد

## يناير ١٨٩١ - نوفمبر ١٨٩٦

عجم الخليفة كنانته بحثا عن خلف لعثمان آدم ، فألفى ابن عمه محمود أحمد أصلبها عوداً وأشدها مراساً ، فسماه عاملاً لكردفان ودارفور . وأشرق بقدوم محمود إلى الفاشر فجر عهد جديد نعمت في ظله أكثرية أهل دارفور بالسلام ، فبدا الفرق بينه وبين عهد عثمان واضحا،مما جعل الفور يصفون محموداً « بمحمود عسل » دلالة على تلطفه بهم ، بينما نعتوا عثمان « بعثمان بصل » إشارة إلى شدته في معاملتهم (١) . ولايعني ذلك أن محموداً أبطل الحرب كوسيلة في مكافحة عصاة دارفور . فلئن نجح في استمالة بني هلبة والرزيقات والفور وبعضاً من زعماء الزغاوة فاصطلحوا معه وخلدوا إلى الهدوء ، فكيف لسكان الجبهة الغربية يرضخون لأمر المهدية وأني لهم يذعنون دون قتال؟ لقد ظلوا في غيهم يعمهون ، فظل السيف لهذا مصلتا على بعض الرقاب .

وترجع بواعث السلم في عهد محمود إلى أمور رئيسية ثلاثة : أولها خضوع الفور وبني هلبة والرزيقات وزغاوة قلا وتور لحكم الأنصار بعد جهاد طويل ، وثانيها ضرورة تشجيعهم - وقد استسلموا - على الإستقرار في ديارهم وحثهم على الاشتغال بالزراعة أملا في خروج دارفور من وهدة الجوع الذي ما انفك يفتك بالناس في بداية هذا العهد ، ولعلنا نلحظ في ذلك شبها بالسياسة التي انتهجها عثمان آدم في أخريات أيامه ، وثالثها أن محموداً أمضى خمسة وثلاثين شهراً وهي نصف المدة التي ولي فيها أمر دارفور خارج حدودها ، فهو تارة يغزو جبال النوبة ، وتارة يقيم في الأبيض ليمنح كردفان بعضا من وقته واهتمامه بعد أن استقر الوضع نسبيا في دارفور ، ويرحل في مرة ثالثة الى ام درمان اما بجيشه أو في قلة من صحبه حسب اقتضاء الظروف ، فأصبح ضرورياً إزاء ذلك أن ينأى نوابه في الفاشر وغيرها من مراكز الحكم عن كل مايستعدي القبائل خشية من حدوث اضطراب في غيبة محمود وبخاصة عندما يكون قد اصطحب جيشه معه .

(١) حدثني بهذا الشيخ محمد احمد حنفي وهو فوراوي من سكان كبكابية.

وكما هو معلوم فإن دولة المهدية تعرضت فيما بين ١٨٩١ و ١٨٩٨ لهجوم خارجى إنهار بسببه عرش الخليفة (١) ، وبدهى أن تتأثر إدارة دارفــور كما تأثرت اقاليم السودان الأخرى بذلك التغول . غزا الكنغوليون (٢) بحر الغزال فتهدد سلطان الخليفة الأسمى فيها بالزوال ، وتهددت كذلك حدود دارفور ، فتعين على محمود احمد تجريد حملة لطردهم . وسنحت لمحمود فرصة لدخول دار برقو ، لكنه ترك البرقاوى لشأنه ، فقد ولى شباب المهدية وولت معه قدرة الأنصار على الغزو والتوسع ، بل أنهم اتخذوا موقف الدفاع إذ رأوا دولتهم تضحى هدفاً للطامعين . ولما توالت على الخليفة الهزائم فى شمال السودان استنجد بعماله فى جهات القطر كلها ، وكان طبيعيا أن تسهم دارفور بنصيبها من المحاربين ، فقاد محمود ألوفا من بنيها ليصد بهم زحف جيش كتشنر ، فمات من قتل منهم مجاهداً وعاد من امتد به العمر إلى موطنه يعمر ويبنى من جديد .

## أ ـ سياسة السلم :

دخل محمود أحمد الفاشر نهار ١٥ جماد ثاني ١٣٠٨ ( ٢٦ يناير ١٨٩١ ) (٣) مسترشداً بنصائح الخليفه وتوجيهاته مستشعراً عظم المسئولية التى أنيط به القيام بها ، فوجد المدينة فى كرب شديد إذ انعدمت فى سوقها الغلال والسمن والعسل لإنقطاع التجار عن ورودها بسبب الاضطراب السياسى الذى ساد دارفور قبل مجيئه (٤) . ولحظ محمود فى عيون أهل الفاشر تساؤلا لابد خطر على بال غيرهم من أهل دارفور : هل جاء العامل الجديد ليبطش بهم كما صنع سلفه أم أنه سينتهج حيالهم نهجا مغايراً ؟ ثم هل يستطيع انتشالهم عما هم فيه من بؤس ، فيعيد الثقة والطمأنينة إلى النفوس ؟ وانبرى محمود يجيب على تلك الأسئلة ، وماهى إلا شهور خمسة حتى كانت ألوية السلام قد

---

(١) أنظر ص ٨.

(٢) عندما اعترف مؤتمر برلين (١٨٨٤ – ١٨٨٥) بسيادة شخصية لليوبولد الثانى على الكنغو سميت ممتلكاته هناك بدولة الكنغو الحرة. وعنى ذلك الا يخضع الكنغو للحكومة البلجيكية وان اعتمد ليوبولد على معونتها فى ادارته. وكلمة الكنغوليين فى هذا السياق لا يقصد بها أهل الكنغو الأفريقيين وإنما يشار بها إلى حكومة ليوبولد فى الكنغو.

(٣) مهدية : ١٩/١/١٤/١ – ٢٩ جماد ثانى ١٣٠٨ الموافق ٩ فبراير ١٨٩١ ( محمود احمد إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ٣٧/١/١٤/١ – ٦ شعبان ١٣٠٨ الموافق ١٧ مارس ١٨٩١ ( محمود احمد إلى الخليفة).

انتشرت فى ربوع دارفور ، فأمن أهلها على أرواحهم وممتلكاتهم ، واتصلت الطرق فنشطت التجارة وازدحمت سوق الفاشر بالبائعين والشارين (١) .

وعرضنا سابقا لدواعى سياسة السلم فى عهد محمود ، أما مظاهرها فاربعة : أولها صدور عفو شامل عن الذين ناهضوا المهدية أيام عثمان آدم ، فاستجاب كثير منهم لنداء محمود وعاد الهاربون إلى ديارهم ، وثانيها: إيقاف الحرب فى جنوب دارفور ووسطها وشمالها حتى مال سكانها إلى الإذعان ، وثالثها: حث الناس على الهجرة إلى أم درمان بالحسنى والإقناع والتخلى عن أسلوب الإكراه الذى كان طابعا لعهد عثمان ، وإنعكست سياسة السلم رابعا فى رفع الزكاة عن الأهلين فى العام الأول لولاية محمود اعترافا منه بواقع الفقر والعوز الذى عاشته دارفور عند قدومه اليها ، وسعيا لتأليف الناس وجلب محبتهم .

ولننظر الآن فى حال الفور وبعض قبائل البقارة لنرى كيف قادت سياسة محمود أحمد السلمية إلى استمالتهم وإستقرارهم .

### (١) الفور :

حلّ بالفور – قبيل وصول محمود أحمد الى الفاشر – مصاب اهتزت له صفوفهم فانفرط عقدهم. ففى هدأة ليل مظلم امتدت بعض الأيدى إلى السلطان أبي الخيرات ابراهيم فصرعته (٢) ، فخلفه محمد على دينار بن زكريا بن السلطان محمد

---

(١) مهدية : ١/١٤/١/٣٧ – ٦ شعبان – ١٣٠٨ الموافق ١٧ مارس ١٨٩١ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ٢/٢١/١٠/٢٩٥ – ٢٥ شوال ١٣٠٨ الموافق ٢٤ مايو ١٨٩١ (سليمان الحجاز إلى الخليفة).
من الثابت أن ابا الخيرات قتل بيد اتباعه فى قرية كولمى التى تبعد عشرين ميلا جنوبى زالنجى الحالية، فهذا ما تؤكده الروايات المحلية (ثيوبولد ١٠٢) وتثبته وثائق المهدية. فقد جاء على لسان ابكر البيقاوى الذى كان فى معية ابى الخيرات أن خلافا شجر بينه وبين رفاقه، فأدى ذلك إلى تآمر العبيدية على حياته بقيادة جمعة أبو دنيبو فقتلوه (مهدية ٢/٢١/٦/١٩٤ – ٢٩ جماد ثانى ١٣٠٨ الموافق ٩ فبراير ١٨٩١ ابكر عمر البيقاوى إلى الخليفة). أما الامر الذى يحيط به غموض شديد فهو صلة على دينار بمقتل أبى الخيرات ، فهناك من يقول بأن ابا الخيرات آخذ على على هجومه على بعض قرى الفور وعنفه أمام جمهرة من الناس ، فغضب على لما لحقه من إساءة ودبر مع غيره من الساخطين على أبى الخيرات قتله ردا لكرامته، وطمعا فى السلطة من بعده «ثيوبولد ١٠٢» وقد نفى على دينار هذا القول بحسبانه فرية الصقها به ذوو الغرض (انظر : A Fragment of Ali Dinar: S.N.R. Vol 34, Part 1, pp. 114–115.)
ورغم أن على دينار جنى بموت ابى الخيرات الزعامة التى قد يكون تطلع اليها وهى قرينة توحى باحتمال تعاونه مع العبيدية لكن القطع بذلك أمر يعوزه البرهان الكافى .

الفضل عميداً وقائداً . وقد ولد على دينار بقرية الشويّه قريبا من الملّم الذى يبعد ثمانين ميلا شمال غربي نيالا ، ورغم أن تاريخ ميلاده مجهول إلا أنه يقع على وجه التقريب بين عامى ١٨٦٥ و ١٨٧٠(١) . وكذلك تندر المعلومات عن طفولة علىّ وشبابه بيد أن الناس يذكرون ما اتصف به من حدة الطبع والقسوة ، ويذكرون أيضا شجاعته ومكره وذكاءه ، وهى صفات لازمته حياته كلها (٢) .

وكان سفين الفور أوشك على الغرق حيث تصدى على دينار لقيادتهم ، إذ انفضت من حولهم القبائل التى حالفتهم فى أحلك اللحظات وأشدها حرجا، وآثرت البعد عن مناوأة الأنصار بل خطبت ودهم ، ففى اليوم التالى لمقتل أبي الخيرات هرب أبكر البيقاوى من كُولْمى خوفاً على نفسه من غضبة خصوم السلطان القتيل لكونه من المقربين إليه ، وأفلح فى الوصول إلى دَارَه حيث انضم إلى عاملها محمد جُوده (٣) . وانخرط فى خدمة الأنصار فأكرمه محمود أحمد بالعفو عنه وجعله أميراً على أهله علّ ذلك التسامح يغرى غيره من العصاة بالإمتثال (٤) . وأعقب فرار أبكر إنسلاخ البرْقد وخلافهم من أهل « السودان » من تبعية على دينار (٥) .

وكان لهذا فعل السحر فى هدم مقاومة الفور وإشاعة روح التشاؤم واليأس بينهم، ثم وقع مادفع بهم أكثر فى طريق الانقياد للأنصار، فقد توالت هجمات السلاوى والمسلاتي على على دينار حين رأيا فيه ميلا للاذعان (٦)،فاضطر لمغادرة كُولْمى والرحيل إلى كيبى بجبل مَرّة (٧) ، ومن هناك كتب إلى محمود مشيداً بماسمعه عن حسن معاملته للرعية ، راغبا فى التعاون معه ، ثم مدافعا عن حقه فى ولاية أمر دارفور بنفس الصفة التى كان عليها يوسف ابراهيم (٨) . ورغم أن عليا أنهى رسالته برجاء حقن دماء

---

(١) ثيوبولد ص ١٠١

(٢) J. E. H. Boustead: The Youth and last days of Ali Dinar. S.N.R. Vol. 22, Part 1, p 149.

(٣) مهدية : ١٩٤/٦/٢١/٢ – ٢٩ جماد ثانى ١٣٠٨ الموافق ٩ فبراير ١٨٩١ ( ابكر البيقاوى إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ٣٥/١/١٤/١ – ٦ شعبان ١٣٠٨ الموافق ١٧ مارس ١٨٩١ ( محمود احمد إلى الخليفة ).

(٥) مهدية : ٢٧/١/١٤/١ – شعبان ١٣٠٨ الموافق ٩ فبراير ١٨٩١ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٦) مهدية : ٤٩/١/١٤/١ – ١٨ شوال ١٣٠٨ الموافق مارس/ابريل ١٨٩١ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٧) مهدية : ٦٩/١ /١/١٤/١ – ١٨ شوال ١٣٠٨ الموافق ٢٧ مايو ١٨٩١ ( محمود احمد إلى الخليفة).

(٨) مهدية : ١٨٧/١٣/١ – ٣ شعبان ١٣٠٨ الموافق ١٤ مارس ١٨٩١ (على دينار إلى محمود احمد).

مهدية : ٤٩/١٤/١ – شعبان ١٣٠٨ الموافق مارس/ابريل ١٨٩١ (محمود احمد إلى الخليفة).

المسلمين كأنما يعلن بذلك استعداده للقتال إن أرغم عليه ، إلا أن مبادرته للاتصال بمحمود تفضح واقع ضعفه وخذلانه .

وكان محمود على علم بما يجرى فى صفوف الفور . مدركاً لأثر إرفضاض حلفائهم من حولهم على قوتهم وتماسكهم . فعمد إلى الحيلة واللين فى كسب قادتهم . فهؤلاء لن يستجيبوا للتهديد والوعيد وإن فقدوا عدة المقاومة وعجزوا عن ملاقاة الأنصار فى ساحة الوغى . ونرى محمود لذلك يبذل الأمان لعلى دينار – قبل أن يأتيه خطاب هذا بالإمتثال – ويعد بإكرامه وإكرام صحبه إن هم أقبلوا عليه منقادين (١) ، فلما حل وفد الطاعة الذى أرسله على دينار بالفاشر ، أحسن محمود استقبال أعضائه وردهم برسالة إلى زعيمهم دعاه فيها إلى سرعة الحضور(٢) . وإذ تقرر فى هذا الوقت رحيل جيوش الأنصار إلى جبال النوبة (٣) ، وتعذر على محمود البقاء فى الفاشر حتى يفد على دينار اليها ، كتب إليه مخادعاً بأنه أنتظر قدومه لتعيينه نائبا له فى الفاشر ، فلما أبطأ فى الحضور جعل عليها عبد القادر دليل . وكى يدخل محمود فى روع على دينار أنه مازال يحسن الظن به ويعده لمكانة مرموقة استعجل مجيئه ومعاونة عبد القادر دليل لحين عودته هو من جبال النوبة (٤) .

---

(١) مهدية : ١/١٤/١/٤٩ – شعبان ١٣٠٨ الموافق مارس/ابريل ١٨٩١ ( محمود احمد إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ١/١٤/١/٦٩ / ١/١ – ١٨ شوال ١٣٠٨ الموافق ١٧ مايو ١٨٩١ ( محمود احمد إلى الخليفة).

(٣) استأذن محمود احمد الخليفة إثر دخوله الفاشر ووقوفه على الحال فيها فى الرحيل بجيشه إلى جبال النوبة لسد حاجة الأنصار من الغلال وتخفيف الضغط على اهل دارفور ، عسى أن يكون ذلك سببا فى تأليفهم. وجاء الاذن إلى محمود فنهض من الفاشر فى ١٠ يونيو ١٨٩١ بعد ان رتب شئون عمالته ، واطمأن إلى استتباب الامن فيها ، ولم يستطع محمود الوصــــول إلى جبال النوبة لتمرد جهاديته فى النهود، فسار إلى الأبيض واقام بها حتى تصفو نفوس الجهادية. وعزا محمــــود سبب تمرد الجهادية إلى طول بقائهم فى كردفان ودارفور بعيدين عن مركز الهداية امدرمان ، وذلك اعتقاد جعله يقترح رحيل الجيش إلى امدرمان فأقره الخليفة على رأيه ، بيد أن الخليفة قصد من مجيء محمود بجيشه إلى ارهاب الاشراف الذين تجدد نزاعهم معه اثر اقصاء محمد خالد زقل من عمالة دنقلا . وفات محمود الإشتراك فى قهر الأشراف نتيجة انتظاره لاجتماع بعض فرق الأنصار الذين غزوا دار المسيرية ، فطلب اليه الخليفة أن يتمهل فى الحضور ، ولما انتفت علة التأخير سار جيش محمود إلى أمدرمان ، فبلغاها فى مطلع يونيو ١٨٩٢. ثم عاد محمود إلى الأبيض بعد اقامة دامت اربعة شهور ، ومنها توجه إلى الفاشر فوصلها فى النصف الثانى من مارس ١٨٩٣. ويكون محمود بهذا قد غاب عن الفاشر واحداً وعشرين شهراً وغاب معه أثناءها الجزء الاعظم من جيشه (أنظر مهدية ١/١٤/١ و ٢ و٣).

(٤) مهدية : ١/١٤/١/٨٠ – ١٦ القعدة ١٣٠٨ الموافق ٢٣ يونيو ١٨٩١ ( محمود احمد إلى الخليفة).

ويبدو أن على دينار اشتم من مسلك محمود احمد حيلة للغدر به . أو أنه رأى فى تعيين عبد القادر دليل على الفاشر تنكراً وخروجا من محمود على الوعد الذى قطعه بإنزال علىّ منزلة يوسف ابراهيم عاملا للمهدية فى عاصمة أجداده (١) ، فتقاعس عن الحضور اليها . لكن ذلك لم يرض ملوكه الذين يئسوا من مواصلة القتال بعد أن فقدوا وسائله، ورأوا فى الامتثال للأنصار سلامة لانفسهم ومغنما ، فانشق ثمانية عشر منهم عليه وانضموا إلى عبد القادر دليل الذى أكرمهم وبالغ فى الاحتفاء بهم . وكان بين الخارجين رجال طالما ناهضوا المهدية، كسعيد بروس وعز العرب رحمة قومو، وهاهم اليوم يلقون بسلاحهم أرضا ويصادقون من أفرطوا فى عدائهم بالأمس (٢) .

وكانت تلك قاصمة الظهر . خسر على دينار أولا حلفاءه أهل « السودان » ، وتعرض بعد هذا إلى غارات المساليت بإيعاز السلاوى ومؤازرته ، فلم يبق له غير حفنة من الرجال رأى فى تماسكهم سلاحا يقاوم به محمود أحمد بعد أن تبددت فرص المقاومة، ثم سادت الفرقة صفوف قادة الفور ، فانحطمت وحدتهم بإنحياز فريق منهم للأنصار . ومادت الأرض لهذا تحت أقدام على دينار ، ثم انشقت عن هوة سحيقة يوم قرّ رأى بقية أتباعه على التسليم لعبد القادر دليل متأثرين بكرم المعاملة والحظوة التى لقيها من سبقهم إلى الفاشر من ملوك الفور . وخشية أن يسقط فى الهوة وحيداً فيبتلعه ظلامها ، ولات منقذ حينذاك ، خضع على دينار لواقع الأمر وأنفه فى الرغام ، فأتى الفاشر مسلماً فى ١٣ أكتوبر ١٨٩١ (٣) .

وسر الخليفة سروراً عظيما لانقياد على دينار ، فعفا عنه كامل العفو وهداه إلى التعاون مع عبد القادر دليل تكفيراً عن سابق سيئاته ، وظن الخليفة أن عليا قد طرح،

---

(١) جاء فى « السودان فى قرن ص ٣٣٧» أن العادة جرت منذ خرج محمد خالد زقل من دارفور بتسمية واحد من سلالةملوكها السابقين سلطانا اسميا عليها، وأن على دينار كان آخر من شغل ذلك المنصب ولئن انطبق هذ الكلام على يوسف ابراهيم قبل أن يناهض الخليفة، فهو لا ينطبق حتما على أبى الخيرات ابراهيم او على دينار. فقد حارب الاول الانصار حربا سافرة، فلم يعد مجال لرضاء الخليفة عنه او ائتمانه على حكم دارفور كما كان الامر مع يوسف قبل ثورته. اما على دينار فإنه تطلع إلى مكانة يوسف الاولى دون أن يحصل عليها، وظلت الشكوك تحوم حول اخلاصهحتى نفي إلى امدرمان. بيد أنه من الجائز خلع صفة السلطان الإسمي على ابى الخيرات وعلى دينار فى حالة واحدة وهى إنهما احتفظا بلقب السلطان دون ان تكون لهما سلطة فعلية فى دارفور.

(٢) مهدية : ١٠/١٤/١/$\frac{٨٥}{١}$٢٤ الحجة ١٣٠٨ الموافق ٣١ يوليو ١٨٩١ (عبد القادر دليل إلى محمود احمد ).

(٣) مهدية : ٢/٣٨/٣/٤٠ — ٢٧ صفر ١٣٠٩ الموافق ٢ اكتوبر ١٨٩١ (ابوه جودت فات إلى محمود احمد). ثيوبولد ص ١٠٦.

بتسليمه طواعية ، دعوى الملك جانباً وارتضى الانخراط فى سلك الأنصار وخدمة المهدية دون طمع فى مغنم شخصى . وذلك عين الخطأ . فقد انصاع على دينار بفعل ظروف قاهرة دون أن ينسى أنه سليل السلاطين وأحق الناس بالتربع على عرش دارفور . ومن علامات ذلك إصراره على تلقيب نفسه بالسلطان كلما كتب إلى محمود احمد، ومنها مطالبته بإمارة المهدية شأنه فى ذلك شأن يوسف ابراهيم ، ومنها أيضا مسعاه وقت دخوله الفاشر لضم ملوك الفور الذين خرجوا عليه إلى صفه ، فاجتماعهم حوله مظهر من مظاهر أبهة الملك ومصدر للقوة والتأييد . على أن الملوك أفسدوا خطة على دينار إذ أشاحوا بوجوههم عنه ، فساءه أن يمتنع ملوكه عن تبعيته،وساءه أكثر أن يشجعهم عبد القادر دليل فى هذا السبيل بإغرائهم بوظائف رابحة مجزية كجباية الضرائب فى جبل مرّة (١) .

وتدهورت إثر هذا العلاقات بين عبد القادر دليل وعلى دينار الذى كال لعبد القادر السباب والشتم ، وتآمر سراً على حياته لكن أمره انفضح ، فزج به فى السجن بعد تجريده من سلاحه وجهاديته (٢) ، وبارك محمود أحمد اولا ما اتخذه عبد القادر دليل من إجراء توكيداً لسلطته وتحطيماً لكبرياء على دينار وغروره (٣) . ثم عدل محمود عن رأيه فانتدب من الأبيض من يطلق سراح على دينار ويأتي به إليه بقصد عزله من عشيرته وتأليفه بعيداً عن الفاشر التى يذكره كل مافيها بمجد غابر كم مات فى سبيل بعثه رجال . وانضم على دينار بعد وصوله الأبيض إلى حاشية محمود (٤) . وظل يسير فى ركبه أينما اتجه . فزار برفقته امدرمان حيث تاب على يدى الخليفة فيما قال توبة نصوحة . لكنها توبة من أعياه القتال فاستسلم للمصير الذى أرداه فيه ضعفه دون أن يقعده اليأس فينسى الهدف الذى من أجله ناضل . فبعد زمن من رجوع على دينار إلى الفاشر فى ركب محمود بدت عليه علامات التبرم ، واخذ يذكر فى مجالسه عهداً له فى دار سُلا يوم كان حراً طليقا . فساورت محمود الشكوك،وشدد الرقابة على

(١) مهدية : ١/١٤/٢/$\frac{١٤١}{٣}$ – ٢٧ ربيع أول ١٣٠٩ الموافق ٣١ اكتوبر ١٨٩١ (محمود احمد إلى الخليفة).
(٢) مهدية : ٢/٣٨/٤/٤٨ – ٢٣ ربيع ثانى ١٣٠٩ الموافق ٢٦ نوفمبر ١٨٩١ (عبد القادر دليل إلى محمود احمــد).. كما انكر على دينار اشتراكه فى مقتل ابى الخيرات نفى نفيا باتا أن يكون دبر مكيدة للقضاء على عبد القادر دليل رغم احتقاره له واستهجانه لتصرفاته ، بل انه اتهم عبد القادر بالدس له حتى اوقع به فى السجن الذى بقى فيه ثلاثين يوما ( أنظر : السودان فى رسائل ، مجلد ٣٤ جزء أول ص ١١٥).
(٣) مهدية : ١/١٤/٢/١٥٦ – ١٥ جماد أول ١٣٠٩ الموافق ١٧ ديسمبر ١٨٩١ (محمود احمد إلى الخليفة).
(٤) مهدية : ١/١٤/٢/$\frac{١٧٠}{٢}$ ٢٣ رجب ١٣٠٩ الموافق ٢٢ فبراير ١٨٩٢ ( محمود احمد إلى الخليفة).

على دينـــار ثم اقترح على الخليفة استدعاءه (١) . وصادف الاقتراح هوى فى نفس الخليفة ، فدعا على دينار إلى زيارته ، ولم يجد هذا مناصا من إجابة الخليفة إلى مطلبه ، فقام من الفاشر فى أوائل يناير ١٨٩٥ ميمما وجهه شطر ام درمان (٢) . وسكت بذلك الصوت المنادى باستقلال الفور . فأصاب عامتهم الخنوع وانسدل على مشاهد كفاحهم ستار كثيف .

**(٢) البقاره** :

ليس ادل على صواب سياسة محمود أحمد السلمية وفلاحها من انصياع عصاة بنى هلبة والرزيقات، زيادة على الاستقرار الذى عم جنوب دارفور بعد طول اضطراب ، فلقد خفض محمود فى غير ضعف جانب اللين لقبائل هذه المنطقة ، فكسب مودتها وجاءته وفود زعمائها محيية طائعة ، غير أن توتراً غشى علاقات بنى هلبة والرزيقات بالأنصار يوم عاود هؤلاء سياسة التهجير ، ففطن محمود للخطر واستخدم الحيلة وسيلة لحث الناس على الهجرة ، فأقبل عليها كثيرون مما أحدث صدعا فى وحدة بعض القبائل. توسم بنو هلبة فى محمود أحمد خيراً حين جاءتهم كتبه بالأمان ، فانفصل زعيماهم ابراهيم الوالى ويوسف سنْدكه من معية على دينار (٣) ، وقصدا الفاشر فى نفر من كبار رجال القبيلة ركلا لحياة القرار وطمعاً فى فضل محمود ومودته (٤) . وكان محمود عند حسن ظن عيون بنى هلبة به ، فقد لقيهم بترحاب واستجاب لرغبتهم فى تعيين ابراهيم الوالى أميراً عليهم ويوسف سندكه نائبا له (٥) . وبذا فتحت صفحة جديدة فى علاقات بنى هلبة بالأنصار ، وغض الطرف عن سالف الإحن والاحقاد ، وسريعا اتى الوضع الجديد أكله ، فقد اجتمعت بطون القبيلة بعد شتات ، فعمرت بالناس الديار ودبت فى أوصالها الحياة . ولم يضع ابراهيم الوالى ويوسف سنْدكه وقتا فى بسط نفوذهما ودعمه ، ونبذا كل تدخل لعامل دارّه فى شئونهما ، ثم شكيـــاه إلى محمود حين الح فى توكيد إمرته عليهمـــا (٦) . فصدر الامر لمحمد جُوده بالاقلاع عن

---

(١) مهدية : ١/١٥/٢/١٣٨ – ١٧ جماد أول ١٣١٢ الموافق ١٦ نوفمبر ١٨٩٤ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ١/١٥/٢/١٥٣ – ١٧ رجب الموافق ١٤ يناير ١٨٩٥ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ٢/٥/٣٣٠ – ١٧ شوال ١٣٠٨ الموافق ٢٨ مارس ١٨٩١ (على دينار إلى محمود احمد).

(٤) مهدية : ١/١٤/١/٢٧ – غاية جماد ثانى ١٣٠٨ الموافق ٩ فبراير ١٨٩١ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٥) مهدية : ١/١٤/١/٨٠ – ١٦ القعدة ١٣٠٨ الموافق ٢٣ يونيو ١٨٩١ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٦) مهدية : ٢/٣٨/٤/٣٦ – ٢٤ محرم ١٣٠٩ الموافق ٣٠ اغسطس ١٨٩١ (ابراهيم الوالى إلى محمود احمد).

مهدية : ٢/٢٢/٧/٢٣١ – ١٧ رجب ١٣٠٩ الموافق ١٦ فبراير ١٨٩٢ (يوسف سندكه إلى الخليفة).

مضايقة ابراهيم الوالى ويوسف سنْدكّه ومنعه من جباية الزكاة من عشيرتهما ، فصدع محمد جوده للأمر وهدأت ثائرة زعيمى بنى هلبة (١) .

وكان متوقعا أن يشع نور الهداية بعد هذا على قلوب بنى هلبة ويرجعوا إلى طاعة المهدية تدرجاً ، لولا أن فوجئوا بالخليفة يدعوهم إلى زيارة أم درمان ولما يمض على لقائهم بمحمود أحمد شهور معدودة (٢) ، فغشيتهم الخشية، وخافوا أن تتجدد محاولات الأنصار لإكراههم على الهجرة ، لكنهم تيقظوا إلى مغبة المجاهرة برفضها ، فأرسلوا وفدا برئاسة داود الوالى ليحمل إلى الخليفة ولاءهم عله يقتنع بصدق امتثالهم فيكف عن دعوتهم (٣). وماكان شيء ليجعل الخليفة يحيد عن رأيه بضرورة هجرة بنى هلبة ، فألح فى طلبهم وعاد داود إلى دارفور يستنفر أهله فى حماس إلى الهجرة ، وهنا أسقط فى يد ابراهيم الوالى إذ رأى أخاه يختلف معه فيظهره بمظهر المعارض لأمر الخليفة ويحدث أنقساماخطيراً فى القبيلة،على أن ابراهيم أعمل الحيلة كى يبقى على خيط الود الرفيع الذى يربطه بالأنصار منعاً لعدوانهم عليه ، فأبلغ محمد جُوده بالغ إحترامه لرغبة الخليفة التى سيحمل النفس على تلبيتها ، فينهض مهاجراً وقتما انتهى حصاد الزرع (٤) .

ولم يخدع محمد جُوده، فقد اعتقد صدقاً فى نفور إبراهيم الوالى من الهجرة ، وشك فى اتصاله سراً بالسلاوى (٥) ، ثم أصبح الشك يقينا لما علم محمد جُوده بما تعاهد عليه شيوخ بنى هلبة من امتناع عن الرحيل إلى أم درمان ، وبلغه خبر الوفد الذى أرسلوه إلى دار سُلا للحصول على عون من سلطانها ولتمهيد الطريق لفرارهم اليها إن استل الأنصار السيف فى وجههم (٦) . حدث كل هذا فى غيبة محمود أحمد الأولى عن دارفور (٧) ، فلما قفل راجعاً إلى الفاشر بكامل جيشه أصاب الرعب بنى هلبة بدون أن يقصد محمود إلى إرهابهم ، فاجتمع إبراهيم الوالى ويوسف سنْدكّه وغيرهما من

(١) مهدية : ٧٥/٥/٣٨/٢ – ١٥ صفر ١٣١٠ الموافق ٨ سبتمبر ١٨٩٢ (محمد جوده إلى محمود احمد).

(٢) مهدية : ٢٣١/٧/٢٢/٢ – ١٧ رجب ١٣٠٩ الموافق ١٦ فبراير ١٨٩٢ (يوسف سندكه إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ٢٢٢/٧/٢٢/٢ – ١٧ رجب ١٣٠٩ الموافق ١٦ فبراير ١٨٩٢ (ابراهيم الوالى إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ٣١٧/١٥/٤١/٢ – ١٩ جماد إلى ١٣١٠ الموافق ٩ ديسمبر ١٨٩٢ (ابراهيم الوالى إلى محمد جوده).

(٥) مهدية : ٣٠٨/١/٣/١٤/١ – ٢٧ جماد أول ١٣١٠ الموافق ٩ ديسمبر ١٨٩٢ (ابراهيم الوالى إلى محمد جودة).

(٦) مهدية : ١٠٥/٥/٣٨/٢ – ٤ رجب ١٣١٠ الموافق ٢٢ يناير ١٨٩٣ (محمد جودة إلى محمود احمد).

(٧) انظر ص ٢٩٥.

زعماء القبيلة حول مندوبه بشارونيس فى رهيد البردى ، واخذوا يتأهبون للهجرة ثم تقاعسوا حين توفى يوسف سندكه (١) .

ولم يفقد بشار الأمل فى سوق بنى هلبة ، فظل يستنفرهم ويتلطف بهم حتى فوجئ بهروب إبراهيم الوالى فى جمع غفير من اتباعه غرباً (٢) ، وظهر فيما بعد أن الهاربين توجهوا إلى دار سُلا ، فمنعهم السلاوى من دخولها حينما رفضوا دفع جزية كبيرة ثمنا لإقامتهم ، فكتبوا إلى المسلاتي يستعطفونه إيوائهم فردهم رداً عنيفا ، وإذ أصبح الهاربون فى حيرة من أمرهم عادوا إلى ديارهم واستسمحوا محمود أحمد فى شنيع تصرفهم ، فعفا عنهم وعين عمر الضهيب الذى أشتهر بموالاة الأنصار أميراً عليهم (٣) . وضاعت زعامة بنى هلبة إذ ذاك من ابراهيم الوالى الذى استولى عليه الخوف من العقاب فأبى الرجوع إلى موطنه حتى بعد أن اصدر الخليفة أمراً بالعفو عنه (٤) ، وعاش بقية عمره طريداً وحيداً .

وبينما انقاد بنو هلبة سلما رغم محاولتهم الهرب إلى دار سُلا ، فشلت وسيلة الاسترضاء إبتداء فى إدخال الرزيقات فى الطاعة ، فلجأ الأنصار إلى العنف فى تأديبهم وكان فضل النبى أصيل عند وصول محمود أحمد إلى الفاشر يضرب فى شطآن بحر العرب ، يحارب هذه الجماعة من الرزيقات ويستميل تلك حتى دانت له فرق من القديانية والنوايبه واولاد محمد . وكشأنه مع بقية قبائل دارفور بذل محمود الأمان للرزيقات ووجه فضل النبى أصيل إلى الكف عن قتالهم والرجوع من بحر العرب إلى شكا ، وأمره بالتعاون مع موسى مادبو وبُرار اجْبر اللذين وفدا من ام درمان رسولى هداية ومحبة (٥). واهتدى فضل النبى بإرشاد محمود ، فأسلم قياد من اجتمع له من الرزيقات إلى موسى مادبو الذى لحق به فى بحر العرب حال قدومه إلى شكا . ويبدو أن عودة موسى مادبو إلى دار الرزيقات أحيت أمل الخلاص فى نفوس أهله ، فخشى فضل النبى من نكوصهم

(١) مهدية : ١/١٥/١/٥٠ – ٢٣ شعبان ١٣١١ الموافق ١ مارس ١٨٩٤ (بشار ونيس إلى محمود احمد).

(٢) مهدية : ١/١٥/١/٧٩ – ٩ القعدة ١٣١١ الموافق ١٤ مايو ١٨٩٤ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ١/١٥/٢/١٢٧ – ١٥ ربيع ثانى ١٣١٢ الموافق ١٦ أكتوبر ١٨٩٤ (محمود احمد إلى الخليفة)

(٤) مهدية : ٢/٣٢/٥/٤٠٤ – ١٣ رمضان ١٣١٢ الموافق ١٠ مارس ١٨٩٥ (الخليفة إلى ابراهيم الوالى).

(٥) مهدية : ١/١٤/١/٤١ – ٦ شعبان ١٣٠٨ الموافق ١٧ مارس ١٨٩١ (محمود احمد إلى الخليفة).

على أعقابهم وجردهم من خيولهم ، فأقره محمود احمد على ذلك ، ثم كرر عليه النصح بخفض جانب اللين للرزيقات عساهم يرعوون (1) .

وماكان الرزيقات الذين انتشروا فى فروع بحر العرب النائية وأولئك الذين دخلوا دار الجانْقى ليخضعوا لغير السيف . وماتردد فضل النبى اصيل فى ضربهم به . كذلك فعل مساعده بشيركثير الذى توغل فى دار جانْقى وهو يطارد الرزيقات ، فأفزع ذلك حَجَر ولد ضَحيّه سلطان تَلْقُو ُنه (2) ، فكتب إلى محمود ينشد وده ويؤكد خالص اعتقاده فى المهدية . ونتج عن حملات فضل النبى وبشير انصياع خلق كثير جيىء بهم إلى شَكا حيث عمل موسى مادبو وبُرار اجْبر ليل نهار على هداية النافرين منهم وتثبيت المطيعين على طاعتهم ، ونجح الرجلان أخيراً فى النهوض بكل من اجتمع فى شَكا من الرزيقات وقصدوا ام درمان وفضل النبى اصيل يسير خلفهم برجاله كى يسد الطريق على من يحاول الهرب (3) . وهكذا انقادت أكثر قبائل البقارة تمرداً واقواها بأسا ، وسارت جموعها إلى ام درمان حتى حطت الرحال عند مشارفها فى نهاية عام ١٨٩١ (4).

ب — الجبهة الغربية :

ودّ محمود أحمد لو أن سلاطين الجبهة الغربية استقبلوا عروض الصلح والأمان التى بثها فيهم بنفس الروح الصادقة التى أملتها عليه ، وتمنى أن لو انصاعوا لأمر المهدية دون قتال فتجنبوا ويلاته ، ولم تصدر اماني محمود عن ضعف فى الاستعداد للحرب أو عن جبن فى خوض غمارها ، وإنما نبعت عن إيمان عميق بأن وقوع حرب جديدة يعنى استمرار الخراب الذى هد كيان دارفور واوردها موارد الهلاك ، فأضحى تفاديها أملا تصبو إلى تحقيقه النفوس . لكن سلاطين الجبهة الغربية خيبوا ذلك الأمل ، فمنهم من أهمل رسائل محمود وأغفل الرد عليها ثم جاهر بالعداء ، ومنهم من أبدى كثيراً من مظاهر الطاعة ثم اتضح نفاقه ، وتبددت لهذا فرص السلام ، فكانت الحرب .

اختلف سلاطين الجبهة الغربية باديء ذى بدء فى قبول يد الصلح والتعاون التى

---

(1) مهدية : ١/١٤/١/٦٣ — ١٨ شوال ١٣٠٨ الموافق ٢٧ مايو ١٨٩١ (محمود احمد إلى الخليفة).

(2) مهدية : ١/١٤/١/٦٠ — ١٨ شوال ١٣٠٨ الموافق ١٧ مايو ١٨٩١ (محمود احمد إلى الخليفة). أنظر كذلك ص ٣٣٧.

(3) مهدية : ١/١٤/٢/١٠٣ — غرة محرم ١٣٠٩ الموافق ٧ اغسطس ١٨٩١ (محمود احمد إلى الخليفة).

(4) مهدية : ٢/٢٢/٥/٩٦ — ٨ جماد أول ١٣٠٩ الموافق ١٠ ديسمبر ١٨٩١ (موسى مادبو واخرون إلى الخليفة).

مدها محمود احمد اليهم . فقد شدّ عليها القمْراوى وحامد تُورْجُوك مرحبين بعودة علاقاتهما الطيبة مع الأنصار (١) . وراح القِمِر وبنو حسين يتاجرون مع كَبكابيّه (٢) ، وفعل المسلاتي مثل مافعل القِمْراوى وتورْجُوك ، بل انه بالغ فى الاحتفاء بمقدم محمود فانتدب من يحمل اليه خالص تحيته وعميق تأثره بسياسته السلمية ، فاستحق المسلاتي لذلك عفو الخليفة وشكره (٣) . وليس من تفسير لهذا التغيير فى موقف ابكر اسماعيل تجاه الأنصار غير عزمه على أن ينأى بما ناله من حرية عن كل خطر . لقد حارب ابكر اسماعيل أبا الخيرات ابراهيم وطرد على دينار من اطراف دار المساليت فانعتق نتيجة لذلك من سطوة الفور ، وبقى له أن يحافظ على استقلاله ضد قوتين تحيطان به إحاطة السوار بالمعصم . فمن جهة تطلع الأنصار إلى رد المساليت إلى حظيرة دولتهم ، ومن جهة أخرى كره السلاوى والبرقاوى أن يريا ابكر يقيم ملكا منفصلا ولايرضى بوصايتهما عليه (٤) . ونسبة لاشتداد الضغط على ابكر من هذه الجهة فى هذا الوقت فإنه مال إلى الأنصار أمانا من هجوم يقومون به عليه ، كما طمع قطعا فى الاستظهار بهم على السلاوى والبرقاوى . أما البرقاوى وتبعه الخلص سلاطين تامه وكُوبي فقد لاذوا بالصمت (٥) ، مهملين دعاء محمود أحمد بالصلح ، فترسب فى نفسه غضب تحول بفعل ظروف آتيه إلى كراهية دفعته إلى حربهم والإنتقام منهم .

وكانت غيبة محمود أحمد الاولى عن دارفور فرصة لامتحان دعوى من أعلن انقياده من سلاطين الجبهة الغربية . واجتاز المسلاتي الاختبار بنجاح إذ بقى على ولائه واتصاله بسَنينْ حسين أمير الأنصار فى كَبْكابيّه (٦) ، الا أن الشك ساور أبكر فى امكانية دوام صلاته الطيبة بالأنصار لما رآهم يحتضنون خصمه هَجّام حسب الله الذى مازال يحلم بالإمارة على دار المساليت ويستعدى أهلها على ابكر (٧) ، ولم تبدر من

(١) مهدية : ١/١٤/١/٥١ – ٢٢ رمضان ١٣٠٨ الموافق ١ مايو ١٨٩١ (محمود احمد إلى الخليفة)

(٢) مهدية : ١/١٤/١/٨٠ – ١٦ القعده ١٣٠٨ الموافق ٢٣ يونيو ١٨٩١ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ١/١٤/١/٢٧ – غاية جماد ثانى ١٣٠٨ الموافق ٩ فبراير ١٨٩١ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٤) انظر ص ٢٧٥.

(٥) مهدية : ٢/٢٣/٣/٤٧ – ربيع أول ١٣١٠ الموافق سبتمبر/اكتوبر ١٨٩٢ (عبد القادر دليل وابوه جودت فات إلى الخليفة).

(٦) مهدية : ١/١٤/٢/١٠١ – غرة محرم ١٣٠٩ الموافق ٧ اغسطس ١٨٩١ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٧) مهدية : ١/١٥/١/٢٨ – ١٠ ربيع ثانى ١٣١٠ الموافق ٢١ اكتوبر ١٨٩٣ (محمود احمد إلى الخليفة).

القمراوى بادرة سوء أوخيانة بالعهد غير تحرشه بمصطفى بحر[1] زعيم الزغاوة الموالين للأنصار ، وسعيه إلى ضمان حيدته واستمالته إن أمكن لما لديار الزغاوة من موقع استراتيجى يستطيع الأنصار النفاذ منه إلى دار قمير دون أن يحس أهلها باقترابهم . ومن الجلى أن تصرف القمراوى لم يكن إلا دفاعاً عن النفس . على أن عبد القادر دليل رأى فيه عدوا ، فأرسل جيشا ليقيم فى امبَرو – مقر مصطفى – لحماية الزغاوة وتأمينهم [2] .

وكذلك كان رحيل محمود فرصة ليكشر السلاوى والبرقاوى عن ناب عدائهما للأنصار ، مما أثار حفيظة محمود عليهما ، وصمم على جهاد هما حال عودته إلى دارفور . فقد أغارت قوات السلاوى على منطقة غربي جبل مرّة بهدف بسط نفوذه فيها ، فالتحمت بجيش للأنصار كان يقوده سعيد بروس الذى انضوى تحت راية المهدية وراح يحارب باسمها ، ودارت على الغزاة الدائرة فانهزموا إلى دار سُلا مخلفين وراءهم عدداً من القتلى [3] .

وشجع البرقاوى هجوم عربان المحاميد المقيمين فى بلاده على عشيرة مصطفى بحّر عقابا لهم على تحالفهم مع الأنصار ، فكان هذا سببا ثانيا لإقامة الجيش الذى دفع به عبد القادر دليل الى امبَرَو . ومن ناحية أخرى درج البرقاوى على بث جواسيس يأتونه بأخبار الفاشر وام درمان حتى يكون على بينة ممايجرى فيهما . واتفق أن كشف أمر جماعة من هؤلاء الجواسيس ، فوجه محمود احمد عبد القادر دليل إلى ضبط كل من يفد إلى الفاشر من البَرْقو حتى وإن احتجوا بالذهاب إلى مكة [4] . وبلغ عدد من اعتقلوا من البَرْقو فى غيبة محمود مائة وتسعاً وخمسين شخصا أرسلوا جميعا إلى الأبيض

---

(١) أفادنى الملك آدم محمدين ، الزعيم الحالى لزغاوه تور أن جده حجر ولد بحـر ولى اخاه محمود شئون قبيلته حين رحل إلى امدرمان ( أنظر ص ١٤١ ) ، لكن شيوخ تور نفروا منه وقدموا اخا ثان لحجر هو مصطفى – الذى نحن بصدده – ملكا عليهم. وجاء فى خطاب من مصطفى هذا إلى الخليفة انه اضطر إلى الحرب بقومه إلى دار البديات ومنها إلى دار القرعان عندما توالت عليه هجمات الأنصار ايام عثمان آدم، فلما انقضى ذلك العهد وجاء محمود احمد لينشر الامن والطمانينة فى ربوع دارفور رجع تور ومن هم فى حلفهم من الزغاوة إلى ديارهم ، ثم قصد زعماؤهم الفاشر حيث قدموا فروض الطاعة لمحمود ( مهدية ٢/٢١/٩/٢٦٢ – ١٠ رمضان ١٣٠٨ الموافق ١٩ ابريل ١٨٩١).

(٢) مهدية : ٢/٢٣/٥/١٠ – ٢٨ جماد أول ١٣١٠ الموافق ١٨ ديسمبر ١٨٩٢ (عبد القادر دليل إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ١/١٤/٢/١٩٢ – رمضان ١٣٠٩ الموافق ٦ ابريل ١٨٩٢ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ١/١٤/٣/ ٢٧٥/١ – ١١ ربيع ثانى ١٣١٠ الموافق ٢ نوفمبر ١٨٩٢ ( محمود احمد إلى الخليفة).

ومن هناك سيقوا إلى ام درمان (١) . ويذكرنا هـــذا بواحد من الأسباب التى أثارت أبا جميزة فيما قال على الخليفة . ويبدو أن الخليفة خشى من أن يتخذ المغرضون أو من هم فى شاكلة ابي جميزة من سد طريق الحجيج تكأة للإثارة الدينية ، فأشار على محمود بفتح الطريق على أن يكون حذراً رقيبا (٢) .

وعاد محمود أحمد إلى الفاشر فى النصف الثاني من مارس ١٨٩٣ (٣) ، وظل لفترة يدرس ماجدّ فى مسلك سلاطين الجبهة الغربية تجاه الأنصار من تغيير ، ويستبين مواطن القـوة والضعف فى موقفهم حتى تخرج خطته لمعالجة أمرهم ناضجة سليمة . وانتهى البحث إلى قرار بغزو دار سُلا التى اغترّ سلطانها فطلب الأنصار فى عقر دارهـم ، وراح محمود يتأهب للحرب بعد أن حصل على موافقة الخليفة بمعاقبة السلاوى على غيه وعدوانه (٤) . غير أن أمراً خطيراً استدعى قيام محمود بجيشه إلى جبال النوبة (٥) . فأبطل حملته المزمعة على دار سُلا ، وغادر الفاشر فى بداية سبتمبر ١٨٩٣ بعد أن أناب الأمير عيسى زكريا فى إدارتها ، واستزادة فى الاطمئنان إلى استقرار الوضع فى دارفور اصطحب محمود عدداً من زعمائها كان بينهم على دينار وأبكر البيقاوى ومصطفى بحَر واخرون (٦) .

وقام بعض سلاطين الجبهة الغربية خلال غيبة محمود الثانية تلك بنشاط لم يترك للأنصار من خيار غير جهادهم . فقد انتدب البرقاوى من يأتيه بالجزية من دار كُوبي تأكيداً لسيادته عليها (٧) ، ولما لم يرمن الأنصار اعتراضا أو مقاومة أصابه الزهو ، فدفع

---

(١) مهدية : ١/١٤/٣/ ١٨٥/١ — ٢٣ ربيع ثانى ١٣١٠ الموافق ١٤ نوفمبر ١٨٩٢ (محمود احمد إلى الخليفة).

مهدية : ١/١٤/٣/٣٠٠ — ٩ جماد اول ١٣١٠ الموافق ٢٩ نوفمبر ١٨٩٢ ( محمود احمد إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ١/١٣/٦/ ٢٨/١ — ٦ محرم ١٣١١ الموافق ٢١ يوليو ١٨٩٣ ( الخليفة الى محمود احمد ).

(٣) انظر ص ٢٩٦.

(٤) مهدية : ١/١٣/٦/٢٠٥ — ٢٥ محرم ١٣١١ الموافق ٨ أغسطس ١٨٩٣ ( الخليفة إلى محمود احمد ).

(٥) ما كاد محمود احمد يصل الفاشر حتى ورد اليه كتاب من الخليفة فحواه ان الناس ارجفوا بظهور رجل يدعى « مزيل المحن » فى جبال النوبة، وانه سحر الخلق بمعسول كلامه ووعوده ، فتبعوه قصدا لحرب الأنصار ولذا سار محمود إلى جبال النوبة لتدارك الموقف الذى قيل إنه خطير ، فاتضح ان الأمر محض اختلاق ( شقير ٣ : ص ٥٤٧).

(٦) مهــدية : ١/١٥/١/١٢ — ٣ ربيع اول ١٣١١ الموافق ١٤ سبتمبر ١٨١٣ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٧) مهدية : ١/١٥/١/٥٦ — ١٦ رمضان ١٣١١ الموافق ٢٣ مارس ١٨٩٤ ( محمود احمد إلى الخليفة).

بجيش اتخذ من دار كُوبي مركزاً للهجوم على الزغاوة قَلا وتُورْ ، وهذا ماعجل بقيام محمود من دَارَه التى نزل بها فى طريق عودته إلى دارفور لينظر فى إعداد الحملة التى قادها الختيم موسى إلى بحر الغزال (1) . وأنفذ محمود وقت رجوعه إلى الفاشر فى ١٤ يوليو ١٨٩٤ قوة بقيادة الأمير فضل الله شرف الدين لطرد البَرْقو من دار كُوبي خشية أن ينحاز قَلا وتُورْ إلى جانبهم إن لم يوفر لهم الأنصار الحماية الكافية (2) ، وتبع ذلك تجريد جيش آخر أوكلت إمرته إلى سليمان أحمد أكرت الذى أمر بالإقامة فى كَبْكابيّه لمعاونة فضل الله إن طلب مساعدته وبغرض إشاعة الخبر فى الجبهة الغربية بقدوم الأنصار إرهابا لسكانها علهم يرعوون (3) .

وحدث كذلك ما أغضب محمودا على المسلاتي ، وجعله يتوعده بالويل والثبور ، ويقطع صلاته به لإقامَة الحجة عليه (4) ، ويزيّن للخليفة أهمية غزو دار المساليت (5) . فحين رأى أبَكر الأنصار يؤازرون غريمه هَجّاما ويمنونه بإمارة المساليت ، أخذ أهل هَجّام ومؤيديه بالشدة والغلظة ، فقتل نمرا من شيوخهم واستباح حرماتهم ، وأعلن سخطه على الأنصار وعزمه على قتالهم إن مدوا ايديهم إلى أرضه (6) . اما القمْراوى فانكشَف لمحمود خداعه لما اعتذر عن الحضور إلى الفاشر (7) ، وثبت له تعاونه مع البرقاوى رغم ادعائه الامتثال للمهدية (8) ، ولهذا أذن محمود فضل الله شرف الدين فى تأديب القِمْراوى بعد طرد البَرْقو من دار كُوبي إن أنس فى رجاله قدرة على ذلك .

ومنى الأنصار بالخسران فى أولى معاركهم بالجبهة الغربية ، فبعد أن تبين لفضل الله شرف الدين إخلاء البَرْقو لدار كُوبي عند سماعهم بخبره قصد دار قِمِر لقتال سلطانها الذى استعد للقائه ورصد له بقرب واد يعرف بوادى عَرَديب . واستعجل فضل الله حرب العدو ما أن اقترب من مواقعه ، فتقدم جيشه فى ثلة من الرجال لاجتياز

---

(1) مهدية : ١/١٥/١/٩٨ - ٢٧ الحجة ١٣١١ الموافق ١ يوليو ١٨٩٤ (محمود احمد إلى الخليفة) أنظر كذلك ص ٣٣٦.

(2) مهدية: ١/١٥/٢/١١ - ٢١ محرم ١٣١٢ الموافق ٢٥ يوليو ١٨٩٤ (محمود احمد إلى الخليفة).

(3) مهدية : ١/١٥/٢/١١٦ - ٨ صفر ١٣٠٢ الموافق ١١ اغسطس ١٨٩٤ (محمود احمد إلى الخليفة).

(4) مهدية : ١/١٥/٢/١١٨ - ٨ صفر ١٣١٢ الموافق ١١ اغسطس ( محمود احمد إلى الخليفة ).

(5) مهدية : ١/١٥/٢/١٢٥ - ١٥ ربيع ثانى ١٣١٢ الموافق ١٦ اكتوبر ١٨٩٤ ( محمود احمد إلى الخليفة).

(6) مهدية : ١/١٥/١/٥٦ - ١٦ رمضان ١٣١١ الموافق ٢٣ مارس ١٨٩٤ ( محمود احمد إلى الخليفة).

(7) مهدية : ١/١٥/١/٧ - ١٠ صفر ١٣١١ الموافق ٢٣ اغسطس ١٨٩٣ ( محمود احمد إلى الخليفة ).

(8) مهدية : ١/١٥/١/٢٨ - ١٠ ربيع ثانى ١٣١١ الموافق ٢١ اكتوبر ١٨٩٣ ( محمود احمد إلى الخليفة).

وادى عرَديب رغم اعتراض الناصحين له بالتريث حتى ينحسر الماء الذى فاضت به جنبات الوادى ، واستقبل اتباع القمراوى فضل الله بوابل من الرصاص ما أن وطئت قدماه الشط الذى يعسكرون فيه ، فأردوه قتيلا . وسريعا ذاع الخبر فشاعت روح الهزيمة بين الأنصار ، وقر رأى أمرائهم على التراجع ، فانسحب فريق منهم بقيادة عيسى زكريا إلى دار الزغاوة وذهب الباقون إلى كَبْكابيّه (١) .

وما كان لمحمود أحمد أن يسكت على فشل اصحابه استنهاضا لهمم الذين تخاذلوا منهم ، ومنعا لسلاطين الجبهة الغربية من أن يظنوا بالأنصار ضعفاً فيسدروا فى غيهم ، فاستأذن الخليفة فى إعادة الكرة على دار قِمِر (٢) ، ولما اجيب إلى مقصده جهز محمود جيشا كبيراً ، وانطلق من الفاشر فى منتصف يناير ١٨٩٥ والأمل يحدوه فى نصر مبين على جميع ملوك الجبهة الغربية (٣) . ولم يخب محمود فى مسعاه فقد صاحبته نجوم السعد فى كل غزواته وإن أفلت من قبضته الذين رمى إلى هلاكهم وأخفق هو آخر الشوط فى ضم ديار الجبهة الغربية إلى دولة المهدية بصفة دائمة . وانهالت أولى ضربات محمود على القمراوى فطرده أولا من عاصمته ، وطرده ثانيا من مكان يقال له الشَلاّل بعد أن غنم كثيراً من أبقاره وأسر عديداً من أهله وولده ، وحينذاك احتمى القمراوى بالمسلاتي الذى آواه حبا فى ماله . ولم يؤخر محمود عن ملاحقة القمراوى إلا انصرافه لجهاد السلطان سليمان ابراهيم التاماوى وتفضيله الاشتغال بدعم نفوذ المهدية فى دارى قِمِر وتامه قبل أن يتوجه الأنصار لقتال المساليت (٤) .

وحَل بالتاماوى ما حق بالقمراوى من خذلان. فعلى إثر دخول الأنصار لدار قِمِر كتب محمود إلى التاماوى ينصحه بالطاعة ، فسفه التاماوى نصح محمود وجعل ولى عهده يونس على رأس قوة وجهها لمنازلة الأنصار الذين افلحوا فى تشتيت جموعها ، وقتل يونس (٥) . واذ خسر التاماوى جيشه واستحال عليه الدفاع عن عاصمته نيرَة هجرها

---

(١) مهدية : ١/١٥/٢/١٢١ – ٢٤ صفر ١٣١٢ الموافق ٢٧ اغسطس ١٨٩٤ (محمود احمد إلى الخليفة).
حدثنى السلطان عثمان هاشم ، زعيم دار قمر حاليا بان اهله مازالو يذكرون واقعة وادى عرديب ، وقد سموا فضل الله شرف الدين بفضل الله عجلان نسبة لروح العجلة الذى اتسم به تصرفه.

(٢) مهدية : ١/١٥/٢/١٣٥ – ١٥ ربيع ثانى ١٣٠٢ الموافق ١٦ اكتوبر ١٨٩٤ (محمود أحمد إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ١/١٥/٢/٥١ – ١٧ رجب ١٣٠٢ الموافق ١٤ يناير ١٨٩٥ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ١/١٥/٢/١٥٤ – ٢٧ شعبان ١٣١٢ الموافق ٢٣ فبراير ١٨٩٥ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٥) مهدية : ١/١٣/٧/٢٨٢ – ٢٧ رمضان ١٣١٢ الموافق ٢٤ مارس ١٨٩٥ (محمود احمد إلى الخليفة).

وهام على وجهه ، فلاحقه الأنصار حتى دخل دار بَرْقو فرجعوا عنه . وجاست سرايا الأنصار بعد ذلك فى دار تامه تخضع من لم يطع من أهلها حتى دانوا لهم جميعا .

وتعين على محمود عقب هذا تعيين رجال يثق فى قدرتهم واخلاصهم على عرشى القِمر وتامه فسمى حسب الله أبابكر هاشم على الفرقة الاولى، وادريس ابراهيم على الثانية ، وأرفق ابكّوره ولد نور – وهو شيخ لفرع منيع من بطون القِمر – بحسب الله لمعاونته فى النهوض بمسئولياته (١) . ويلاحظ هنا أن محمود إنما واصل بهذا العمل السياسة التى أختطها عثمان آدم، والتى قضت بإحلال رجال يخلصون العهد للمهدية مكان سلاطين الجبهة الغربية العصاة كشرط أساسى لانقياد سكانها وهدوء الحال فيها (٢) ، ويلاحظ ثانيا أن اختيار محمود وقع فى الحالتين على أخ للسلطان الطريد وفى ذلك دون ريب استغلال لخلافات محلية أذكى محمود أوراها ، فانبرى خصومه يردون السهم إلى صدره ويقتلعون مرشحيه من العروش التى أجلسهم عليها .

وبدهى أن يفزع البرقاوى للفوز الذى أدركه محمود ، وأن يستولى عليه الهلع لما اقتربت جحافل الأنصار من بلاده حتى أصبحت قراها فى مرمى بنادقهم ، فنشط البرقاوى لهذا فى تكوين حلف يدفع به توسع الأنصار ليصون استقلاله ، ويعيد أتباعه من سلاطين الجبهة الغربية إلى عروشهم . وتم تأليف الحلف على مراحل . فقد جمع البرقاوى أولاً جيشاً عظيماً ودفع به إلى دار المساليت لإثارة أهلها ، ثم زحف الجيش شمالاً حتى حط الرحال قريباً من معسكر الأنصار على حدود تامه (٣) ، وتلى هذا انضواء سلطان تامه المخلوع إلى البرقو الذين جاءوا لنصرته (٤) ، ثم خاطب البرقاوى سلطان كوبي عبد الرحمن فرْتي فلامه على تقاعسه عن نجدة التاماوى حين أغار الأنصار عليه ، وحثه على الإنضمام إلى عقيد المحاميد الذى قاد جيش البَرْقو كيما تتحد الجهود وتتضافر فى رد الأنصار على أعقابهم خاسرين (٥) .

على أن تدهور العلاقة بين المسلاتي والقِمْراوى فى هذا الوقت أضعف من قوة

---

(١) مهدية : ١/١٥/٣/١٧٣ – غاية محرم ١٣١٢ الموافق ٢٣ يوليو ١٨٩٥ (محمود احمد إلى الخليفة).
مهدية : ١/١٥/٣/١٧٥ – غاية محرم ١٣١٢ الموافق ٢٣ يوليو ١٨٩٥ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٢) انظر ص ٢٨١ – ٢٨٢..

(٣) مهدية : ١/١٥/٣/١٧١ – غاية محرم ١٣١٢ الموافق ٢٣ يوليو ١٨٩٥ (محمود أحمد إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ٢/٢٦/١٢/١٦٩ – الحجة ١٣١٢ الموافق مايو/يونيو ١٨٩٦ (عقيد المحاميد إلى العلامة أحمد).

(٥) مهدية : ٢/٥/٣/١٣٦ – بدون تاريخ (السلطان محمد يوسف إلى عبد الرحمن فرتى ).

ذاالك تحالف وفعاليته . وكان الرجلان على خلاف قبل هجوم محمود على الجبهة الغربية رغم مابينهما من صلات الجوار والنسب (١) ، فلما حمل الأنصار على دار قِمِر وطرد القمْراوى من عاصمته رجا المسلاتي إيوائه فقبله هذا لاجئا، ثم غدر به طمعا فى ممتلكاته . فلم يجد القِمْراوى بدأً من الفرار إلى دار كُوبي بعد أن جرده المساليت من نحاسه وكثير من ماله (٢) . ورحل القِمْراوى بعد ذلك إلى دار بَرْقو ، فأحسن سلطانها استقباله ووعده برد أملاكه اليه رضى المسلاتي أو لم يرض (٣) . لكن البرقاوى اختار تأجيل البت فى النزاع كى لايشغل عن مواجهة خطر الأنصار المائل ، وإن كان بتوليه الدفاع عن حقوق القمْراوى قد أوحى للمسلاتي بأن شراً أريد به . فأحجم هذا عن الإشتراك فى حلف زعامته بيد البرقاوى .

وحين القى البرقاوى القفاز فى وجه محمود اعتملت نفس هذا بالثورة وقبل التحدى ورأى حتمية تأديب البْرقو إحتجاجا بأن انصياع الجبهة الغربية قيد بقهر سلطانهم ، فهو رأس الحية ومبعث الفتن والعصيان ، وفى هذا اختلف أمراء جيش الأنصار مع قائدهم إذ بدا لهم أن الإشتباك بعقيد المحاميد ودحره أمر عديم الجدوى إن لم يتبعه غزو شامل لدار بَرْقو ، وتلك مهمة لايملكون عدة إنجازها زيادة على أن قراراً كهذا يتعارض مع توجيهات الخليفة الصريحة بالإقلاع عن مناوشة البرقاوى (٤) . وكان الخليفة قد أشار على محمود بالعودة إلى الفاشر حال إخضاعه لدارى قِمِر وتامه خوف آن يدركه الخريف بعيداً عن حاضرته إن اشتغل بحرب جديدة (٥) .

ولذات العلة منع الخليفة محموداً من قتال المسلاتي على الرغم من إفراطه فى الإعراض ، فقد استولى رجاله على الأبقار التى غنمها الأنصار من القِمْراوى فى واقعة الشلال وكانت ترعاها قلة منهم بعيداً عن معسكر محمود ، ثم قتل المساليت الأمير محمد جُوده الذى تعقبهم لاسترداد البقر السليب (٦) . وغر المسلاتي أن يرى جنوده

(١) مهدية : ١٩٢/٢/١٤/١ – رمضان ١٣٠٩ الموافق ٦ ابريل ١٨٩٢ (محمود احمد إلى الخليفة) كان السلطان ابكر اسماعيل زوجا لأخت القمراوى لأبيه (مهدية ٢٧٢/٦/٥/٢. بدون تاريخ – ادريس ابو بكر هاشم إلى ابكر اسماعيل).

(٢) مهدية : ١٥٧/٢/١٥/١ – ٢٩ رمضان ١٣١٢ الموافق ٢٦ مارس ١٨٩٥ (محمود آدم إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ١٢١/٣/٥/١ بدون تاريخ (ادريس ابوبكر هاشم إلى محمود احمد).

(٤) مهدية : ١٧١/٣/١٥/١ – غاية محرم ١٣١٣ الموافق ٢٣ يوليو ١٨٩٥ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٥) مهدية : ١٨٤/٣/١٥/١ – غرة صفر ١٣١٣ الموافق ٢٤ يوليو ١٨٩٥ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٦) مهدية : ١٥٧/٢/١٥/١ – ٢٩ رمضان ١٣١٢ الموافق ٢٦ مارس ١٨٩٥ (محمود احمد إلى الخليفة).

يوقعون بالأنصار على قوتهم ، فتمادى فى عدائه وراح يتحرش بحسب الله أبي بكر هاشم حتى أرغمه على الفرار من دار قِمِر واللحاق بمحمود فى دار الزغاوة ، فآلت مقاليد القِمِر إلى ابكّوره ولد نور الذى اجتهد فى الحفاظ على مركزه دون طائل (١) . ودعا صلف المسلاتي محموداً إلى طلب نزاله بغير إبطاء . لكنه نزولا عند تعليمات الخليفة خرج من دار تامه . واتجه صوب الفاشر وبالنفس شوق للاياب إلى الجبهة الغربية لإكمال السيطرة عليها (٢) . ولم يدر محمود تلك الساعة أن وراء الافق أحداثا جليلة ستباعد بين الانصار والجبهة الغربية إلى الأبد ، فلاهم عادوا اليها ولاهى ارتضت اتباعهم ، بل أن سكانها فرحوا أية فرحة لما رأوا شمس المهدية تغرب ودولتها تنهار .

وعرّج محمود على دارى كبْجَه وكُوبي فى طريق عودته إلى الفاشر ، فلاذ سلطاناهما بالفرار ما أن جاءت الطلائع التى بثاها فى طريق الانصار بنبأ قدومهم ، وسريعاً انتدب محمود العطا اصول لتعقب السلطان حسن الكبَجَاوى ، فأوقع به داخل حدود دار برْقو ، وسلبه كثيراً من الخيل والبقر والرقيق (٣) ، على أن الكبَجَاوى نجا بنفسه من قبضة العطا وطوى المسافات طيا إلى ابّشى ليجد عند ولى نعمته البرقاوى الحماية والمواساة . أما السلطان فرْتي فانتبذ مكانا قصيا على حدود دار تامه ، وظل يرقب على البعد خروج الأنصار ليعود اليها (٤) .

وتحقق للسلطان فرْتي ولغيره من سلاطين الجبهة الغربية الحلم الذى طالما راودهم باقتعاد عروشهم فى اطمئنان نفس وهدوء بال حين ينقشع خطر الأنصار ويزول ، فعندما وصل محمود بجيوشه إلى الفاشر فى الثاني من سبتمبر ١٨٩٥ (٥) ، كانت الجبهة الغربية تموج بحركة استهدفت اقتلاع الأوتاد التى دقها الأنصار فى دارى قِمِر وتامه ممثلة فى ابكّوره ولد نور وإدريس ابراهيم وغيرهما من الزعماء المناصرين للمهدية تقدمة لتصفية هذه المنطقة من كل أثر غرسه الأنصار فيها، وتنظيم أوضاعها السياسية بما يعيد للملوكها المخلوعين سلطانهم كاملا ، وبما يتمشى مع عزم البرقاوى فى أن يسد على الانصار كل سبيل للنفاذ إلى بلاده ، وبما يتفق مع طموحه فى أن يكون له حق الوصاية والرعاية

---

(١) مهدية : ٢٠٠/٣/١٥/١ – ١٥ صفر ١٣١٣ الموافق ٧ اغسطس ١٨٩٥ ( محمود احمد إلى الخليفة).
(٢) مهدية : ١٧٣/٣/١٥/١ غاية محرم ١٣١٣ الموافق ٢٣ يوليو ١٨٩٥ ( محمود احمد إلى الخليفة).
(٣) مهدية : ١٦/٣/٣٦/٢ – ١٠ صفر ١٣١٣ الموافق ٢ اغسطس ١٨٩٥ ( العطا أصول إلى محمود أحمد).
(٤) مهدية : ٧/٣/٣٦/٢/ ٤ رمضان ١٣١٣ الموافق ١٨ فبراير ١٨٩٦ ( العطا أصول إلى محمود أحمد).
(٥) مهدية : ٢٠٨/٣/١٥/١ – ٢١ ربيع أول ١٣١٣ الموافق ١١ سبتمبر ١٨٩٥ ( محمود احمد إلى الخليفة).

على التاماوى والقمْراوى وأضرابهما . ونرى البرقاوى لهذا يمد التاماوى بالسلاح والرجال بغية الخلاص من أخيه ادريس ، فاندفع السلطان سليمان إلى نيرهْ علها تفتح له الأبواب وتستقبله بالزغاريد . وعلى عادة تامه بدأت المعركة بين الأخوين بمبارزة خر سليمان فى نهايتها صريعا ، ثم انهزم رجاله لكنهم عاودوا الهجوم وضربوا حصاراً شديداً حول نيرهْ ، فاستغاث ادريس ابراهيم بمحمود (١) .

ومن جهة أخرى أرسل القمْراوى جمعاً من أتباعه بقيادة رجل يدعى أحمد بيَضا ليمهدوا له طريق الرجعة إلى وطنه ، فأثار أحمد بيضًا القِمر على ابكّوره ولد نور . فضاق بأبكّوره الحال واستنجد كما فعل رصيفه ادريس ابراهيم بالفاشر ، فصدر الأمر إلى العطا أصول بالتوجه إلى دار الزغاوة والإقامة بها لإرهاب العدو الذى تجدد نشاطه وتفريجا للكرب الذى حل بادريس وابكّوره (٢) . ثم جاء القمْراوى ليقود المعركة بنفسه حتى يطمئن إلى حسن إدارتها ، وينال شرف طرد الموالين للأنصار من الجبهة الغربية أو يموت دون ذلك كما فعل التاماوى ، وتقاطرت وفود القبائل على القمْراوى حال وصوله إلى مشارف عاصمته . وكان حامد تُور جُوك على رأس الوافدين ، فاكتملت عناصر الحلف المضاد للأنصار مرة أخرى(٣) ، واشتد حينذاك النكير بأبكّوره ولد نور وإدريس ابراهيم ، فاستصرخا بمحمود ثانية ، فنقل محمود ماهما فيه من محنة إلى العطا اصول ،وخيرّه بين غزو دار قمر لفك ضائقة ادريس وابكّوره أو طلب إنضمامها اليه إن رأى فى الإغارة تعريضا بمن معه للهلاك (٤) .

وكان محمود قد قاد جمهرة جيشه فى اليوم السابق لصدور هذه الإشارة قاصداً أم درمان ، وأناب عنه البشارى ريده فى إدارة الفاشر (٥) . وكأني بذاك الرحيل كان ايذانا بالختم على مصير ادريس ابراهيم وابكّوره ولد نور ،واعلانا عن نهاية إمرة المهدية

---

(١) مهدية : ١/١٥/٣/٢١٢ - ٢٧ ربيع أول ١٣١٣ الموافق ١٧ سبتمبر ١٨٩٥ ( إدريس ابراهيم إلى محمود أحمد).

مهدية : ١/١٥/٣/٢٢٦ - ٢٥ جماد أول ١٣١٣ الموافق ١٣ نوفمبر ١٨٩٥ ( محمود أحمد إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ١/١٥/٣/٢١٣ - ١٤ ربيع ثانى ١٣١٣ الموافق ٤ أكتوبر ١٨٩٥ ( محمود أحمد إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ٢/٣٦/٥/٤٥١ - ٥ جماد ثانى ١٣١٣ الموافق ٢٣ نوفمبر ١٨٩٥ (سنين حسين إلى محمود أحمد).

(٤) مهدية : ١/١٥/٣/٢٣٠ - ٣ رجب ١٣١٣ الموافق ٢٠ ديسمبر ١٨٩٥ ( محمود احمد إلى العطا أصول).

(٥) مهدية : ١/١٥/٣/٢٣٢ - ١٠ رجب ١٣١٣ الموافق ٢٧ ديسمبر ١٨٩٥ ( محمود احمد إلى الخليفة).

فى الجبهة الغربية . فقد علم محمود وهو بأم كَدّاده أن القيمْراوى أفلح فى دخول عاصمته ، وأن القوات التى ارسلها البرقاوى إلى دار تامه أجبرت ادريس ابراهيم على إخلائها بعد أن انفض من حوله مظاهروه لما يئسوا من مصاولة خصومهم الذين تكاثروا عليهم واحتاطوا بهم من كل جنب . واستشاط محمود غضباً لسقوط مواقع الأنصار فى الجبهة الغربية بفعل نشاط البرقاوى وتآمره ، وخشى أن تزيد مطامع ذلك الخصم اللدود وخاف كذلك أن يحفز امهال الأنصار للبرقاوى وسكوتهم على سوء أفعاله أهل دارفور إلى الثورة ، فطلب من الخليفة السماح له بالعودة إلى الفاشر وغزو دار بَرْقو (١) .

وللمرة الأولى أذن الخليفة للأنصار بقتال البرقاوى داخل حدوده ، فأمر محموداً بإرجاع الجيش إلى دارفور وتوزيعه على البوغازات المقابلة للجبهة الغربية على أن يحضر هو إلى ام درمان للتشاور ،حتى إذا ماعاد إلى دارفور كان رجاله قد استعدوا للحرب (٢). ومن عجب أن يحيد الخليفة عن سياسته التقليدية القاضية بعدم الدخول فى دار بَرْقو ويأذن محموداً بتجريد حملة عليها . ومما يزيد الأمر غرابة أن تتجه نية الخليفة إلى حرب البرقاوى والتوسع فى مملكته بينما هبت أعاصير الهجوم الأوربي على دولته فضاعت بعض أجزائها وتهدد كيانها بالزوال (٣) . ولعل الخليفة شارك محمودا — حين أصدر قراره ذلك — مخاوفه فى أن يدفع ماحققه البرقاوى من ظفر بسكان دارفور إلى العصيان ، فيخرجون على إمرته بعد أن دانت للأنصار أغلبيتهم إن كرها أو رضا . أم لعل سفور البرقاوى فى إعلان تبعيته للسنوسية بحسبانها طريق المهدية الحق، كما ورد فى خطاب منه إلى محمود أحمد (٤) ، أثار الخليفة عليه ، فعمد إلى تخويفه عله يثوب إلى رشده إن لم يكن تأديبه والقضاء عليه .

---

(١) مهدية : ١/١٥/٣/٢٣٩ – ١٧ رجب ١٣١٣ الموافق ١٧ سبتمبر ١٨٩٥ ( ادريس ابراهيم إلى محمود)
جاء ادريس ابراهيم إلى كبكابيه بعد فراره من دار تامه ثم رحل إلى الفاشر حيث انضم إلى البشارى ريده.
مهدية : ٢/٣٦/٦/٦ – ٢٠ رجب ١٣١٣ الموافق ٦ يناير ١٨٩٦ (عبد القادر دليل إلى محمود احمد).
مهدية : ٢/٣٦/٦/١٠ – ١٤ شعبان ١٣١٣ الموافق ٣٠ يناير ١٨٩٦ (سنين حسين إلى البشارى ريدة).

(٢) مهدية : ١/١٣/٨/٣١٨ – ٤ شعبان ١٣١٣ الموافق ٢٠ يناير ١٨٩٦ ( الخليفة إلى محمود احمد.)

(٣) بدأت بطرد عثمان دقنه من طوكر(فبراير ١٨٩١) وانسحابه إلى نهر العطبرة سلسلة الهزائم العسكرية التى اطاحت آخر الامر بعرش الخليفة – وتلى تلك الهزيمة الأولى احتلال الايطاليين لكسلا فى ابريل ١٨٩٤ بينما اجتهد الكنغوليون فى الاستيلاء على أعالى النيل وبحر الغزال ( أنظر ص ٨).

(٤) مهدية : ١/١٥/٣/١٩٤ – ١٥ صفر ١٣١٣ الموافق ٧ اغسطس ١٨٩٥ (محمود احمد إلى الخليفة).

ولم تقتصر جهود البرقاوى لإستعادة نفوذه فى الجبهة الغربية على الإسهام بحماس فى طرد ابكّوره ولد نور وإدريس ابراهيم ،بل أشعل نار حرب حامية على المسلاتي لتقليم أظافره ونزع فكرة الإمارة المستقلة من ذهنه ، حتى ينخرط صاغراً فى موكب التابعين لسلطنة البرْقو المسبحين بحمدها . وقد أثار البرقاوى على المسلاتي امتناع هذا عن رد الممتلكات التى استولى عليها قومه من القمْراوى يوم احتمى بهم إثر هزيمته فى الشَلاّل ، زيادة على سعيه لبسط يده على دار قِمر بعد خروج محمود منها (١) . واتحد عزم البرقاوى برغبة السلاوى فى ضرورة تأديب المسلاتي . فالسلاوى لم ينس لأبكّر رفضه لوساطته فى الخلاف الذى شجر بينه وبين أبي الخيرات ابراهيم (٢) ، كما أقض مضجعه أن رأى ابكّر يقيم من العدم سلطنة قد تقوى يوماً ما فيتطلع صاحبها إلى التوسع والمجد ، ويزاحم فى سبيل ذلك الكبار من سلاطين الجبهة الغربية ، كما دلت على ذلك محاولته لإخضاع دار قِمِر لولايته .

وبعد استعداد عظيم قاد السلاوى بإيعاز من البرقاوى جيشاً عرمرماً حمل به حملة شعواء على دار المساليت ، فلم يصبر أبكّر طويلاً على مدافعته ، فهجر بلاده وهام على وجهه . وإذ نما خبر الواقعة إلى علم عبد القادر دليل الذى كان معسكراً فى دار بنى هلبة إنتهز فرصة ضعف المسلاتي فكتب إليه عارضا عليه مساعدته باذلاً له الأمان (٣) ، فلم يكن بد للمسلاتي من أن يستظهر بالأنصار على أعدائه وإن دعاه ذلك إلى إدعاء الإعتقاد فى المهدية والرضاء باتباعها بهتانا ، فشكر لعبد القادر دليل كريم إهتمامه ومشاطرته له فى محنته (٤) ، وكتب قبل هذا إلى محمود يشرح مادفعه إلى العصيان مذ حل عثمان آدم بدار فور ، ويستسمحه فى الذى تقدم من خطأه ، ثم أعلن قطع صلاته بالبرقاوى والسلاوى اللذين خربا دياره وقصدا إلى قتله ، وأبدى كامل استعداده للتعاون مع الأنصار فى جهادهما ، فهو لم يكن يوماً إلا مؤمناً بدعوة المهدية عاملاً على نصرتها (٥) .

ولم يفت على فطنة محمود وذكائه أن الحاجة هى التى حدت بالمسلاتي إلى الإستعانة به ، وإن ما أظهره من تمسك بتعاليم المهدية أمر مشكوك فيه ، غير أنه ماكان ليرفض

---

(١) مهدية : ٢١٠/٣/١٥/١ - ٢١ ربيع أول ١٣١٣ الموافق ١١ سبتمبر ١٨٩٥ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٢) أنظر ص ٢٧٥..

(٣) مهدية : ٦/٦/٣٦/٢ - ٢٠ رجب ١٣١٣ الموافق ٦ يناير ١٨٩٦ (عبد القادر دليل إلى محمود احمد).

(٤) مهدية : ٦٠/٢/٥/٢ - بدون تاريخ (أبكر اسماعيل إلى عبد القادر دليل).

(٥) مهدية : ٥٨/٢/٥/٢ - بدون تاريخ (أبكر اسماعيل إلى محمود احمد).

مصافحة يد إمتدت إليه بالصلح ، فأنهى إلى المسلاتي عودة جيش الأنصار إلى الفاشر بقصد التوجه إلى الجبهة الغربية ، ثم حثه على الصبر حتى يأتيه المدد فيرد له الأنصار اعتباره . واتفق أن نهض عبد القادر دليل فى هذا الوقت من دار بنى هلبة إلى حدود دار المساليت بحثاً عن سلطانها الطريد . فظن السلاوى أن تلك طليعة لقدوم الأنصار لجهاده ، فأخلى بمن معه دار المساليت، فعاد ابكّر إلى عاصمته وظل على اتصال بالبشارى ريده فى الفاشر (١) .

وكان محمود مايزال مقيما فى جبل الحِلّه حيث توقف عندما تطورت الأحداث فى الجبهة الغربية ، ورأى ضرورة العودة لحرب البرقاوى ، لكنه خضع لإشارة الخليفة فأرجع جيشه إلى دار فور ، ونهض على إثر ذلك إلى الأبيض ، فمكث بها أياماً ، ثم واصل المسير إلى أم درمان فبلغها فى ٢٠ مايو ١٨٩٦ (٢) . وقد وزع جيش الأنصار على البوغازات الموالية للجبهة الغربية ، فنزلت فرقة بدار بنى هلبة وأخرى بدار الزغاوة والجميع متأهب للقتال فى شوق إليه . والكل يرهف الأذن لسماع نداء الحرب حتى يلبيه (٣) .

ولابد أن امدرمان استقبلت محموداً هذه المرة بوجه غير الذى ألفه ، وجه علته الكآبة والقلق ، وكان قبلا مشرقاً مبتهجاً . فقبل شهرين تماما من وصول محمود إلى ام درمان إحتل الجيش المصرى عكاشه ، وحقق بذلك أولى إنتصاراته التى انتهت باستعادة فتح السودان كله . وفى أول مايو ١٨٩٦ إنهزم الأنصار عند موقع بين عكاشه وفركه التى تطلعت إليها أنظار كتشنر فنالها إثر معركة حامية فى ٧ يونيو (٤) ، وبذا تلبدت سماء السودان الشمالى بالسحب، ثم أرعدت وماجت بالنذر وجليل الخطوب ، وراحت أم درمان ترقب فى قلق شديد تحركات الجيش المصرى ، فكانت الكآبة التى وجدها عليها محمود .

وطغت أحداث السودان الشمالى والاهتمام بها على كل شيء ، وصغرت أمامها مشاكل الخليفة الأخرى وتضاءلت ، فالخطر هنا أكبر وأشد ، وانعقدت لمواجهة الزحف

---

(١) مهدية : ٢٢٠/٣/١٥/١ - ٤ رمضان ١٣١٣ الموافق ١٨ فبراير ١٨٩٦ (محمود احمد إلى الخليفة).
(٢) مهدية : ٢٥٢/٣/١٥/١ - ٧ الحجة ١٣١٣ الموافق ٢٠ مايو ١٨٩٦ (محمود أحمد إلى الخليفة).
(٣) مهدية : ٢٤١/٣/١٥/١ - ٤ رمضان ١٣١٣ الموافق ١٨ فبراير ١٨٩٦ (محمود احمد إلى الخليفة).
(٤) شقير ٣ : ص ٥٧٣ - ٥٧٥، هولت ص ٢١١ - ٢١٢.

الانجليزى المصرى مجالس فى أم درمان تدبر فيها الخليفة مع مستشاريه الكيفية التى يرد بها الغزاة ، وبدهى أن تتعلق الأنظار بمحمود أحمد خلال تلك الاجتماعات ويصبح معقد الأمل ومحط الرجاء لكونه قائداً لأضخم تجمعات الأنصار (١) . وأميراً لعمالتين مشهود لأهلها بالشجاعة والحمية ، علاوة على ذخر بواديهما بالخيل وغيرها من معدات الحرب . ونرى محموداً لهذا يسرع الخطى عائداً إلى كردفان ثم دارفور ليسوق اهلها لجهاد كتشنر ، فحل ركبه بالأبيض فى بداية يوليو ١٨٩٦ . ومن هناك توجه إلى الفاشر وماتت تبعا لذلك فكرة غزو الأنصار لدار بَرْقو وقبرت ، رغم أن محموداً ظل يتوعد سلطانها بعذاب اليم ، ويستحث المسلاتي على لقائه بالفاشر ليسيرا سويا إلى الجبهة الغربية (٢).

ولم يفد المسلاتي إلى الفاشر وما كان لمحمود أن يشتغل بأمر الجبهة الغربيةوالدمار يتهدد دولة الأنصار فى شمال السودان ، فانصرف بكليته إلى تجهيز الجيوش وترتيب شئون دارفور بما يضمن استقرارها عند رحيله منها ، فجاء بالزعماء الذين خشى من بقائهم وراءه إلى الفاشر وساق معهم الرجال القادرين على حمل السلاح إلا من افلت من يده ، ثم جعل الامير امْسَبّدى الرّضى وكيلاً على الفاشر وسِنَينْ حسين على كَبْكابيَه ومحمد فضل الله الدّغُور على دَارَه ، وترك لكل من ثلاثتهم عدداً من المحاربين يعينه فى حفظ الأمن (٣) . وكأني بالأحداث تستعجل خروج محمود من دارفور ، فما أن اكتملت هذه الإجراءات حتى جاءه الخبر بإحتلال كتشنر لدنقلا ، فلبى محمود نداء الخليفة بالنجدة سريعاً ، ودفع بجيشه صوب أم درمان على فرق متصلة إنسدت بها الطرق ، ثم لحق بها هو فى بداية النصف الثاني من نوفمبر ١٨٩٦ (٤) .

وضم موكب الجهاد جماعات من أكثرية قبائل دارفور ، فسارت فيه فرق من الفور وبنى هلبة والرزيقات ، وأخرى من بِرْقِد وبَرّتي والميما وبنى فضل وثالثة من الميدوب والتُنْجر والزغاوة ، ورابعة من تامه والمساليت (٥) . وقضى محمود قرابة

---

(١) نشط محمود عقب عودته من رحلته الاولى إلى امدرمان (مارس ١٨٩٣) فى تجنيد اهل دارفور للجهاد حسب توجيهات الخليفة، فجمع عشرة ألوف من زهرة شبابهم وأمل فى تجنيد عدد مماثل من كردفان (مهدية ١/١٥/١/٩/صفر ١٣١١ الموافق اغسطس/سبتمبر ١٨٩٣ – محمود أحمد إلى الخليفة). وظل محمود يتعهد مجنديه بالرعاية حتى اكتمل تدريبهم واصبحوا سنداً تستمد من فتوته القوة والعزم.

(٢) مهدية : ٢/٣٧/٤/٤١٨ – ٢٩ محرم ١٣١٤ الموافق ١٠ يوليو ١٨٩٦ (محمود احمد إلى ابكر اسماعيل).

(٣) مهدية : ١/١٥/٤/٢٦٩ – ٢٠ جماد ثانى ١٣١٤ الموافق ٢٦ نوفمبر ١٨٩٦ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ١/١٥/٤/٢٧٠ – ٢٠ جماد ثانى ١٣١٤ الموافق ٢٦ نوفمبر ١٨٩٦ (محمود أحمد إلى الخليفة).

(٥) مهدية : ١/١٥/٤/٢٧٩ شعبان ١٣١٤ الموافق يناير/فبراير/١٨٩٧ (محمود أحمد إلى الخليفة).

الستة شهور سائراً صوب أم درمان حتى نزل بها في ١٠ مايو ١٨٩٧ (١) . وتولى قيادة جيش محمود من كبار الأمراء البشارى ريده والعطا أصول وعبد القادر دليل وصلاح أبوه وعيسى زكريا وعلى السنوسى (٢) ، اما الختيم موسى فقد اودع محمود فى يده شئون كردفان عند مروره بالأبيض وعين على الهاشمى معاونا له (٣) .

واستقبلت ام درمان محموداً هذه المرة بالزغاريد ، فهى رغم السواد الذى لبسته حزنا على الذين قتلوا فى فركه ودنقله، ابتسمت له بسمة حلوة مشرقة اذ رأت، فى جيشه درعاً يقيها عاديات الزمن ، ويحميها من نيران مدافع كتشنر الفتاكة . وأبطر حسن الاستقبال محموداً فتطلع إلى اليوم الذى يلقى فيه كتشنر ويحقق لأم درمان أمانيها . وتم اللقاء المرتقب على ضفاف نهر عطبرة فى ٨ أبريل ١٨٩٨ . وكان يوما عسيراً اقتتل فيه الأنصار والجيش الانجليزى المصرى قتالاً عنيفا، إنتهى بهزيمة محمود وأسره ، فخاب أمل ام درمان وانفتح الطريق اليها أمام ناظرى كتشنر . وسيق محمود إلى المعتقل فى مدينة رشيد بمصر ، وهناك قضى بقية عمره حبيس القضبان والسجان إلى أن توفى عام ١٩٠٦ (٤) .

**(ج) — الغزو الكنغولى لبحر الغزال:**

قاد الاحساس بقسوة الإدارة التركية والرغبة فى الإطاحة بها بعضا من قبائل بحر الغزال — رغم معتقداتها الوثنية — إلى مساندة الثورة المهدية والانخراط فى سلك مؤيديها . ومن هؤلاء الجانقى (٥) ، لكنا نجد فى الفروقى ( Feroge. ) والنجانقلقول ( Njangulgule ) وكلاهما قبيلة مسلمة ، خير مثال لجماعات استجابت للثورة عن إيمان وعقيدة بجانب طمعها فى الخلاص من الحكم التركى. فقد ثار يانكوشيخ تلقونه على مدير بحر الغزال واتحدت جهوده مع الرزيقات بقيادة مادبو على (٦) وبايع حجر ولد ضحيه وحمد موسى المهدى فى الأبيض ثم عادا إلى بحر الغزال فى ركب كرم الله

---

(١) مهدية : ١/١٥/٤/٢٩٩ – الحجة ١٣١٤ الموافق ١٠ مايو ١٨٩٧ (محمود أحمد إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ١/١٥/٤/٢٧٤ – ١٤ رجب ١٣١٤ الموافق ١٩ ديسمبر ١٨٩٦ (محمود أحمد إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ١/١٥/٤/٢٨٥/٢٧ القعدة ١٣١٤ الموافق ٢٩ أبريل ١٨٩٧ (محمود أحمد إلى الخليفة).

(٤) شقير : ٣ : ص ٦٠٢ – ٦٠٦ هولت : ٢١٩ – ٢٢١ ، هل: ص ٢٢٤. أورد شقير خطأ اسم الأمير على السنوسى فى قائمة الذين قتلوا فى واقعة العطبرة بينما هو قد توفى فى ١٩٦٧
Sihbeika: British policy, pp 386–387,389,

(٥) مخابرات الجيش المصرى: ٢٤٠/١٤/٣٠ ،
R. O. Collins: The Southern Sudan, p 23.

(٦) Collins: 25–27. أنظر كذلك ص ٨٣.

كُرقُساوى، وأعاناه فى إثارة الناس وتنفيرهم للثورة حتى استسلم لوبتن بك للأنصار(١).

وينتمى يانْكو وحَجَر ولد ضحيّه بالتتالى إلى المادْيوك (Maduke) والمارْوى (Maruwe) وهما فرعان من فروع النِجانْقُلقول تزاحما على زعامتهم، فكانت أولا للمادْيوك ثم آلت إلى المارْوى. والنجانْقُلقول من فصائل البيقُو التى نزحت إلى غربى بحر الغزال، فجاءت بالإسلام وعادات الزنوج المتأثرة بالعروبة إلى ارض الشَاتْ والمُنْضَله والجُورْ، فأفسحوا لها على كره منهم مكانا بينهم. فاتخذ النجانْقُلقول من تَلْقُونه نقطة ارتكاز للتوسع حتى أرغم الشَاتْ على الرحيل جنوبا (٢). وجر طموح النجانْقُلقول إلى عداء بينهم وبين الفروقى الذين نافسوهم فى إخضاع منطقة لِيفى (Liffi) وادعوا سيادة عليهم (٣).

أما حمد موسى فقد كان سلطانا على الفِروقى عند قيام الثورة المهدية، فتعاطف معها وبايع قائدها وعمل على نصرتها. وكلمة فِروقى اشتقاق محرف لمصدر الفعل فارق، إذ يروى أن الجد الأكبر للأسرة المالكة فى هذه القبيلة — وهو رجل من برْنو يدعى حمد عباس — كان فى طريق عودته من مكة إلى بلاده، فلمّا مرّ بجنوب دارفور فارق صحبه وضرب فى الأرض قاصداً بحر الغزال، فاستقر به المقام بين قبيلة الكالجِى (Kaligi) التى كانت منتشرة بين نهر البورو (Boro) جنوبا وبحر العرب شمالا وكان حمد عباس فقيها تقرب بحسن سيرته إلى زعيم الكالجِى، فزوجه بنتا له وتوطدت لذلك اقدام حمد بين القوم ورسخت. ثم مات زعيم الكالجى فاختارت عشيرته حمد عباس لقيادتهم، فصار الملك فى بيته (٤).

وتأرجحت علاقات الفِروقى والنجانْقُلقول بالأنصار بعد سقوط بحر الغزال بين التبعية الإسمية والعداء الصريح. فعلى الرغم من أن الخليفة لم يسع إلى فرض سلطان مباشر على بحر الغزال بعد إخلاء كرم الله كُرقُساوى لها، إلا أن غارات الأنصار عليها لم تتوقف إما طلبا للرقيق والعاج أو لملاحقة الهاربين من البقارة الذين اتخذوا من بحر العرب

---

(١) مهدية: ١/٣٣/١٣/١٢/١٢ — ٦ شعبان ١٣٠٤ الموافق ٣٠ أبريل ١٨٨٧ (الخليفة إلى كرم الله كرقساوى).

(٢) Father S. Santandrea: A Preliminary account of the Indri, Togoyo, Feroge ..... etc., SNR. Vol 34, Part 2, p 245.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٤٨ — ٢٤٩.

(٤) نفسه ص ٢٤٢.

ودار الفِرْتيت ملجأ يلوذون به حين يضيق بهم الخناق . وسخط الجانْقى كما ثار الفِروقى والنجانْقلقول، إذ رأوا ديارهم نهبا لحملات الأنصار ، والفوا استقلالهم يتعرض للضياع فهبوا يدافعون عنه تارة بالسيف وأخرى بالحيلة والمراوغة .

فلا يظنن أحد أن اعتقاد الفروقى والنجانْقُلقول فى المهدية مهما عمق ورسخ فى الصدور بقادَر على محو إحساسهم بكيانهم القبلى فى مجتمع كل مافيه يدور حول عزة القبيلة وكرامتها ، بل أن الشعور بهذه العزة والتمسك بكل مظاهرها تضاعف عقب انهيار الإدارة التركيه وانسحاب الأنصار من بحر الغزال ، فخلا الجو لقبائلها جميعاً كي تدعم استقلالها، وللقوى منها كي يبتنى مجداً على حساب ضعيفها ، فعادت الحياة فى هذه المنطقة سيرتها الأولى ، حروب قبلية ونزاع دائم (١) .

وتجدد بقدوم عثمان آدم إلى دارفور ما انقطع من صلة رسمية بين الأنصار وبين قبائل غربي بحر الغزال الكبرى ، على أن إنهماك عثمان فى محاربة عصاة دارفور صرفه عن السعى لجعل تلك الصلة حقيقة ماثلة، سواء بإخضاع تلك القبائل لسلطانه إخضاعاً مباشراً أو بغرض جزية على زعمائها تكون رمزاً لارتباطهم بعجلة حكمه . فقد بعث عثمان حال وصوله إلى شَكا برسالة إلى الجانْقى صحبة رجلين كان الخليفة انتدبهما لتهجيرهم(٢) فلم يفلحا فى ذلك (٣) ، واهمل الجانْقى خطاب عثمان، كما سفهوا قبلا دعوة الخليفة ، وظلوا على إعراضهم يحتمون وراء بحر العرب ويستقبلون وفود الهاربين من عصاة الرزيقات والحُمُر بترحاب ، فضاق عثمان بمسلكهم ذرعا وصمم على التنكيل بهم ، وكتب إلى الخليفة يعرفه بعزمه ذاك (٤) ، وكان عثمان حين قر رأيه على غزو دار الجانْقى فى طريقه إلى أبي جنُوق ، وما انتهى من إذلال ملوكه حتى انشغل بقمع عصيان أحمد فضيل ، ثم قفل راجعاً إلى الفاشر ومنها سار فى حملته على الجبهة الغربية التى انتهت بوفاته (٥). وبذا نجا الجانْقى من ضربات سيف عثمان القاطعة ، واستمرأوا حياة العصيان غير آبهين بما قد تجره عليهم من شرور مستقبلاً .

---

(١) Collins: 54

(٢) مهدية : ١/١٢/٢/٤٢ – ١٣ ربيع أول ١٣٠٥ الموافق ٢٩ نوفمبر ١٨٨٧ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ١/١٤/١٢/٢١٢/ – ١٦ الحجة ١٣٠٤ الموافق ٥ سبتمبر ١٨٨٧ (ضو البيت محمد رق إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ١/١١ب/١٧٥/٨ – ٢٨ صفر ١٣٠٧ الموافق ٢٤ أكتوبر ١٨٨٩ (عثمان آدم إلى الخليفة).

(٥) أنظر ص ١٧٥.

وبلغ عثمان آدم أن حَجَر ولد ضَحيّه وحمد موسى مازالا على محبة في المهدية، فبادر إلى إيفاد من يستوثق من هذا الأمر ويدعم صلات الأنصار بهما (١) ، وصدق خبر امتثال حَجَر ،وظهر أنه تأهب للهجرة إلى الفاشر ، وتقدمه مائة وسبعون رجلاً يحملون هدايا العاج إلى عاملها ، ثم تقاعس حَجَر عن القيام إثر سماعه بشائعة فحواها أن الأنصار أخلوا دارفور (٢) . أما حمد موسى فكانت خيبة أمل عثمان فيه عظيمة ، اذ اتضح أنه على صلة بثولر الفور ،وأن جماعة منهم ذهبت إليه تنشد مساعدته ليوسف ابراهيم ، ما انفكت تقيم بين ظهرانيه (٣) ، على أن أحداث دارفور المتلاحقة التى شغلت عثمان ادم عن تأديب الجانقى منعته كذلك من عقاب حمد موسى على سوء فعله .

وساد علاقات الفيروقى والنجانقلقول بالأنصار توتر شديد طيلة عهد محمود احمد رغم اجتهاده فى استمالة حمد موسى وحَجَر ولد ضَحيّه والتودد اليهما ، فلئن ازدحم فكر عثمان بمشاغل دارفور فقد وجد محمود متسعاً من الوقت لينظر فى أمر بحر الغزال بما يعلى كلمة المهدية فيها ، فاندفع جيش له إلى أرض الجانقى ، وحمل رجال آخرون على ديار الفيروقى والنجانقلقول . بيد أن السبب فى حملات الأنصار على غربي بحر الغزال لايرجع إلى رغبة فى استعادة مجد المهدية فى هذه المنطقة فحسب وإنما يفسره كذلك عزم الخليفة على حماية حدود السودان الجنوبية الغربية من التوسع الكنغولى .

كان ليوبولد الثانى ملك بلجيكا ، ممن غشيتهم حمى التوسع الإستعمارى الذى انتظم دول أوربا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، فعمل فى همة لبناء أمبراطورية فى أفريقيا ، واتجهت أطماعه إلى حوض الكنغو ، فأسس فى ١٨٧٩ هيئة دولية لإستغلال موارده ثم حصل فى ١٨٨٥ على اعتراف من مؤتمر برلين بسيادة شخصية على تلك البلاد (٤) . وتحولت أنظار ليوبولد بعد هذا إلى جنوب السودان الذى أثار اهتمامه به إبتداء ما أوعز اليه به غردون فى ١٨٨٠ من أن السيطرة على بحر الغزال هى خير سبيل لمحاربة تجارة الرقيق ، فراقت الفكرة للملك الطموح وإن طغت رغبته فى جنى ثمار مادية من مد نفوذه فى وادى النيل على نزعته الإنسانية فى إبطال الرق تجارة

(١) مهدية : ١/١١ب ١١٧/٧ – ٤ ربيع اول ١٣٠٦ الموافق ٨ نوفمبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).
(٢) مهدية : ٢٨٨/١٣/١ + ٢٠ ربيع ثانى ١٣٠٦ الموافق ٢٤ ديسمبر ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).
(٣) مهدية : ١/١١ب/١٦٢/٧ – ٢٧ شعبان ١٣٠٦ الموافق ٢٨ أبريل ١٨٨٨ ( عثمان آدم إلى الخليفة).
(٤) هولت : ص ١٩٩.

ونظاماً (١) .

ومهد ليوبولد لإدراك غاياته باتفاق وقعه في مايو ١٨٩٠ مع الشركة البريطانية لشرق أفريقيا، رضيت بمقتضاه الشركة أن تبسط النفوذ الكنغولى فى الضفة الغربية لبحر الجبل على إمتداد الرقعة الواقعة بين بحيرة البرت نيانزا جنوبا وفاشوده فى الشمال (٢). ثم أنفذ ليوبولد حملات منظمة إلى أعالى النيل لكن جهوده للتوسع فى هذه الوجهة لم تثمر ، فتراجع جنوده إلى قواعدهم فى الكنغو فى أخريات ١٨٩٣ (٣) . على أن الفشل لم يقعد ليوبولد عن طلب السيطرة على منطقة بحر الغزال والإستفادة من ثروتها الطبيعية وبخاصة النحاس (٤) .

وكان الكنغوليون قد تقربوا إلى زعماء الزاندى المنتشرين على حدود بحر الغزال الغربية توطئة للهجوم عليها ، فقبل السلطان زِمْيو حمايتهم فى أغسطس ١٨٩١ ، وحذا السلطان رَفّاى حذوه فى أبريل ١٨٩٢ (٥) . ثم انصرف الكنغوليون إلى التوسع فى أعالى النيل ، ولم يعبروا بحر الغزال بالاً إلا فى مطلع ١٨٩٤ ، ففى ٨ فبراير من ذاك العام نهضت حملة بقيادة الملازم نِلس ( Niles ) من مقر السلطان رَفّاى متجهة إلى حفرة النحاس فبلغت كاتُواكا ( Katuaka ) بعد مسيرة شهر كامل ، وهناك بنى نِلس حصنا ، ثم كاتب سلطان حفرة النحاس الذى كان على خلاف مع الأنصار ، فقبل حماية الكنغوليين فى ١٨ مايو ، ووعد بمساعدتهم فى استخراج النحاس وتعدينه ، ورضى نلس بما أحرزه من نصر ، فعاد إلى رَفّاى وترك مساعده الملازم جيرارْد ( Gerard ) فى قلة من الرجال لبثِ نفوذ ليوبولد وإشباع نهمه للنحاس (٦) .

وأصابت حملة كنغولية أخرى قصدت دار الفِروقى والنجانْقُلقول نجاحاً مماثلاً ، وكان حمد موسى وحَجَر ولَد ضَحّيه قد كتبا فى سبتمبر ١٨٩٢ إلى السلطان زْميو يستأذناه فى اللجوء إلى أرضه عند سماعهما بخبر حملة يعدها الأنصار للإغارة على دار الفَرتيت . واغتنم الكابتن فيفْز ( Fievez ) – معتمد ليوبولد لدى زْميو – هذه

---

(١) Collins: 92.

(٢) G. N. Sanderson; Anglo - French Competition in the Uper Basin of the Nile, Unpublished PhD. thesis, London (1959) p 125.

(٣) نفس المصدر : ص ١٣٢ – ١٣٤ و ١٣٨ .

(٤) نفسه : ص ١٤٦ .

(٥) نفسه : ١٢٤ .

(٦) Collins: 142 – 143, Sanderson: 150.

الفرصة فعرض على حمد وحَجَر حمايته أملاً في بسط نفوذ دولة الكنغو الحرة عليهما (١) ، فلما لم يهجم الأنصار على دار الفرْتيت وانتفت لذلك حوجة الفروقى والنجانْقَلقول لمساعدة زْميو أو تاييد فيفنْز انقطعت الصلة بين الفريقين ولم تتجدد إلا في منتصف ١٨٩٤ حين احتل دُونكير ( Donckier ) وهو من معاوني فيفنْز ليفى في ٢٥ يونيو ، وأرسل للتو من يبحث عن حمد موسى الذى هجر حاضرته في خور شَمّام الواقعة قريبا من راجا ( Raga ) إلى مكان مجهول (٢) .

وعثر رسل دُونكير على حمد موسى بعد لأى في مقر جديد بناه على نهر الجَاما ( Gama ) ، ونقلوا اليه رغبة قائدهم في الإلتقاء به، فأحجم حمد أولاً عن التفاوض مع دُونكير خشية أن يثير الأنصار عليه،وتعبيراً عن سخطه على الهجمات التى والاه بها رجال جيرارْد من كاتُوا كا أثناء بحثهم عن الضلال (٣) . وأخيراً لان حمد لإغراءات دونكير ووعوده ، فالتقيا في يوليو ١٨٩٤ ، وتمخض اجتماعهما عن إتفاقية نصت على حماية الكنغوليين لحمد ضد الأنصار إن سعوا إلى قتاله في مقابل أن يمد الفروقى دُونكير بمائتين من المحاربين ، ويبذلوا قصارى الجهد في ربط غَربي بحر الغزال بالتجارة مع دولة الكنغو الحرة (٤) . وبعد شهر من توقيع هذه الاتفاقية تم تحالف مماثل بين الكنغوليين والنجانْقَلقول ممثلين في السلطان نصر الذى تولى زعامتهم عقب وفاة والده السلطان حَجر التى حدثت قبيل احتلال دُونكير لليفى بقليل (٥) .

ولننظر الآن في جهود الأنصار لصد تغول الكنغوليين في بحر الغزال ولنرصد في ذات الحين تأرجح موقف الفروقى والنجانْقَلقول بين الميل إلى الكنغوليين حيناً والاذعان للأنصار حيناً أخر .

لقد اضطربت الأنباء التى تلقتها الفاشر عن تدخل من أسماهم الأنصار « بالنصارى » في بحر الغزال إضطراباً شديداً ، وظل محمود أحمد لعامين في حيرة من أمرهم ، وماذالك إلا برهان صادق على ضعف صلة الأنصار ببحر الغزال وقصور جهاز مخابراتهم عن كشف مايجرى على حدودهم وإجلاء حقائق تمس كيان دولتهم

(١) Collins : 144.
(٢) Sanderson : 147.
(٣) Collins : 150.
(٤) Collins: 150, Sanerson: 147.
(٥) Collins: 151.

مسا مباشراً . وكان على دينار أول المخبرين عن وصول نصراني إلى دار كُتّى (1) ، ثم جاء إلى محمـــود من يؤيد الخبر ويضيف بأن « النصراني » لقى حتفه على يد السنوسى وكيل رابح الزبير على دار كُتى (2) . وتلك أنباء صادقة ، فقد سعى مكتشف فرنسى يدعى كرامبل (Crampel) إلى تتبع مجرى نهر الشارى ، ونزل الحين فى عاصمة رابح الزبير ثم قام منها لمواصلة بحثه فارتاب رابح فى أمره وأوعز إلى السنوسى بقتله فضـــل (3) .

غير أن ماورد إلى محمود أحمد بعد هذا من أخبار اختلف فى مؤداه ، فكانت الحيرة . كتب اليه محمد جُوده من دَارَه فى 8 سبتمبر 1892 بما يفيد أن « النصارى » احتلوا ديم الزبير (4) وذلك فيما رأينا لايطابق الواقع ، إذ لم يغزُو الكنغوليون بحر الغزال إلا فى بداية 1894 ، ولم تطأ أرجلهم ثرى ديم الزبير إلا فى نهاية ديسمبر من نفس السنة (5) ، بيد أن ماذكره محمد جُوده فى خطاب لاحق عن اتصال « النصارى » بحمد موسى وارسالهم الهدايا اليه قرين الصحة (6) ، فهو فى هذا يشير إلى مسعى دونكير إلى استمالة زعيم الفروقى وكسب وده . وبينما أكد محمد جُوده وجود « النصارى » فى بحر الغزال أفاد فضل النبى أصيل من شكا فى فبراير 1893 بخلوها منهم (7) .

وبرغم الغموض الذى أكتنف حقيقة دخول الكنغوليين فى بحر الغزال ، فإن الخليفة أحس للوهلة الاولى بالخطر يحدق بدولته ،وظن حقا أن «النصارى» يرمون إلى احتلال

---

(1) مهدية : 2/5/330 – 17 شوال 1308 الموافق 28 مارس 1891 (على دينار إلى محمود احمد).

(2) مهدية : 1/14/1/$\frac{84}{1}$ – 15 الحجة 1308 الموافق 22 يوليو 1891 (محمود احمد إلى الخليفة).

(3) كانت دار كتى جزء من سلطنة ودّاى قبل أن يحتلها رابح الزبير فى الأيام الأولى لبناء امبراطوريته ، وكان عليها وقت احتلا لها سلطان يدعى عمر الذى لم يخلص لرابح الولاء فعزله وجعل مكانه ابن اخ له يسمى أحمد أبكر وهو السنوسى الذى نحن بصدده. وظـل السنوسى وفياً لرابح حتى غـزا الفرنسيون امبراطوريته وقتلوه، ولكنهم وجدوا فى السنوسى خصماً لدوداً راح ينافحهم قرابة العشر سنوات حتى صرعوه فى يوليو 1911. انظر :

Fr. S. Santandrea: Sanussi of Dar Banda and Dar Kuti, S.N.R. 38, pp 151–153

(4) مهدية : 1/14/3/230.

(5) Sanderson: 149.

(6) مهدية : 1/14/3/308 – 27 جماد اول 1310 الموافق 17 ديسمبر 1892 (محمود احمد إلى الخليفة).

(7) مهدية : 1/14/3/328 – 8 شعبان 1310 الموافق 25 فبراير 1893 (محمود احمد إلى الخليفة).

حفرة النحاس لإستنزاف ثروتها من المعادن (١) ، فأشار على محمود أحمد بانتداب الزبير الفحل إلى شكا لاستطلاع خبرهم تقدمة للحملة عليهم وطردهم (٢). وقد رشح الزبير لأداء هذا الواجب صلته القديمة ببحر الغزال ، إذ عمل فيها تاجراً إبان الحكم التركى واتصل بقبائلها ووقف على طباعها . واتفق أن كان الزبير مريضاً عند وصول آمر الخليفة ، فأسند محمود مهمته إلى فضل النبى اصيل ، فنهض من الأبيض إلى شكا فى ١٥ نوفمبر ١٨٩٢ على رأس جيش كبير ، على أن يلحق به الزبير حال شفائه (٣) .

وكان محمود احمد فى هذا الوقت عاد إلى الأبيض عقب رحلته الاولى إلى أمدرمان واعتزم الزحف على بحر الغزال إذا ماثبت احتلال « النصارى » لها ، فلما جاءه من فضل النبى أصيل ماينفى وجودهم عدل عن قراره واتجه إلى الفاشر رأساً (٤) . ولم يرق ماذهب اليه محمود للخليفة ، فاقترح عليه إحتلال دار الهُترتيت إحتياطا ، لكن محموداً عارض إرسال حملة خوف أن يدركها الخريف الذى بدأت بشائره ، وهى بداخل بحر الغزال ، فتنعزل عن الفاشر ويصعب إمدادها أو الاتصال بها ، وقد يستحيل (٥) .وخشى محمود على رجاله أيضا من غدر حمد موسى وحَجَر ولد ضَحية ، فقد بلغه هروبهما الى ليفى ، وكان قبلا يشك فى إخلاصهما رغم إدعائهما المستمر باتباع المهدية (٦) .

ويرجع سبب الجفوة بين زعيمى الفروقى والنجانْقُلقول من جهة والأنصار من جهة ثانية إلى ماتعرضا له من ضرر نتيجة حملات الأنصار داخل حدود بحر الغزال وهم يطاردون عصاة البقارة ، ففى مطلع عهد محمود تعقب جنود شكا فرقة من الرزيقات هربت إلى دار الجانْقى ، ففزع حَجَر ولد ضَحّيه أشد الفزع لما اقترب الأنصار من تَلْقونه ، وطفق يتأهب لقتالهم إن جاءوه ، فثار فضل النبى لمسلك حَجَر

---

(١) مهدية : ١/١٤/٣/٣١٣ – ١٣ جماد ثانى ١٣١٠ الموافق ٢ يناير ١٨٩٣ ( محمود احمد إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ١/١٣/٥/١٣٨ – ٢٠ ربيع اول ١٣١٠ الموافق ١٢ أكتوبر ١٨٩١ (الخليفة إلى محمود احمد).

(٣) مهدية : ١/١٤/٣/٢٨٤ – ٢٣ ربيع ثانى ١٣١٠ الموافق ١٤ نوفمبر ١٨٩٢ (محمود احمد إلى الخليفة).
ذكر كولنز فى هذا المقام ان الخليفة ارسل حملة فى شتاء ١٨٩٢ بقيادة الزبير ( الفضل؟)، للتأكد من وجود « النصارى» فى بحر الغزال والحصول على عاج ورقيق لكن الحملة باءت بالفشل بسبب المرض الذى ألم بأفرادها ( Collins : 144-145. ).

(٤) مهدية : : ١/١٤/٣/٣٣٢ – ٢٢ شعبان ١٣١٠ الموافق ١١ مارس ١٨٩٣ ( محمود احمد إلى الخليفة).

(٥) مهدية : ١/١٤/٣/٣٦٠ – ٥ القعدة ١٣١٠ الموافق ٣١ مايو ١٨٩٣ ( محمود احمد إلى الخليفة).

(٦) مهدية : ١/١٤/٣/٣٥٩/١ – ١٣ القعدة ١٣١٠ الموافق ٢٩ مايو ١٨٩٣ ( محمود احمد إلى الخليفة).

واستأذن محموداً فى جهاده ، لكن محموداً استبطأ فضل النبى حتى يرى رد حَجَر على دعوة الخليفة اليه بالهجرة (١) . ومن ناحية أخرى تكررت شكاوى حمد موسى ضد محمد جُوده الذى كثيراً ما أغار على دار الفروقى وحلفائهم بدعوى إخراج الهبانية من دار الفرْتيت وجرهم إلى الهجَرة (٢) ، ولم تهدأ ثائرة حمد إلا عندما أمر محمود محمد جوده بالكف عن الهجوم على دار الفروقى (٣)،وأصبح مستطاعاً بداية صفحة جديدة فى علاقاتهم وعلاقات النجانْقَلقول بالأنصار لولا أن توغل فضل النبى أصيل فى فبراير ١٨٩٣ فى دار الجانْقى ، فاستولى الخوف على حمد وحَجر فهربا إلى لِيفى(٤).

ولم يمنع محموداً من غزو بحر الغزال مباشرة لصد الكنغوليين وتأديب الفِروقى والنجانْقَلقول غير الخوف من مخاطر الخريف كما تقدم ، لكنه طفق يعد للحملة عدتها ورشح الختيم موسى وعبد القادر دليل لقيادتها ، والزبير الفحل خبيراً ومستشاراً (٥) ، واتفق أن نهض محمود فى هذا الوقت ( سبتمبر ١٨٩٣ ) فى غزوة إلى جبال النوبة ، سار بعدها إلى أم درمان ولم يعد إلى دارفور إلا فى يونيو من العام التالى (٦) . وتلقى محمود خلال تلك الغيبة أنباء تشير رغم تباينها إلى إجتهاد « النصارى » فى بسط نفوذهم على غربى بحر الغزال . قال الزبير الفحل من شكا ان « النصارى » شنوا حرباً على حمد موسى بتأييد من زِميو لما أعرض حمد عن صداقتهم والخضوع لهم ، فكان جزاؤه الطرد من موطنه (٧) . وأفاذ الختيم موسَى من دَارَه بأن يد « النصارى» لم تمتد بعد إلى دار

---

(١) مهدية : ١/١٤/١/٦٠ – ١٨ شوال ١٣٠٨ الموافق ٢٧ مايو ١٨٩١ ( محمود احمد إلى الخليفة).
انظر كذلك ص ٣٠٤.

(٢) مهدية : ٢/٣٨/٤/٣٤ – غرة محرم ١٣٠٩ الموافق ٧ أغسطس ١٨٩١ ( احمد موسى الفروقاوى إلى محمود احمد ).

مهدية : ١/١٤/٣/٢٧٥ – ١١ ربيع ثانى ١٣١٠ الموافق ٢ نوفمبر ١٨٩٢ ( محمود احمد إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ١/١٤/٣/٢٨٦ – ٢٤ ربيع ثانى ١٣١٠ الموافق ١٥ نوفمبر ١٨٩٢ ( محمود احمد إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ١/١٤/٣/٣٤٢ – ١٩ رمضان ١٣١٠ الموافق ٦ أبريل ١٨٩٣ ( محمود أحمد إلى الخليفة).

(٥) مهدية : ١/١٤/٣/٢٦٥ – ٦ الحجة ١٣١٠ الموافق ٢١ يونيو ١٨٩٣ ( محمود احمد إلى الخليفة).

مهدية : ١/١٥/١/٤ – ٥ صفر ١٣١١ الموافق ١٨ أغسطس ١٨٩٣ ( محمود أحمد إلى الخليفة).
واضح من تاريخ الرسالة الثانية ان الأنصار لم يقوموا بهجوم على بحر الغزال فى اغسطس ١٨٩٣. لكننا نرى كولنز يقول بهذا خطأ، ويضيف بأن الختيم موسى وصل إلى دار الفروقى وطرد حمد موسى من مقره ( Collins : pp. 145 ).

(٦) أنظر ص ٣٠٩.

(٧) مهدية : ٢/٢٤/٨/١٦٤ – ١٨ شعبان ١٣١١ الموافق ٢٤ فبراير ١٨٩٤ ( الزبير الفحل إلى الخليفة).

الفَرْتيت ، فما فتئوا يقيمون فى قرية زِمْيو وإن اتجهت نواياهم إلى غزوها مما افزع سلاطينها وودوا أن لو اعانهم الأنصار (١). فلم تعد ازاء ذلك ثمة مندوحة لتأخير حملة الختيم وإلا تقدم «النصارى» الأنصار إلى احتلال دار الفَرْتيت . ولذلك اسرع محمود الخطى من الأبيض إثر عودته من ام درمان ، واندفع نحو دَارَه حيث قضى اياما كلها جهد ونصب يرتب شئون الحملة ويكفل لها أسباب النصر حتى أكتملت عدتها ، وانطلقت فى ٣٠ يونيو ١٨٩٤ نحو بحر الغزال والقلوب تشيعها بصالح الدعاء (٢).

واعتقد محمود يقينا أن رجاله لامحالة فائزون ، وزاده يقيناً أن سبق رحيل الختيم حدث اعتبره الناس بشير خير وطالع سعد ونصر أكيد . فقد تسلم محمود رسالة من حَجَر ولد ضَحيّة شكا فيها مر الشكوى مما الحقه به رجال زِمْيو الذين دخلوا دياره برفقة « النصارى » من أذى ، وأعلن خالص توبته ثم،استنجد بالأنصار فهم حزبه وسنده ، فأرفق محمود رسول حَجَر بالحملة وخاطب حَجَراً وقرينه حمد موسى بالتعاون مع الختيم (٣) . ومات حجر قبل أن يدركه الختيم ، فآثر خليفته نصر السلامة وإنحاز إلى جانب دُونْكير فى ليفى (٤) . أما حمد فكتب إلى الخليفة فى ٣ يوليو ١٨٩٤ يفيده بأن ثلاثة من « النصارى » أغاروا عليه بمساندة زِمْيو ورَفّاى، فقاتلهم حتى غلب ، فهجر حاضرته ثم جمع شتات قومه وعاد لحرب المغيرين ثانية ، فانهزموا خاسرين ، ثم طلب حمد إلى الخليفة مباركة عزمه على جهاد العدو ثالثة ، ففى دعواته الصالحات خير معين له على النصر (٥) .

وقطعاً بالغ حمد موسى فى تصوير نضاله ضد الكنغوليين ، فالوصف الذى أورده للغزاة الذين اصطدم بهم ينطبق تماما على حملة فِيفِنْز التى خرجت من قرية زِمْيو فى مارس ١٨٩٤ واشترك فيها ثلاثة من ضباط ليوبولد هم فيفِنْز نفسه والملازم

---

(١) مهدية : ٥٢/١/١٥/١ — ٥ رمضان ١٣١١ الموافق ١٢ مارس ١٨٩٤ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ٩٦/١/١٥/١ — ٢٦ الحجة ١٣١١ الموافق ٣٠ يونيو ١٨٩٤ (محمود احمد إلى الخليفة).

(٣) مهدية : ٩٧/١/١٥/١ — ٢٧ الحجة ١٣١١ الموافق ١ يوليو ١٨٩٤ (محمود أحمد إلى الخليفة).

(٤) مهدية : ١١٧/٢/١٥/١ — ٨ صفر ١٣١٢ الموافق ١١ أغسطس ١٨٩٤ (محمود أحمد إلى الخليفة). أنظر كذلك ص ٢١٠.

(٥) مهدية : ٢٣١/١٢/٢٤/٢ — ٢٩ الحجة ١٣١١ الموافق ٣ يوليو ١٨٩٤ (حمد موسى الفورقاوى إلى الخليفة).

ولهاوسن ( Walhousen ) ودُونكير كما سار فيها السلطان زِمبو ، لكنا نعرف ان فيفز وولهاوسن يصحبهما زِمبو عادوا إلى قاعدتهم فى الكنغو فى أبريل لإضطراب حبل الأمن هناك ، وتركوا دُونكير يواصل السير إلى ليفى (١) . وينفى هذا أن يكون حمد قاتل قوة إشترك فيها ثلاثة من « النصارى » ويدحض حجته بأن القوة تراجعت خوفاً من الالتحام به . أمر واحد لايمكن تكذيب حمد فيه هو أن الفروقى تعرضوا لهجمات منظمة قام بها اتباع الملازم جِرارْد من كاتُواكا (٢) .

إذن فلماذا المبالغة ؟ من المقطوع به أن حمد موسى كان يحرص على استقلاله ويسعى جهد الطاقة إلى الحفاظ عليه ، فأفلح نسبيا فى إبعاد الأنصار من التدخل المباشر فى شئونه وعاداهم بسبب ذلك ، لكنه رأى اليوم الكنغوليين يرمون إلى إخضاعه مغلبهما إلى الخليفة مثله مثل حَجَر ولد ضَحيّه يستظهر به عليهم . وحمد بهذا إنما يبحر فى مياه امتلأت بالصخور ، ويسعى جاهداً إلى تسيير سفينه بين قوتي الأنصار والكنغوليين الذين اتفقوا – رغم مابينهم من عداء – على تحطيمه ، فالكنغوليون يبغون توسعاً وملكا ، والأنصار مصممون على صد غزو « النصارى » واستعادة مركزهم فى بحر الغــزال . ومن ثم نشأت أزمة حمد موسى ، فتذبذب موقفه فى سبيل الإبقاء على استقلاله بين القوتين وتأرجح ، ونراه حين اشتد الضغط الكنغولى عليه يعقد حلفاً مع دُونكير بعد اثنين وعشرين يوما من تاريخ خطابه إلى الخليفة .

وبينما راح حمد موسى يتقلب على نار الهلع من فقدان استقلاله ، نهب الختيم موسى الطريق نحو دار الفرتيت نهباً ، فدخل دخول الفاتحين حفرة النحاس فى مطلع اغسطس ١٨٩٤ ، ومن هناك زفّ إلى محمود خبر انتصاره ، ثم افاده بامتثال أهل الحفرة وابلغه عزمه على مواصلة السير إلى كاتُواكا – رغم ما اصاب الأنصار من جهد بفعل الوحل وقلة الطعام – بغية القبض على « النصراني » المقيم بها وتأديب سلطان حفرة النحاس الذى التجأ اليه حال سماعه بقدوم الأنصار . (٣) وتابع الختيم زحفه المظفر ، وتطلع إلى اللحظة التى يأسر فيها « نصراني » كاتُواكا ، لكن أمله خاب حين سمع

---

(١) Collins :.147 . أنظر كذلك ص ٢٠٩.

(٢) أنظر ص ٢٠٩.

(٣) مهدية : ١١٩/٢/١٥/١ – ٢٣ صفر ١٣١٢ الموافق ٢٦ أغسطس ١٨٩٤ ( محمود احمد إلى الخليفة).

بفراره (١) . وماذاك « النصراني » غير الملازم جرارْد الذى حافظ على حصنه حتى أكتوبر حينما جاءته نجدة بقيادة الكابتن نيلس على أنها لم تكن كافية لمنازلة جيش الختيم الجرار ، فانسحب نيلس وجيرارْد من كاتُواكا نجاة من بطش الأنصار بهم وتراجعا إلى رَفّاى (٢) . وينفى ذلك أن يكون جيرارْد هرب فى أغسطس كما يفهم من خطاب الختيم إلى محمود أحمد المؤرخ ٢٥ أغسطس ١٨٩٤ .

وواكبت نجوم السعد الأنصار فى خطوتهم التالية . فقد قصد الختيم دار الفروقى بعد فرار الكنغوليين من كاتُواكا ، فبادر حمد موسى - إذ أحس بالخطر - الى مخاطبته بالإذعان والتسليم ، إلا أنه حنث بوعده عند اقتراب الأنصار من مقره كَبور كوا ، وخرج لحربهم لكنه انهزم ولاذ بالهرب . وبرغم روح البهجة والتفاؤل التى نقل بها الختيم هذا النبأ غير أنه صور لمحمود فى أسى ماعليه الأنصار من ضيق نتيجة الجوع والمطر المتصل ، وأحس محمود بحوجة الختيم إلى إمداد سريع ، فصدر الأمر إلى سليمان أحمد أكرت بتجهيز جيش ينهض به إلى بحر الغزال (٣) .

وقضى احتلال الختيم لأرض الفروقى على ماتبقى للكنغوليين من نفوذ فى بحر الغزال ، فعندما اقترب الأنصار من كَبور كوا طيرّ حمد موسى خبرهم إلى دُونْكير فى ليفى ، ودعاه إلى توحيد القوى وقتال الختيم تحقيقا لما بينهما من عصبة . ويعكس هذا بوضوح نفاق حمد الذى سبق أن كتب إلى الختيم تائبا ، بيد أن دُونْكير لم يأنس فى نفسه كفاءة للاشتباك بالأنصار الذين فاقوا رجاله عدة وعدداً ، فأعرض عن كلام حليفه وتراجع إلى مورْجين ( Morjane ) على حدود الكنغو (٤) . وتبين حمد موسى آنذاك خطل اتكاله على الكنغوليين ، فانبرى لمكافحة الختيم دون سند ، ثم باء بالخسران وضرب فى الفلاة هارباً وهو يندب حظه العاثر (٥) .

---

(١) مهدية : ١/١٥/٢/١٣٣ - ١٥ ربيع ثانى ١٣١٢ الموافق ١٦ أكتوبر ١٨٩٤ ( محمود أحمد إلى الخليفة).

(٢) Collins : 154, Sanderson : 151.

(٣) مهدية : ١/١٥/٢/١٤٥ - ١٢ جماد ثانى ١٣١٢ الموافق ١١ ديسمبر ١٨٩٤ ( محمود أحمد إلى الخليفة).

(٤) Collins : 154.

(٥) ذكر كولنز (ص ١٥٤) وساندرسن ( ص ١٤٨) خطأ ان حمد موسى سلم نفسه للختيم كما سلم اليه المعاهدة التى امضاها مع الكنغوليين. صحيح أن الختيم أشار إلى خطابات عثر عليها فى كبور كوا وردت إلى حمد من « النصارى» وزميو إلا أنه - وهو الفيصل فى هذه المسألة - اثبت فرار زعيم الفروقى .

وسّر محمود أيما سرور لفوز الختيم ، وطفق يُجيِّش قوة ثانية تخفف مشقة الحرب على رجاله وتعينهم فى إكمال السيطرة على بحر الغزال ، على أن فرحة محمود لم تدم ، اذ فاجأه الختيم بالعودة إلى دارفور قبل أن يؤذن فى ذلك ، ودون أن يتحقق كل الذى صبا اليه محمود . كتب الختيم فى ٢٧ نوفمبر ١٨٩٤ يعلن خروجه من دار الفروقى بسبب الجوع الذى هدّ أجسام جنوده وقتل منهم عدداً ، ونتيجة خلاف شجر بينه وبين نائبــه عبد القادر دليل الذى عصى أوامره علانية ، فانقسمت صفوف الأنصار وأضحى تماسكهم أمراً مستحيلاً (١). وساء محموداً أن يخيّب الختيم وعبد القادر أمله فخاطبهما فى ٢٠ ديسمبر زاجراً ، مستقبحاً ما ارتكبــاه من جرم بانسحابهما من بحر الغزال .

ثم تلقت الفاشر رسالة أخرى من الختيم أعلن فيها وصوله إلى الكَلَكَه ، فاستشاط محمود غضبا وكتب إلى الخليفة يقول إنه ما كان يتأخر عن الذهاب إلى الكَلَكَه والعودة بالأنصار إلى بحر الغزال لولا أنه تأهب لغزو الجبهة الغربية وتقدمته الجيوش اليها (٢) .

وأمر محمود — وهو فى فورة غضبه — الختيم بالرجوع إلى بحر الغزال ، وكان هذا قد تابع مسيره من الكَلَكَه حتى حط الرجال فى نِيره جنوبي دَارَه . وصدع الختيم للأمر وغادر نِيره فى ١٨ فبراير ١٨٩٥ بعد أن لم شتات جيشه واجتهد فى رأب الصدع القائم بينه وبين عبد القادر دليل (٣) . ولما هدأت ثائرة محمود وتروى فى المسألة رأى خطورة فى إجبار جنود الختيم بإعادة الكرة على بحر الغزال خوفاً من تمردهم فسارع إلى توجيهه بإبطال غزوته والأنضمام إلى الإنصار المحاربين فى الجبهة الغربية . على أن الختيم تسلم هذه الإشارة بعد أن قطع بحر العرب ، فلم يشأ الرجوع إلىدارفور قبل أن يستّرد ثقة محمود فيه ويشفى غليله فى حمد موسى الفروقاوى (٤) .

وسمع الختيم حين بلغ الكَلَكَه بخبر خلق كثيرين اجتمعوا فى كافى كُونْجى بقيادة حمد موسى الذى مافتىء يسعى إلى إفساد قبائل غربي بحر الغزال والداخلين فى حمايتهم

---

(١) ارجع محمود أحمد سبب الشجار بين الختيم وعبد القادر دليل إلى رغبة الثانى فى تولى قيادة الحملة واستنكاره لان يكون تابعا للختيم ( مهدية ١/١٥/٣/١٩١ – ١٥ صفر ١٣١٣ الموافق ١٨٩٥/٢٨ – محمود احمد إلى الخليفة).

(٢) مهدية : ١/١٥/٢/١٤٩ – ١٧ رجب ١٣١٢ الموافق ١٤ يناير ١٨٩٥ ( محمود احمد الى الخليفة).

(٣) مهدية : ٢/٣٦/٢/٦ – ٢٢ شعبان ١٣١٢ الموافق ١٨ فبراير ١٨٩٥ ( الختيم موسى إلى محمود احمد). غاب عن كولنز خبر حملة الختيم الثانية هذه، كما غاب عنه خبر حملة ثالثة سياتى ذكرها فيما بعد ، فقال بأن الأنصار لم يعاودوا الهجوم على بحر الغزال بعد تراجعهم،فآلت مصائر اهلها إلى الفوضى(Collins:155).

(٤) مهدية: ٢/٢٥/١٢/٢١٢ – ٦ الحجة ١٣١٢ الموافق ٣١ مايو ١٨٩٥ ( صلاح ابوه إلى الخليفة).

من عصاة البقارة ، ويستنفرهم لمكافحة الأنصار . فقصدهم الختيم للتو وأوقـع بهم نهار ١ مارس ١٨٩٥ ، فولى حمد موسى الأدبار وتعقب الأنصار فلول جيشه حتى ليفى (١) . على أن الختيم لم يمكث طويلا فى دارالفروقى بعد فوزه هذا ، فرجع إلى دارفور فى منتصف يوليو مكتفيا بهزيمة حمد موسى دون إخضاعه (٢) ، ولابد أن الختيم خاف أن يدركه الخريف وهو ببحر الغزال فيتعرض جنوده لمثل الضائقة التى ألمت بهم فى العام السابق .

وما أن إنتهى فصل الأمطار وحل الشتاء حتى هب الختيم موسى للمرة الثالثة غازياً بحر الغزال ، فغادر الكَلَكَه فى ٧ فبراير ١٨٩٦ (٣) . ويجب أن نتبين هنا أنه لم يكن من أغراض حملتى الختيم الثانية والثالثة حرب الكنغوليين إذ انقطع دابر هؤلاء منذ عام بالتمام . فقد اتفق أن تطابقت حملة الأنصار الأولى زمنيا مع هزيمة دبلوماسيةلليوبولد فى اوربا ، أجبر نتيجة لها على استدعاء قواته من بحر الغزال والتخلى عن أطماعه فى أعالى النيل ، وذلك بموجب ميثاق وقعه مع فرنسا فى ١٤ أغسطس ١٨٩٤ . وكان ليوبولد قد أبرم فى ابريل من ذات السنة إتفاقا مع بريطانيا اعترفت فيه حكومتها لدولة الكنغو الحرة بحق السيطرة على بحر الغزال ولليوبولد بإمتلاك منطقة اللادو طيلة حياته . وقصدت بريطانيا بذلك إلى إستخدام الكنغوليين مخلب قط لمنع التوسع الفرنسى فى جنوب السودان . لكن الغطاء انكشف عن الاتفاق الانجليزى - الكنغولى فثارت فرنسا وتوعدت ليوبولد بالويل ، فخاف على عرشه من مؤامرات الفرنسيين ، وتنازل عن كل حق خلعهُ عليه اتفاقه مع بريطانيا ، وأصدر أمراً إلى قواته العاملة فى بحر الغزال بإخلائها ، وكان قادة تلك القوات بدأوا يتراجعون عن مواقعهم إلى حدود الكنغو خوفا من الختيم موسى قبل أن تصلهم تعليمات ليوبولد ، فلما جاءتهم - ولم يزل الفزع من الأنصار يستولى عليهم - انسحبوا من بحر الغزال نهائيا فى فبراير ١٨٩٥(٤).

اذن فقد استهدفت حملتا الختيم موسى الثانية والثالثة تأديب حمد موسى ومن فى حلفه من المعرضين ، ثم اخضاع بحر الغزال بعد أن طرد الكنغوليين منها

---

(١) مهدية : ٢/٢٥/١٢/٢١٣ - ٦ الحجة ١٣١٢ الموافق ٣١ مايو ١٨٩٥ ( صلاح ابو الى الخليفة ).
فى هذا برهان آخر على عدم تسليم حمد موسى للختيم كما ذكر كولنز وساندرسن.

(٢) مهدية : ١/١٥/٣/١٩١ - ١٥ صفر ١٣١٣ الموافق ٢٨ يوليو ١٨٩٥ ( محمود احمد الى الخليفة ).

(٣) مهديه : ٢/٣٦/٦/١٦ - ٢٢ شعبان ١٣١٣ الموافق ٧ فبراير ١٨٩٦ ( الختيم موسى الى محمود احمد ) .

(٤) Collinis - 155 Sanderson : 148-149.

وتلك أمنية لم تتحقق . فما فتىء حمد موسى حراً طليقا فى نهاية الحملة الثانية ، ولايبدو أن الختيم أحرز نصراً يذكر بغزوته الثالثة ، ولعله لم يذهب بعيداً عن الكلكه التى برحها فى مطلع فبراير ١٨٩٦ كما تقدم ، ونراه بعد زمن وجيز يلحق بمحمود فى الابيض ومن ثم سار معه إلى أم درمان ، فبلغها ركبهم فى ٢٠ مايو (١) . واستحال على الأنصار بعد عودة محمود إلى الفاشر القيام بنشاط عسكرى فى بحر الغزال لإنصراف الأذهان إلى الأحداث الخطيرة التى كانت تجرى على حدود السودان الشمالية فى هذا الوقت ، ولذا ارتفع سيف الأنصار عن أهل بحر الغزال ، فعمت الفرحة أوساطهم ، وعادوا إلى مألوف حياتهم البدائية يصطرعون ويعتركون سعياً وراء مجد القبيلة وعظمتها حتى جاءهم الحكم الثنائي وفرض سيادته عليهم .

(١) انظر ص ٢٠٣.

## الفصل الســـابع

# عودة الاستقلال

كان خروج جيش محمود أحمد من دارفور ايذاناً بفكاك أهلها وانعتاقهم من قبضة الأنصار . فما أن وطئت أقدام محمود أرض كردفان حتى انطلق فى دارفور مارد ظل حبيس القضبان دهراً ، وعادت إلى مسرح الأحداث فى تلك البلاد جلبته وضوضاؤه التى لم تهدأ إلا على صوت زغاريد استقبلت بها الفاشر على دينار وهو يلج أبوابها عائداً من ام درمان . وبدهى أن يتقدم الفور طليعة الثائرين ، فتصدى لقيادتهم نفر من كبارهم وتزعمهم رجل يدعى حسين محمد عجيب الشهير بأبي كُودَه(١). ورغم ان أبا كُودَه لم يحظ بتأييد قبائل دارفور جميعها إلا أن ماإجتمع له من قوة وما أمده به السلاوى من مساعدة كان كافيا للإطاحة بحكم المهدية وتحطيم قلاعها غير حصن واحد أبي التسليم له ، وراح قائده يتحدى الصعاب والمكاره عشراً من السنين .

ومهدت ثورة أبي كُودَه الظافرة السبيل لعلى دينار كى يرقى عرش أبائه ، ولدارفور كى تسترد استقلالها وإن شابته هذه المرة تبعية اسمية تشبثت بها دولة الحكم الثنائي ، ولم ير على دينار ضيراً فى قبولها . بيد أن طريق على إلى العرش لم يكن مفروشا بالورود والرياحين ، فقد نافسه فى الوصول اليه ابراهيم على الذى انتدبه كتشنر لإدخال أهل دارفور فى طاعة حكومة السودان الجديدة (٢) ، وسبقه إلى الجلوس عليه أبوكُوده

---

(١) اتفقت كل الروايات التى سمعتها فى دارفور على انتماء اسرة أبي كوده من جهة الأم إلى بيت الملك فى دارفور ، لكنها اختلفت فى تحديد منبتها من جهة الاب ، قال لى السيد منصور عبد القادر شرتاى منطقة كاس وحفيد أبي كوده أن جده محمد عجيب يلحق بالسلطان بكر بأبيه ، وافادنى شيوخ آخرون من الفور بأن أباكوده من الحداحيد . والحداحيد فيما ذكر ماكايكل ( تاريخ : جزء أول ص ٨٩ ) جماعة وفدت إلى دارفور من ودّاى واشتغلت بصناعة الحديد . ولعل فيما آل اليه مصير أبي كوده بعد استيلاء على دينار على العرش دليلا على ماذهب اليه أولئك الشيوخ عن حقيقة اصل ابى كوده ، فقد جعله على دينار شيخا على الحداحيد فى عموم دارفور ( مخابرات السودان ١/١٩/٩٣ ) .

(٢) كان ابراهيم على بين الذين اقتادهم محمود أحمد من أعيان دارفور . وسنحت لإبراهيم فرصة للهرب من معسكر محمود فى المتمة ، فلجأ الى كتشنر الذى رعاه أملا فى الاستفادة من خدماته ، ودخل فى روع كتشنر ان ابراهيم من سلالة السلاطين فى دارفور ، فبعثه عقب موقعة العطبرة لتولى إدارتها لحين وصول قوات الحكم الثنائى اليها ( مخابرات السودان ٦/٣/٥٩ ، شقير ٣ : ص ٦٧٢ ، السودان فى قرن ص ٢٣٦ ، ثيوبولد ص ١٠٧ ) . ونفى على دينار فيما بعد أن يكون ابراهيم على من سلالة السلاطين بل هو عبد من عبيد آبائه تطلع إلى ملك لا يسنده فى المطالبة به أرث أو محتد ( مخابرات السودان ٦/٣/٦٣ . ملحق ج ) .

الذى أبطره الظفر بالأنصار . فاستمرأ السلطان . ومن ثم تعينّ على على دينار إحباط مسعى ابراهيم على وطرد أبي كُودَه ، ووجب عليه ثانيا أن يتخلص من الأمير سَنين حسين ، قائد الحصن الذى امتنع على أبي كُودَه قبل أن تثبت أقدامه فى الملك وترسخ وقد كللت جهود على دينار جميعها بالنجاح ، فتربع على دست الحكم هادئ البال ، قرير العين ، فرحاً بما حققه لنفسه ولقومه من أمنيات طالما اعتملت بها الصدور ومات سعيا لإدراكها رجال .

**بداية النهاية :**

عاد — برحيل محمود أحمد من دارفور — سيف الأنصار الذى كان ماضيا بتاراً إلى غمده ، لاتخاذلاً عن أداء الواجب ، ولكن لضعف فى العدة والعديد ، ذلك أن داعى الجهاد فى شمال السودان استوجب توجيه كل القوى لصد كتشنر ودحره فلم يترك محمود فى دارفور غير حفنة من الرجال بلغ عددهم ستمائة وخمسين مقاتلا وزعوا على الفاشر وكَبْكابيّه — التى فازت باكبر نصيب لموالاتها للجبهة الغربية — ثم ره، أما عدتهم من السلاح والخيل فكانت ٢٧٣ من البنادق بانواعها و١٤٢ حصانا (١). وفطن محمود إلى ضعف قوة نوابه فى دارفور وقصور استعدادهم إن جوبهوا بظروف استثنائية ، فوجه أم بَدّى الرّضى إلى الاقلاع عن كل مايثير الناس ، وهداه إلى أخذهم بالحيلة والسياسة حتى وإن بادروه بالعداء ، عساه بذلك يبقى للمهدية مظهر الحكم فى دارفور ، فإذا ماعادت اليها الجيوش بعد القضاء على كتشنر أعادت الروح إلى الهيكل وبعثت فى أوصاله الحياة (٢) .

وماذاك إلا سراب يحسبه الظمآن ماء ، فقد جرت الاحداث فى دارفور عقب رحيل محمود منها على نسق خيب أمانيه ، وأبان بوضوح استحالة كبح جماح اهلها بأسلوب المسالمة الذى اقترحه على أم بَدّى الرّضى بعد أن واتتهم فرصة للخلاص . ولايجب أن يتبادر إلى الذهن أن قبائل دارفور كلها اشتركت فى هدم ماتبقى للمهدية من سلطان ، اذ حصر ضعف أمكانيات الأنصار العسكرية دائرة نفوذهم فى نطاق ضيق ، وباعد بينهم وبين كثير من القبائل ، فلم تعد تحس بوجودهم أو تستشعر

---

(١) مهدية : ٤٢٨/٤/٢٩/٢ — ١٣١٥ الموافق ١٨٩٨/١٨٩٧ ( أم بدى الرضى إلى الخليفه )

(٢) مهدية : ١٧-١٤٣/٥/٢٨/٢ جماد أول ١٣١٥ الموافق ١٤ أكتوبر ١٨٩٧ ( ام بدى الرضى إلى الخليفة ) .

خطراً على حريتها . ولمّا كان الاستقلال غاية مبتغى هذه القبائل فقد امسكت عن قتال الأنصار يوم عجزوا عن مد أيديهم نحوها .

والشواهد على ذلك كثيرة . خلد الزغاوة للسكينة حتى اختلف زعيم لهم يدعى محمد دَرْدوق مع ام بدّى الرّضى وأثارهم عليه ، فخرجوا عن طاعة الأنصار دون أن يقصدوا الفاشر لخرابها (١) ، وابتهج سلاطين الجبهة الغربية لما رأوا الزمن يقلب ظهر المجن للأنصار ، لكنهم أكتفوا بالشماتة والسخرية ولم يقوموا – باستثناء السلاوى – بنشاط يساعد فى دك الحصون التى تركها محمود أحمد لحراسة دارفور . وأعرض بنو هلبة إلا قلة منهم عن الاشتراك فى حلف أبى كُودَه ، بدليل الرغبة التى أبدوها للدخول فى طاعة كتشنر قبل أن يتم له النصر النهائي على الخليفة . وذلك عين الذى فعلته بطون من البيقُو والميما والداَجُو (٢) .

من أين إنبعث الهجوم على حاميات الأنصار إذن ؟ لـقد قام الفور بقيادة حسين أبي كُودَه بتلك المهمة ، دافعهم فى ذلك الأنعتاق التام من امرة المهدية أولا وبعث سلطنتهم التى انهال عليها التراب نيفاً وعشرين عاماً ثانياً ، واختلفت أهداف الفور لهذا عن مطمح القبائل الأخرى التى أرادت حرية فى نطاق أرضها ولم ترم ملكاً على دارفور كلها . وقد بدأت الحركة التى تزعمها أبو كُوده ، صغيرة متواضعة تعتمد فى سندها على أهل بيرْكُويه وفى السلاح على السيوف والعصى (٣) ، غير أن خبر أبي كُودَه ذاع سريعاً ، فتقاطرت عليه وفود الساخطين من الفور ومنحته تأييدها ، فاشتد ساعد ثورته وشبت عن الطوق . وجذبت هبة أبي كُودَه كذلك أكثرية أهل « السودان » المجاورين لداَرَه والبَرْتي القاطنين شرقى الفاشر ، فانضووا تحت لوائه ، فازداد بهم قوة على قـوة (٤) .

وانبرى محمد فضل الله الدّغُـور لجهاد أبي كُودَه فى بداية عهده ، فأنفذ

---

(١) مهدية : ٢/١١/٦/٥–١٧ جماد اول ١٣١٥ الموافق ١٤ أكتوبر ١٨٩٧ ( ام بدى الرضى الى يعقوب محمد ) .

(٢) مخابرات السودان : ٥٩/٣/٦.

(٣) مهدية : ١/١٥/٤/٢٨٧ – ٢٧ القعدة ١٣١٤ الموافق ٢٩ أبريل ١٨٩٧ ( محمود احمد الى الخليفة ) كان ابو كوده – فيما قال لى السيد منصور عبد القادر – يملك حواكير كبيرة فى منطقة بيركويه ولا بد انه افاد من هذا الوضع فى التأثير على من حوله .

(٤) هذا ماذكره لى الشيخ على السنوسى وعبد الله باصرو شرتاى منطقة كالكوتنج .

ثلة من جهاديته إلى بِيْرِكُويه ، فتمكنوا بما لديهم من سلاح نارى من احتلالها وطرد العصاة منها ، فاختفى أبوكُودَه حينا لتضميد جراحه ، ولما اندملت وأحس فى نفسه قدرة على مصاولة الأنصار ثانية ، قصد بيرْكُويه بسيوفه وعصيه ، واحتاط بخصومه الذين تكاثر عليهم العدو فعمدوا إلى الهرب وانكسروا عائدين إلى دَارَه قبل أن ينجدهم عاملها (١) .

وكسب أبو كُودَه بهذا الفوز تبعاً جدداً ، لكنه أحس دون شك بحاجة ماسة إلى سلاح نارى يدعم به تفوقه العددى قبل أن يقتحم دَارَه التى كانت أقرب قلاع الأنصار إلى محور نشاطه . ولجأ أبوكُودَه إلى دار سُلا لسد النقص الذى يعانيه ، فأجابه سلطانها إلى ضالته ، وطوقه بجميل عطفه وتشجيعه . فقد عاد أبو كُودَه إلى بيرْكُويه من دار سُلا ، وفى ركبه رسولان من خاصة رجال السلاوى، وبرفقته عدد من المحاربين المزودين بالبنادق والخيل (٢) . وليس مسلك السلاوى هذا بغريب . لقد كانت بلاده مذ حل الأنصار بدارفور مأوى للنافرين من حكمهم ، المناهضين لدولتهم . والسلاوى فى ذلك يتفق مع البرقاوى ، لكنه يختلف عنه فى سعيه لبسط نفوذه الفعلى على الجزء المتاخم لمملكته من دارفور ، إذ شهدنا رجاله يغيرون على غربي جبل مرّة فى بداية عهد محمود احمد (٣) ، ونراه الآن ينتهز فرصة تقلص سلطة الأنصار ويستغل احتياج أبي كُودَه إلى مناصرته فى تحقيق الهدف الذى خاب قبلاً فى إصابته . وشاع خبر تدخل السلاوى فى شئون دارفور حتى بلغ مسامع كتشنر ، فجاءه من يقول بأن السلاوى استولى على دار التعايشة وبنى هلبة وأن جيوشه استهدفت إسقاط دَارَه (٤) .

وقطعاً قصد المخبر بهذا جهود أبي كُودَه العسكرية عقب عودته من دار سُلا ، فقد إزداد إطمئنانا إلى النصر بما لقيه من تأييد السلاوى وتعضيده ، فضاعف نشاطه المناوىء للأنصار ، وراح فى جرأة يطلب دَارَه . على أن الدَّغور مابرح فى مركز أقوى فاستهجن تحرش أبي كُودَه به وخرج لحربه ، وأجبره على التراجع بعد اشتباك عنيف

---

(١) مهدية : ١٤/٧/٣٦/٢ – ٣ الحجة ١٣١٤ الموافق ٥ مايو ١٨٩٧ ( محمد فضل الله الدغور الى ام بدى الرضى ) .

(٢) مهدية : ١٦٦/١٠/٣٨/٢ – ٢٠ محرم ١٣١٥ الموافق ٢١ يونيو ١٨٩٧ ( محمد فضل الى محمود احمد)

(٣) أنظر ص ٣٠٧.

(٤) مخابرات السودان : ٥٣/٢/٦.

قتل اثناءه رسولا السلاوى (١) ، فانهزم أبو كُودَه إلى جنوب جبل مرّة وطفق يدعو أهله للالتفاف حوله ، ويرهب من صدّ عن إتباعه . ومما ساعد فى انتشار الفتنة رجوع بعض ممن ساقهم محمود احمد إلى أم درمان بأخبار مشوهة عن هزائم عظيمة منى بها الأنصار وهم يجاهدون كتشنر ، فازدهر الأمل فى نفوس الفور وحلفائهم من أهل « السودان » بالخلاص من الأنصار ، وزاد إقبالهم على أبي كُودَه ، فشخص ببصره ثانية نحو دَارَه (٢) .

وعندما تأزم الموقف فى دارفور شكا أم بَدّى الرّضى للخليفة عدم قدرته على مجابهة ثورة أيدها بالقلب إن لم يكن بالسيف جميع الناس، حتى أضحى شأن الأنصار بينهم كشأن بعوضة فى شجرة هبت عليها ريح عاصفة ، فهزت الجذع منها والفروع (٣). وكان الخليفة فى شغل عما يجرى فى دارفور ، إذ كرس كل فكره وجهده لمدافعة كتشنر ، فأصبح لزاماً على ام بَدّى وصحبه أن يتدبروا أمرهم دون أمل فى عون يسعفهم به الخليفة. وبذا أسهمت حملة الفتح فى قطع الإتصال بين الفاشر وام درمان، ثم حدث مافصل بينهما تماما . فقد شجعت هزائم الخليفة المتواليه وانسحابه أمام جحافل كتشنر قبائل كردفان على العصيان ، فسدوا الطريق بين الفاشر والابيض ، وأخذت جماعات منهم تغير على حدود دارفور الشرقية ، وتستنهض سكان ام شَنْقَه وجبل الحلّه والطويشَه (٤) ، وانعزل الأنصار بدارفور نتيجة لذلك عن أم درمان محط رجائهم ومصدر منعتهم ،وصاروا على حال يشبه حال «سلاطين» إثر اندحار حملة «هكس» وكما مهدت عزلة «سلاطين» لاختناقه وارتفاع راية المهدية على انقاض ملكه ، كانت عزلة ام بَدّى وصحبه توطئة لسقوط تلك الراية واندثارها .

وتسكت عند هذا الموضع وثائق المهدية عن الحديث لتصله الروايات المتناقلة فى

---

(١) مهدية : ١٦٦/١٠/٣٨/٢ - ٢٠ محرم ١٣١٥ الموافق ٢١ يونيو ١٨٩٧ (محمد فضل إلى محمود احمد ).

(٢) مهدية : ١٤٩/٥/٢٨/٢ - ١٧ جماد أول ١٣١٥ الموافق ١٤ أكتوبر ١٨٩٧ ( أم بدى الرضى إلى الخليفة ).

(٣) مهدية : ١٤٤/٥/٢٨/٢ - ١٧ جماد اول ١٣١٥ الموافق ١٤ أكتوبر ١٨٩٧ ( ام بدى إلى الخليفة ).

(٤) مهدية : ١٤٣/٥/٢٨/٢ - ١٧ جماد اول ١٣١٥ الموافق ١٤ أكتوبر ١٨٩٧ ( ام بدى الرضى الى الخليفة ).

دارفور فتكمل القصة (١) . واجمعت هذه الروايات (٢) على أن حسين أبا كُودَه أطاح بقوى الأنصار على دورين ، فاقتحم أولا أبواب دَارَه التى استعصت عليه سابقا وأرغم محمد فضل الله الدّغُور على اخلائها بعد أن أعيته الحيلة فى إفساد غارات أبي كودَه ، وانكسر إلى دار حَمَر (٣) . واندفع ابو كُودَه بعد فتح دَارَه نحو الفاشر والفرحة تتقدم موكبه ، وراح يستعجل لحظة النصر النهائي ليجلس على العرش الذى حلم باعتلائه وتعب فى سبيل الوصول اليه شهوراً ، فخرج أم بَدّى لمنازلته واعترك جيشاهما فى ماجَنْديّه على بعد ستين ميلا جنوبي الفاشر . ومرة أخرى ظفر أبو كُودَه بالأنصار ، فتراجع ام بَدّى إلى الفاشر لا ليعد نفسه لجولة ثانية مع جموع الفور وإنما ليجمع أطرافه وينهزم بمن معه يائسا إلى دار حَمَر ، ليلتقى هناك بالدّغور وينضمان معا لإبراهيم علي (٤) .

ومن عجب أن يصادق أميران من أمراء الأنصار ويحالفان رجلاً جاء إلى دارفور نائبا لقائد الجيش الذى حطم دولتهم . بيد أنه لايبعد أن تكون الدنيا أظلمت فى عينى ام بَدّى والدّغور ، فلم يريا مخرجا غير الذى سلكاه ، فحين وفد ابراهيم على إلى كردفان كان الخليفة قد أنهزم فى العطبرة ، وبدا للعيان ألاسبيل إلى إيقاف زحف كتشنر وصده ، وظهر جليا أن دولة المهدية ستنهار لامحالة وإزاء ذلك آثر السلامة من تقاعس عن الجهاد من الأمراء وعامة الأنصار ، وانخرط فى خدمة حكومة العهد الجديد . وأيا كان تقدير الباحث لمسلك ام بَدّى والدّغور وحكمه عليهما ، فإن خروجهما من الفاشر

(١) كانت مجموعة الخطابات المؤرخة ١٤ أكتوبر ١٨٩٧ هي آخر ماعثرت عليه من كتب ام بدى الرضى إلى الخليفة . وقد يكون لهذا الا مرتفسيران ، فاما أن يكون أم بدى انشغل عن مخاطبة الخليفة بجهاد أبي كوده ، أو أن عصاة كردفان اعترضوا سبيل رسله وهذا أقوى الاحتمالين ، فليس واجبا أن تمنع الحرب من فى مركز ام بدى ومن فى حاله عن الكتابة إلى قائده .

(٢) اعتمدت فى كتابة مايلى على الشيخ على السنوسي والسيد منصور عبد القادر والشيخ حسين اسد المقيم بكاس وهو من سلالة السلاطين وممن سيقوا إلى أم درمان فى عهد عثمان آدم . وقد تطابقت رواية هؤلاء فى كثير من جزئياتها مع ماجمعه محرر « حضارة السودان » فى عام ١٩٣٥ عن أخبار المهدية فى دارفور واثبته فى جريدته بالعدد ١٤٤٤ المؤرخ ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ .

(٣) يقول صاحب حضارة السودان فى هذا الصدد وايده فيما ذهب اليه الشيخ حسين اسد أن الدغور تراجع أولا الى الفاشر ومن هناك فر الى دار حمر فى صحبة ام بدى الرضى بعد هزيمته .

(٤) مخابرات السودان : ٦٠/٣/٦

حكى لى الشيخ على السنوسى بأن ام بدى الرضى ومحمد فضل الله الدغور عاشا فى كنف ابراهيم على حتى أوقع به جيش على دينار فرحل ام بدى الى ام درمان ثم عاد الى الأبيض حيث قضى بقية عمره . أما الدغور فقد شمله عفو على دينار واقام فى الفاشر الى أن مات قبيل مقتل السلطان على بقليل .

ودَّارَه ختم على دولة المهدية فى دارفور بخاتم النسيان ، فانسدل الستار على أربعة عشر عاماً قضى الأنصار وأهل دارفور معظم ايامهما فى صراع مميت .

**نزاع على العرش :**

إستراح حسين ابوكُودَه لما أصابه من فوز ،وطفق يبذل فى حدود مقدراته وموارده جهد الطاقة ليجعل من الملك الذى آلت اليه مقاليده حقيقة واقعة ، فاتخذ من رجل يسمى محمد أبا سَدّه وزيراً له ، وأحاط نفسه بحاشية كبيرة ، وبعث بالكتب إلى قبائل دارفور يخطب ودها وينشد طاعتها [1] . وما علم أبو كُودَه وقتذاك أن الأحداث ستجرى على غير مايبغى ، وأن العرش الذى اجتهد فى تثبيت دعائمه سيهوى قبل أن يدور الحول دورته [2] .

ولم تكن الريح التى عصفت بأبي كُودَه بعيداً عن مقعد السلطان غير تلك التى حملت على دينار على أجنحتها القوية عائداً إلى دارفور . وكان على دينار مذ أقتيد إلى أم درمان فى مطلع ١٨٩٥ [3] قد انخرط فى صفوف ملازمى الخليفة ، لايغيب عن العين لحظة ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الرؤوس الذين شك الخليفة فى ولائهم ، فسيقوا إلى أم درمان وفرضت عليهم رقابة شديدة . ولايبعد أن يكون على عاش أيام أسره يحلم بالرجوع إلى دارفور لإحياء سلطنتها ، فراح يعد الساعات وهى تمر بطيئة ثقيلة ويستعجل لحظة الخلاص قبل أن يعوقه عائق من تحقيق حلمه . ولابد أن الأمل فى الفكاك إنتعش فى قلب على حين نظر الخليفة يترنح تحت ضربات كتشنر المتصلة ، فهيأ نفسه للانعتاق من الأسر ، وتحين الفرص لذلك حتى واتته ، فأحسن استغلالها .

ففى عشية الثاني من سبتمبر ١٨٩٨ ، والناس مشغولون بالتأهب لمعركة كررى الفاصلة ، خرج على دينار من أم درمان خلسة فى ثلاثمائة من الأتباع وضرب فى البيداء

---

(١) حضارة السودان العدد ١٤٤٤.

(٢) ليس سهلا تحديد التاريخ الذى تسلم فيه ابوكوده زمام الأمر فى الفاشر تحديدا دقيقا ، لكنه لم يسبق أبريل من عام ١٨٩٨ على أية حال . فقد التقى ام بدى الرضى بعد طرده من الفاشر بابراهيم على فى فى دار حمر وكان ابراهيم قد خرج فى بعثه الى دارفور بعد الثامن من ابريل ١٨٩٨ ( انظر ص ٣٥٠).

(٣) انظر ص ١٨٧.

يقصد دارفور (١)، وجدّ علي في المسير إلى أن أشرف على الفاشر فتوقف على مقربة منها. ومامنعه من دخولها مباشرة إلا رغبة فى حقن الدماء التى ستسيل قطعا إن التحم بأبي كودّه الذى بلغ خبره عليا وهو بالطريق . ثم كتب على إلى أبي كُودّه يشكره على حسن صنيعه بتحرير دارفور من الأنصار ويدعوه إلى التخلى عن العرش إذ آب صاحبه . وأشاح ابو كُودّه بوجهه مبدأ الأمر عن كلام على دينار ، وقرر الدفاع عن ملك ابتناه بكده وجهده ، ثم عدل عن رأيه بعد أن تجسس على الجيش المرابط خارج الفاشر ،ورأى فيه قوة لاقبل له بها ، وهرب إلى بيرْكُويه ليدفن فى أرضها ذكرى حلم مات طفلا (٢). وفتحت الفاشر أبوابها إثر فرار أبي كُودّه لتستقبل على دينار الذى خرج منها لأربع سنين خلت كسيراً ذليلاً ، ورجع اليها ظافراً منتصراً ، فعادت بعودته الروح إلى سلطنة الفور المستقلة بعد أن انهال التراب على تراثها ومجدها ربع قرن من الزمن .

وسمع على دينار بعد وصوله الفاشر بنبأ أبراهيم على يقيم فى دار حَمَر ويقطع الطريق على الوافدين من دارفور (٣) ، ورأى على فى ابراهيم منافساً أخطر من أبي كُوده لاعتماده على تأييد كتشنر ورعايته ، بيد أن عليا إستهان بالصعاب ، وصمد للعاصفة فى تحد وعناد ، فلما انحسرت الريح ووضحت الرؤيا كان خصمه قد انزوى فى عالم النسيان. ومما ساعد على دينار فى إحباط مسعى ابراهيم بطأ هذا وتردده فى اغتنام الفرصة التى واتته

---

(١) مخابرات السودان : ٦٠/٣/٦ ، السودان فى قرن : ص ٢٣٧.

شك ثيوبولد ( ص ١٠٧ ) فيما اذا كان على دينار برح ام درمان قبل موقعة كررى ام فى اعقابها بينما قال شقير ( جزء ٣ : ص ٥٤٧ ) بهروبه اثناءها .

(٢) هذه رواية شيوخ دارفور الذين استمعت اليهم وبينهم الشيخ على السنوسى الذى دخل الفاشر فى صحبة على دينار ، وجاء فى شقير ( جزء ٣ ص ٦٧٢ ) وثيوبولد ( ص ١٠٨ ) مايخالف ذلك . ذكر شقير أن على دينار استولى على الفاشر من حامية للانصار مكونة من ثلاثمائة محارب بقيادة أم بدى الرضى ، وايده ثيوبولد فى هذا وزاد بأن تلك الحامية كانت تحرس عرش أبى كوده بعد أن حالفه قائدها . اما شبيكة ( السودان فى قرن ص ٣٣٧ ) فيثبت أن على دينار تسلم السلطة من نائب للخليفة لم يحدد اسمه او صفته .

وثمة نقطة خلاف اخرى حول ماصار اليه أمر أبى كوده بعد طرده من الفاشر . يقول ثيوبولد ( ص ١١٠ ) إنه هرب فى رفقة أم بدى الرضى الى دار حمر وانضم الى ابراهيم على ، ولما هزم جيش على دينار ابراهيم ( أنظر ص ٣٦٤ ) كان ابو كوده بين الاسرى ، فزج به فى السجن ثم عفا عنه على دينار . اما رواية اولئك الشيوخ فتذهب الى أن ابا كوده فر الى بيركويه واندس فيها وامتنع عن الحضور الى الفاشر رغم الحاح على دينار فى طلبه ، حتى تزوج على بنتا لأبى كوده تسمى مريم ، وحينذاك اطمأن ابو كوده فأقبل على الفاشر ، فجعله على دينار شيخا للحداحيد فى عموم دارفور ، ورجع أبو كوده بعد زمن الى بير كويه حيث قضى بقية عمره إلى ان مات فى سنة ١٩٣٤ عن مائة ونيف من السنين .

(٣) مخابرات السودان : ٦٠/٣/٦ ملحق ج ، ثيوبولد ص ١١٠.

للجلوس على عرش دارفور . فبعد أن فارق ابراهيم كتشنر فى العطبرة ضرب فى الصحراء قاصداً مرماه عبر كردفان ، فنزل أولاً بالصافية التى تقع على بعد ١٦٠ ميلاً شمالى الأبيض (١) ؛ وهناك شغل نفسه بإثارة قبائل كردفان وتدبير هجوم على الختيم موسى فى الأبيض ، ونجح ابراهيم فعلا فى استمالة زعيم الحوامده عمر محمد قَشْ الذى خرج عن طاعة المهدية وتحالف مع مبعوث كتشنر ، فأغار على باره وقضى على الأنصار المرابطين بها ، ثم تطلع إلى فتح الأبيض دون ماطائل (٢) .

وكان هذا فى يونيو ١٨٩٨ ، أى قبل معركة كررى – التى فر على دينار عشيتها إلى دارفور – بثلاثة شهور تقريبا . وتلك فرصة من الوقت كافية لأن ينجز ابراهيم على المهمة التى أسندت إليه لو أنه تابع المسير إلى دارفور ولم تعترض سبيله عقبات . غير أنه أشتغل بعد تنفير الحوامده بعمل لاصلة له البتة بواجبه ، فتسلل الزمن من بين يديه ، وضاعت لذلك السانحة التى أعده كتشنر لاهتبالها . فقد أمر ابراهيم حينما علم بزحف الجيش الإنجليزى المصرى على ام درمان أن يكون على مقربة منها ليسد المنافذ على من يحاول الهرب من قبضة كتشنر (٣) ، وقضى ابراهيم فى هذا الشغل وقتاً ولم ينصرف عنه إلاعندما جاءه الخبر بانحدار الخليفة فى كررى ، فعاود السير إلى دارفور حتى نزل بأمشَنْقَه، وهناك فوجىء بنبأ إحتلال على دينار للفاشر ، فصدم فى أمله صدمة عنيفة وتوقف عن الزحف ، ثم كتب إلى كتشنر يطلب مدداً من السلاح والذخيرة والرجال ليستعين بهم فى تنحية على دينار عن العرش (٤) .

واسقط فى يد كتشنر . إن ابراهيم على يدعوه إلى حرب على دينار ، وهو ما أنفك مشغولاً بمسائل تفوق قضية دارفور أهمية وجلالا ، فما فتىء الخليفة حراً طليقاً يجمع الرجال ويعيد تنظيم صفوفه لمواصلة الجهاد (٥)، فأضحى لزاما القضاء عليه كى يسلم السودان الزمام لكتشنر . وتعين على كتشنر كذلك التفرغ لترتيب شئون مديريات النيل

---

(١) مخابرات السودان : ٦٠/٣/٦ ملحق ٩٥ ، ثيوبولد ص ١٠٨.

(٢) مهدية : ١٣-٧٩/٦/٢٩/٢ صفر ١٣١٦ الموافق ٣ يوليو ١٨٩٨ ( الختيم موسى الى الخليفة ).

(٣) مخابرات السودان ٦/٣/٦ ملحق ٩٥ .

(٤) نفس المصدر ، ثيوبولد ص ١٠٨.

(٥) تقهقر الخليفة بعد موقعة كررى الى جنوب شرقى كردفان بهدف الاستعداد لمناجزة كتشنر القتال ثانية ، وانزعج كتشنر لهذا ، فظل يتربص بالخليفة ويرسل الحملات تباعا لقتله ، فما نال بغيته الا فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩ حين صرع الخليفه فى نفر من كبار امرائه ( هولت ص ٢٢٢ – ٢٢٤).
( Shibeika : British Policy, p. 421)

والبحر الاحمر التى خضعت له قبل أن ينظر فى أمر بلاد بعيدة كدارفور (١) . هذه ناحية ومن ناحية أخرى قوّم كتشنر قضية دارفور من زاوية مغايرة ، فقرر تأجيل البت فيها ، بل لعله مال إلى التخلى عن مبعوثه ، فقد برهن ابراهيم على بتقاعسه على ضعف أفقده عطف كتشنر ، بل أثار حفيظته عليه ، ومالكتشنر يراهن على حصان خاسر ؟ ثم أن كتشنر لم ير فى على دينار خصماً وإن حامت الشكوك حول استعداده لمبايعةالحكومة الجديدة وإطاعتها . ولذا كتب كتشنر إلى ابراهيم على يؤنبه على جنوحه للحرب، بينما أرسل لإشاعة السلام فى دارفور ، ويأمره بالكف عن إثارة على دينار أو التحرش به ، فعلى حسب علم كتشنر ليس عدواً للحكومة (٢) .

وخاطب كتشنر على دينار بروح مختلفة تماماً ، تنم عن رغبة فى الصداقة وعزم على تجنب الخلاف ما أمكن ذلك ، فهو وإن عبر عن أسفه على النزاع القائم حول عرش دارفور ، ودعا على دينار للإبتعاد عن كل مايعكر صفو الأمن ، إلا أنه أنهى إلى على علم الحكومة بكونه من سلالة السلاطين الذين ذاقوا نكالاً على يد الأنصار ، وأنه لم يبتدرها بحرب أو عداء ، وهى بدورها لاتضمر له سوء ولاتحمل له ضغينة ، بل تبذل له الأمان وتبسط له يد الصداقة، شريطة أن يقدم دليلاً على ولائه وإخلاصه (٣) .

وأدرك على دينار بمعهود ذكائه أن كتشنر بحديثه ذاك لايمانع فى توليته أمرة دارفور إن هو رضى بالإنقياد للوضع الجديد فى السودان ، وفهم على كذلك أنالحكومة لاتحرص على الإستمرار فى مساندة ابراهيم على الذى خذلها بتردده ثم سعى إلى إقحامها فى نزاع إقتضت ظروف الأمن فى دارفور ومشاكل كتشنر فى جهات أخرى من السودان ابتعادها عن الخوض فيه . وليس أدل على صحة تقدير على دينار للموقف من استدعاء كتشنر لإبراهيم على خشية أن يلجأ إلى القوة فيزداد التوتر على حدود دارفور ، وقد عمد على دينار بالفعل إلى السيف فى إقصاء منافسه وطرده ، فأعد جيشا قاده كبير معاونيه كيران رزيقى الذى أوقع بإبراهيم فى فُوجَه فى ٢٦ يناير ١٨٩٩ ، فتشتت شمله وانهزم إلى أم درمان (٤) .

(١) مخابرات السودان : ٦٠/٣/٦ ملحق ٩٧ .
(٢) نفس المصدر ، ملحق ٩٦ ب ، ثيوبولد ص ١٠٩.
(٣) مخابرات السودان : ٦٠/٣/٦ ماحق ٩٦ (أ).
(٤) مخابرات السودان : ٦١/٣/٦ ، ثيوبولد ص ١١٠.

وقطعاً تنبه على دينار إلى ماقد يثيره تصرفه من غضب فى نفس كتشنر . فسارع بالكتابة اليه مجتهداً فى تبرئة شخصه من تهمة العدوان والصاقها بخصمه . قال على فى خطابه المؤرخ ١٩ أبريل ١٨٩٩ ان ابراهيم قطع الطريق على الناس واعترض رسائله إلى الخرطوم وأحرقها ، فشك على فى أن يكون ذلك مسلك من ادعى تمثيل الحكومة ، وانتدب كيران رزيقى للوقوف على حقيقة ابراهيم ، لكن هذا ابتدره بالحرب ، فأجابه كيران اليها حتى اندحر ابراهيم ولاذ بالفرار . وأنهى على دينار رسالته بتجديد ولائه للحكومة ثم طلب الإعتراف به سلطاناً على دارفور (١). وكما توقع على دينار فإن اشتباكه بإبراهيم على أثار مخاوف الخرطوم فيما هو منطو عليه (٢) ، وانعكست الشكوك فى بعثة أرسلها كتشنر لتسأل علياً عن مدى استعداده للتعاون مع الحكومة ، فاحتج على بأن الريب لايجب أن تتطرق إلى إخلاصه وطاعته ، وأن فيما كتبه سابقا إلى الخرطوم شاهد على ذلك ومصداق ، ومرة أخرى أشهر على إمتثاله لأوامر الحكومة ونواهيها (٣) .

ولايجب أن يغيب عن البال أن ما أبداه على دينار من قبول لاتباع حكومة السودان كان رهنا باعترافها به سلطانا على دارفور ، فما كان على ليتخلى عن عرش كافح من اجله سنين عدداً، ورأى فى اعتلائه له حقاً مشروعا ورثه عن آبائه، ولم يمنحه أياه أحد ، ولابد أن علياً حين سعى إلى مواددة الخرطوم إنما فعل ذلك إتقاءاً لشرها ، فهى تملك من العدة والرجال ماهو كفيل بالإطاحة به ، زيادة على أن صعاباً كثيرة دهمته فى بداية عهده واستوجب تذليلها أنصرافه كلية لما يجرى فى دارفور (٤) . فكان طبيعيا أن يتفادى على دينار الخلاف مع حكومة قد يجلب له عداؤها الفشل والخيبة وهو يريد الفلاح والنجاح .

---

(١) مخابرات السودان : ٦٣/٣/٦ ، ملحق ج ، ثيوبولد ص ١١٠.

(٢) مخابرات السودان : ٦١/٣/٦.

(٣) مخابرات السودان : ٦١/٣/٦.

(٤) ليس من اغراض هذا البحث دراسة تاريخ دارفور فى عهد على دينار ، بيد أن إلمامة خاطفة بمجرى الاحداث فى مطلع هذا العهد ضرورية لتوضيح مانحن بصدده، فزيادة على نزاع على مع أبى كوده وابراهيم على حول العرش واجتهاده فى الوصول الى تسوية سياسية مع حكومة السودان ، ألفى على دينار قبائل الرزيقات والمعاليا وبنى هلبة يصدون عن اتباعه ، فحايل زعماءهم زمنا ، فلما لم يذعنوا أعلن عليهم الحرب . . ( ثيوبولد ص ١٣٠ – ١٤١ ) كذلك عنى على بإخضاع الامير عربى دفع الله الذى كان عاملا للمهدية فى الرجاف ، وحينما طرده الكنغوليون منها عام ١٨٩٧ هرب برجاله الى بحر الغزال ثم دخل جنوبى دارفور بطريق دار التعايشة ، وامتنع عن الا متثال مبدأ الا مر لحكومة السودان أو على دينار ( نفس المصدر ص ١١٢ ) .

ولئن دفع الخوف من سطوة الخرطوم وجبروتها على دينار إلى مصادقتها أولاً ، فإن حكومة السودان أقرت لأسباب مختلفة تماماً عدم التدخل المباشر فى إدارة دارفــور . وقد اتخذ هذا القرار بعد جدل طويل أسهم فيه اللورد كرومر قنصل بريطانيا العام فى مصر بنصيب كبير . وكان من رأى كرومر إتباع مانصح به غردون يوم كان حكمداراً للسودان من الرضا بسيادة إسمية على دارفور وترك أمرها لواحد من أبناء سلاطينها ، فذلك أجدى وأنفع . ووجد كرومر حجة تقوى اعتقاده فى المشاكل الكثيرة التى واجهتها الحكومة لإعادة النظام إلى ربوع السودان ودفعه فى مدارج العمران ، كما استند فى تدعيم ماذهب اليه على الصعاب التى تكتنف غزو دارفور واحتلالها ، زيادة على أن إدارتها — وهى قطر فقير — ستكلف خزينة الخرطوم أموالاً لاطاقة لها بها (١) . وكان أن نزل حاكم السودان العام عند رأى كرومر ، فاعترف بعلى دينار فى مايو ١٩٠١ سلطاناً على دارفور شريطة أن يرفع علمى بريطانيا ومصر فى سماء عاصمته ، وأن يدفع جزية سنوية قدرها خمسمائة جنيه رمزاً لتبعيته (٢) .

**المعقل الأخير :**

انزاح هم ثقيل من صدر على دينار لما اعترفت حكومة السودان بسلطنته على دارفور ، فتبددت المخاوف والظنون التى أقضت مضجعه إبتداء باحتمال غدر الحكومة به ، وانصرف اهتمامه لمتاعبه الأخرى؛ يحلها بكل مايملكه من قوة مادية وما أوتي من حنكة سياسية ودهاء . وكان على رأس تلك المتاعب وجود حامية للأنصار فى كَبْكابيّه ، وهى آخر معاقل المهدية فى دارفور . وكان قائد الحامية سَنِينْ حسين رجلاً عمر قلبه بالإيمان فى المهدية ، فثبت على عقيدته على الرغم من زوال دولة الأنصار . وقد دفعت صلابة سَنِينْ كثيراً ممن هم فى ثباته وعمق إيمانه من أهل دارفور إلى الرحيل إليه والإلتفاف حوله ، حتى اجتمع له وقت استيلاء على دينار على العرش أربعة ألوف من الأتباع ،وتلك قوة يحسب لها الف حساب، زيادة على أن تمسكها وحماس قائدها أثار على دينار ، فعمل على تفتيتها إن سـلماً أو حرباً (٣) .

سبب ثان إستوجب العداء بين على دينار وسَنِينْ حسين هو أن سيطرة سَنِينْ على

---

(١) نفسه : ص ١٢١.
(٢) نفسه : ص ١٢٩.
(٣) Samuel Atiya : Senin and Ali Dinar, p.64.

كَبْكابيّه وماجاورها من أرض سد طريق الفاشر إلى ديار الجبهة الغربية التى كانت سابقا جزءاً من سلطنة دارفور ، فوطد على دينار العزم على إخضاعها لملكه ، لكنّه الفى سَنينْ يقف عقبة كؤود فى وجهه ، فصار لزاماً إزاحته قبل أن يدرك عليّ مرماه ، وبالإضافة إلى ذلك فإن على دينار طمع فى الحصول على ماعند سَنينْ من أسلحة وذخيرة كى يتقوى بها ويستخدمها فى حروبه ضد خصومه الآخرين (١) .

وجنح على دينار فى بداية الأمر إلى السلم فى زحزحة سَنينْ حسين عن مركزه المنيع ، فناشده الحضور إلى الفاشر والدخول فى طاعته والإنخراط فى خدمته بمن معه من رجال . وصد سَنينْ عن دعوة على، ثقة منه فى قدرته على نزاله إن أراد القتال، واستهجاناً لحديث يصدر من رجل تخلى — فيما ظن سَنينْ — عن اعتقاده فى المهدية وهرب من ميدان الدفاع عنها (٢) ، وإذ امتنع سَنينْ عن التسليم عمد على دينار إلى الحرب فى تأديبه ، فدفع بجيش إلى كَبْكابيّه فى منتصف عام ١٩٠٠ ولى أمرته كيران رزيقى ، واعترك كيران بسَنينْ ليومين متواليين ،ثبت الأنصار خلالهما للقتال حتى ارتد كيران على أعقابه خاسراً (٣) .

ولم يمنع سَنينْ استمساكه بتعاليم المهدية من الاستظهار بالحكومة التى قامت على أنقاض دولتها ضد على دينار ، فقد اقتضت مستلزمات الدفاع عن النفس مرونةوحنكة سياسية بعدت بسَنينْ عن التعصب الأعمى والتزمت العقائدى ، ونراه لهذا يكتب إلى حاكم السودان العام يعرض ولاءه ويشكو على دينار الذى عاداه دون مبرر ، وقطع عليه طريق الاتصال بالخرطوم. ثم تطلع سَنينْ فى قلق إلى مجيء حملة من الخرطوم لتقضى على طغيان على دينار وبغيه،وترسى دعائم الامن وتشيع الطمأنينة فى دارفور ، واخيراً وعد سَنينْ بمعاونة قائد الحملة فى أداء مهمته وتسليمه كل مالديه من سلاح(٤) .

---

(١) نفس المصدر ص ٦٦ ، ثيوبولد ص ١١٦.

بالغ صموئيل عطية فى مقالته المشار اليها آنفا فى تقدير عدد البنادق التى كانت بحوزة الامير سنين إذ قال استنادا إلى مصدر وثق فيه ان عدد تلك البنادق زاد على الالف ، والحقيقة أن سنين لم يكن يملك غير ١٥٥ بندقية تركها له محمود احمد عند خروجه من دارفور . أنظر مهدية : ٢/٢٩/٤/٤٢٨ — ١٣١٥ الموافق ١٨٩٧/١٨٩٨ (أم بدى الرضى إلى الخليفة ).

(٢) Samuel Atiya : Senin and Ali Dinar, p.67.

(٣) ثيوبولد ص ١١٠.

(٤) Samuel Atiya : Senin and Ali Dinar, pp. 65-66.

وخيبت حكومة السودان أمل سَنِينْ في نصرتها له ، إذ استقبلت دوائرها عروضه بفتور عظيم ، واغفلت الرد على رسالته خشية أن تستعدى على دينار ، وتدفعه إلى العصيان بعد أن اعترفت به سلطانا على دارفور وارتضى هو سيادتها الإسمية عليه (1) . وبذا ترك سَنِين لمصيره لكن قناته لم تلن لإنذارات على دينار وغاراته ، فظل يكافح في شجاعة دفاعا عن إمارته . لايتزحزح عن مواقعه ولايستكين . إلى أن غلب على أمره وهوى الحصن الذى آواه دهراً واندثر .

غزت جيوش على دينار كَبْكَابِيّه مرات ثلاث بين عامى ١٩٠١ و ١٩٠٣ غير أن سَنِينْ استمات فى قتال أعدائه، فباء مسعاهم لدحره كل مرة بالفشل (2) . ولما لم يجد على دينار فى سَنِينْ مضرباً انصرف حانقا إلى حرب المساليت ، فأغار رجاله على ديارهم وظفروا بالسلطان ابكّر اسماعيل الذى أقتيد إلى الفاشر أسيراً ثم قتل انتقاما لما انزله خلفه واخوه تاج الدين بجيوش على دينار من خسائر (3) . وتوقف نتيجة لهذا القتال بين على دينار وسَنِين ، ودامت الهدنه بين الجانبين قرابة الخمس سنوات ران على الجو أثناءها هدوء مشبع بالتوتر والنذر ، كذاك الهدوء الذى يسبق العاصفة .

ثم أنطلقت العاصفة من عقالها فى منتصف عام ١٩٠٧ يوم انطلق جيشان عظيمان من الفاشر صوب كَبْكَابِيّه . قاد أحدهما آدم رجال، وتولى إمرة الثاني محمود على الداد نْقاوى . وتخلى على دينار هذه المرة عن سياسة الهجوم المباشر ، وركن إلى الحصار لإكراه سَنِينْ على التسليم ، وإلا فليمت جوعاً . وتنفيذا لتلك الخطة حط آدم رُجال الرحال إلى الجنوب من كَبْكَابِيّه بينما حصرها محمود الداد نْقاوى من جهة الشرق ، فانسدت المسالك فى وجه سَنِينْ ، وانقطع اتصاله بالعالم إلا من هذه الجموع التى أحاطت به وتربصت به الدوائر . واستمر الحصار عاما ونصف العام ، فلما طال واستحكمت حلقاته ونفذ كل ماادخره سَنْين من مؤن وطعام ، ضاق الحال بمن معه فآثرت أكثريتهم السلامة وتسللوا من كبْكابِيّه جماعات وفرادى . ثم القوا بأنفسهم بين رجال على دينار يفعلون بهم ماشاءوا . وبقى سَنِينْ فى أربعمائة من اتباعه المخلصين يعاند تقلب الدهر ويتحدى صروفه ، واختار الموت بشرف على عار التسليم وخزيه . فكان له ماأراد .

---

(1) نفس المصدر ص ٦٧..

(2) ثيوبولد ص ١٣٠.

(3) نفس المصدر ص ١٧٥ - ١٧٦ .

ففي يناير ١٩٠٩ اقتحم آدم رُجال ومحمود الداد نُقاوى كَبْكابيّه بعد أن وثقا من عجز سَنِينْ عن مقاومتهما وقتلاه وصحبه إلا قليلاً (١) .

وهكذا سقط آخر معاقل الأنصار فى دارفور ، وانطوت صفحة مليئة بجليل الأحداث وخطيرها ، وتمت لعلى دينار السيطرة على مملكة آبائه ، ففرح فرحة كبيرة ودفع برأس سَنِينْ ورايته إلى «سلاطين» (٢) فى الخرطوم عنواناً لانتصاره (٣)، وتلك سخرية القدر أن يطوى «سلاطين» الراية التى ارتفعت على أشلاء حكمه .

---

(١) Samuel Atiya : Senin and Ali Dinar, pp. 68-69 ، ثيوبولد ص ١٣٠ ، ١٨١ – ١٨٤.
ذكر شقير خطأ (جزء ص ٦٧٢) أن سنين حسين انهزم إلى دار تامه بعد أن طرد من كبكابيه .

(٢) انظر ص ٦١.

(٣) مخابرات السودان : ٦/٥/١٧٦ .

# خاتمـــــة

يـدور هـذا البحث حول محور رئيسي، هو أن أغلبية سكان دارفور أبوا الإنصياع لدولة المهدية . وقاوموا حكم الأنصار لهـم ، تماماً كما ناهضوا الإدارة االتركيه قبلاً . واختلفت أسباب هذا الإعراض تبعاً للتشكيل الإجتماعى للعناصر المكونة لهذا الاقليم ، ووفقا لأهواء تلك العناصر ومطمحها السياسى . فـلقـد سعى الفـور جاهدين لبعث مملكتهم التى اندثرت عام ١٨٧٤ ، وإحياء ذكراها التى ظلـت تلح على الأذهان ، وهم بذلك إنما ابتغوا استرداد سيادتهم على دارفـور كلهـا . ولاجدال فى أن قادة الفـور رأوا فى هيمنة الأنصار كالسيطرة التركيه تدخلاً أجنبياً وجبت مقاومته حتى تنال دارفـور حريتها ، وتخلص مقاليد الأمر فيها لأسرة كيره التىملكتها قرونا طويلة . ومما أوغر صدور هؤلاء الزعـماء وزادهـم غبناً ثم إصراراً فى طلـب أستقلال أرضهـم أن رفعت المهدية من شأن البقارة عموماً والتعايشـة خصوصاً ، فاقتعدوا مجلس سلاطين كيره . وأصبحوا سـادة بعد أن كانوا هم الرعية .

وقـد سـبقت الإشارة للخصومة التقليدية بين البقارة والفور (١) ، وجاءتالمهدية لترجح كفة الفئة الأولى على الثانية ، فأضرمت بذلك نار العداء بين الفريقين . بيـد أن الضرورة فرضت بعض حين على الفـور وأقسـام معينة من البقـارة أن ينسـوا خلافاتهم لمكافحة رسل الخليفة وعماله ، مثال ذلك الحلف الذى جمع بين فرق من الهبانية والمعاليا والرزيقات من جهة ، ويوسف ابراهيم من جهة اخرى عند قدوم عثمان آدم إلى دارفور (٢).

ولئن قاتل الفور دفاعاً عن مجدهم الغابر فما لأكثرية البقارة الذين ساندوا دعوة المهدى فى فجر أيامها وبذلوا كل غال فى سبيل نصرتها ينتكسـون ويشيحون بوجههـم عن حديث الخليفة ويغفلون أوامره ؟ إن الإجابة على هذا السؤال تكمن **أولاً** فى طبيعة العلاقة بين قبائل البقارة ذاتها . وتتصل **ثانياً** بأمر هجرتهم إلى ام درمان ، وترتبط **ثالثاً** بالطموح السياسى الذى تفجّر فى نفوس رجال كمادبو . لقـــد كانت للتعايشـة اليد العليا فى دارفور ، فمـن بين صفوفهم أختير كل الذين خلفوا زُقَل على إدارتها :

---

(١) انظر ص ٢٩ – ٣٠.

(٢) انظر ص ١١٠ – ١١١.

عثمان آدم ومحمود أحمد وأم بَدّى الرّضى ، وكذلك هيمنوا على الجيش . فكان لهم بين عشرة قواد كبار سبعة هم: محمد بشارة ، البشارى ريده، الختيم موسى، محمد جوده، فضل النبى أصيل ، فضل الله شرف الدين وعلى السنوسى . ولم يكن الثلاثة الباقون — عبد القادر دليل والعطا اصول وسليمان احمد اكرت — ينتمون إلى أى من قبائل البقارة الأخرى، فأولهم من المسيرية، وثانيهم شايقى، وثالثهم من العمراب (١) . وإذ كانت النعرة القبلية تسود مجتمع البقارة ، ولما لم يكن للتعايشة عظيم شأن فى ذاك المجتمع فقد سخط الهبانية وبنو هلبة والرزيقات لهذا الوضع ، ورأوا فيه إجحافاً بحقهم فى جنى ثمار الثورة التى لعبوا دوراً أعظم من سهم التعايشة فى إنجاحها .

أما نفور البقارة عن الهجرة فمرجعه حبهم لوطنهم، وضعف حماسهم للمهدية بعد وفاة زعيمها ، ورفضهم لأن يكون الخليفة وهو ابن القبيلة الصغيرة سيداً عليهم ، فضلا عن طمع رجال كمادبو فى بناء مجد لن تتوفر أسبابه إن هم فارقوا أوطانهم وخضعوا لرقابة الخليفة وسيطرته المباشرة . وهذا عين الذى جعل الخليفة يلح فى إصرار على رحيل الطامعين من شيوخ البقارة إلى أم درمان بغية إحتجازهم هناك كأمثل وسيلة لإحباط دسائسهم والقضاء على نزعة الإنفصال عندهم .

وكما أسلفنا القول فإن كثيراً ممن أرخوا للمهدية قد أهملوا هذا الدافع وهم بصدد تسبيب هجرة البقارة ، ثم أجمعوا على أن الخليفة إنما أراد بدعوة البقارة للهجرة عونا على الاشراف وشيعتهم من أهل النيل (٢) . وليس سهلا رفض هذا التفسير ، فقد رجا الخليفة فى قومه سنداً وعضداً ، إلا أن إبراز صلاته بهم بمظهر الاتفاق والوئام التام فأمر يجافى الحقيقة، لأن كثيراً من البقارة شقوا عصا الطاعة عليه ككثير من قبائل السودان ، بل وذهب بعضهم إلى معاداته عداء لاهوادة ولاتراجع فيه .

ولاسباب شبيهة بتلك التى دفعت بالبقارة إلى التمرد ؛ امتنعت قبائل دارفور الشمالية عن إتباع الخليفة وإطاعته . بيد أن ضعف العقيدة الدينية عند هذه القبائل زادها صدوداً وامتناعاً . ولعلنا نجد فى علاقة الميدوب بالأنصار خير دليل لهذا القول ، فقد حال رسوخ التقاليد الوثنية (٣) فى مجتمعهم، وتأصلها فى حياتهم؛ دون إنتشار الدعوة

---

(١) افادنى بهذا الشيخ على السنوسى .

(٢) أنظر ص ٦٩.

(٣) أنظر ص ١٦.

المهدية بينهم ، فأدبروا عنها برغم المواعظ والإنذارات التى انهمرت عليهم من المهدى والخليفة ، وحين خضعوا لإمرة الفاشر فعلوا هذا قهراً لاعن صدق وإيمان ، فهم ميالون أبداً إلى العصيان ، متطلعون دوماً إلى الفكاك من سيطرة الأنصار ، آية ذلك فرار ملكيهما أحمد انْجرى وشايْبوا عائدين بمن معهما إلى جبالهم بعد أن أفلتوا من حراسهم اثناء سيرهم إلى أم درمان [1] ، ومن ذلك أيضا تجاوب الميدوب مع هبّة أبي جميزة وإغارتهم على البرْتي شمال طمعاً فى ممتلكاتهم وعقاباً لهم على موالاتهم للأنصار [2] .

وإن نحن نظرنا فى علة معارضة سكان الجبهة الغربية للأنصار وصمودهم المتصل فى وجه غاراتهم ؛ لوقفنا عند أسباب تلتقى حيناً وتفترق حيناً آخر مع الذى تقدم . كره سلاطين الجبهة الغربية إبتداء فقدان عروشهم وذوبان ممالكهم فى دولة المهدية ، ولجأوا فى سبيل الدفاع عن كيانهم المستقل إلى مداهنة الأنصار أولاً ، ثم عمدوا إلى القتال لماتبين ألا مفر من الحرب دفعاً للأنصار وصداً لزحفهم . وكره أولئك السلاطين ثانيا مغادرة أوطانهم إستجابة لنداءات الخليفة بهجرتهم ، ذلك أنهم خافوا كما خشى غيرهم من زعماء دارفور من الغدر بهم أو إرسالهم أسرى إلى أم درمان . وقد عبر القِمْراوى عن هذه المخاوف فى كلمات صريحة وردت فى خطاب بعث به إلى محمود أحمد . قال القِمْراوى « . . . . . وأنا نفسى على قدر فرارى منكم من مدة السنين هذا ماناباكم ولاناب ( أى نرفض ) تبع المهدى وخليفته إلانكره سفر أم درمان لكون كافة أقراني وسلاطين أمثالى كلهم القطعت راسه قطعت والذى سفرت إلى ام درمان سفرت سبب ذلك انا نكره مواجهتكم ونفر منكم . . . » .

ثم ان إنهيار سلطنة دارفور بسبب التدخل التركى هيأ الفرصة لجماعات من سكان الجبهة الغربية كى ينسلخوا من تبعية الفور ويقيموا إمارات منفصلة كالمساليت ؛ كما توفرت لذات العلة سانحة ذهبية للبرقاوى كى يدعم نفوذه المتغلغل فى أمارات تامه وقِمر والمساليت وكُوبي ، ويحسم نتيجة لذلك الصراع الذى دام قرونا بين سلطنتى ودّاى ودارفور على الأرض التى تفصل بينهما [3] . وكذلك إجتهد السلاوى فى مد سلطانه على منطقة غربي جبل مرّة ، [4] على أن سقوط دارفور فى يد الأنصار وتطلعهم لمزيد

(١) أنظر ص ١٣٠.
(٢) أنظر ص ١٥٦.
(٣) أنظر ص ٣١.
(٤) أنظر ص ١٩٣.

من التوسع إصطدم بأطماع سلاطين الجبهة الغربية ، بل وهدد عروشهم بالزوال . فاتحدت كلمتهم على مبارزة المهدية .

وزيادة على هذا فإن انتشار المذهب السنوسى فى ديار الجبهة الغربية واتجاه أكثرية ملوكها ـ وفى مقدمتهم البرقاوى ـ بولائهم الدينى شمالاً (١)وقف عقبة كأداء فى طريق ذيوع فكرة المهدية فى تلك الديار ، لما بين المذهبين من خلاف فى العقيدة وأسلوب العمل (٢) ، وقد قويت هذه الرابطة الدينية وازدادت متانة بفعل احتياج الجبهة الغربية للإتجار مع شمال أفريقيا ، وبخاصة فى الأسلحة والذخيرة (٣) . ومن علامات تأييد أهل الجبهة الغربية وتبعيتهم للسنوسية، ذلك الإلتفاف العظيم حول أبي جميزة حين شاع أنه خليفة السنوسى المهدى جاء لينقذهم من ظلم الأنصار ويفتح لهم طريق الحج . ونخلص من هذا ومما ورد عن دواعى عصيان قبائل الشمال إلى أن الجانب الدينى فى ثورة المهدى لم يستهو قبائل دارفور خلا البقارة وقبائل الشرق كالبرّتي والميما ، ذلك أن الأرض لم تكن صالحة لبث الدعوة المهدية وغرسها، إما لوجود فكرة منافسة كالسنوسية ، أولضعف فى العقيدة الدينية كماهو الحال بين الميدوب ، أو لغلبة الطموح السياسى على غيره من الإعتبارات مثلما نجد عند الفور .

وأخيراً فإن مركزية الحكم التى صحبت إحتلال الأنصار لدارفور ؛ تعارضت تعارضاً كبيراً مع ما ألفه أهلها فى ظل سلطنتهم القديمة (٤) . لقد أصبح لدارفور عامل يستمد سلطته من أم درمان ، ويقضى بين الناس وفقاً لتوجيهاتها . وكان لهذا العامل نواب إداريون ، وآخرون عسكريون يباشرون أعمالهم فى إطار المخطط الذى ترسمه العاصمة،وبما يتمشى مع أوامر العامل وتعليماته ، ومن ثم خضعت القبائل لسلطان مباشر تنتهى حلقاته خارج حدود دارفور نفسها . وذلك وضع إستقبحه أهل دارفور على عهد الإدارة التركيه، وجاهدوه حتى اندثر ، لكنه عاد يكيّف حياتهم من جديد زمن الدولة المهدية ، فثار القوم ثانية .

ولايجب أن يتبادر إلى الذهن أن الإدارة التركيه، أو المهدية عمدتا إلى تحطيم النظام

---

(١) أنظر ص ١١ – ١٢.
(٢) أنظر ص ١٠ – ١٢.
(٣) أنظر ص ١٤٢.
(٤) أنظر ص ٢٩.

القبلى ومحوه كلية ، فقد اعتلى كثير من شيوخ القبائل مراتب سامية فى العهدين ، على أن كلتا الدولتين سعتا إلى الحد من استقلال القبائل ، وإخضاع إرادتها لإرادة الجهاز المركزى. فإذا ماقارنا هذا بالعلاقات شبه الإقطاعية التى سادت مجتمع دارفور قبل ١٨٧٤ ، ومانجم عن ذلك من حرية واسعة تمتعت بها مختلف الجماعات، لأدركنا علة الإمتعاض والكراهية التى استقبل بها سكان دارفور مركزية الإدارة التركيه والمهدية سواء بسواء .

ويقفز إلى مائدة البحث بعد هذا سؤالان: أى الصور اتخذت معارضة أهل دارفور؟ وكيف واجه الخليفة تلك المعارضة ؟ لقد طرقت جمهرة أهل دارفور كل باب ، واستنفذت كل حيلة بغية الخلاص من حكم الأنصار والإفلات من قبضتهم . وكان الفور أكثر عناصر المعارضة صلابة وأعنفها خصومة ، يليهم فى ذلك سكان الجبهة الغربية، ثم قبائل الشمال خلا تُورْ وقَلا والبَرْتي . أما البقارة فقد كان لسابقية تأييدهم للمهدية ومبادرتهم لنصرتها فضلاً عن خلافاتهم الداخلية أثر كبير فى جعل إعراضهم دون عصيان الفور حدة وتطرفا . على أن الرزيقات إنفردوا بين البقارة بمعاداة الأنصار معظم أيام حكمهم لدارفـــور .

ولجأ المعارضون لوسائل عديدة، أهمها القتال والإعتصام والفرار ، وهم فى كل ذلك مرغمون . إذ غالباً ما ابتدرهم الأنصار بالهجوم ليس حبا فى الحرب ، وإنما سعيا لبسط نفوذهم ورجماً للعصاة . وقد ظهرت علامات السخط عند أهل دارفور فى إمارة زُقَل، لكنهم لم يخرجوا عن الطاعة إلا بعد رحيله . وكان مادبو على أول المارقين على إمرة الخليفة ، فعضده قومه ، وآزره المعاليا وجماعات من الهبانية وبنى هلبة ، فتصدى لجهاده البَحّارة بقيادة محمد كُرقُساوى وأخيه كرم الله حتى دارت على مادبو الدوائر ، فأسر ثم قـــتل .

وتلت هبة مادبو ثورة يوسف ابراهيم، وهى بلا نزاع إمتداد طبيعى؛ ومواصلة جادة للجهود التى بدأها الأمير حسب الله لإستعادة حرية الفور السليبة ، وبعث ملكهم الذى قبر يوم قبر السلطان ابراهيم قرض . لقد تلقف يوسف الرسالة فرحاً ، وقاد السفين فى شجاعة نادرة ، فجدّد بذلك ذكرى نضال هارون . وعلى الرغم من أن يوسف عمد إلى الحيلة واستبطأ الإصطدام بالخليفة ، إلا أنه لم يتردد فى مكافحة عثمان آدم ما أن دق هذا طبول الحرب . وكما صرع مادبو جندل يوسف ابراهيم ، فكسب الخليفة جولته الثانية فى ردع المارقين عليه .

بيد أن جذوة المقاومة لم تخمد ، فاضطر عثمان آدم للقيام بحملات تأديبية أثارت غباراً كثيفاً فى سماء دارفور ، واتسعت بفعلها شقة الخلاف بين الأنصار ورعيتهم . وبينما انهزم الفور وتساقطت قبائل الشمال والجنوب أمام ضربات عثمان آدم القوية صمدت الجبهة الغربية لمدافعته ، بل انطلقت منها شرارة الثورة التى تزعمها أبو جميزة وتجاوبت معها كما تأثرت بها أركان دارفور جميعها . ورجحت هذه المرة كفة المحكومين فانهمرت جموعهم من كل حدب ، وقصدت الفاشر للإطاحة بعرش الأنصار . واهتزت الأرض تحت أقدام عثمان آدم ، وكاد الثوار يستولون على ناصية الأمر لولا أن ثبت الأنصار لجهادهم وأوقعوا بعدوهم وظفروا به . ومما لاريب فيه أن ثورة أبي جميزة رغم إخفاقها تعتبر أقوى حلقات المقاومة التى شنها أهل دارفور فى وجه الأنصار ، لالشمولها وانتشارها فحسب ولكن لعنفها وجموحها أيضاً .

وإنتهى عهد عثمان آدم بوفاته فى أعقاب حملة قام بها على الجبهة الغربية ، فخلفه محمود أحمد على دست الحكم ، وانتهج سياسة سلمية كسب بها ثقة كثير من القبائل التى خارت قواها من طول القتال . لكن الجبهة الغربية مابرحت ترفع راية العصيان ، فعالج محمود سكانها بالسيف ، وأصاب كثيراً من النجاح دون أن يكسر شوكة خصومه نهائيا ، فظلوا على إنكارهم حتى فارق محمود دارفور لمحاربة كتشنر ، ونالوا نتيجة لذلك كامل استقلالهم ، كما حازوا شرف النضال الدائم ضد الأنصار . وتجددت بخروج الانصار كذلك روح المقاومة عند الفور الذين ظل السيف مصلتا على رقابهم طيلة عهدى عثمان آدم ومحمود احمد ، فلما ارتفع عنها هبوا يقاتلون تحت زعامة حسين أبي كُودَه وتيسرت لهم هذه المرة إصابة الهدف ، فانعتقوا من سلطان المهدية ، واسترجعوا استقلالهم ، ثم طفقوا يعيدون تنظيم مملكتهم ويبعثون فى أوصالها الحياة .

تلك صورة موجبة لكفاح أهل دارفور ، بيد أن لمقاومة عصاتهم وجهاً سلبياً ؛ فهم حين يضيق بهم الخناق ، ويعجزون عن متابعة القتال ينأون بأنفسهم عن مكمن الخطر ، ويبتعدون عن الأنصار ، إما بالفرار إلى ديار قصية ، أو بالإعتصام فى الجبال التى تقوم فى قلب دارفور وشمالها . ونلاحظ فى هذا الصدد إرتباطاً وثيقاً بين جغرافية دارفور وتاريخها ، وهذه الصلة ظلت قائمة على مر العصور لكنها تتجسد أمام ناظرنا من ثنايا أحداث هذا الاقليم فى فترة المهدية . فقد ساعدت ظواهر الطبيعة ومعالمها فى استمرار مقاومة العصاة من جهة ، وفى مضاعفة متاعب الأنصار من جهة ثانية .

فالظاهرة الاولى فى تكوين دارفور الجغرافى إتساع رقعتها ، فإذا أضفنا إلى هذا إنعدام وسائل الإتصال السريع فى ذلك الوقت لتبينا الصعوبة العظيمة التى لقيها الأنصار فى السيطرة على قطر لاينتهى أهله عن التمرد أبداً . ولنا فى سحب عثمان آدم لجيوشه من المراكز البعيدة كدارَه وكُتَم، خوف إنقطاعها عن الفاشر وعجزه عن إنقاذها حين تفاقم خطر ثورة أبي جميزة خير شاهد . ظاهرة ثانية جديرة بالإعتبار هى لجوء العصاة إلى جبل مرّة وجبال الميدوب، وإتخاذها درعاً يقيهم شر هجمات الأنصار . وبحق كانت جبال الميدوب معتصماً منيعاً لبعدها عن الفاشر أولاً ، ولوجود صحراء قفر تفصل بينها وبين هذه المدينة ثانياً . وعلى الرغم من أن يد الأنصار إمتدت إليها مرة فى إمارة عثمان آدم ، إلا أننا لانسمع بخبر حملة أخرى عليها ، فعاش عصاتها فى مأمن من العدوان .

ويختلف الحال فيما يتعلق بجبل مرّة . لقد آوى هذا الجبل الأشم هارون ردحاً من الزمن ، واعتصم به دود بنجه حتى أخرج منه ذليلاً كسيراً ، ثم احتمى به يوسف ابراهيم إثر اندحاره فى ودْبيره ، غير أنه وقع نهاية الأمر فى قبضة الختيم موسى .ونهض أبو الخيرات بعد يوسف ، فاحتمى بالجبل حيناً ثم فر إلى الجبهة الغربية لمّا انكشف أمره للأنصار . ويتضح من هذا أن جبل مرّة ظل قبلة لقادة الفور، يقصدونها عندما يشتد بهم نكير الحرب ويقل النصير ، لكن إلحاح الأنصار فى طلبهم وطرقهم المستمر لدروب الجبل وشعابه حتى خبروها وألفتهم ، زيادة على قرب مراكزهم كالفاشر وكَبْكابيّه وكُلْكُل ودارَه منه واحتياطها له من كل الجهات؛نزعت من جبل مرّة فى آخر الشوط الغموض والستر اللذين كانا يحجبان عن الأعين من يندس فيه .

وثمة ملاجىء ثلاثة أخرى إعتاد عصاة دارفور التحصن بها عندما يحزب الأمر ويزداد عليهم ضغط الأنصار . أول تلك الملاجىء بحر العرب فى الجنوب، وثانيها الصحراء فى الشمال، وثالثها دار برْقو وسُلا إلى الغرب. فكم من مرة أخفق الأنصار فى إخضاع الرزيقات والهبانية بسبب فرارهم إلى بحر العرب ؟ وكم من مرة توقف الأنصار عن ملاحقة المارقين من الماهريّة والزغاوة وهم يضربون فى الصحراء، وبخاصة حينما يكون الوقت صيفاً ؟ أما دار برْقو ودار سُلا فقد فتحتا أبوابهما لاستقبال الهاربين من سكان الجبهة الغربية والفور وبنى هلبة والتعايشة .

ولننظر الآن فى الكيفية التى عالج بها الخليفة معارضة أهل دارفور . لقد كانت القاعدة الذهبية لسياسة الخليفة تجاه الخارجين على إمرته السعى إبتداء إلى هدايتهم وردهم

بالحسنى إلى جادة الطريق . فكثيراً مانضحت خطاباته إلى رؤوس الفتنة باين الكلام ، وإن عمد أحيانا إلى التهديد والوعيد ، وكذلك مدّ الخليفة فى حبال الصبر لخصومه عساهم يرعوون ، فإن رأى فيهم ميلاً للإذعان عفا عنهم وصفح . وعادة ماتضمنت رسائل الهداية والعفو طلباً بهجرة العصاة إن امتثلوا إلى أم درمان ، وذلك بغية فصلهم عن عشيرتهم كى تمسى بلا راع فيسهل قيادها ، فضلا عن تقييـــد نشاط أولئك العصاة وإحكام الرقابة عليهم .

والأمثلة على هذا المنهج عديدة . كتب الخليفة إلى مادبو على عند بداية تمرده يقول « إن المنشورات لكم بالحضور تعددت منذ حضورنا بالأبيض وإقامتنا فيه بالمـــدة الطويلة .... وإلى الآن مارأينا منكم حضور ،ومما علم عندنا السبب المانع لكم وحيث إننا نحب لك الخير ولانرضى لك بالتخلف الذى هو سبب الشقاوة حزرنا هذا نصيحة رجاء أن يهديك الله . . . (١) » . ولما بدأت علامات العصيان على يوسف ابراهيم بإحيائه لسنن الفور فى الحكم أكتفى الخليفة بنصحه بإبطال الألقاب التى خلعها على أتباعه كالملك والمقدم والشرتاى (٢) ، وظل يحايله رغم تمادى يوسف فى الإعراض ، بل ويخلع عليه أحسن الصفات (٣) .

ولئن داعب الخليفة أمل فى رجوع مادبو ويوسف إلى رشدهما مما استوجب مهادنتهما ، فإن فى إتباعه لنفس الأسلوب وهو يخاطب أبا جميزة الذى أعلنها حرباً شعواء على الأنصار منذ الوهلة الأولى؛ لحجة قاطعة على تمسكه بسياسة الترغيب والهداية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . فقد بعث الخليفة برسالة إلى أبي جميزة يدحض فيها دعواه بأنه يتبع تعاليم القرآن والسنة لأنه حارب الأنصار حزب الله وأمره بالكف عن قتالهم ، ثم ألزمه بالبيعة التى قطعها على نفسه ، وطلـــب إليه الهجرة إلى ام درمان (٤) . ولنا فى صفح الخليفة عن الغزالى أحمد خوّف وعلى دينار اللذين عادياه وامتنعا عليه دهراً دليل على جنوحه إلى التصالح ماتوفرت لذلك الأسباب .

على أن الخليفة ماكان ليتردد فى اللجوء إلى العنف لقمع أعدائه إن فشلت سياسة

---

(١) مهدية : صادر ٢ ص ١٣٥ – ٤ الحجة ١٣٠٢ الموافق ١٤ سبتمبر ١٨٨٥ ( الخليفة الى مادبو على ).

(٢) أنظر ص ١٠٠ – ١٠١.

(٣) انظر ص ١٠٧.

(٤) أنظر ص ١٥٨.

التصالح ، واستدعت الضرورة تجريد السيف . واعتمد الخليفة حين يعمد إلى الحرب على أنصاره أولاً ، ثم على استغلال الخلافات المحلية لإثارة الكراهية ضد خصومه كي ينفض الناس من حولهم أو يعينوه على تأديبهم . وقد كانت للخليفة الغلبة فى معظم معاركه ، يشهد بذلك اندحار مادبو على ، وخذلان يوسف ابراهيم ، وانصياع أكثرية القبائل نتيجة للحملات العنيفة التى قام بها عثمان آدم ، ثم انكسار حشود أبى جميزة التى هددت لحين سلطان المهدية بالزوال . وإذ أنهك طول القتال الأنصار وخصومهم سوياً جنح الخليفة إلى السلم فى عهد محمود احمد . لكن سيفه ظل مسلولاً فى وجه الذين استمرأوا العصيان وداوموا عليه كسكان الجبهة الغربية .

ويعزى تفوق الأنصار على عصاة دارفور إلى قوة تنظيمهم ، وحسن تدريبهم وحميتهم الدينية ، ثم إلى استعمالهم للسلاح النارى الفتاك بينما استخدم اعداؤهم أسلحة بدائية كالسيوف والحراب والعصى بجانب قليل من البنادق العتيقة . وكثيراً مارأينا مئات من أهل دارفور يتراجعون أمام الأنصار حين يطلق هؤلاء أعيرتهم النارية . ويرجع فوز الأنصار فوق هذا إلى تفكك معارضيهم ، مما تفسره جغرافية دارفور البشرية ، فقد ضمت هذه البلاد جماعات تعود أصولها إلى عناصر شتى ،وإلى بيئات تختلف فى عاداتها وتقاليدها . وكان من جراء ذلك أن تعذر الوفاق والوحدة السياسية بينها . وبرغم أن عناصر المعارضة التقت على تنافر أهدافها القصوى فى بعض حالات كثورة يوسف ابراهيم وثورة أبي جميزة واتحدت جهودها لمقاومة الأنصار ، إلا أن الحلف بينها لم يدم فى كلا الحالين طويلاً .

وإذ فطن الخليفة إلى عدم التجانس بين أهل دارفور عموماً ، بل وفى داخل الجماعة الواحدة، استغله وسيلة فى ضرب العصاة وطريقاً لإحكام سيطرته على ديارهم . فحين ثار مادبو استعدى الخليفة يوسف ابراهيم عليه مستفيداً فى ذلك من الكراهية التقليدية بين البقارة والفور (١) . ولما يئس من صلاح التعايشة وقرر جهادهم أشار على عثمان آدم بإلحاق فرق من الهبانية والرزيقات وبنى هلبة بالحملة الموجهة اليهم ، وفى هذا مافيه من إذكاء لنار التناحر بين البقارة أنفسهم (٢) . وإتباعا لذات المنهج أيد الخليفة عثمان آدم ومحمود أحمد فى تشجيع الإنقسام بين بعض القبائل ، وإحتضان الموالين

---

(١) أنظر ص ٩٥.

(٢) أنظر ص ١٣٤.

من رجالها وتحريضهم على منافسة زعمائهم المعرضين، آية ذلك تحزب الأنصار لحَجّام حسب الله ضد ابكّر اسماعيل المسلاتي (1) ، واجلاس حسب الله ابى بكر هاشم وادريس على عرشي القِمِر وتامه مكان اخويهما ادريس أبي بكر هاشم وسليمان ابراهيم بعد طردهما وخلعهما (2) .

وتمخضت عن إعراض سكان دارفور ومناهضتهم لدولة المهدية ، وعن جهود الخليفة لردعهم وإحباط ثوراتهم نتائج سياسية واجتماعية بالغة الخطورة . لقد زادت الحرب المتصلة القوم كراهية فى حكم يقوم على القهر ، وضاعف البطش إصرارهم على الخلاص منه . ولم يُجد الخليفة أنه مال حينا إلى السلم ، فما أن عاد سيف الأنصار إلى غمده برحيل أكثريتهم لصد كتشنر حتى هبت جماعات من هنا وهناك وأطاحت بما تبقى للمهدية من سلطان فى دارفور . ولعلنا لانذهب بعيداً إن قلنا بأن نزعة الإنفصال قد قويت خلال فترة المهدية عند الفور على وجه الخصوص ، فقد رأوا فى حكم الأنصار تسلطاً خارجياً قصد إلى طمس استقلالهم ، فكافحوه حتى انهزم ، وكان ذلك نصراً لموروث تقاليدهم ، فازدادوا بها تعلقا ، وطفقوا ممثلين فى حسين أبي كَودَه وعلى دينار من بعده يرتبون حياتهم السياسية بما يتفق ونهج السلاطين القدماء .

أما فى داخل دارفور فقد عمقت سياسة الخليفة الخلافات القديمة، وشطرت القبيلة الواحدة بصورة أورثت الناس مزيداً من الشقاق ، دليلنا على ذلك الصراع بين الغزالى احمد خوّف وصالح ابي حوه على زعامة التعايشة (3) ، وانحياز ساغه العبيد لجانب الأنصار ضد مادبو على طمعاً فى رئاسة الرزيقات (4) ، ثم النزاع بين مصطفى بحَر وأخيه محمود على إمرة زغاوة تُوْر عقب رحيل حَجَر ولد بحَر إلى ام درمان (5) ، وغير هذا كثير مما يطول حصره . ولهذا اهتزت علاقات الأسرة الواحدة ، وحدث تصدع كبير فى وحدة القبائل وتماسكها .

وخلفت الحرب بجانب ذلك قروحاً وأخاديد عميقة فى وجه إقتصاد دارفور . فقد أصاب الخراب المزارع ، وتعطلت حركة التجارة لإشتغال الناس بالقتال ، ولشيوع

---

(1) أنظر ص ١٩٥.
(2) أنظر ص ١٩٧.
(3) أنظر ص – ١١٥.
(4) أنظر ص ٩٥.
(5) أنظر ص ١٩٢ – ١٩٣.

الفوضى واضطراب حبل الأمن ، بل أن الأنصار عمدوا أحيانا — كما صنعوا فى دار التعايشة— إلى حرق المزارع لإكراه أصحابها على الهجرة (١) . وللباحث أن يقدر أثر هذا كله على اقتصاد إستند أصلا على قاعدة بدائية ضعيفة . إن النتيجة الحتمية لمثل الذى جرى فى دارفور خلال أربعة عشر عاماً من الصراع العنيف لهى الفقر والقحط . وليس بغريب إذن أن يبحث الناس عن القوت فى بيوت النمل أيام عثمان آدم (٢) ، أو أن تنعدم البضائع فى سوق الفاشر فى مطلع عهد محمود احمد (٣) .

ولم ينته سوء الحال عند هذا الحد، فبالإضافة إلى الدمار الذى حلّ بالمزارع والتجارة ثم الإنهيار الذى أصاب صف القبائل ، رزئت دارفور فى بنيها شر رزء . فلقد تناقصت أعداد الخلق بدرجة مفزعة ، وخلت ديار بأكملها من السكان . وعلى الرغم من أنا لانملك إحصائيات لتعداد سكان دارفور عند بداية المهدية وفى نهايتها ، إلا أن بعض القرائن تؤكد ماذهبنا اليه . خرّ ثلاثة ألوف من جيش الفور صرعى فى أول إشتباك لهم بالأنصار على عهد يوسف ابراهيم (٤) ، وورد فى رسالة عثمان آدم إلى الخليفة مايفيد بخلو دار التعايشة من الأهلين تماماً بعد أن تم تهجير من أفلت من الموت حرباً إلى ام درمان (٥) ، وأنهى محمّود أحمد إلى الخليفة خبر تجنيده لعشرة ألوف من زهرة شباب دارفور وإعدادهم للجهاد (٦) . وتلخص هذه الأمثلة الثلاثة الأسباب الكامنة وراء تقلص حجم سكان هذا الإقليم فى فترة المهدية ، الحرب ، الهجرة ، والتجنيد .

بقى لنا أن نقرر فى صلب هذه الخاتمة حقيقة هامة، هى أن إدارة الأنصار لدارفور تأثرت كثيراً بمجرى الأحداث السياسية فى بقية أجزاء السودان ، وهذا أمر طبيعى . فلئن عاشت دارفور فى السابق فى شبه عزلة ، فلم يعد ذلك بمستطاع بعد أن خضعت كأنحاء القطر الأخرى لحكومة واحدة . وبمعنى آخر فإن دارفور أخرجت من القمقم الذى حبست فيه قرونا ، لتستظل مع أهل النيل وشرقيه براية المهدية ، وتقاسمهم مصيراً مشتركاً .

---

(١) أنظر ص ١٣٥.
(٢) أنظر ص ١٦٩ .
(٣) أنظر ص ١٢٨.
(٤) أنظر ص ١١٩ .
(٥) أنظر ص ١٣٥ .
(٦) أنظر ص ٢٠٤.

وعموما كانت الأحداث خارج دارفور تضعف من نشاط الأنصار فيها ، فتهيأت بذلك الفرص لعصاتها لإستجماع قواهم وتنظيم صفوفهم ، أو الإفلات نهائياً من قبضة الأنصار والتخلص منهم . وكان لثورات كردفان ووقائع القلابات ودنقلا أثر خاص على علاقات الخليفة بأهل دارفور . فحين تكشف عصيان يوسف ابراهيم واتضحت ضرورة قهره كان الخليفة يواجه تحرشاً حبشياً عند حدود القلابات ، ويعالج تمرداً قاده صالح فضل الله زعيم الكبابيش . فأضحى لزاماً تأخير الحملة على يوسف (١) وعندما أجهز عثمان آدم على أتباع أبي جميزة وتطلع إلى الجبهة الغربية بقصد إخضاعها . صده الخليفة عن عزمه لأسباب منها تفاقم الأزمة بين أبي عنجة والملك يوحنا، واحتمال وقوع إصطدام بين الأحباش والأنصار . مما استوجب التريث بل الإحجام عن فتح جبهة جديدة للحرب (٢) .

وتعرض السودان في الحقبة التي ولى أثناءها محمود أحمد أمر دارفور لغزو من الشمال والشرق والجنوب . وبرغم قرب بحر الغزال التي كانت هدفا للتوسع الكنغولى من دارفور ، فإن ماوقع فيها لم يصرف الأنصار عن مجاهدة عصاة الجبهة الغربية . فبينما كان الختيم موسى يشق طريقه نحو مواقع الكنغوليين أغار محمود أحمد على دار قمر وطرد سلطانها (٣) . وعلى العكس من ذلك عطلت أحداث دنقلا على بعدها جهود محمود في إكمال سيطرته على الجبهة الغربية ، فتوقف عن حربها ثم رحل بجيشه من دارفور للقاء كتشنر (٤) . وكما تبينا قبلاً فإن أهل دارفور اهتبلوا هذه السانحة . فكسروا القيد واستعادوا استقلالهم ، بيد أنهم انعزلوا ثانية عن بقية أجزاء السودان وعادوا إلى قمقمهم يتقوقعون .

---

(١) أنظر ص ١٠٣ .
(٢) أنظر ص ١٧٤ .
(٣) أنظر ص ١٩٦ .
(٤) أنظر ص ٢٠٤ .

ملحق «أ»

# المصـــــادر

## (أ) وثائق المهدية

### (١) القسم الاول :

١ — ١٠ الرسائل المتبادلة بين الخليفة ومحمد خالـد زُقَل .

١ — ١١ الرسائل المتبادلة بين الخليفة وعثمان آدم .

١ — ١١ ب الرسائل المتبادلة بين الخليفة وعثمان آدم .

١ — ١٢ رسائل عثمان آدم إلى الخليفة .

١ — ١٣ الرسائل المتبادلة بين الخليفة من طرف وعثمان آدم ومحمود أحمد من طرف آخر .

١ — ١٤ رسائل محمود أحمد إلى الخليفة .

١ — ١٥ رسائل محمود أحمد إلى الخليفة .

١ — ٢٠ رسائل أحمد فضيل إلى الخليفة .

١ — ٢٥ رسائل الخليفة إلى أبي عنجة .

١ — ٢٨ رسائل أبي عنجة إلى الخليفة .

١ — ٣٢ رسائل كرم الله شيخ محمد ومحمد كُرقُساوى إلى الخليفة .

١ — ٣٣ رسائل الخليفة إلى كرم الله ومحمد كُرقُساوى .

### (٢) القسم الثانى :

٢ — ٥ رسائل من وإلى أشخاص مختلفين

٢ — ١١ مختلفة

٢ — ١٣ مختلفة

٢ — ١٤ مختلفة

٢ — ١٥ مختلفة

٢ — ١٦ مختلفة

٢ — ١٧ مختلفة

| | |
|---|---|
| ٢ — ١٩ | مختلفة |
| ٢ — ٢١ | مختلفة |
| ٢ — ٢٢ | مختلفة |
| ٢ — ٢٣ | مختلفة |
| ٢ — ٢٤ | مختلفة |
| ٢ — ٢٥ | مختلفة |
| ٢ — ٢٦ | مختلفة |
| ٢ — ٢٨ | مختلفة |
| ٢ — ٢٩ | مختلفة |
| ٢ — ٣٠ | مختلفة |
| ٢ — ٣١ | مختلفة |
| ٢ — ٣٢ | مختلفة |
| ٢ — ٣٥ | مختلفة |
| ٢ — ٣٦ | مختلفة |
| ٢ — ٣٧ | مختلفة |
| ٢ — ٣٨ | مختلفة |
| ٢ — ٤١ | مختلفة |
| ٢ — ٤٢ | مختلفة |

**(٣) دفاتر الصادر :**

دفتر صادر ٢

دفتر صادر ٣

دفتر صادر ٩

دفتر صادر ١٠

(٤) منشورات المهدى : الجـزء الثاني : أعـدته دار المحفوظات بالخرطوم (١٩٦٤)


ب — مراجع ثانوية :

(١) عربية :

– ابراهيم فوزى : السودان بين يدى غردون وكتشنر ( جزءان ) القاهرة ١٣١٩ هـ
– اسماعيل عبد القادر الكردفاني : المستهدى بسيرة الإمام المهدى .
– حسين مؤنس : وثائق عن مهـدى السودان .
– خير الدين الزركلى : الإعلام (عشرة أجزاء) طبعة ثانيـة .
– محمد عوض محمد : السودان الشمالى — سكانه وقبائله ، طبعة ثانية ، القاهرة ١٩٥٦ .
– عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، طبعة أولى ، القاهرة ١٩٥٣ .
– محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ، دار الفكر العربي ١٩٤٨ .
– مكى شـبيكة : السودان فى قرن ( ١٨١٩ — ١٩١٩ ) طبعة ثانيـة ، القاهرة ١٩٥٧ .
– نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ( ثلاثة اجزاء ) القاهـرة ١٩٠٣ .

(٢) افرنجية :

Arkell, A. J.: 'Medieval History of Darfur in its relations to other cultures and the Nilotic Sudan'. A paper presented to the annual conference of the Sudan Philosophical Society (1959).

Balfour, Paul: *History and Antiquities of Darfur*, Sudan Antiquities Service, Museum Pamphlet No. 3. Khartoum (1955).

Barbour, K. M.: *The Republic of the Sudan*; A Regional Geography. London (1961).

Collins, Robert. O.: *The Southern Sudan*, 1883–1898, A Struggle for Control. Yale (1962).

Evans-Pritchard: *The Sanusi of Cyrenaica*, Oxford (1949).

Gessi, Romolo: *Seven years in the Sudan*, London (1892).

Hill, Richard: *A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan*. Oxford (1951).

Hill, Richard: *Egypt in the Sudan*, 1820-1881. Oxford (1959).

Holt, P. M.: *The Mahjdst State in the Sudan*, 1881–1898.A study of its origins, development and overthrow (Oxford 1958).

MacMichael, H. A.: *A History of the Arabs in the Sudan* and some account of the people who preceded them and of the tribes inhabiting Darfur. (Two volumes) Cambridge (1922).

MacMichael, H. A.: *The Sudan* London. (1954).

MacMichael, H. A.: 'Notes on the Tribes of Darfur' (type-written). Khartoum (1915).

Mohammad I. A. Abu Saleem: 'The Central Archives and Possibilities of Research' a paper presented to the 12th Annual Conference of the Philosophical Society of the Sudan (1964).

Sanderson, G. N.: 'Anglo-French Competition in the Upper Basin of the Nile, its development and resolution'. Unpublished PhD thesis. London (1959).

Shibeika, M.: *British policy in the Sudan*, 1882–1902. Oxford (1952).

Shukry, M. F.: *The Khedive Ismail and slavery in the Sudan*. Cairo (1938).

Slatin, R. C.: *Fire and Sword in the Sudan*, 1879–1895. (Translated by F. R. Wingate). London (1896).

Theobald, A. B.: *The Mahdiya*. A history of the Anglo-Egyptian Sudan, 1881–1899. London (1959).

Theobald, A. B.: 'Ali Dinar, The last Sultan of Darfur' (Unpublished PhD thesis) London (1962).

Trimingham, J. S.: *Islam in West Africa*. Oxford (1959).

Wingate, F. R.: *Mahdiism and the Egyptian Sudan*. Being an account of the rise and progress of Mahdiism, and of the subsequent events in the Sudan to the present time. London (1891).

Wingate, F. R.: *Ten Years Captvity in the Mahdi's Camp*, from the original, documents of Father J. Ohrwalder. London (1892).

ج – موسوعات ويوميات :

Encyclopaedia of Islam, London (1936) Vol. 3.

Encyclopaedia of Islam, London (1934) Vol. 4.

Shorter Encyclopaedia of Islam, edited by H.A.R. Gibb and H. J. Kramers. Leiden (1953).

The Journals of Gordon at Khartoum, printed from the original MSS, with introduction and notes by A. Egment Hake. London (1885).

د – مخـــابرات :

(١) الجيش المصرى ،

3/4/240

(٢) السـودان :

SIR 1/19/93

SIR 2/12/103: Historical and military diary of the risings in Darfur, 1878–1881 by G.B. Messedalia.

SIR/5/3/39: Notes of Darfur, Wadai, Dar Sula, etc. compiled by H.A. MacMichael.

SIR 6/2/53: April and May 1897.

SIR 6/3/59: From 13 February to 23 May 1898.

SIR 6/3/60: From 25 May to 31 December 1898.

SIR 6/3/61: From 1 January to 15 February 1899.

SIR 6/3/63: From 1 May to 15 July 1899.

SIR 6/5/176: March 1909.

هـ – محفوظات مديرية دارفور ومراكزها :

DP/SCR/8-E-2/1: Report by H.A. MacMichael on proposed boundary commission for French Equatorial Africa.

DP/SCR/36.D.1.8: Records of individuals now dead or obscure.

NDD/SCR/1: Report by Sarsfield Hall on northern frontier with the French.

NDD/66.B.8/2 : Dar Fia, a historical footnote by G.D. Lampen.

و – دوريات :

– حضارة السودان–العدد ١٤٤٤ ( ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ ) و ١٤٧٤ ( ١٢ أبريل ١٩٣٦ ) و ١٤٨٠ ( ٢٣ أبريل ١٩٣٦ )

– حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس – المجلد ٨ ( ١٩٦٣ ) مخطوطات الخرطوم بقلم الدكتور : محمد رفعت رمضان .

Sudan Notes and Records (S.N.R.) Vol. 1 (1918) part 1, *Nubian elements in Darfur* by H. A. MacMichael.

SNR: Vol 4 (1921) part 2, *Notes on the natural history of Jebel Marra by* Capt. R.N. Lynes.

SNR: Vol. 7 (1924) part 2, *The Masalit Sultanate* by R. Davies.

SNR: Vol. 7 (1924) part 2, *Senin and Ali Dinar* by Samuel Atiya.

SNR: Vol 22 (1939) part 2, *The youth and last days of Sultan Ali Dinar* by Major J.E.H. Boustead.

SNR: Vol. 23 (1940) part 1, *Tales of the Wadai Slave Trade in the Nineties* by W.E. Jennings Bramely.

SNR: Vol. 29 (1948) part 1, *The Fur* by A.C. Beaton.

SNR: Vol. 31 (1950) part 1, *The Wadi Azum* by K.M. Barbour.

SNR: Vol. 31 (1950) part 2, *History of Darfur* by G.D. Lampen.

SNR: Vol. 32 (1951) part 1, *The History of Darfur* 1200–1700 (part one) by A.J. Arkell.

SNR: Vol. 32 (1951) part 1, '*Western' Migration and Settlement in the Sudan by* Isam Ahmed Hassoun.

SNR: Vol. 32 (1951) part 2, *The History of Darfur* 1200–1700 (part three) by A.J. Arkell.

SNR: Vol. 34 (1953) part 1, *A Fragment of Ali Dinar*, an apologia presented to Dar el Falah library at Mecca, recovered in 1952 and translated by Suliman Mutwalli Atabani.

SNR: Vol. 34 (1953) part 2, *A preliminary account of the Indri, Togoyo, Feroge, Managava and Woro* by Fr. S. Santandrea.

SNR: Vol. 36 (1955) *The Archives of the Mahdia* by P. M. Holt.

SNR: Vol. 38 (1957) *Sanusi, Ruler of Dar Banda and Dar Kuti in the history of Bahr al Ghazal* by Fr. S. Santandrea.

ى– أسماء شيوخ دارفور الذين استمعت إلى رواياتهم عن تاريخها :

| | |
|---|---|
| آدم محمدين : | زعيم زغاوه تُورْ . |
| باسى ابّكر محمد : | رئيس محكمة صليعة الأهلية بدار جَبَلْ . |
| حسين أسـد : | من أولاد السلاطين الذين سيقوا إلى ام درمان فى عهد عثمان آدم ( يسكن كاس ) |
| سيف الدين سمين : | فوراوى من سكان جلْدو. |
| عبد الله باصرو : | شرتاى منطقة كالكُوتنْج |
| عبد الحميد موسى مادبو : | حفيد مادبو على . عضو برلمان سابق وعضو الجمعية التأسيسية المنحلة – يسكن الضعين . |
| عثمان هاشم : | سلطان دار قِمِر . |
| على السنوسى : | ناظر التعايشة . كان أميراً للمهدية فى دارفور . ثم رحل منها مع محمود احمد وحارب فى العطبرة ، عاد إلى دارفور فى ركب على دينار ، وظل بجانبه حتى غزت قوات الحكم الثنائي دارفور فى ١٩١٦ ، فتعاون معها حتى قتل السلطان على دينار. توفى عام ١٩٦٧ . |
| عمر البشارى سنْدكّه : | من بنى هلبة – يسكن كُـُم . |
| عيسى دبكه : | ناظر بنى هلبة . |
| محمد أحمد حنفى : | فوراوى يسكن كَبْكابيّه . |
| محمد عمر الضهيب : | من فقهاء بنى هلبة . |
| موسى عثمان موسى : | شرتاى الدّاجُو . |

ملحق « ب »

# نموذج لوثائق المهدية

«١»

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالى الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم، وبعد فمن عبد ربه خليفة المهدى عليه السلام الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق إلى المكرم عثمان آدم كان الله له آمين، بعد السلام عليكم نعلمكم أن المنشور المحرر للتعايشة بعد وصوله بطرفك إن كان معك منهم احد فاتله عليه وارساله معهم لهم مع من يبلغه اليهم إلى آخرهم من هضاليل وعرج لتلزمهم الحجة، فان هديهم الله واذعنوا كان وبها وإلا فلابد من الإلتفات لهم، وليكن معلوماً لديك ان أمر التعايشة مقدماً على كافة قبائل الغرب بعد النمور، لأنهم متصلين بدار برقوا، فبعد نجاز امر دارفور واستقرارها اشرعوا فى توجيه الجيش لدار التعايشة، ويكون الجيش من قبائل العربان مثل الهبانية والرزيقات والفلاتة وبنى هلبة واشباههم من القبائل وإن كان رأيت كثرة الجيش فاجعله على طائفتين، طايفة تمر بالهضاليل وطايفة بالعرج، ومن كل طايفة منهم توجه سلاح كافى وخيول لاجل أن يشنوا الغارة على المذكورين ويخربوا ديارهم ويحموهم الزراعة لانهم لما يشتد عليهم الضيق يذعنون لامر الله جبراً عنهم، وعلى قدر ماتقدروا فكثروا لهم القبائل والخيول لتخرب الدار . . . .وان كان ليس متأتي توجه طائفتين اليهم مرة واحدة فولو يكون توالى الغزو عليهم كلما تتوجه لهم سرية تضربهم وترجع تتوجه اخرى حتى يذعنوا لأمر الله، وان امكن توجه الطائفتين لهم بدار الهضاليل والعرج فهو المطلوب. لأن التعايشة المذكورين بدون أن يروا سطوة لايسهل انقيادهم للمهدية فبعد قضاء أمر دارفور ووصول حامد مجبور والجبخانة عندكم جمعوا لهم القبائل وعينوا معهم الجيش الكافى والسلاح ووجهوهم للمذكورين . . . . اما الرزيقات والهبانية فحدهم قريب وامرهم سهل ووقتما يصير الالتفات اليهم يدخلوا الطاعة، بخلاف التعايشة فانهم معرضين فصدمهم أولاً مطلوب ليكون اعتبار الغير بهم، ولاتدعوهم يزرعوا ابداً حيث أن خراب دارهم مطلوب واقطعوا المواددة بينهم وبين بنى هلبة وكافة القبائل الموالية لجهتهم. وحين توجيه الجيش لهم على ماذكرنا يكونوا معه الخبراء الذين لهم المعرفة بالجهة ودار المذكورين ليصلوا إلى مراكزهم الكبيرة ويخربوها كثل طوّال، اذ لم يمتثلوا اهلها وغيرها

من المراكز التي هي مجمع النساء، فان في خرابها عبرة وان شاء الله تعالى مادام المهدية وجهت انظارها لهم لاينجوا من قبضتها وكل من يهديه الله وينضم عليك بعد وصول امرنا هذا اليهم أكرمه وراعيه، وكل من اعرض فذنبه عليه ومادام أن في دارفور حركة فلاتوجه الجيش لدار التعايشة الا بعد اسكان جميع حركاتها فحينئذ يكون الالتفات لها، ولاشك ان الله ناصر دينه على رغم أنوف الجاحدين وفقكم الله وتولاكم هذا والسلام .

١٢ رجب ١٣٠٥ — حسبي الله ونعم الوكيل

« ٢ »

بسم الله الرحمن الرحيم لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم، وبعد فمن عبد ربه محمد بن خالد إلى سيده وحبيبه خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق، رضي الله عنه وامدنا بمدده، بعد اهداء السلام اللايق بالمقام نعلم السيادة بما اجريناه في دارفور عند قيامنا وذلك أنه في كامل اوامركم تشيروا بتخليف من يليق ويصلح لهذه البلاد، وبالنظر والتأمل في ذلك رأينا الموافق اولاً تفريقها على طوايف واستقلال كل جهة لوحدها، اذ لايؤمل في احد مسكها جميعها كلية ومع ذلك فهذا اصلح لعاقبتهم واولى من حصرهم تحت رياسة رجل واحد لان ضمهم محل واحد ربما يدعى على اتحاد الكلمة على الفساد، وثانيا رأينا أن صار تخليف احداً غير ابناء الوطن فلاتكون مسافة ولايته إلامجرد خروجنا من دارفور، وفيما بعد لايسمعوا قوله ولايدعوه يقيم وسطهم بل يقتلوه وبذلك ينجروا إلى أعمال الكباير لأن دأب أهل دارفور في السابق واللاحق محبة ولاية بعضهم البعض، ولهذا قسمناها على خمسة فرق ماهي جهة الفاشر لحد كبكابية خلفنا عليها يوسف بن السلطان ابراهيم واخذنا عليه العهود بانه عند نزول الامطار يحضر مهاجرا ، و تركنا بجهة الغرب لغاية حد برقوا اسماعيل عبد النبي المسلاتي لمافيه من حسن الإعتقاد في المهدية والثبات على طريقها، وبجهة داره تركنا آدم كنجار ولد ماحي ولد داوود ، وبجهة الطويشه احد اخوان ابوه ولد جوده فات ،وبجهة ام شنقه احد اخوان ام كدوك وكلامنهم مع ما ترای فيه من الصدق والصفاء ومع المذاكرات الأكيدة والمواعيظ المستحسنة اخذنا عليه العهود خمسين يميناً بأنه لايسير إلا على سير المهدية وانه لاينحرف عن الحق ابداً وأن لايدع أحداً من المهاجرين الذين كانوا معاهدين على الهجرة والذين كانوا مدروجين بالرايات

يتأخر بجهته أصلاً تسأل الله ان يوفقهم ويهديهم ويجعلهم من اهل الخير هذا واما قبائل العربان الذين كانوا معاهدين على الهجرة فقبل قيامنا كل قبيلة عملت لها بقعة زاىّ مافيهم يورى شدة الرغبة والاهتمـــام الكلى ولم نعلم انه هدى من ضلال لأنه عندما صار القيام جميعهم تخلفوا وبعضهم خرجوا عن الطاعة باسباب ذلك كما سبقت المخابرة ضما توقع من حسب الله الماهرى وعن رجوع مادبو على ومحمد على ابو سلامه بعد قيامهما، اما الرايات المنتظمة فقد سارت على خير ماخلا جارى هروب البعض من فقرايها وارتدادهم واولها لغاية تاريخه تم وصوله بباره وخصوصا الجهادية ساروا على أحسن حال والحمد لله على ذلك . . . . ولزم عرض هذا لاحاطة السيادة بذلك والسلام .

٩ جماد أول ١٣٠٣

سمى محمد
بن خالد

# ملحق (ج)

## الخرائط

١ – خريطة عامة لدارفور

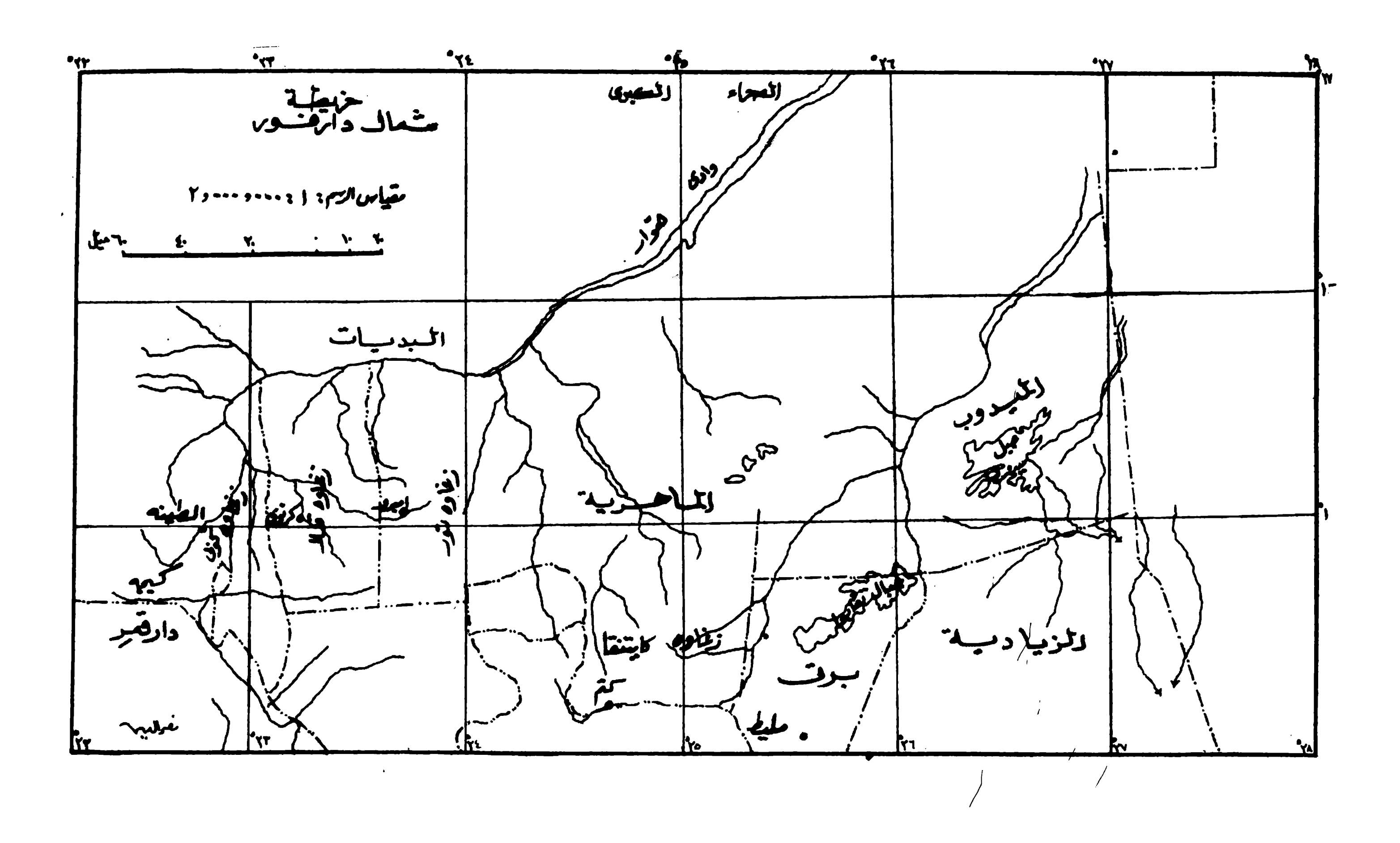
٢ – ,, لشمال دارفور

٣ – ,, لوسط دارفور

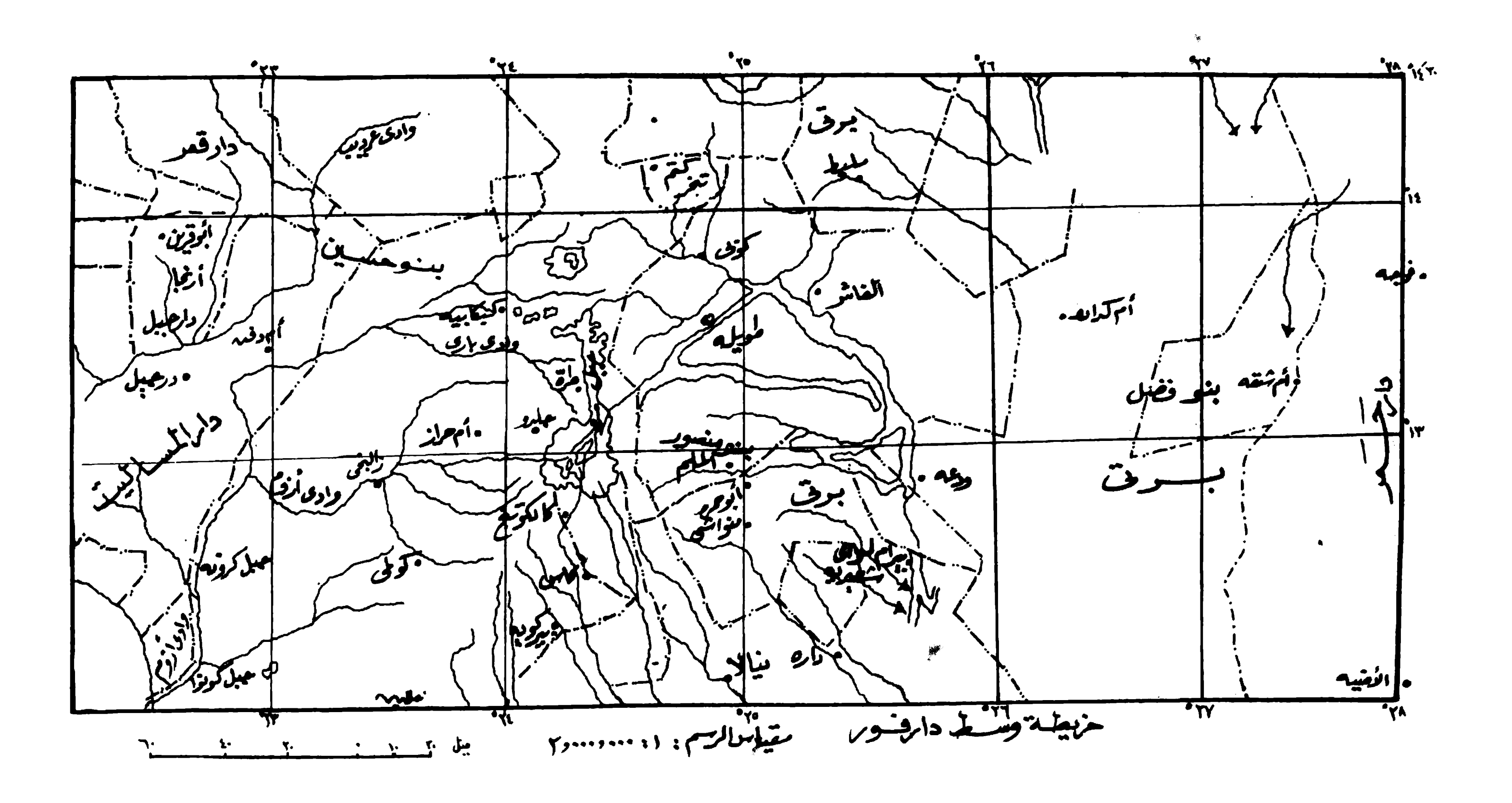
٤ – ,, لجنوب دارفور

٥ – ,, لشمال غرب بحر الغزال

خريطة مديرية دارفور
مقياس الرسم ١ : ٤٠٠٠٠٠٠
ميل
صحراء ليبيا
وادى
هور
المدويات
الميدوب
جبل
ميدوب
المالحه
فوراوية
دار تامه
الطينه
كورنوى
زغاوه
إلى دار برقو
برتى
الزيادية
كتم
مليط
وادى
بنو حسين
الفاشر
كبكابية
وادى بارى
الأبيض
فوجه
فور
الجنينة
المساليت
ودعه
شعيرية
برتى
الطويشة
كيم
التعايشه
الهبانية
الكلكه
الصعين



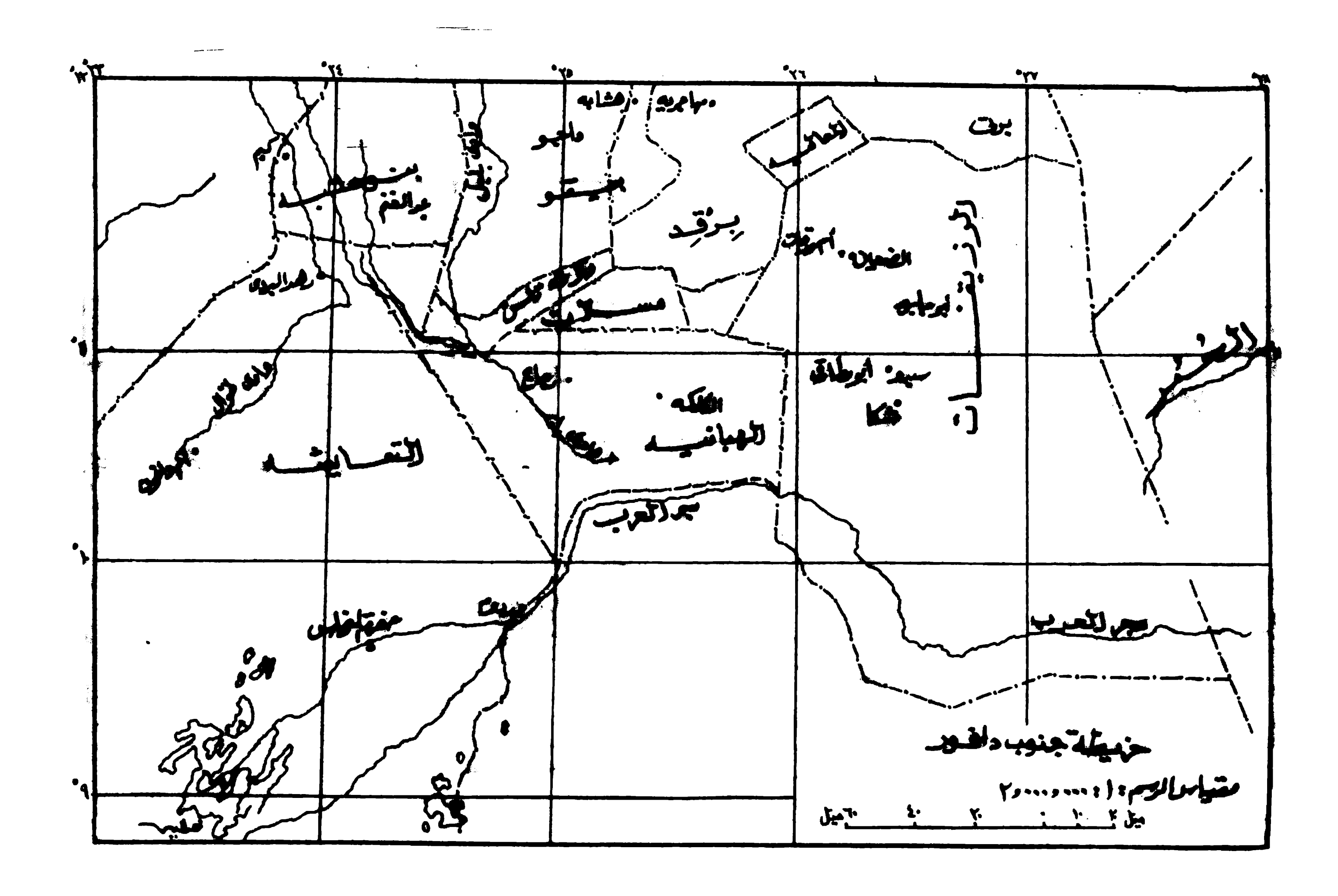
خريطة
شمال دارفور
مقياس الرسم: ١ : ٢٠٠٠٠٠٠
ميل
الصحراء
الكبرى
وادي
هوار
البديات
الماهرية
الميدوب
الزيادية
برق
كتم
مليط
دارقمر
كبكابية

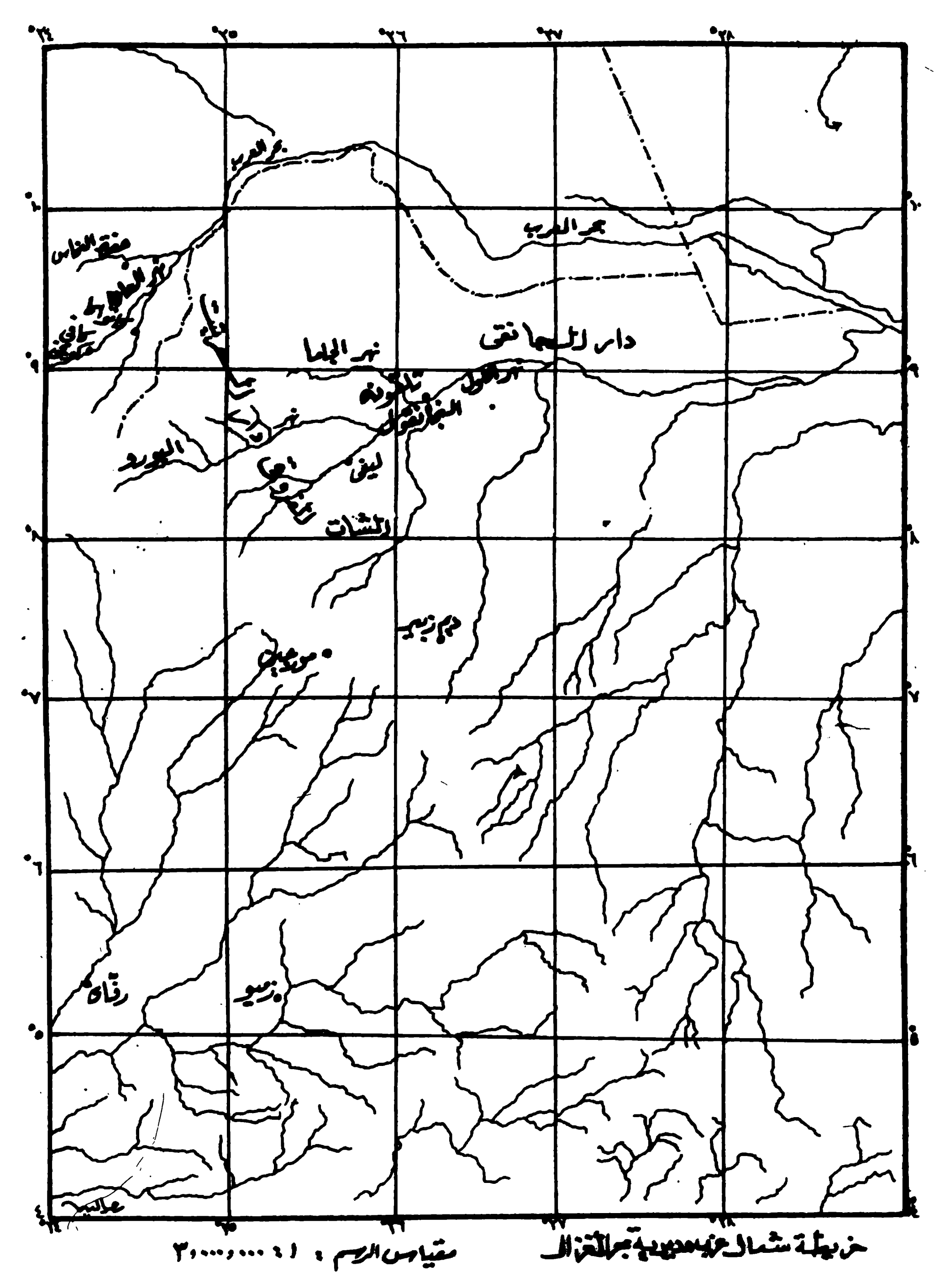


خريطة وسط دارفور

مقياس الرسم: ١ : ٢٠٠٠٠٠٠

ميل ٢٠ ١٠ ٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠


التعايشة
الهبانية
برقد
الضعين
بحر العرب
بحر العرب
خريطة جنوب دارفور
مقياس الرسم ١ : ٢٠٠٠٠٠٠




خريطة شمال غرب مديرية بحر الغزال

مقياس الرسم ١ : ٣٬٠٠٠٬٠٠٠

٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ ميل